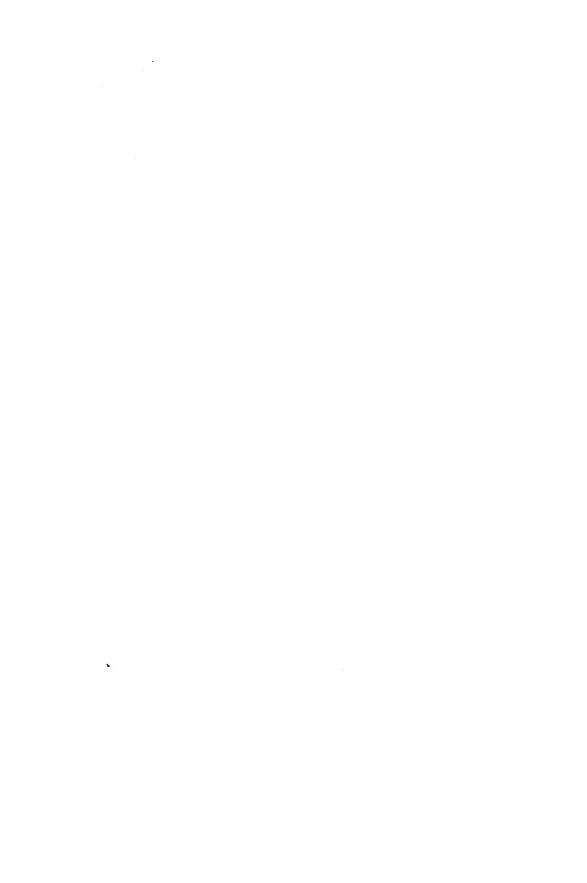


# الجماعات المُتخيِّلة



ترجمة: ثائسر ديب تقديم: عزمي بشارة LOXCKI



## الجماعاتُ المُتخيّلة

تأمِّلاتٌ في أصْلِ القوميّة وانتشارِها



## بندكت أندرسن

## الجماعاتُ المُتخيّلة

تـأمّلاتٌ في أصْلِ القوميّة وانتشارِها

ترجمة: ثائر ديب

تقديم: عزمي بشارة

#### الحَمَاعَاتُ المُتَخَيَّلَة سَأْمَلاتٌ في أَصْلَ القوميّة وانتشارها

ترجمة: ثَائر ديب تقديم: عزمي بشارة

تصميم الغلاف: زياد مني

تأليف: بنِدِكْت أندرسن

لوحة الغلاف: الملاك الجديد / ملاك التاريخ (Angelus novus, Paul Klee) إخراج: طارق صبح

الطبعة الأولى: أيلول 2009 الحقوق جيعها عفوظة شركة قدمس للنشر والتوزيع ش م م

شارع الحمرا، بناء رسامي ص ب 6435/113 بيروت، لبنان

هاتف: 750054 / 01 فاكس 750054 / 01

التوزيع في سورية: قدمس للنشر والتوزيع شارع ميسلون، دار المهندسين 0905 ص بـ 6177

الفردوس، دمشق، سورية

هاتف: 2229836 / 011 فاكس: 2324472 / 011 الموزعون ولابتياع نسخ إلكترونية وورقية انظر:

http://www.cadmusbooks.net

عدد كلمات الكتاب: 108223 كلمة تقريباً

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى الدار

مؤسسة هينرخ بل مكتب الشرق الأوسط دعمت إصدار هذا الكتاب. الأراء الواردة هنا تعبر عن رأي المؤلف وبالتالي لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤسسة.

HEINRICH
BÖLL
STIFTUNG

This document has been produced with the financial assistance of the Heinrich Böll Foundation's Middle East Office. The views expressed herein are those of the author(s) and can therefore in no way be taken to reflect the opinion of the Foundation.

إلى ماما وتانتييت بحبٌ وامتنان



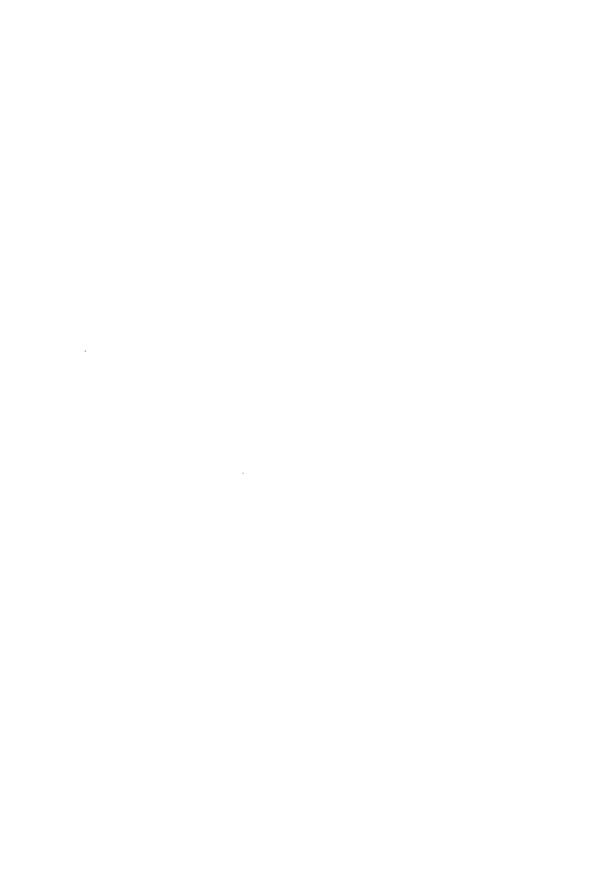
## المحتوى

إقرار بالفضل	13
كلمة المؤلف للطبعة العربية	15
تصدير الطبعة الثانية	19
مقدمة الترجمة العربية (عزمي بشارة)	23
1) مَدْخِل	19
1/1) مفاهيم وتعريفات	51
2) جذور ثقافية	55
1/2) الجماعات الدينية	57
2/2) الملكية السلالية	51

	الجماعات المُتخيَّلة
63	3/2) إدراك الزمن
73	3) أصول الوعي القومي
81	4) روّاد کریولیون
93	5) لغات قديمة، غاذج جديدة
105	6) القومية الرسمية والإمبريالية
125	7) الموجة الأخيرة
143	8) الوطنية والعنصرية
153	9) مَلاك التاريخ
159	10) التعداد، الخارطة، المتحف
160	1/10) التعداد
164	2/10) الخارطة
170	(3/10 المتحف
175	11) الذاكرة والنسيان
175	1/11) للكان حديثًا وقديمًا
178	2/11) الزمن حديثًا وقديًا
183	3/11) طمأنينة قتل الأخ
186	4/11) سيرة الأمم
189	ترحالُ وتهريب: في السيرة الجغرافية لكتاب الجماعات المُتَخَيِّلَة
209	الموامش
253	ثبت المراجع
261	كشاف

## إقرارٌ بالفضل

سوف يتضّح للقارئ أنَّ تفكيري في القومية قد تأثّر أعمق التأثّر بكتابات كلِّ من إريك أورباخ، وفالتر بنيامين وفيكتور ترنر. وقد أَفَدْتُ إفادة ضخمة، في أثناء إعدادي هذا الكتاب، من نقد ونصيحة كلِّ من أخي بيري أندرسن، وأنطوني بارنيت، وستيف هيدر. ج أ بالارد، ومحمد خباس، وبيبتر كاترنشتين، والراحل ريكس مورتايمر، وفرنسِس مولمرن، وتوم نايرن، وشيرايشي تاكاشي، وجِمْ سيغل، ولورا تَعِرْز، وإيستا أُنغار قدموا بطرق شتّى ذلك العون الذي لا يُقدَّر بثمن. وبالطبع، فإنَّ أحداً من هؤلاء النقّاد الودودين لا ينبغي أن يُعَدَّ مسؤولاً عمّا في هذا النصّ من النقائص، التي أكمل مسؤوليتها الكاملة. وربّا كان عليَّ أن أضيف أني ختصَّ بجنوب شرقي آسيا من حيث دربي واختصاصي، الأمر الذي قد يساعد في تفسير بعض من تحيّرات هذا الكتاب وما يتخيّره من أمثلة، وكذلك في الحدّ من مراعمه العالمية المحتملة.



### كلمة المؤلف للطبعة العربية

"إنّه ليَحْمِلُيٰ على التواضع أن أَعْلَمَ أنَّ هذا الكتاب سوف يصدر بالعربية في لبنان، وبغلاف حميل أيضاً، مع أنّه -بسبب من جهل مؤلّفه- لا يقول سوى أقلّ القليل سواء عن "العالم العربيّ" أم عن "الأمّة العربية" بوجه غام. ولذلك فإني شديد الامتنان لكلّ من المرّجم ودار قُدْمُس. وأَشْعُر، وأنا أكتب هذه الكلمات في جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية في كوالا لامبور، أنّ التوقيت مُوَفَّقُ كثيراً، فالجدال النظري والسياسي في العلاقة المعقّدة بين الدين والقومية محتدمٌ هنا ومُثَقَّف جدّاً: بالنسبة لي، بالطبع، كما بالنسبة للطلاب الماليزيين، والصينيين، والتشاميين، والإيرانيين، والبنغلادشيين، والنيجريين الملتحقين بهذه الجامعة.

تحياتي الحارّة بِنْ أندرسون كوالا لمبور في 2009/11/25

#### إنّه يعتبر مهمّته أن يكنس التاريخ بخلاف طبيعته (فالتر بنيامين، إشراقات)

هكذا نَشَأَ من خليطٍ من كلِّ نوعٍ،
ذلك الشيء متغاير العناصر، الإنغليزي:
من اغتصاباتٍ متلهّفةٍ، وشهوةٍ جائحة،
بين بريتونيةٍ متبرّجة واسكتلندي:
سرعان ما تعلّمت ذريّتهما الوليدة أن تنحي،
وتقْرِنُ عِجْلاتها بالنّير إلى عراث الرومان:
من هنا ذلك العرق الخليط المجين،
الذي لا اسم له ولا أمّة، لا قول ولا صيت.
في عروقه الحارّة تجري الخلائط مسرعةً،
في عروقه الحارّة تجري الخلائط مسرعةً،
أمّا بناته الفاحشات، مثل أهلهن عاماً،
فقد استقبلن الأمم جميعاً بشهوةٍ لا تُميّز.
هذا الفَقْسُ المُقْرِفُ سرعان ما احتوى
دم الإنغليز المُقَرِفُ سرعان ما احتوى

من قصيدة دانييل ديفو الإنغليزي القحّ

## تصدير الطبعة الثانية

مَن الذي كان ليخطر له أنَّ العاصفةَ يشتدُ هبوبُها كلما ابتعدت عن الفردوس؟ الله.

تبدو الصراعات المسلّحة في الهند الصينية 1978-1979، والتي كانت السبب المباشر وراء الطبعة الأولى من «الجماعات المُتَخَيِّلَة»، كما لو أنّها تنتمي إلى حقبة أخرى، مع أنّه لم يمرّ عليها سوى اثن عشر عاماً. ولقد لاحقي بعد ذلك شبحُ نشوبٍ مزيدٍ من الحروب الشاملة بين الدول الاشتراكية. غير أنَّ نصف هذه الدول قد التحق الأن بذلك الحطام عند قدميّ الملاك، وتخشى البقية من أن تلحق بها من دون إبطاء. والحروب التي يواجهها هؤلاء الناجون هي حروب أهلية. وقمّة احتمال قويّ ألا يبقى من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية مع مطلع الألفية الجديدة سوى من الجمهوريات.

هل كان ينبغي التنبّؤ بكلّ هذا على نحو ما؟ لقد كتبتُ في 1983 أنَّ الاتحاد السوفيت "وريث الدول الملكية السلالية ماقبل القومية التي عرفها القرن التاسع عشر بقدر ما هو طليعة نظام أميّ يشهده القرن الواحد والعشرون". غير أني، وقد تتبّعتُ الانفجارات القومية التي دمّرت تلك المالك الشاسعة متعددة اللغات والإثنيات والتي كانت تُخكمُ من فيينا، ولندن، والقسطنطينية، وباريس، ومدريد، لم أستطع أن أرى أنَّ الفتيل يمكن أن يكون قد وصل موسكو ذاتها. وإنّه لمن العراء الحُرِن أن أجد التاريخ متمسّكاً بـ "منطق" «الجماعات المُتَخيَّلَة» أفضل عا استطاع مؤلّفه.

وما تغيّر خلال الإثنى عشر عاماً الماضية لم يكن وجه العالم وحسب. فقد تغيّرت دراسة

القومية أيضًا ذلك التغيّر المذهل، في منهجها ومداها وإتقانها وكمّها الحض. ففي اللغة الإنغليزية وحدها، كان لكتب مثل كتاب ج أ أرمسترونغ ‹أممٌ قبل القومية› (1982)، وكتاب جون برولي ‹القومية والدولة، 1982›، وكتاب إرنست غلنر ‹الأمم والقومية، 1983›، وكتاب ميروسلاف هروش ‹الشروط الاجتماعية للإحياء القومي في أوروبا، 1985›، وكتاب أنطوني عيث ‹الأصول الإثنية للأمم، 1986›، وكتاب ب شاترجي ‹الفكر القومي والعالم الكولونيالي، 1986›، وكتاب إريك هوبسباوم ‹الأمم والقومية منذ العام 1788، 1990› أن تحمل من الأدبيات التقليدية حول هذا الموضوع أمراً بالياً قديم الطراز، سواء من حيث مداها التاريخي أم من حيث قدرتها النظرية، مع أنَّ هذه الكتب ليست سوى قلّة وحسب من النصوص الأساسية. ولقد أسهمتُ هذه الأعمال، جزئياً على الأقل، في إطلاق كمِّ هائل من الدراسات التاريخية، والأدبية، والأنثربولوجية، والاجتماعية، والنسوية، وسواها من الدراسات التي تربط بين موضوعات البحث الي تتولاًها هذه الحقول والقومية والأمّة الله.

وإنها لهمة تفوق وسائلي الراهنة أنْ أُعَدِّلَ ‹الجماعات الْتَخَيَّلَة› مَا يتلاءم مع مقتضيات هذه التغيرات الهائلة التي اعترت العالم والنصّ. ويبدو من الأفضل، إذاً، أن أتركه قطعةً من مرحلة "لا تُسْتَعاد"، بأسلوبه الخاص المير، وهيئته العامة، ومراجه. وما يعرِّين هو شيئان اثنان. أولهما، هو أنَّ الغموض لا يزال يلفّ الحصيلة النهائية الكاملة لما يعتري العالم الاشتراكي القديم من تطورات. وثانيهما، هو أنَّ منهج ‹الجماعات المُتَخَيَّلَة› الخاص واهتماماته لا تزال تبدو لي على حواف البحث الجديد في القومية، الأمر الذي يعن -على الأقل- أنّه لم غُر بُحاوزها تماماً.

وما حاولت أن أقوم به، في هذه الطبعة، يقتصر على تصويب أخطاء تتعلق بالوقائع، والتصوّر، والتأويل كان عليّ أن أتلافاها لدى إعداد الطبعة الأصلية. وتشتمل هذه التصويبات، التي تتمّ بروحيّة العام 1983، إذا جاز القول، على بعض التعديلات اليّ أجريتها على الطبعة الأول، فضلاً عن فصلين جديدين، لهما في الاساس طابع الملحقين المنفصلين المتميّزين.

لقد اكتشفتُ في النصّ الأساس اثنين من أخطاء الترجمة الفادحة، ووعداً لم أفِ به على الأقلّ، وتأكيداً مضلّلاً. ففي العام 1983 لم أكن أعرف الإسبانية، فاتكأتُ بشيء من التهوّر على الترجمة الإنغليزية الي قام بها ليون ما غوريرو لعمل خوسيه ريزال «لا تلمسين / Noli Me Tangere» على الرغم من توفّر ترجماتٍ أقدم. ولم أكتشف إلا في العام 1990 مدى الفساد الساحر الذي على الرغم من توفّر ترجماتٍ أقدم. ولم أكتشف إلا في العام 1990 مدى الفساد الساحر الذي التبسته من كتاب أوتو كانت عليه ترجمة غوريرو. أمّا بشأن ذلك المقبوس الطويل، والهام، الذي اقتبسته من كتاب أوتو باور «Sozialdemokratie und die Nationalitätenfrage» بفد التكأتُ بشيء من الكسل على ترجمة أوسكار ياسي. لكن عودةً لاحقةً إلى الأصل الألماني بيّنت لي كم تركت ميول ياسي السياسية على مقبوساته من الأثار. وكنتُ قد وعدتُ في مقطعين على الأقل، دون أن أفي بوعدي، أن أوضح الأسباب الي جعلت القومية البرازيلية تتطوّر متأخّرةً جداً وعلى نحو متميّر وخاص بالقياس إلى قوميات البلدان الأميركية اللاتينية الأخرى. وسوف نحاول هذا النصّ أن يفي بذلك الوعد الذي نكثت به.

وكان جزءاً من خطي الأصلية أن أركّز على ما للقومية من أصول في العالم الجديد. وكان لدي شعورٌ بأنَّ ضرباً من الإقليمية ضيقة الأفق وغير المُرْكة لطالما حرّفت التنظير في هذا الموضوع وشوّهته. فالباحثون الأوروبيون، الذين اعتادوا على تصوّر أنَّ أوروبا هي أصل كلِّ ما هو هام في العالم الحديث، كان من اليسير عليهم أن يعتبروا "الجيل الثاني" من القوميات الإثنية اللغوية (القوميات المنغارية، والتشيكية، واليونانية، والبولندية إلى نقطة البَدْء في غَذَجَتِهم، سواء كانوا "مع" القومية أم "ضدّها". وقد أَجْفَلَيٰ أن أكتشف، في كثير من التعليقات على «الجماعات المُتَخَيِّلَة»، إنَّ هذه الحلية المتصفة بالمركزية الأوروبية قد بقيت على حالها دون أدنى المتزاز، وأنَّ الفصل الحاسم حول نشوء الأمم الأميركية قد ثمَّ جَاهله إلى حدٌ بعيد. ومن سوء الحظّ، أني لم أجد حلَّا "مباشراً" لهذه المشكلة أفضل من أن أعيد عَنْوَنَة الفصل الرابع بـ "روّاد كريوليون".

وكاول "الملحقان" تصويب عيبين نظريين خطيرين في الطبعة الأولى 121. فقد أشار عدد المنقد الأصدقاء إلى أنَّ الفصل السابع ("الموجة الأخيرة") يفرط في تبسيط السيرورة الت صيفت من خلالها قوميات "العالم الثالث". وأنّه، علاوة على ذلك، لم يتطرّق على نحو جدّي إلى دور الدولة الكولونيالية الحلية في تشكّل هذه القوميات، مكتفياً بدور المتروبول. ولقد أدركتُ، في هذه الأثناء، أنَّ ما رأيتُ فيه مساهمةً جديدة وهامة في التفكير حول القومية، ألا هو تغيُّر فَهُم الزمن، كان مُفتقِداً على نحو واضح نظيره الضروري: تغيّر فهم المكان. وقد دفعتي أطروحة دكتوراه لامعة قدّمها ثُونْغشاي وينيشاكول، المؤرّخ التايلندي الشاب، إلى التفكير فيما قدّمه رسم الخرائط والمصوّرات الجغرافية من مساهمة في تشكيل الخيال القومي.

هكذا يعمد الفصل الذي يحمل عنوان "التعداد، الخارطة، المتحف" إلى تحليل الطريقة الديالكتيكية واللاواعية التي ولَّدَتْ فيها الدولة الكولونيالية في القرن التاسع عشر (والسياسات التي شجّعها جهازها الفكري) قواعد أو غُو القوميات التي نهضت في النهاية لمقارعة تلك الدولة. بل إن مقدور المرء أن يصل حدَّ القول إنَّ تلك الدولة قد تحيّلت خصومها الحليين، كما في حلم نبوئي مشؤوم، قبل أن يبرزوا إلى حيز الوجود التاريخي بوقت طويل. ولقد أسهم ما ينطوي عليه التعداد من تكميم مجرد/ إدراج للأشخاص في سلاسل، وما عَثَله الخارطة من تحويل للفضاء السياسي إلى لوغو (رمز أو شعار) نهائي، وما يشير إليه المتحف من نَسَبِ "مسكونيّ"، مدنس، في تشكيل هذا الخيال ذلك الإسهام المترابط المتداخل.

ويرجع "الملحق" الثاني في أصله إلى معرفي المُذِلّة أني قد استشهدتُ برينان في العام 1983 من دون أن أفهم قطّ ما كان قد صدر عنه بالفعل حيث اعتبرتُ ما كان غريباً عاماً في الحقيقة محرّد شيء منطوياً على مفارقة ساخرة. كما دفعي الإذلال أيضًا إلى تبيّن أني لم أقدّم أيّ تفسير معقول للكيفية الي تتخيّل بها الأمم البازغة حديثاً أنها أمم قديمة أو الأسباب الي تدفعها إلى ذلك. فما تعتبره معظم الكتابات العلمية هراءً ميكافيللياً، أو تهوياً برجوازياً، أو حقيقةً تاركِيةً ميتة نُبشَت من القبر، بات يسترعي اهتمامي الآن بوصفه أشد عمقاً من ذلك وأكثر أهمية.

الجماعات المتخيّلة . . .

لنفترض أنَّ "القِدَم" قد كان، في ظَرْفِ تاريخي معين، تلك العاقبة الضرورية لـ"الجِدَّة"؟ فإذا ما كانت القومية، كما أفترض، تعبيراً عن شكلٍ من الوعي متغيِّر ذلك التغيّر الجنري، أفلا ينبغي لإدراك تلك القطيعة، والنسيان الضروري للوعي القديم، أن يخلقا سردهما الخاص؟ ومن هذا المنظور يبدو تهويم العودة إلى الأسلاف والأصول الذي يميّز معظم الفكر القومي بعد عشرينيات القرن التاسع عشر ظاهرة ثانوية مرافقة؛ والمهمّ حقّاً هو ذلك التراصف البنيوي بين "الذاكرة" القومية ما بعد عشرينيات القرن التاسع عشر ومنطلقات السيرة والسيرة الذاتية الحديثتين وأعرافهما.

وبصرف النظر عن الفضائل أو العيوب التي قد يثبت "الملحقان" أنهما يشتملان عليها، فإنَّ لكلِّ منهما حدوده الخاصة. فمعطيات "التعداد، الخارطة، المتحف"، مُستَمَدَّة جيعاً من جنوب شرقي آسيا. فهذه المنطقة تتيح من بعض النواحي فرصاً مدهشةً أمام التنظير المقارن إذ تضمُّ ألحاءً كانت قد استعمرتها في السابق القوى الإمبريالية العظمى جميعها تقريباً (إنغلترا، فرنسا، هولندا، البرتغال، إسبانيا، الولايات المتحدة) كما تضمُّ سيام التي لم تُسْتَعْمَر. ومع ذلك، فإنّه يبقى أن نرى إنْ كان تحليلي يصحّ على بقية العالم، حتى لو كان مقبولاً بالنسبة لمذه المنطقة. وما نحده في الملحق الثاني من مادةٍ أمبريقية ضئيلة إنما يرتبط بأوروبا الفربية والعالم المجديد بصورةٍ تكاد أن تكون حصرية، وهما منطقتان تُعَدُّ معرفيّ بهما تلك المعرفة السطحية عاماً. غير أنَّ التركيز كان ينبغي أن عضي في تلك الوجهة لأنَّ أولى ضروب النسيان الموحية كانت قد ظهرت في هاتين المنطقتين.

بندكت أندرسن - شباط 1991

### مقدمة الترجمة العربية

عزمي بشارة

#### من دون مبالغة:

كيف أصبح كتابٌ يغطي هذا الكمَّ الواسع من الموضوعات ما لا يتجاور المئتين من الصفحات سهلة القراءة مصدرًا جامعيًا وفكريًا لا غنى عنه في دراسة ظاهرة القوميات الحديثة؟ لا شك أن عنوانه كان أحد عوامل شهرته. ولكن العنوان يساعد في نشر الكتاب وليس في تحويله إلى مصدر أكاديمي جدي تُرجم إلى 30 لغة. ولا تنتهي التحديات التي يقدمها هذا الكتاب بهذه الظاهرة. فقد قدم تحديًا أكبر من ذلك، إذ إنه أصبح مصدرًا جامعيًا مع أنه لم يطبع من قبل دار نشر جامعية، (لكن فيرسو الإنجليرية تبقى دارًا محرمة). ولم تُطبع ترجاته في دور نشر جامعية إلا في حالتين، إحداهما الجامعة المفتوحة في تل أبيب، (والتي طلب من محاضر يساري أن أكتب مقدمتها قبل ستة أعوام). فعمومًا اهتمت دور نشر من خارج المؤسسة الأكاديمية في "الغرب" و"الشرق" ومن خارج المؤسسة بشكل عام بطباعة الكتاب. ومع ذلك قلما حظي كتاب بأن يصبح وبحق مقررًا جامعيًا بدهيًا على قوائم الأساتذة والطلبة في الجامعات.

لدينا كتاب يقول عنه مؤلفه إن منهجه أكثر لِبرالية من أن يكون ماركسيًا، وأكثر ماركسية من يعد لِبراليًا. وبرأيي فإن هذا الالتباس هو بالضبط مصدر غنى الكتاب وقوته.

اشتهر كتاب بندكت أندرسن في غانينيات القرن العشرين وتسعيناته، في مرحلة صعود النقاش حول القوميات في وسط أوروبا وشرقها، مع أن دافعه لكتابته كان نشوب حروب أخرى بين دول اشتراكية في المند الدرنية كما سوف نرى. ولكن التاريخ القريب المتمثل بانحلال الاتحاد السوفيي والمنظومة الأربيب لشرقية عاد واكّد منطق «الجماعات المتخيلة» حتى أكثر عا توقع كاتبه. وقد سبق أن أولتُ م موضوعي القومية والجتمع المدني في تلك الفترة عملاً أنه ليس مفارقًا بل تلازم نظر مفهومي، وليس حتى تاريخيًا فقط، وذلك في فصل خاص من كتابي الصادر عام 1996 بوزيا «الجتمع المدني - دراسة نقدية». وقد تطرّقت هناك إلى النظريات حول القومية ومن بيط ند ية أندرسن، ولذلك لن تكون النظريات في القومية، قبل أندرسن وبعده موضوع المرامة هنا، واكتفى الله الفصل عن الفكرة القومية في كتابي ذاك.

عند وضع كتابه في السياق التاريخي لا يكتفي الدرن بدخ الباحث الجدي. فهو يقول عن كتابه بنبرة نقدية: إن أهميته العالمية أو عالمية الشاره حود لأحض أولاً بالإنغليزية الي تعمل حاليا كنوع من لاتينية ما بعد عهد الكنيسة. ولرض الكرف خي يهانوي أو تيرانا للقه النسيان. ومن المفيد أن يقرأ بعض المثقفين العرب هذه الملاحظ خين يسرعون للاحتفاء بأي كتاب صادر بالإنغليزية والتقليل من شأن ما يصدر بالعربية. لم يفوّت أندرسن هذه المناسبة ليضع حتى الشهرة الأكاديمية لكتابه في سياق هيمنة اللغة الإنغليزية، مع أنه كتاب جاد ومحدد لو صدر بأية لغة كانت.

لقد سدٌ هذا الكتاب ثغرة كبيرة بين النظريات الت تعتبرُ القومية إثنية محدثة كما يعتبرها أمثال أنطوني سميث حاليًا، وتلك الت تعتبرها مجرد إيديولوجية برجوازية كما يفعل ذلك منظرون ماركسيون لا يمكن حصر عددهم، وثالثة تعتبرها نتاج الجتمع الصناعي كما في حالة الرست غلنر، ورابعة تضع لها تعريفات حديدية منزوعة من سياق تاريخي ومعممة على العالم بأسره كما فعل جوزيف ستالين مثلاً في كتيب عن مسألة القوميات، وخامسة ترى فيها مجرد اختراع عابر، كما فعل إيلي خدوري من اليمين وهوبسباوم من اليسار [11]. نحن هنا أمام عمل محتي أمين، ورؤية نظرية ثاقبة لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة القومية والهوية في العصر الحديث.

لو وقع كتاب عربي عائيت صفحة تغطي هذا الكم من الموضوعات بين يدي ناقد عربي متوسط لما رحمه حتى قبل أن يقرأه. أما الآن فشهرة هذا الكتاب قد حصَّنته من موقف مسبق كهذا، ونأمل أن تساهم هذه المقدمة في تحصينه أكثر ضد الأراء المسبقة (الي تذم أو تمجد بناء على موقف سياسي إيديولوجي، أو حتى شخصي، من دون أن تقرأ). وسوف نتطرق إلى نقاط الضعف القليلة، الهامة منها فقط.

#### الجماعات المتخيلة، وكتاب ‹الجماعات المتخيلة›

#### حول التعريف:

حين تناقش مسألة القومية غالبًا ما يتمحور الحديث على تعريفات القومية. وبحرد انتشار هذه العادة عند مناقشة مثل هذه المواضيع يوضح للأسف الفقر النظري في الإنتاج حول القومية. وكما سبق أن أوضح المفكر اللبرالي يشعياهو برلين في مقالة هامة له حول القومية [2]، لا يتناسب هذا الفقر النظري مع كونها إحدى أهم ظواهر العصر الحديث الاجتماعية والسياسية. يقول مؤلف الكتاب: «ففي كل عام تقريبًا تعترف الأمم المتحدة بأعضاء جدد. وكثيرٌ من «الأمم القديمة»، التي كانت تُمسّب أنها متماسكة عَاماً، بَد نفسها إزاء تحلقه قوميات «فرعية» داخل حدودها، قوميات تحلم بأن تخلع عنها هذه الفرعيّة في يوم سعيدٍ من الأيام. والواقع واضحٌ عاماً: إنَّ «نهاية عصر القومية»، التي لطالما جرى التبشير بها، لا تلوح في الأفق ولو من بعيد. بل إنَّ الانتماء إلى أمّة هو القيمة التي تحظى بأكبر قَدْرٍ من الشرعية الشاملة في حياة عصر نا السياسية».

والأهم من ذلك أن القومية لا تعرّف ذاتها فحسب، أي لا تعرّف فقط تلك الظواهر الحددة ذاتيًا على أنها ظواهر قومية، مثل الدولة القومية والسياسة القومية والأدب واللغة الخ، بل لا توجد ثورة حديثة ناجحة إلا وعرّفت نفسها في النهاية بادوات قومية. ينطبق ذلك على الثورة الصينية وعلى الثورة الفرنسية وغيرهما، وقد ثبت أنه ينطبق أيضًا على الأتحاد السوفيت والدول الت تعرّف نفسها كاستمرار لملكيات سلالية قديمة، مثل بريطانيا الت تثبت في القرنين الأخيرين وقبل ذلك وفي كتابتها لتاريخها وتعريفها للغتها وإسقاطها على التاريخ أنها ربما تكون الأكثر قومية، رغم أن منظّريها الحافظين هم الأكثر إنكارًا لقوميتها. وحتى ماركس عندما دعى كل بروليتاريا إلى أن تحسم الأمور مع برجوازيتها الخاصة، ماذا قصد بنعت برجوازيتها بالخاصة»، ألم يكن المقصود برجوازيتها الوطنية أو القومية؟.

وللتدليل على الضعف النظري في دراسة القومية يستخدم الكاتب مأزق التعريفات الذي يعبّر عن شبه استحالة تعريف القومية مع أنها ظاهرة قائمة موجودة يدركها الجميع، ولا يتفقون على تعريفها في الوقت ذاته. ومع حفظ الفارق في الموضوع والسياق، ولغرض تصوير الإشكالية هذه نقول: إن صعوبة تعريف الدين مثلاً لا تقلل من أهميته، كما لا يقلل من أهميته نقد أساطيره عند نقاد الدين.

يستعين أندرسن عنظرَيْن بريطانيين عالجا الموضوع من منطلقين منهجيين مختلفين وبذلا جهدًا نظريًا كبيرا فكتب: «وها هو هيو سيتون-واطسن، مؤلّف أفضل وأثمل نص حول القومية في اللغة الإنغليزية، ووريث تقليد شاسع من التأريخ وعلم الاجتماع اللبراليين، ها هو يلاحظ بحرن أنه يحد نفسه منساقاً إلى استنتاج مفاده أنَّ من غير المكن تدبّر أيّ «تعريف علميّ» للامة، مع أنّ الظاهرة كانت موجودة ولا تزال. أمّا توم نايرن، مؤلّف كتاب «تفكك بريطانيا»

الذي شقّ سبيلاً جديدًا في تناول هذا الموضوع، ووريث تقليدٍ لا يقلّ شساعةً عن التأريخ وعلم الاجتماع الماركسيين، فيلاحظ صراحةً «أنّ نظرية القومية عَثَل إخفاق الماركسية التاريخي الكبير».

لا يقبل أندرسن ما يكتبه دارس ماركسي متعاطف مع القومية مثل توم نايرن من أنّ «القومية» مرض التاريخ التطوري الحديث. . شانها شأن «العصاب» لدى الفرد، حيث يكتنفها إلى حدِّ بعيد الإبهام الجوهري ذاته، وتتمتع بالقدرة الأساس ذاتها على التدهور والتحول إلى ضرّبٍ من الخبل، الذي يضرب بجنوره في معضلات الضعف والعجز المنتشرة في معظم أرجاء العالم . . والي لا دواء لها بوجه عام. ويرد أندرسن في نهاية الكتاب على مثل هذه الادعاءات غير الصحيحة أولاً، وغير المفيدة في فهم القومية برأيه ثانيًا، كما يرد على تحميلها ما لا تحمل بقوله: «غير أنّه لن يكون بالإمكان القيام بأيّ شيء مفيد للحيلولة دون مثل هذه الحروب [يتحدث هنا عن الحرب بين فيتنام والصين على أثر اجتياح الصين كمبوديا) أو الحدّ منها ما لم نتخلّ عن خرافات مثل الخرافة الي تقول إنَّ «الماركسيين ليسوا قوميين»، أو «إنَّ القومية مرض من أمراض التطور التاريخي الحديث»، ونبذل بدلاً من ذلك ما بوسعنا لكي نتعلّم تجربة ملاضي الواقعية والمتحبّلة».

ولذلك يقول أندرسن: وإنه لما يحل الأمور أسهل، في اعتقادي، أن نتعامل مع القومية على أنّها من قبيل «القرابة» و»الدين»، وليس «اللِبرالية» أو «الفاشية» . . . إليكم، إذًا، هذا التعريف للأمّة، الذي يقترحه أندرسن كما يقول بروح أنثروبولوجية: الأمة جماعة سياسية مُتَخَيَّلَة، حيث يشمل التخيّل أنها محدّدة وسيّدة أصلاً.

هذا التعريف هو عنوان الكتاب وهو أحد أسباب جاذبيته وانتشاره أيضًا، وغالبًا ما تشتهر كتب بسبب عناوينها المصاغة كأنها خرجت من يدي «كوبي رايتر» موهوب. ولكن هذا الكتاب القصير والنقدي يقدم جديدًا من الناحية النظرية ولا يكتفي بجاذبية العنوان. إنه مؤلف من مئي صفحة لا حشو فيها، وفي كل جلة مضمون يساهم في توضيح فكرة. ولذلك ينجح في معالجة هذا القدر من المواضيع بهذا الإنجاز. ومع أنه ليس كتابًا شاملاً عن الظاهرة القومية، لا بلعنى النظري ولا التأريخي، إلا أنه يعج باللمعات الفكرية. ويعتبر ذلك التعريف من أهم هذه اللمعات. هنا علينا أن نفحص المفاهيم، أو العناصر المفهومية، الكونة لهذا التعريف: 1] جماعة، 2] متخيلة، 3] يشمل تحيلها أن لها حدود، وأنها سيدة أو ذات سيادة.

الغريب أن أندرسن لا يتوقف هنا طويلاً ليشرح للقارئ، ربما لأن اهتماماته ليست نظرية أساسًا (خلافًا لاهتمامات كاتب هذه المقدمة)، وربما لأن الفرق بين مفاهيم مثل جماعة ومجتمع تُعتبَر عنده أمرًا مفروغًا منه. الجماعة (community) والي كان محكنًا أن نترجها إلى «أهل» (وهكذا استخدمها شخصيًا في كتابي منذ عام 1996 فأقول: «ديمقراطية أهلية» مثلاً) لولا أنها في العربية تعني الوالدين أيضًا وليس فقط العائلة بالمنى الموسع القريب من مفهوم أنها في العربية تعني الوالدين أيضًا وليس وقط ولكن كلمة «أهل» أقرب إلى المفهوم من

كلمة «جاعة» العربية، التي لا تحمل بالضرورة دلالات المفهوم. ولذلك يلزمها بعض التوضيح عند استخدامها للتدليل عليه بالعربية. فالمقصود هو جاعة أوّلانية، وشائجية (primordial) يولد الإنسان ويُعرَّف بصفته عضو فيها. وهكذا يتعرَّفُ على جزء كبير من وظائفه ومراحل حياته باعتبارها مشتقة من الجماعة التي تحملها في داخله وتحمله في داخلها. والأمر الأهم في تعريفها التاريخي يتمثل في أن الإنسان عضو فيها وليس فردًا مستقلاً بقراراته الذاتية، خلافًا لم نعرفه وتبلورت إليه فيما بعد شخصية الفرد القادر على تشكيل اتحاد أو مجتمع أو جعية بالتعاقد، أو بافتراض التعاقد، إذ يُعتَبَر انتماءه للجماعة المكون الأساس في شخصيته. وطبعًا هذا تعريف نظري يصلح لاغوذج. فلا توجد ظاهرة تاريخية نقية كما المفهوم. ولنفكّر بالعشيرة والقبيلة من بقايا هذه الظواهر في عصرنا رغم كل التغيرات، وقد تغيرت، وتغيرت علاقة المود بها. المفهوم المقابل طبعًا هو محتمع (society, Gesellschaft). وهو الذي يفترض الوجود التريخي للشخصية الفردية القادرة على الاتحاد والتعاقد بين أفراد لا تنظمهم علاقة تراتبية العربي المشخصية الفردية القادرة على الاتحاد والتعاقد بين أفراد لا تنظمهم علاقة تراتبية أو غير تراتبية «طبيعية» بالولادة والانتماء. ولا نريد الخوض هنا في مدى إمكانية وجود محتمع بالتعاقد المفترض فقط، من دون جماعة أو انتماء أهلي للمجتمع ذاته. ولكن علينا أن نتذكر أن الظاهرة ليست نقية كأغوذجها النظري الذي يحاول تحييزها من غيرها. ولا غنى عن الأغوذج النظري ليس في فهم الظاهرة كلها، بل في فهم ما يميزها من غيرها.

ما يهمنا هنا هو أن الانتماء إلى القومية عوجب هذا التعريف هو انتماء من نوع الانتماءات إلى جاعة، إلى «أهل» أو «أهلية». إنه من نوع الانتماءات الت تتضمن تعريفًا للذات وللهوية وولاءً شخصيًا ومحبة واستعدادًا للتضحية . . أندرسن يتطرق طبعًا لمقولة «المصلحة القومية» في نهاية الكتاب بسخرية، مؤكدًا أن ما يمير مثل هذه العلاقات هو الحبة وليس المصلحة. ولذلك لا يخطئ المنظرون القوميون بصياغتهم الحبة كرابط قومي، فهي كلمة أخرى تعبّر الانتماء . . وهذا ليس وصفًا رومنسيًا ولا أدبيًا، بل وصف لطبيعة علاقة الانتماء إلى جماعة أهلية. ولكن من هنا بالطبع، أي من عدم الارتياح لطبيعة علاقة الأفراد الحديثين بها كعلاقة بجماعة وليس مجتمع، تنبع غالبية النقد الموجه للقومية، وللإيديولوجية القومية، حتى من دون أن يدري النقراد. وسوف نعود إلى هذا الموضوع لاحقًا، ولكن قبل ذلك ننوه منذ البداية إلى أن الرابط القومي، مثل أي رابط آخر، يُستخدَمُ مثلاً في التحشيد للمشاريع الوطنية الكبرى وللسلام وللحرب أيضًا، من قبل القوميين وغير القوميين، الذي يصبحون فجأة قوميين في مثل هذه المفاصل . . ومن المفيد على سبيل المثال لا الحصر تذكر الخطاب الستاليي إبان الحرب العالمية عن «الوطن الأم» و»روسيا الأم» الثانية، لكي لا ندخل في تفاصيل أكثر.

لا يضحي الشخص من أجل تعاقد. قد يَقْتُل من أجل تعاقد، أو من أجل مصلحة، وهذا من الأمور الدارجة في التصور اليومي للقتلة . . ولكنه لا يُقتَلَ من أجلها، ولا يذهب للحرب والتضحية دفاعًا عن أنحاد أو نقابة أو جمعية أو حزب . . (إلا إذا توافرت علاقة انتماء

لما أيضًا). العلاقة الرفاقية الأفقية التي تفرضها القومية كجماعة، (وفرضتها الطبقة أحيانًا قبل أن يصبح النضال مطلبيًا مصلحيًا خالصًا، أي حين كان يعبَّر عن الانتماء للطبقة بشراكة في الإعان بقيم معينة)، العلاقة التي يفترض فيها نوع من المساواة في الأمة، حتى حيث لا تسود مساواة، هي حقيقة القومية، وهي خداعها في الوقت ذاته. هي الحقيقة وهي الضباب الإيديولوجي التي يغلفها، وهذا أصل التوتر الدائم بينهما.

يتضمن الانتماء إلى القومية نوعًا من المساواة المفترضة بين البشر في إطار غير متساو. فتتحول إلى أداة دعقراطية تدفع نحو الطموح للمساواة، كما قد تتحول إلى غطاء دعاغوغي شعبوي لانعدام المساواة. هذه جاذبية القومية، هذه فرصتها، وهذا خطرها.

يستغرب كثير من الماركسيين أن استعداد الناس للتضحية يقل عندما يُفَكُك البعد الإيماني الإيماني الإيديولوجي، وحين يكثر الحديث عن المنهج العلمي في الماركسية. ولكن في الحقيقة لا احد مستعد أن يناضل، ناهيك عن أن يضحي، من أجل منهج. وهذا أمر طبيعي وغير محيِّر برأينا. فالمنهج العلمي موجود في الماركسية ويدفع للبحث عن القوانين والنظريات لفهم المجتمع والتاريخ. وتوجد مناهج علمية غير ماركسية أيضًا. ولكن المنهج العلمي عنح فهمًا ولا عنح معنى للحياة، ناهيك معنى للموت.

ولكن القومية ليست جماعة صغيرة يعرف الفرد أفرادها شخصيًا، أو يعتقد أنه يعرفهم كامتداد لشيء يعرفه عوجب قرابة الدم مثلاً كما يفترض بالجماعة العائلة الممتدة والقبيلة أو الحارة. القومية هي إذا جماعة متخيلة، يتصورها المرء فينتمي إلى الآلاف والملايين من الناس المنتمين إليها أيضًا من دون أن يعرفهم أو يرتبط بهم برابطة طبيعية، ولكنه قادر على تخيل رباط كهذا. وكونها متخيله لا يقلل من انتمانه لها، بل بالعكس رما يضطره التخيل، أو تضطره ضرورة التخيل إلى تقوية وشحذ هذا الانتماء بخيال أرفع وبوسائل أرقى. قد ينتج الانتماء المباشر (غير المتخيل) لجماعة مباشرة (غير متخيلة) تعبيرات فنية وجالية في إطار الانتماء مثل عارسة المواسم والاحتفاليات والطقوس والشعائر وغيرها، ولكنه لا ينتج أدبًا لانتماء مثل عارسة المواسم والاحتفاليات والطقوس والشعائر وغيرها، ولكنه لا ينتج أدبًا لحقيقة التخيل، وطبعًا لا يعالج في الكتاب كيف تزداد الجماعة المتخيلة أهمية وواقعية كلما تفككت الجماعة المباشرة الحلية. لأنه حين تتفكك جماعة الانتماء المباشر تقوم الجماعة المتخيلة بالمهمة التعويضية عن الجماعات الحميمية الأهلية الي اندثرت، ومهمتها الحديثة المتمثلة بإقامة جماعة سياسية تسعى غو الوحدة والسيادة بتأسيس الكيانية السياسية كما سوف نرى.

الجماعة المتخيلة ليست جماعة خيالية، بل حقيقية وواقعية، وليس فقط لأن فعلها وتأثيرها كذلك، بل لأن تخيلها يجري بأدوات واقعية، قائمة. فالناس في هذه الحالة لا يتخيّلون شيئًا من العدم وبواسطته. فتخيلها يحتاج إلى أدوات ناشئة تاريخيًا، كما تتشكل المُتخيّل بهذه الأدوات من عناصر قائمة.

عدد أندرسن إذ يثبت أن هذه الأدوات قد تكون هي التمايز اللغوي وقد تكون أمور أخرى، أي أن العناصر والأدوات المكونة للجماعة المتخيلة ولعملية تحيّلها تحتلف . . ولكن اللغة المطبوعة كانت شرطًا ضروريًا ومنذ تم تحيّلها، أي صنعها، أولاً بواسطة اللغة المطبوعة من خلال اللقاء المتاري بين اكتشاف المطابع والرأ عالية في عملية الاستثمار في الطباعة والتسويق في دار النشر والصحيفة . . منذ نهوض اللغات الحلية المطبوعة بدل اللاتينية المقدسة، نشأت اللغة القومية، ومنذ أن نشأت الوحدات الجمهورية الأميركية التي تعتمد على الحدود الإدارية الكولونيالية في تحيل ذاتها كجماعة في حدود سياسية نشأ غوذج معياري، قابل للنسخ والقرصنة، وأصبح أغوذجًا قابلًا للنشاغ والمتراطة أخرى من العالم . . .

ولكي يوضح أندرسن ما يقصده ب»متخيلة» فإنه يضعها في تعارض مع فهم غلنر الاختراع الأمم والشعوب بمعنى الخداع فيقول: «يقدّم غلنر بشيء من الحدّة ما يمكن مقارنته بما يقدّمه رينان، حيث يقرّر أنَّ «القومية ليست يقظة الأمم على وعي ذاتها: إنها تخترع الأمم حيث لا وجود لها». غير أنَّ العيب في هذه الصياغة يتمثّل فيما يبديه غلنر من قلق حين يبيّن أنّ القومية تتخفّى وراء مزاعم زائفة ما يدفعه لتحويل «الاختراع» إلى «تلفيق» و»زيف»، وليس إلى «تُخيّل» و»خَلْق». وبذلك يكون ما يعنيه أنَّ هنالك جماعات تمتاز عن الأمم إذ تُقارَن معها بأنها «حقيقية». والحال، أنَّ كلَّ الجماعات الى تفوق في حجمها حجم أبسط القرى القائمة على التماس والاتصال المباشرين (وربما هذه القرى أيضًا) هي جماعات متخيّلة».

لدينا هنا ليس فقط عييز بين المتخيل والخيالي، بل توضيح مهم لأغراض الكتاب ويتلخص بأنه إذا كانت القومية جاعة متخيلة، فليست كل جاعة متخيلة هي قومية. فالطائفة الدينية إذا عبرت حدود القرية أو البلدة، وإذا كان محكنًا تصور الانتماء لها كما لو كان انتماء لجماعة، فهي جاعة متخيلة. الجماعة الدينية أو الطائفة كجماعة عابرة للقارات والحدود هي أيضًا جاعة متخيلة عتد أندرسن، ولكنها في حالة أوروبا انهارت بانهيار أدوات تخيلها: من انحسار اللاتينية كأداة تواصل للانتلجنسيا وحتى تراجع سلطة الإكليروس على خيال العامة وزمنهم وأجندتهم . . المسألة إذًا ليست الفرق بين جماعة متخيلة وأخرى غير متخيلة، بل الموضوع هو ما الفرق بين جماعة متخيلة أيضًا، أو: ما أنواع الجماعات المتخيلة؟.

وهنا عمليًا نؤكد أن اعتبار القومية حاعة متخيلة لا يكفي لتعريفها، أي للتعبير عن خصوصيتها. ويلزم للتخصيص والتعيين أمران أساسان آخران: الأول أدوات التخيل الي كلب أندرسن فيما بعد أمثلة عليها، وثانيًا تخيل حدود الجماعة. لا يمكن تخيل القومية كجماعة بلا حدود. والحدود، أي تخيل الحدود، هو بداية تعريف الخصوصية . . حدود سياسية إدارية، حدود لغوية، حدود جغرافية . . ولكن أكثر التعريفات خصوصية للقومية هو تخيلها سيدة، أي ذات سيادة، وذات إرادة سياسية . . وهو البعد الكفيل بتعريف القومية وإعادة تعريف الأمة، وهو البعد الذي يحل اللقاء بين فكرة الأمة وفكرة القومية أمرًا طبيعيًا. وغن ننضيف هذه الإشكالية هنا مع أنه ليس من مواضيع الكتاب، ونعتبر غيابه أحد نقاط ضعفه. وربا يعود

سبب الاهتمام عندنا إلى الفارق اللغوي بين القومية والأمة، والفارق بينها كظواهر تاريخية وكيف أصبحت القومية شرط تشكل الأمة الحديثة ذات السيادة.

الادوات الت تهمنا لفهم الكتاب وموضوعه حديثة: رأسمالية الطباعة وفكرة الحدود والسيادة. كلها أفكار حديثة، فتخيل إرادة سياسية لشعوب لم يكن عكنًا في عصر الإمبراطوريات، ولا في عصر الملكيات المطلقة الت في عهدها بدأت تتضح حدود بعض القوميات الأولى (قبل القوميات الإمبراطورية وتلك التي نشأت في ظلها على حد سواء). بل لم يكن عكنًا تخيل مفاهيم الامة السيدة من دون مفاهيم الحرية ومن دون الإطاحة بفكرة السلالات الملكية ذات السيادة.

من أهم مآثر الكتاب للقارئ العربي أن ميدان بحثه وامثلته لا تأتي من مناطق مألوفة في تشكل الوعي القومي المعهودة مثل أوروبا والبلقان والحالات العربية والتركية. ومع أنه بُخي بحق بعض الوقت الثمين في تحليل بحريات التفكك القومي لإرث إمبراطورية أل هبسبورغ وتشكل القومية الجرية كعملية انفصالية (لابد أن تذكر القارئ العربي النبيه بالعلاقة العربية العثمانية) داخل بنية الإمبراطورية المقدسة مع وجه الشبه بين التتريك والألمة في الإمبراطوريتين، لكنه سرعان ما يعود إلى مجال اختصاصه وهو شرقي أسيا، حيث يستعرض نشوء القومية في سيام (تايلند) وإندونيسيا والهند الصينية. والأهم من ذلك كله، وقبل ذلك كله، أنه بحلل نشوء قومية المستوطنين ضد الدولة الأم في أميركا الشمالية، وفي أميركا الجنوبية بشكل خاص، ويعتبرها بشكل مفاجئ نموذجا مبكرًا لتشكل القوميات والأمم الحديثة في الجمهوريات، وذلك خلافًا لما هو مألوف من ارتباك في استخدام مصطلح القومية لوصف حركات هذه الشعوب عادة.

وخلافا للنظريات الأوروبية عن القومية الت تعتبر قوميات وسط وشرقي أوروبا رائدة، يعتبر الكاتب القوميات المنفارية والتشيكية والبولندية جيلاً ثانيًا وثالثًا من القوميات، وأن قوميات أميركا الشمالية والجنوبية قد سبقتها إلى التشكل. ومن هنا يعنُونُ أحد الفصول الرئيسة في الكتاب أي فصله الرابع ب»روّاد كريوليون».

وطبعا يصعب بعدة أندرسن الفكرية التمييز بين القومية والإيديولوجية القومية. ولكن برأينا فإن ما يقوله عن قوميات أميركا اللاتينية يصح للإيديولوجية القومية، إيديولوجية الحركة، ثم الدولة المعبرة عن جماعة متخيلة بأدوات مختلفة مثل اللغة أو الإقليم وغيرها، وهي مصاغة كيانيًا/سياسيًا. ولكن قبل ذلك نشأت قوميات مبكرة ساهمت في صياغة القوميات الأميركية، وهي القوميات في الدول التي تطورت فيها الرأسالية مبكرًا. ففيها فَعَلَ السوقُ وتوحيد اللهجات والطباعة فعله في توحيدها في أمم. هنا كان دور الإيديولوجية القومية أقل أهمية من دورها في الجيل الثاني من القوميات. ولذلك بدا لاول وهلة وكأن بلدان مثل هولندا وإنغلترا وفرنسا هي دول بلا قوميات، وهي في الواقع قوميات مبكرة التشكل.

يرى الكاتب هذه السياقات ولكنه لا يبلورها كما في هذا الأغوذج الذي نطرحه أعلاه، والذي يفرق بين قوميات لعبت فيها الإيديولوجية القومية (الواعية لذاتها) دورًا مهمًا في بلورة القومية والأمة، والقوميات التي قامت بفعل الدولة الراسالية المبكرة القائمة على دولة

الملكية المطلقة، ذات الحدود السياسية الواضحة، وعلى السوق والطباعة. وهو لا يقوم ممثل هذا التميير لأنه لا يميز بين القومية كظاهرة إيديولوجية ثقافية فكرية (من المتخيل) من جهة، والإيديولوجية القومية الواعية لذاتها كإيديولوجية سياسية. وحتى لو كانت الظاهرتان متخيلتين، إلا أن الفرق كبير برأينا. وهذا هو البعد الأساس الذي يفتقر إليه الكتاب، ولا يمكّنه بالتالي من الرد على ادعاءات منظرين أرستقراطيي النزعة الأنفلوسكسونية ممثل إسايا برلين وإرنست وغلنر، ولكن بشكل خاص إيلي كيدوري [13] الذين ينفون تعرض الشعب الإنغليري والأميركي للقومية. إنهم، برأينا، يعبرون بذلك في الواقع، وربا من دون أن يدروا، عن أكثر اشكال القومية صلفًا وغرورًا في بريطانيا وأميركا وأستراليا وغيرها من مصانع الأساطير القومية من الأدب والمسرحيات والمسلسلات التلفزيونية عن وليم الفاتح وإليزابث وهنري الثامن وعصري اليزابيث وفكتوريا وتنمية الكبرياء القومي الإنغليزي (قلة من تلاميذ المدارس الإنغليز، الذين يعلمونهم أن البارونات الذين فرضوا الماغنا كارتا هم الوطنيون الأوائل، تعرف أن هؤلاء البارونات لم يتكلموا الإنغليزية أصلاً) . . ومن كتابة التاريخ الأميركي القومي الخرافي من الأباء المؤسسين والحرب الأهلية وحتى هوليوود، واعتبار غط الحياة الأميركي قائمًا على من الأباء المؤسسين والحرب الأهلية وحتى هوليوود، واعتبار غط الحياة الأميركي قائمًا على الواطنة في الوقت الذي يرداد تشددًا في تعريف ذاته دينيًا وثقافيًا.

القومية والهوية القومية (عونى الانتماء إلى الأمة) عند أندرسن هي نتاج تقاطع معقد بين قوى تاركية متعددة في نهاية القرن الثامن عشر. وبالتالي لا يوجد تعريف جامد لهما. والمهم لنا أنه لا يميز مفهوميا، أو للدقة لا يتطرق إلى الفرق بين مفهوم الأمة (nation) كمفهوم تاركي أقدم من مفهوم القومية، عرّفَ في العصور السابقة بالدين أو القبيلة أو كليهما أو غير ذلك، ولكنه حمل دائمًا بعدًا سياسيًا، من جهة، ومفهوم القومية (وأفضًل شخصيًا هنا ترجمتها إلى (nationalism) وليس إلى (nationalism)، بشرط تمييزها من المصطلح المتداول رسميًا الذي يعن الجنسية، أي الانتماء إلى دولة بعينها والمتمثل بالمواطنة وجواز السفر) وظاهرة الإيديولوجية والحركة القومية ونقصد (nationalism)، من جهة أخرى. من منظور أندرسن القومية هي أما (nation) أو (nationalism). وطبعًا يبقى الأساس في هذه الحالة هو الظاهرة القومية داتها، فوجودها أعاد تعريف الأمة في عصرها، كما أعاد تعريف الهوية والإيديولوجية/الهوية. تشكّل داتها، فوجودها أطاهرة القومية، وتساعد الخطوط المدودة بين تمييزاته في عملية التعريف. ولكن التعريف هنا هو تطوير نظري مفهومي لتطور تاركي لهذه الخطوط.

نقول ذلك لأننا نحد أندرسن أحيانًا يستخدم القومية كإيديولوجية والقومية كجماعة متخيلة بنفس المنى. حين يقول إن منظري القومية «كثيرًا ما ارتبكوا، كي لا نقول اغتاظوا، أمام المتناقضات الثلاث التالية: 1) الحداثة الموضوعية الي تبدو عليها الأمم في عين المؤرّخ مقابل القِدَم الذاتي الذي تبدو عليه في أعين القوميين. 2) الكونية الشكلية الي تتسم بها الهوية القومية كمفهوم اجتماعي ثقافي حيث يمكن لكلِّ أحد في العالم الحديث أن تكون «له» هوية

قومية . . مقابل الخصوصية الفضال الت تتسم بها تجلياتها الملموسة، حيث تبدو . . بالتعريف، فريدة وفذة. 3) القدرة «السياسية» الت تتمتّع بها القوميات مقابل فقرها الفلسفي، بل وعدم تماسكها. هنا أيضًا لا يميز أندرسن بين القومية والإيديولوجية القومية، فأن تقول إن القومية فقيرة فلسفيًا. وهو يصحو لذلك في مكان آخر في معرض المقارنة بين الماركسية واللبرالية وبين القومية مؤكداً أنها مقارنة لا تجوز. ويمكن للمرء مثلاً أن يكون قوميًا لبراليًا أو ماركسيًا.

لا بد إذا أنه يقصد الإيديولوجية القومية. ولكن أليست القومية عكم تعريفها ظاهرة إيديولوجية ما دامت متخيلة؟. صحيح، ومع ذلك يبقى هنالك مكان ومعنى للتمييز بين الانتماء إلى جماعة متخلية كظاهرة عاطفية وفكرية وثقافية، أي إيديولوجية، وتحويلها إلى نسق إيديولوجي يعي نفسه وعجب أن تكون لديه طموحات لتفسير الظواهر الاجتماعية متبنيًا فلسفة ما . . عندها بمكن الحكم أن فلسفتها تلك فقيرة أو غنية وهي تتحمل مسؤولية هذا الحكم ذلك بتحويلها القومية من ظاهرة إيديولوجية اجتماعية ثقافية سياسية إلى إيديولوجية. صحيح أن المرء لا يحد منظِّرًا قوميًا من طراز هوبز أو ماركس أو توكفي، لكن جزءًا من المنظرين الكبار كان ينتمي بوعي إلى قومية، من دون أن يكون بالضرورة داعية قوميًا. فالقومية ليست فلسفة، وإذا ادعت ذلك فلابد أنها سوف تكون فقيرة. قد يكون الإنسان قوميًا بمنى الشعور الكامل بالانتماء إلى جماعة متخيلة حتى لو فهمها وانتمى إليها كجماعة معاصرة، وقد يكون الكامل بالانتماء إلى إيديولوجية مثلاً في فهم التاريخ برمته كأنه تاريخ قومي يقود إليها. قد وميًا بمعنى غويلها إلى إيديولوجية مثلاً في فهم التاريخ برمته كأنه تاريخ قومي يقود إليها. قد يكون الفرد الحديث قوميًا في انتمائه، ونقديا بحاه القومية كإيديولوجية.

لا تجيب النظريات الفكرية عن أسئلة المعنى: لماذا الحياة، لماذا الموت، لماذا هذا المصير؟ وقد عنيت الميثولوجيا، وبشكل أكثر عينية نقول: عن الدين عادة بالإجابة عنها. وربا كان هذا ضعف اللبرالية والماركسية وغيرهما للإنسان الباحث عن معنى. فهما تتجنبان الخوض في هذه الأسئلة. ولكن القومية نشأت مع العلمنة وانحسار عملية التدين، وواضح أنها استلمت من الدين بعض مهمات الإجابة عن المعنى وأسئلة الخلود وغيرها. ف»قرنُ التنوير والعلمانية العقلانية هذا جلب معه ظلامه الحديث الخاص. والمعاناة التي لعب الإيمان الدين دورًا في تكوينها لم تحتفي بانحسار هذا الإيمان . . وما كان مطلوبًا عندئذ هو تحويلٌ علمانيّ للقضاء إلى استمرار، والاعتباط إلى معنى. وسوف نرى أنَّ قلّة من الأشياء وحسب هي التي كانت (ولا تزال) تلائم هذه الغاية أكثر من فكرة الامة. فإذا ما كانت الدول-الأمم شياسيًا تبدو على الدوام من ماض و "تاريخية"، إلا أنَّ الأمم التي تعبّر عنها هذه الدول-الأمم سياسيًا تبدو على الدوام من ماض موغل في القِدَم، والأهمّ من ذلك أنّها تبدو منزلقةً إلى مستقبلٍ لا حدّ له. وسحر القومية هو ما يحوّل المصادفة إلى مصير».

ومن هنا نضيف أنه: كتصوير لذلك وتدليل عليه فإن الصراعات الحقيقية للحركات الدينية الأصولية لم تجر بينها وبين اليسار واللبرالية، بل جرت مع الانظمة والحركات القومية العلمانية. وذلك لم يأت صدفة، فالأخيرة هي القادرة على منافسة الحركات الدينية على مستوى الموية والمعنى. وهي قادرة على احتواء المتدين والعلماني واللبرالي والديمقراطي في إطار نفس الموية القومية إذا كانت ديمقراطية، أما إذا كانت غير ديمقراطية فيعتقد عثلو القومية أن الولاء والانتماء لها لا يوضَعُ فقط فوق أي حزبية، بل ضد أي حزبية، ما فيها تحزيب الدين.

#### شروط تاریخیة:

كان يجب أن تحدث ثلاث تغيرات أساس في الثقافة والنظرة إلى العالم كي يصبح ممكناً تخيل الجماعية القومية: 1) تراجع اللغة المقدسة كلفة علم وثقافة ثم أفولها، مع بقائها لغة الصلاة: كما جرى للاتينية (ومع بقاء العربية لغة قومية طبعاً فإنها لم تختلط بالقداسة فحسب بل بقيت مصدرًا حيًا للثقافة الدينية الإسلامية لدارسي القرآن والسنة والفقه والشريعة من غير العرب ايضًا). 2) تراجع ثم أفول شرعية حكم السلالات الملكية غير الوطنية التي تحكم بالماهرة والقرابة والنسبة دولاً وبلدانًا وشعوبًا عدة في الوقت ذاته. 3) نشوء مفهوم جديد للزمن. يفصل هذا المفهوم الجديد زمن التكوين والخطيئة والخلاص الدين عن الزمن اليومي المعاش. ونشوء ومن تاريخي جديد في الأذهان. وهو زمن فارغ ومتجانس، ويمكنُ ملؤه بالمعنى. ويمكن خلاله تخيلُ ها يجري في الحاضر أفقيًا، مثل تخيل أفراد جماعة يعيشون وتخيل ما يقومون به في الوقت ذاته، أو تعليم يفعلون نفس الفعل في الوقت ذاته. وما من نشاط ثقافي يكرّسُ وينتج مثل هذا الشعور في منشئه التاريخي أكثر من تحرير الجريدة وقرائتها بلغة علية. فهي وحُدت وتوحّدُ الزمن والأجندات والأحداث والفعل المتزامن لجموعة محدة من البشر. وأدبيًا انعكس مفهوم الزمن الفارغ المتجانس هذا أكثر ما انعكس في أدب الرواية الذي تطور في نفس هذه المرحلة، والذي الفارغ المتجانس هذا أكثر ما انعكس في أدب الرواية الذي تطور في نفس هذه المرحلة، والذي صور، ويصوّر تزامنًا حاضرًا أفقيًا بين عدة فاعلين في نفس الفضاء اللغوي.

ونضيف نحن شرطًا رابعًا هو تفكك الجماعة الحلية بفعل المجرة من الريف إلى المدينة والجماعة المهنية الحرفية في المدينة بفعل تطوارت سياسية وحروب دينية وتطور الصناعة الرأعالية . . ونشوء الفرد البرجوازي في مقابل جماهير (الأفراد نظريًا) العمال المتحررين من علاقات التبعية الشخصية للأرض وللسيد مالك الأرض، وبالتالي للجماعة المباشرة.

في حالة اللاتينية في أوروبا لغة القداسة هي لغة نخبة من محتكري الوساطة مع قيادة الكنيسة وبين الناسوت واللاهوت. كانت هذه الانتلجنسيا من رجال الدين ثنائية اللغة أساسًا، تعرف لغة علية إضافة إلى اللاتينية. وبتوسط هذه النخبة ثنائية اللغة بين اللغتين، فإنها تتوسط عمليًا بين السماء والأرض لعالم المؤمنين ذاك. ولكن الجماعة الإكليريكية الت تضمهم هي جماعة تراتبية، تبدأ في السماء وتنتهي بأبسط الكهنة ورعيتهم، ولا تشكل انتماءً أفقيًا بأي شكل. ولا تعكس اللاتينية تصورات شعبية محلية حاضرة وجارية، وليس بوسعها صياغتها كما فعل شعر فرجيل في عصر آخر.

لم تكن اللاتينية لغة التّعليم فحسب، بل كانت أيضًا اللغة الوحيدة الن تُعَلَّم، ولاحقا اللغة

الوحيدة التي تُطبَع. وحصل التحول بين بداية القرن السادس عشر ونهايته، حين صارت غالبية الكتب تطبع باللغة الحلية في البلاد التي تنتشر فيها الطباعة. وحالما دخل رأس المال في عملية الطباعة ضاق بها سوق اللاتينية. فبعد إشباع سوق ثنائيي اللغة النين تكلموا اللاتينية إضافة إلى اللغة الحلية انتقلت صناعة الكتاب إلى سوق أوسع عددًا بما لا يقاس، وأضيق انتشارًا على مستوى القارة. فغالبية البشر في حينه كانت أحادية اللغة، كما هي أحادية اللغة في أيامنا رغم «أممية البروليتاريا» ورغم العولمة. وما زالت وسائل الإعلام والاتصال الحديثة تقوي اللغة الحلية وتوجد لمجاتها، كما تفعل وسائل الإعلام العربية المتلفزة حاليًا، إذ توحد اللهجات والاجندات، ومعنى ما توحد الزمن أو التزامن العربي بشكل غير مسبوق في الماضي. تندثر لغات أو تنصهر في غيرها ولكن ليس محكنًا، كما يبدو، لا في عصر الرأسمالية ولا غيره، أن تتكلم البشرية كلها لغة واحدة. «بيد أنَّ هذا الاستغلاق المتبادل بين البشر لم غُظ بأهمية تاريخية كبيرة البشرية كلها لغة واحدة. «بيد أنَّ هذا الاستغلاق المتبادل بين البشر لم غُظ بأهمية تاريخية كبيرة منهم بلغته الواحدة».

القومية هي إذًا أولاً شكلٌ جديدٌ من الجماعة المتخيلة هيًا له لقاء تعددية اللغات البشرية مع الرأ الله وتكنولوجيا الطباعة. لقد فرقت رأ الله الله الطباعة بين الناطقين باللاتينية على قلّة عددهم، ولكنها نشرت اللغة الحلية ووحّدتها بين أعداد أكبر بكثير من البشر. وأنجرت ذلك أكثر من أي شيء آخر بواسطة جمع اللهجات في بحال أقل اتساعًا من اللاتينية وأكثر من اللهجة العادية . . وبسبب تثبيت اللغة واستنساخ الكتاب كشفت إمكانية تحيل ملايين القراء، كما أضافت استقرارًا على اللغة وقواعدها، وثباتًا وعلى الكلاسيكيات والرموز والوطنية الأولى المصاغة فيها من شعر وملاحم وغيرها . . يكن هذا الثبات حاليًا من العودة قرونًا إلى الوراء في تاريخ متواصل، ويكن المقارنة بشكل لم يكن متاحًا قبل الطباعة. كما أدت الطباعة وتوحيد اللهجات وقواعد اللغة في إطار محدد إلى بدء تبن اللغة كلغة إدارية بواسطة الدولة، لغة الالقاب والمراسم والقوانين والأوامر، والوثائق والحاكم . ..

كما تزامن ذلك مع الإصلاح الدين في ألمانيا ومع تحول دولتية الانفصال الكنسي إلى قومية الانفصال الكنسي الإنغليزي عن الفاتيكان. ولم يكن عكنًا تحيل انتشار الإصلاح الدين من دون الطباعة. ف»حين علّق مارتن لوثر أطروحاته على باب الكنيسة في فتنبرغ عام 1517، طُبِعَت ببرحمة ألمانية، وانتشرت في كلّ ركن من أركان البلاد في غضون خسة عشر يوماً. وفي العقدين بين عامي بين 1520–1540 كان عدد الكتب المنشورة في ألمانيا ثلاثة أضعاف ما نُشِرَ في العقدين بين عامي ما يزيد على ثلث محموع الكتب المكتوبة بالألمانية والمباعة بين 1518 و1525. كما ظهر في الفترة من عامي بين عامي عامي 1512 و1525. كما ظهر في الفترة بين عامي الكتوبة بالألمانية والمباعة بين 1518 و1525. كما ظهر في الفترة بين عامي بين عامي بين عامي الكتاب المقدس بين عامي ألى الألمانية. «وهذه أول مرّة نكون فيها إزاء قراءة جماهيرية حقيقية وإزاء أدب شعي في متناول الجميع. بل إنَّ لوثر بات أول كاتب بين الكتّاب الأكثر رواجًا يُعْرَف بهذه الصفة. أو بعبارة أخرى،

أول كاتب عكنه أن يبيع كتبه الجديدة لجرد أن اسمه عليها».

وتزامن ذلك تاريخيًا مع بدأ انهيار شرعية السلالات الملكية التي لا ترتبط بشعب أو مكان بقدر ما ترتبط ببعضها عبر أوروبا، ولا تتكلم لغة المكان بقدر ما تتكلم اللاتينية أو لغتها الأصلية التي قد لا تكون لها علاقة بالمكان الذي تحكم والشعوب الخاضعة لها. لقد انصهرت لغتان لتشكلا الإنغليزية المبكرة في البلاط الإنغليزي في مرحلة مبكرة، كما ترجم إليها الكتاب المقدس في نهاية القرن الرابع عشر - في عام 1382 تحديدًا. وفي القارة الأوروبية، ورغم بقاء اللاتينية لغة «رسمية» أو عليا للكنيسة والنخب، صَعْبَ على المالك الوارثة للإمبراطورية الرومانية الغربية المنهارة، ثم الملكيات المطلقة من بعدها، أن تحتر اللاتينية في حدودها، وكان لابد من بروز وترقية لهجة علية أو لهجات إلى مصاف اللغة. وفي النصف الأول من القرن السادس عشر بدأت الفرنسية التي كانت تعتبر «لاتينية فاسدة» تتصدر لغة البلاط وتحولت إلى لغة رسمية للمحاكم.

وقد غيَّرت الطباعةُ في توحيد اللهجة الحلية ووضع مقاييس اللغة المكتوبة بالنسبة للغات لم تكن مكتوبة سابقًا، وساهمت في نشر هذه اللغة قراءة وكتابة حالما تحولت إلى صناعة. يقول أندرسن: إنه بمعنى ما، كان الكتاب أول سلعة صناعية تُنتَج إنتاجًا جاهيريًا ضخمًا على الطريقة الحديثة. وبمكن إيضاح المعنى الذي يدور في ذهن إذا ما عقدنا مقارنة بين الكتاب والمنتجات الصناعية الأسبق، مثل النسيج، أو الأجر، أو السكر. ذلك أنَّ هذه السلع تُقاس بمقاديرها الرياضية (بالأرطال أو الأحمال أو القطع). ورطل السكر هو محرد كمية، أو وزن ملائم، وليس شيئًا بمدّ ذاته. أمّا الكتاب فشيء ميّز، مستقلّ، ويُعاد إنتاجه مقادير ضخمة، وهو بذلك يستبق السلع المعمّرة في أيامنا.

هنا لا بد أن ننوه مرة أخرى إلى أن العربية (بدرجة أكثر من العبرية التي حُدَّثَت ووُضِعَت قواعدُها كجزء من مشروع رأى نفسه مشروعًا قوميًا هو المشروع الصهيوني) التي تم تحديثها بشكل تدري طيلة القرن الثامن والتاسع عشر، ثم جرت طباعتها ونشرها، بقيت لغة قومية ولم تُستَحُدَث كما الفرنسية من اللاتينية، كما لم تتحول اللهجات الحلية العربية إلى لغات . . ففي حالة العرب والعربية أصبحت اللغة المقدسة لغة قومية . . ولا شك في أن هذه الخصوصية هي من عوامل اختلاط المتخيل العلماني بالدين، وإصرار أوساط واسعة نسبيًا على استخدام العربية لتخيل أمة دينية وليس أمة قومية. وطبعًا يبقى هذا الأمرُ سهل الحدوث طالما لم يصادف العربي شعوبًا أخرى إسلامية لا تتكلم العربية، ولا يوحدها الخيال ولا الأجندة والزمن يصادف العربي إلا في المواسم المقدسة مثل الحج والأعياد، (وهي بقية ما يوحد المسيحيين في العالم أيضًا . . مع أن الطابع الوطي طغى على طريقة الاحتفال بالأعياد المسيحية بتبنيه شبه الرسي لاغاط من التدين الشعي والفولكلوري، وتبعته بفعل جار حاليًا عملية أمركة في الحركات ظلال العولة الاستهلاكية لأعياد الميلاد ورأس السنة). وتتوحد الأمة مع الدين في الحركات الدينية الإيديولوجية الت تتصرف وتفكر بمفاهيم أمة دينية واحدة. وهذا بالضبط أحد أسباب عدم تمكنها من أن تصبح تيازًا رئيسًا في مجتمعاتها، إلا حين تتحول بالتدريج إلى حركات وطنية عدم تمكنها من أن تصبح تيازًا رئيسًا في مجتمعاتها، إلا حين تتحول بالتدريج إلى حركات وطنية عدم تمكنها من أن تصبح تيازًا رئيسًا في مجتمعاتها، إلا حين تتحول بالتدريج إلى حركات وطنية

تضع أهدافها داخل حدود الدولة، وتتصرف في سلوكها السياسي البراغماتي كأن الأمة ذات العلاقة تقع ضمن حدود الدولة، أو تشترك مع القومية العربية في التعامل مع واقع ومفهوم الأمة العربية.

بعد قرنين من هزيمة اللاتينية بواسطة اللغات الخلية، حتى على مستوى الانتلجنسيا، في الموجة الأولى من نشوء الوعي القومي الأوروبي تطورت الموجة الثانية الت خلقت الانطباع القوي بأن القومية تقوم على اللغة أساسًا. لقد تطورت بعض اللغات القومية المكتوبة مثل التشيكية والمنغارية مقابل الألمانية، والنروجية في وجه السويدية، والأوكرانية والبلغارية في مقابل الروسية . أي في البلاد الت سادت فيها لغة إمبراطورية مثل الألمانية والروسية. لقد وُضِعَت قواعد اللغة القومية الحلية في مواجهتها وصدرت معاجها الرئيسة متاخرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وترافقت مع حركة إحياء قومي خاصة في المراكز التعليمية والجامعية (هنا ينتبه أندرسن إلى أن يشير إلى مساهمة جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت المتأسسة عام 1875 وغيرها من الأديرة والمراكز التبشيرية في تحديث اللغة العربية وإحيائها، ولنا في الموضوع رأي آخر، أو للدقة إضافي، ليس من متسع لشرحه هنا وله علاقة بترابط هذه النهضة الحقيقية في المراكز التبشيرية بنهضة الإصلاح الدين الإسلامي أيضًا، وببدء تأسيس المدارس العربية في مصر منذ عهد محمد علي).

وقد ترافقت مرحلة الإحياء اللغوي التي اعتبرها هيردر أساس هوية الشعب، مع أبحاث اللغويات السامية واللاتينية والسنسكريتية، والتي نزعت القداسة والسماوية عن اللغات المقدسة مكتشفةً أنها لغات ناشئة تاريخيًا من عائلات أقدم، ما زاد في أهمية اللغة الحلية ومساواتها مع ما اعتقد أنه لغة مقدسة فثبت أنها تاريخية. وهذا ما مكن لاحقًا حتى من إضفاء قدسية شعورية عاطفية على اللغة الحلية اذا اجتمعت مع التاريخ وإنشاء الأساطير في الخطابة والشعر والنثر، بافتراضها لغة للأباء المفترضين. لقد أصبحت اللغة الحلية لغة قومية عندما صار بوسعها أن تولّد هذه المشاعر ذات العلاقة بالانتماء إلى جاعة متخيلة.

ولكن كيف نفسر الانفصال بين اللغات الطباعية والوعي القومي في العالم الانغلوسكسوني وفي أميركا اللاتينية، حيث تتكلّمُ عدةُ شعوب متفاوتةُ الوعي القومي نفسِ اللغة الإنغليزية أو الإسبانية، وكيف نفسّر وعيًا قوميًا متعدد اللغاتِ، كما في سويسرا مثلاً؟. من أجل تفسير ذلك يلجأ أندرسن إلى دول النصف الفربي الأميركية الي نشأت بين عامي 1776 و1838، كأغوذج أول لهذا النوع من الجمهوريات، أو الكيانات السياسية الدولتية غير السلالية، الي ترى نفسها كأمم بينما تجمعها نفس اللغة بدول أخرى قريبة. وإلى جانب تعمقه بنشوء القوميات في جنوب شرقي اسيا فإن هذا المبحث هو من مآثر الكتاب كما أسلفنا.

لقد قاد تحرر هذه البلدان الوطي أبناء المستوطنين الذين يعيشون في هذه البلاد منذ قرون ويتكلمون نفس لغة البلد الأم، أي الإسبانية (والبرتغالية في حالة البرازيل). وبمكن القول إن اللغة هنا لم تشكل عاملاً انفصاليًا منذ البداية. هذا هو الفرق الأول عما عرفناه عن بلورة

الرعيل الأول من القوميات. أما الفرق الثاني فيتلخص في أن القومية، رغم نزعتها غير الديمقراطية في كثير من الحالات، إلا أنها تقوم عادة على إشراك الطبقات الدنيا، وبحمل الأمة في السياسة، وتبلور انتلجنسيا ناطقة باتها، إضافة إلى الطبقة الدنيا. أما في هذه البلدان، فغالبًا ما كان التمرد الكريولي من قبل المستوطنين وأرستقر اطية الأرض من كبار المزارعين موجهًا في كثير من الحالات ضد السكان الحليين وحتى ضد مبادرة الدولة الستعمِرة لتحسين وضعهم القانوني نتيجة لتغيرات في العاصمة. ف»حين أصدرت مدريد، في العام 1789، قانونًا جديدًا، أكثر إنسانية، وفصّلت فيه حقوق الأسياد والعبيد وواجباتهم»، رفض الكريول تدخّل الدولة بحجة أنّ العبيد مفطورون على الرذيلة . . وأنهم ضروريون للاقتصاد. وفي فنزويلا، بل وفي الكاريي الإسباني برمّته، قاوم ملاّك المزارع القانون وتوصّلوا إلى إيقاف العمل به في العام 1794. بل إنَّ الحرِّر بوليفار نفسه صرّح ذات مرّة بأنَّ عَرّدًا يقوم به الزنوج أسوأ ألف مرّة من غزو تقوم به إسبانيا. ولا ينبغي أن ننسي أنّ كثيرًا من قادة حركة الاستقلال في المستعمرات الثلاث عشرة ﴿ في أميركا الشمالية كانوا من كبار المزارعين ملاَّك العبيد. وكان توماس جفرسُن نفسه من بين أصحاب للزارع في فرجينيا النين أثار سخطهم في سبعينيات القرن الثامن عشر إعلان الحاكم الموالي تحرير أولئك العبيد الذين لم يمتثلوا لأواهر سادتهم المتمردين». إنها ثورات ملاك العبيد ضد قانون الدولة الأم الذي قد يقيِّدُهم. وقد بُحت مدريد في العودة إلى فنزويلا بين عامي 1814 و1816 لأنها حظيت بدعم العبيد في الحالة الأولى في صراعها مع الكريول المتمردين.

لقد غيّرت حركة التمرد والاستقلال رأى بوليفار في العبيد، وأعلن زميله في التحرّر سان مارتن في عام 1821 أنَّ «السكَّان الأصليين لن يُطلِّق عليهم في المستقبل اسم الهنود أو الحليين؛ فهم أبناء البيرو ومواطنوها وسوف يُدعَون بالبيروفيين». هنا نحد خليطًا بين نزعة تحررية تسعى في مرحلة نضجها الوطن السياسي لوحدة وطنية ضد المستعمر وتشكِّل وتبن أمة في خضم ذلك، ونرعة مستوطنين ملاك عبيد، هم أحفاد الذي أبادوا الهنود الحمر ويبحثون في حاضرهم عن المشترك مع طبيعة البلاد، وحتى مع تاريخها السابق في حضارة الأرتيك وغيرها . . وقد رافق هذا الخليط الذي تمثل أحيانًا برومانسية تجاه طبيعة البلاد، بما فيها السكان الأصليين كجرء من الطبيعة، كافة التعبيرات عن القومية في تلك البلاد كما نراها ونشهدها في حالات أخرى لثورات انفصالية عن الدولة الأم قادها أبناء مجتمع المستوطنين. ولذلك فإنه خلال بلورة الهوية القومية الحلية تعلم هؤلاء المستوطنين مع الوقت وفي خضم الصراع من أجل الحرية والاستقلال أن يؤكدوا المشترك في الإقليم المتمرِّد بين سكانه بصفتهم فنزويليين أو بيروفيين أو أرجنتينيين أو كلّمبيين أو غيره، وذلك بغض النظر عن الأصل واللون، أما اللغة فكانت مشتركة مع البلد الأم. ولذلك كان الرابط إقليميًا بموجب حدود الإدارة الكولونيالية وإمكانيات التواصل، وذلك في بلاد شديدة التنوع الجغرافي والوعورة الجبلية والنهرية، وكثيرة الغابات. كانت الوحدة الإدارية الكولونيالية هي وحدة التمرد، وشكَّلت بالتالي الوحدة السياسية ذات النزعة الاستقلالية. وهي الحدد للقوميات الحديثة هذه، والن كتبت تاريخها فيما بعد ليشمل السكان

#### الأصليين،

وعلينا أن نضيف، لسياقات متعلقة بالقارئ العربي، أنه لم يكن هنالك أساس ثقافي مشترك يحمع بين المستوطنين الإسبان والبيض من مصادر أخرى غير إسبانية، والسكان الأصليين سوى مصلحة الإقليم المتبلورة في وجه الاستعمار، وخلال ذلك تولد المشترك الثقافي باللغة الإسبانية، ومن ناحية أخرى لم تجتمع قبائل السكان الأصليين على ثقافة أو حضارة أو رابط ماقبل قومي عابر لأميركا اللاتينية، ولذلك سهل بلورة المشترك في الوحدات الكولونيالية الإقليمية الحلية الكثر عابينها. رغم حدوث محاولات توحيد واتحاد ما لبثت أن الحلت.

كانت دوافع التمرد قضايا متعلقة بدفع الضرائب وتضاؤل الحصة منها المستثمرة في البلد، وقضايا متعلقة بالتعامل مع السكان كأنهم مستعمّرين، فهم مواطنون من الدرجة الثانية مقارنة مع المولودين في إسبانيا والبرتغال مع أنهم يشبهون المستعمر دينًا ولغةً ومسلكًا. وهم أيضًا لا يعترفون بتفوقه وبامتياراته. كما أن الإدارة الاستعمارية خلقت منهم أصحاب الكفاءات وأصحاب التوقعات العالية والشعور بالشراكة مع أمثالهم من الموظفين من المستعمرات الذين يتلقون تعليمًا حديثًا في العاصمة أو في المدارس والكليات. وهناك كانوا يفهمون أن اللغة والدين والثقافة لا تفيد في تقدمهم على مستوى المتروبول، وأن هويتهم الحلية المشتركة، التي يتعرفون عليها حين يلتقون في المدارس والكليات هذه، هي أيضًا التي تحول دون تقدمهم في إدارة الإمبراطورية فيبقون تابعين للقادم من مدريد أو لندن . . هذه الهوية المشتركة تصبح طبعًا هي عرك التمرد والتوق للاستقلال في إطار الوحدات الإدارية القائمة.

التوازي بين اوروبا ومستوطناتها في أميركا، والمنعكس بشكل خاص بكلمة «الجديدة» بعد أعاء المدن الأوروبية أو قبلها توحي بالتوازي وليس بالتتابع، لدينا هنا مشروعين أوروبيين لا يمكن لأحدهما أن يسيطر على الأخر على المدى البعيد، وذلك بسبب القوة والمسافة الفاصلة. ثانيًا لا يمكن أن يخاف الثوار من الإبادة فهم ليسو السكان الأصليين، ليسوا هنودا كما سمي الأخريون زروا وبهتانا، إنهم أوروبيون، وهم مسيحيون وبيض . . ورغم العنف والشراسة المتبدية في حرب أهلية بين الأقرباء . . إلا أنه لابد من التصالح في النهاية إذا أرادت أوروبا أن تضمن سيطرتها على المدى البعيد، وإن بوسائل أخرى.

وطبعاً تفعل الية الذاكرة الجماعية الت تصمم من قبل الأسطورة والرواية الرسمية والتاريخ المدرسي وتكرّس في الأعمال الأدبية والفنية ويعاد غثيلها بشكل خاص على المسرح، ولاحقًا السينما، تفعل فعلها ليس فقط في التذكر، بل أيضًا في تحديد ما يجب أن ينسى، وينسى فعلاً. كان الأوروبيون العقلانيون سباقون إلى ذلك طبعًا. التذكر من أجل النسيان، أو تذكر النسيان الية عظيمة في بناء الوعي القومي المدرسي. هكذا على الفرنسيين أن ينسوا عداوات لانها كانت حروبًا أهلية داخل ما أصبح (ولم يكن في حينه) الأمة الواحدة. وهذه المطالبة بالنسيان تتضمن بشكل خفي إعادة كتابة هذا التاريخ كصراع داخل أمة قديمة وكنزاع داخل العائلة، وهو لم يكن كذلك. يسرى هذا على الحرب الأهلية الأميركية 1861–1865 كأنها كانت صراع

هاخل العائلة، أو داخل الأمة (ولم تكن كذلك). ولو حافظت فدرالية الجنوب على استقلالها بعد الحرب الأهلية لما كتب التاريخ بهذا الشكل، ولما صنعت الأفلام والكتب المدرسية ليُربَّى النشأ على هذا النوع من التذكّر من أجل النسيان. ورما يصح القول إن الحرب الأهلية الأميركية لم الحرب الأهلية الأميركية لم الحرب الأهلية الأميركية المحرد الخراب الأهلية الأميركية المحرد الخراب الأمان المحردية المحرد الخراب الأمان المحردية المحرد الخراب الأمان المحرد المحرد

بعد أن قامت هذه الجمهوريات على أساس الحدود السياسية والإقليمية بعد تجارب من الوحدة والخلالها بين بعض دولها، بقيت الحدود الإدارية الاستعمارية من العام 1810 هي الأساس لتقسيم الدول. وتحوّلت هذه القوميات إلى أغوذج لدول عديدة في آسيا وإفريقية، وهي دول لم يقدها إلى الاستقلال مستوطنون كريوليون، بل سكان البلاد.

انتشر هذا النمط الجمهوري الأميركي بالطباعة والاتصال وبالقرصنة والنسخ إلى كافة العالم بشكل انتقائي أسطوري، كان تلك الدول قامت كجمهوريات ضد ملكيات وإقطاع وسلالات، مع حذف لمعاناة وتاريخ العبيد ولغات الجنوب الأميركي. وقدَّم هذا النمط كأغوذج صافي ضد غوذج قائم . لقد نسخ إلى مناطق صعود الموجة الثانية الأوروبية (والثالثة عالميًا) من القوميات، خاصة مع اضطرار الأشراف الحليين في هنغاريا أو بولندا أو بلغاريا والبلقان المتفضين ضد الإمبراطوريات أن يضموا فقراء الشعب إلى مفهوم الأمة، كما جرى أعلاه مع البيروفيين. «فإذا ما كان «المنغار» يستحقون دولة قومية، فذلك يعني المنغار، جميعهم؛ يعني البيروفيين أن يكون عل سيادتها الأساس جميع من ينطقون المنغارية ويتكلمون بها؛ ثمَّ، في الوقت المناسب، تصفية السخرة، والارتقاء بالتعليم الشعي، وتوسيع حقّ التصويت، وهلمجرا. هكذا كان طابع القوميات الأوروبية الباكرة «الشعي»، حتى حين قادتها على نجو دياغوجي تلك الجماعات الاجتماعية الأشد تخلفاً، أعمق من مثيله في البلدان الأميركية: كان على السخرة أن الجماعات الاجتماعية الأشد تخلفاً، أعمق من مثيله في البلدان الأميركية: كان على السخرة أن عضي، والعبودية القانونية لم تكن قابلة للتخيّل، خاصة لأنّ النموذج المفهوميّ كان قد تبوّأ الخضي، والعبودية القانونية لم تكن قابلة للتخيّل، خاصة لأنّ النموذج المفهوميّ كان قد تبوّأ مكناةً يتعنّر اجتثاثه منها».

صحيح ان أندرسن يقوم بخطوة كبرى إلى الأمام مقارنة بغلنر وغيره من مدعي براءة الأمبركيين والإنغليز والعالم الانغلوسكسوني من القومية، إذ يحل حركات الاستقلال فيها قومية أغوذجية، ولكنه لا يواصل لصنع التمييز الذي نقوم به هنا بين قومية دول الاستيطان ومفهوم الأمة فيها، والدول الت قامت في القارات القديمة على أسس غير المجرة والاستيطان والإبادة ثم تشكيل الأمة على أساس المواطنة.

### القومية الرسمية للإمبراطوريات:

يؤكد أندرسن تمييرًا نظريًا وتاركيًا هامًا بين القومية الرسمية التي تنشأ بتبي الإمبراطوريات القومية القومية مناطق متعددة القوميات من جهة، والقومية الشعبية الصاعدة بتحالف الطبقة الوسطى والانتلجنسيا والطبقات الفقيرة، والمتشكلة باللغة وبغيرها من خلال السعى لتحقيق حرية الأمة وسيادتها، ضد الإمبراطورية غالبًا، من جهة

أخرى. وهو ليس بعيدًا من تمييزات ماركس وإنفلز في سياق مختلف بين القومية البولندية والإيرلندية من جهة والقومية الروسية من جهة أخرى. ولكنه لا يذكرهما في هذا السياق.

فمع ازدياد انتشار اللغة القومية ومد المشاعر القومية على مستوى شعوب الإمبراطوريات خاصة الشعوب الكبرى والأكثر قربًا من مقاليد الحكم وتضعضع شرعية السلالات غير القومية الحاكمة الت كانت تعتبر الولاء لها هو الولاء للوطن، في حين ليس لها وطن . . أصبح لزامًا على أبناء هذه السلالات الذين بحكمون شعوبًا أن يتبنوا قومية هذه الشعوب ولغتها الى لم يتكلموها أحيانًا. فكما هو معروف كانت الفرنسية لغة بلاط ال رومانوف في سان بطرسبورغ القرن الثامن، وكانت الألمانية لغة الكثير من نبلاء الريف في روسيا وبولندا وأوكرانيا. ولا شك في أنه في القرن التاسع عشر ومع بدء نشوء الحركات الشعبية والاشتراكية الرومانسية نشأ خطر تطابق، أو على الأقل تداخل، الحقد الطبقي مع المشاعر الوطنية والقومية الروسية. لقد بات الموقف المعادي للطبقات الحاكمة موقفًا وطنيًا وقوميا روسيًا بُد، أو يُوْجِدَ له جذورًا في اللغة والتراث. وفي أعقاب غزو نابليون وحاجة القيصرية إلى تضافر الشعب في الدفاع عن الوطن نشأت الحاجة إلى تبي الأرستقراطية الحاكمة للقومية الروسية، واقترح الكونت سيرغي أوفاروف، في تقرير رسمي عام 1832، أن تقوم الملكة على ثلاثة مبادئ هي الأوتوقراطية، والأرثوذكسية، والقومية. لقد كان المبدأ الثالث جديدًا تمامًا، بل وسابق لأوانه نوعًا ما في عصر كان نصف «الأمة» لايزالون أقنانًا، وأكثر من نصفها يحتفظون بلغة أم غير الروسية. وهنا نرى مرة تلو المرة العلاقة بين القومية كحالة من التساوي الأفقي المفترض، أو كحافز للتساوي الأفقى، لقد أبدى الموظفون من أمثال أوفاروف وعيًا لصالح القيصرية أعمق من القياصرة أنفسهم، فقد قاومت القيصرية تطبيق الرَّوْسَنَة اليِّ اقترحها طيلة نصف القرن التالي إلى أن أصبحت سياسة رسمية في عهد الكسندر الثالث (1881-1894): وذلك بعد زمن من ظهور القوميات الأوكر انية، والفنلندية، والليتوانية وسواها ضمن الإمبر اطورية. ولذلك فإنها ساعدت في توحيد وتشكيل أمة عظيمة كالأمة الروسية بشكل غير مسبوق، ولكنها أيضًا أدت إلى صراعات سيكون لها أثر كبير فيما بعد حتى في نشوء قوميات أخرى. وقد فرضت الروسية كلفة تدريس على مناطق بكاملها تحديث الألمانية أو البولندية «ويصل بسيتون-واطسون حدّ الجازفة بالقول إنَّ ثورة العام 1905 كانت «ثورة غير الروس على الرَّوْسَنَة بقدر ما كانت ثورة عمال وفلاحين ومثقفين جذريين على الأوتوقر اطية. وكانت هاتان الثورتان مرتبطتين بالطبع: فالثورة الاجتماعية كانت أعنف في المناطق غير الروسية، حيث كان أبطالها الممال البولنديين، والفلاحين اللاتفيين، والفلاحين الجورجيين».

ما جرى في روسيا في عصر الكسندر الثالث هو ما قامت فيكتوريا فون ساكس-كوبرج-غوتا، بلقبها المثير من حيث مدى تدليله على قوميتها، بتطبيقه. كان حكم ملكة إنغلترا وإمبراطورة الهند لاحقاً، مفصليا في انطلاق «قومية رسية» على الطريقة اللندنية. وكانت تبدي كثيرًا من أوجه التشابه القوي مع الروسنة الت تبناها القيصر الروسي. كما أقدمت إمبراطورية آل هبسبورغ هي الأخرى على تبن متأخر للقومية في عملية الألّنة التي عته وقبلهم تبنت الألمنة بنجاح أكبر سلالة آل»هوهن تسولرن» في بروسيا، فساهمت في دعم بسمارك في توحيد ألمانيا . . أما الألمنة في الإمبراطورية النمساوية-المنغارية فقد ساهمت في تفكيك الإمبراطورية، كما حصل أيضًا في حالة تبي آل عثمان للتريك، وذلك طبعًا بدرجة أقل مما طالبت بها تركيا الفتاة. وكان مصير الإمبراطور في الأستانة، كما في فيينا أن اتهم من قبل الشعوب ألهكومة التي كانت تقبل شرعية حكمه الوراثي بأنه مع الألمنة أو التتريك ضد مصادر الشرعية الدينية والتعددية الأولى، في حين اتهمته البرجوازية الصاعدة وجزء من الضباط أنه يمنع الألمنة أو التتريك فوقع ضحية الازدواجية هذه، حاله كحال من خسر العالمين، عالم الإمبراطورية الأفلة وعالم القومية الصاعدة . . يصج هذا لاباطرة آل هبسبورغ وأل عثمان.

ولا يميز أندرسن بشكل واضح بين إمبراطوريات تخضع لها شعوبًا أوروبية وتؤدي عملية الروسنة أو الألمنة فيها إلى الاصطدام مع وعي قومي علي متمرد عليها، والأنغلة مثلاً في الإمبراطورية البريطانية الي تخضع لها شعوب غير أوروبية، فتنجح في اسكتلندا فقط. أما في الهند وغيرها فتتخذ مسارًا استعماريًا إذ تنجح في تنمية نخب موالية تساهم في إدارة الهند ويمكن أيضًا أن تُرسَل إلى بعض المستعمرات الأخرى في رتب دنيا. وهي نخب تتبنى الإنغليزية لفة ومسلكًا، ولكنها تصطدم مع حدودها بين مواطنيها في بلدها وعند الإنغليز. وتكتشف أن الإنغليزية لا تكفي لكي تنتمي إلى المتروبول، وهي لا تتحول إلى نخبة بريطانية إمبراطورية فعلاً، فتنقلب هذه في الجيل الثاني والثالث إلى نخب قومية ضد الإمبراطورية، أو تُحيَّد داخليًا من قبل القومية الشعبية الصاعدة، كما حصل مع النخب العربية الي مرت بعملية فرنسة أو انغلة بدرجة أقل من النخب الهندية ماعدا في حالة دول شالي إفريقية . . وجرى تحييدها في الموجة العربية القومية الثانية في الستينيات.

ولكن أندرسن يفصل في أن لقاءها في المدارس والكليات التي تخرّج فيها أبناؤها في المند أو في بريطانيا ساهم في تشكل نخبة تعي نفسها على المستوى القومي لا الحلي فقط، ومن جهة أخرى تعي نفسها كغير إنغليزية.

أما اليَيْبنة في الإمبراطورية اليابانية فوقعت على مناطق منسجمة إثنيًا ولغويًا، فنجحت القومية الرسية إلى حد بعيد وبقي الإمبراطور رمزها بعد تبن القومية والإصلاح الذي جرى على أثر وصول الميجي إلى العرش. وعندما طبقت اليابان الأغوذج القومي الإمبراطوري على كوريا والفِلبين وبورما وتايوان فقد واجه الميبنون نفس مشكلة المثقفين المنود وغيرهم في المستعمرات، وانتهت التجربة إلى فشل ذريع. لقد نجح الأغوذج الرسمي الرجعي القومي الإمبراطوري في المستعمرات فقط في اليابان، وفقط حين طبقته اليابان على نفسها. ولا يوجد متسع لتطوير الفرضية التي لابد من طرحها في هذا المكان، أي في مقدمة كتاب كهذا؛ ويبدو أني أخاطر كثيرًا إذ أضيف أن تبن القومية الرسمية الإمبراطورية ونشرها هي العملية الجارية حاليًا في الصين صراحة بعد أن جرت طويلاً بشكل مستتر من دون عناوين قومية واضحة في حاليًا في الصين صراحة بعد أن جرت طويلاً بشكل مستتر من دون عناوين قومية واضحة في

ظل المرحلة الشيوعية، إذ تجري حاليًا عملية فرض قومية واحدة على الصين برمتها في ظل راسالية الدولة والتصنيع الجاري حاليًا هناك . . وسوف يؤدي إلى انتفاضات لاحقًا.

عيز أندرسن في هذا الكتاب بالتدريج من خلال تطوير فرضياته ومن دون أن يخصص فصلاً لذلك بين ثلاث أغاط من القومية: القومية الرسية والقومية الشعبية وجهوريات المواطنين الي جاءت بها الجمهوريات الأميركية إلى العالم كنوع من القومية. أي إنه أصبح لقوميات القرن العشرين طابع قياسي غطي لأنها تستطيع أن تستند إلى هذه التجربة الانسانية. وقبل كل ذلك، فإن فكرة «الأمة» هي الأن معششة بقوة وثبات في جميع اللغات الطباعية؛ ولم يعد يإمكان الانتماء القومي أن ينفصل عن السياسة، ولم يعد الوعي القومي ينفصل عن الوعي السياسي.

تبنت الدول الناشئة بعد الحرب العالمية الثانية أغوذج الدولة الجمهورية القائمة على التقسيمات الإدارية الاستعمارية في أميركا من جهة، وغط القومية الشعبية المتبلور في أوروبا من جهة أخرى. ومن إنجابيات هذا الكتاب أن هذه هي المعادلة النظرية الوحيدة التي يضعها بخصوص موجة الدول والقوميات الناشئة بعد الحرب الثانية. وفيما عدا ذلك يتتبع نشوء اللغة وتبلورها تاريخيًا ونوع الوحدات الإدارية الاستعمارية التي صمدت والتي لم تصمد متفحصًا حالات عينية في سيام (تايلاندا) وإندونيسيا وبتفصيل أقل حالات الهند الصينية. فالوحدة الإندونيسية صمدت رغم أن ما قام هو فقط آخر تقسيم استعماري هولندي. ولكن إدارة باتاما ومدارسها لم غير في النهاية بين الاصول القبلية واللغوية واستوعبت الجميع في إدارة إندونيسية واحدة وفي جريرة تشكل مركزًا تنافسيًا للارخبيل.

أما المند الصينية فرغم الوعي بكيان كهذا فإنها لم تصمد وانقسمت إلى لاوس وكمبوديا وفيتنام. المتخيّل في المنهاج التعليمي الكولونيالي والمدرسة في سايغون وهانوي وحتى في فنوم بنه حين فتحت في وقت لاحق كان هندصينية. ومع ذلك ثبت أنه كان متخيلاً عابرًا، ففي النهاية ظهرت فيتنام ولاوس وكمبوديا. أما المتخيل المسمى إندونيسيا والذي لم غَلُ أي مقاطعة فيه من التمرد والعداوات الإثنية فقد صمد، وصارت إندونيسيا دولة يتم التنافس فيها على الحصص والتأثير، ولكن ليس لغرض الانفصال. وتكونت لغة إندونيسية بشكل واع. لقد تشكّلت هذه اللغة لأغراض إدارية انطلاقًا من لغة قديمة مشتركة بين الجزر من نوع العثمانية والألمانية الإدارية في إمبراطورية أل هبسبورغ متعددة اللغات. وبعد أن تبنتها دور النشر والصحفيين وعولت إلى لغة مطبوعة تبنتها أيضًا إندونيسيا الفتاة عام 1928 زاعمةً أن لما تاريخا قديمًا وسلفًا مزعومًا في جزر الرياو، وأنها اللغة القومية . . وفي الواقع تبقى إندونيسيا دولة متعددة الجزر واللغات والإثنيات.

قد لا تكون اللغة أساس القومية، هذا صحيح، فحتى اللغات متشكلة. ولكن هنالك قوميات لغوية، كالقومية العربية، وهنالك قوميات أخرى لا تستند إلى لغة أصلية، بل وحتى تشكلت ومعظم سكانها يتبنون لغة استعمارية. هنا كلام أندرسن صحيح. «لا شيء يثبت أنَّ

القومية الغانية هي أقل واقعية من الإندونيسية لجرد أنّ لغتها القومية هي الإنغليزية وليس الاشانتي». ولا يجوز التعامل مع اللغة من منطلق إيديولوجي كما يفعل بعض القوميين في التعامل مع الرايات، والأزياء، والرقصات الشعبية، وغيرها. فامتحان اللغة كلغة قومية هو قدرتها على تشكيل جماعة متخيلة وعلى بناء التضامن. واللغات الإمبراطورية هي، في النهاية، لغات محلية، وهي بذلك لغات محلية عددة بين لغات كثيرة. فإذا ما كانت موزمبيق الراديكالية تتكلم البرتغالية، فإن دلالة ذلك هي أنّ البرتغالية هي الوسيط الذي يحري عبره تخيل الموزمبيق أو البرازيل (وتوقف حدودها في الوقت ذاته عند كلَّ من تنزانيا وزامبيا). وعند أندرسن «اللغة الطباعية هي ما يبتدع القومية، وليس لغة محدّدة بحدّ ذاتها. وإشارة الاستفهام الوحيدة التقف إزاء لغات مثل البرتغالية في موزامبيق والإنغليزية في المند هي ما إذا كان النظامان الإداري والتعليمي بشكل خاص بمكنهما أن يولّدا انتشارًا كافيًا سياسيًا للثنائية اللغوية الي تحافظ على الوحدة والتعدد. «ومنذ ثلاثين عاماً مضت، لم يكن هناك تقريبًا أي إندونيسي يتكلم الباهاسا إندونيسيا إالإندونيسية، اللغة القومية[ بوصفها لغته أو لغتها الأم؛ حيث كانت لكلّ امرئ لغته «الإثنية» الخاصة وكان لبعضهم، خاصة أولئك الذين كانوا في الحركة القومية. واليوم ربا كان هناك ملايين من الإندونيسيين الشباب، من عشرات الخلفيات الإثنية اللغوية، يتحدثون ربا كان هناك ملايين من الإندونيسيين الشباب، من عشرات الخلفيات الإثنية اللغوية، يتحدثون الإندونيسية بوصفها لغتهم الأم».

ويثابر أندرسن على نهجه، فلا يقارن حالة سويسرا كأمة متعددة اللغات، برأينا، بفرنسا أو المانيا بلغرنسا أو المانيا بلغرنسا أو المانيا بلغرنها بإندونيسيا. وقد أنحذ القرار السويسري بجعل عام 1291 سنة تأسيس سويسرا، ما يعي أن عام اتخذ القرار 1891، هو عام التأسيس أكثر مما يعي أن ذلك العام هو 1291، والمهم أنه تاريخيًا كان الدين قبل ذلك إلزاميًا في الكانتونات، أما اللغة فكانت مسألة خيار شخصي، وأصبح الدين بعد العام 1848 مسألة خيار شخصي، أما اللغة فباتت رسمية لكل كانتون. هوية الكانتون كهوية لغوية هي قضية علمنة. أما حياد سويسرا بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وهي دول جارة قوية، فيراه أندرسن كوجه أول لتعدد اللغات في البلد، ولعدم فرض لغة على أخرى. فالتعدد اللغوي ضمن الأمة الواحدة تطور تاريخيًا كوجه ثان لعملة حياد الدولة والحفاظ عليها بين جيران أقوياء.

عَكَّن قوة الدولة الحديثة الكلية الحضور وطرائق الاتصال من عَثيل الجماعة المتخيلة بوسائل غير اللغة الواحدة، خاصة في بلد لم تقم في تاريخه الحديث قومية رسية تقابلها قومية شعبية كما في أوروبا، أو كما في مثال سيام في الشرق والذي عالجه المؤلف بتوسع . . ومن الأمثلة على ذلك إندونيسيا والهند بدرجة كبيرة ولابد هنا من إضافة أنه حيث تقوم القومية على اللغة كاداة نخيل الجماعة تاريخيًا ووجدانيًا وثقافيًا فإن تهميش الهوية القومية بتهميش اللغة يؤدي إلى أزمة في الوعي القومي ونشوء جماعات متخيلة أخرى، لا تقل تخيلاً ولكنها تقل اتساعًا وقدرة على ترسيخ الدولة الحديثة مثل الطائفة والعشيرة وغيرها. كما قد يؤدي إذا انقسم الانتماء للغة طبقيًا، كما يحصل لبعض الطبقات الميسورة في بعض الدول العربية الن عمل إلى إدخال

الفرنسية والإنغليزية كلغة تدريس لأبنائها فتزيد على الهوة الطبقية هوة ثقافية تحول صراع الطبقات إلى نوع من الاحتراب الأهلي على هوية البلد.

فقط في نهاية الكتاب يتطرق أندرسن إلى مؤسسات السلطة التي تهمه هنا في إعادة تشكيل المكان والسكان والإقليم: التعداد أو الإحصاء السكاني والخارطة والمتحف (حدود وتضاريس الجماعة في المكان والرمان المتخيلين). لقد ساهمت هذه جيعًا في صياغة القومية والدولة في أوروبا. ولكنها عدَّلت من دورها في المستعمرات، فاستخدمت هناك لصياغة المكان الذي تستعمره، وصاغت كيفية تخيله كي تكون قادرة على حكمه . . لقد رسمت وصنفت طبيعة المكان وحتى طبيعة البشر الذين تحكمهم وطبيعة أسلافهم لكي تحكمهم، وقد تم استنساخ هذه بواسطة الدول المستقلة باليات الاستنساخ الحديثة.

المهم في الإحصاء السكاني الكولونيالي أنه يحدد التصنيف ويغيره عدة مرات تحت مفاهيم رؤيته هو للناس وليس كما يرون أنفسهم. وهكذا يعوِّد الناس على فهم أنفسهم كطوائف وديانات أو كأعراق بمجرد إبلاغ الملاً عن نسب كهذه من السكان، وبمجرد تعامل الدولة معهم على هذا الاساس على مستوى التمثيل مثلاً، أو على مستوى التوظيف وغيره. هكذا بحمل الدولة الاستعمارية هذه النسب هي العناصر التي يتألف منها البلد، أو يريدون أن يتألف منه. هذا اختراع بهذا المعنى لم يكن قائمًا قبل الاستعمار بأى معنى شبيه أو مشابه.

الإسبان الذين استعمروا الارخبيل الذي أطلق عليه اسم الفِلبين نسبة لفيليب الثاني ملك إسبانيا رأوا القرى كعزب إسبانية، ورأوا زعماءها كنبلاء وأمراء وسكانها كعامة وعبيد، لقد رأوهم بمصطلحات وبتصنيفات إسبانية، مع أن أحدهم غالبًا ما لم يعرف الكثير عن الاخر. وتصنيف الناس بموجب أعراقهم كان يجري من قبل المستعمر وهو أمر يجهلونه، فلم يروا الدنيا بهذه المفاهيم ولم يكن العرق قائمًا لديهم على مستوى اصطلاحي. ولا شك في أن التجار الذي جاؤوا للتجارة في إندونيسيا لم يروا أنفسهم كصينيين. وقد سموا أنفسهم تجارًا، ولكن الإحصاء والمستعمر الذي كان يجوب الحيط بسفنه رآهم كصينيين وصنفهم كصينيين في مقابل إثنيات أخرى.

والخريطة التي جاء بها المستعمرون تصوّرُ الأرضَ والطبيعة في تجريد مسطح من زاوية نظر الطائر. وهي زاوية نظر لم تكن مألوفة ولا معروفة في هذه البلدان. لقد وضع المستعمر حدودًا إقليمية ليس لها دائمًا علاقة بالجماعات واللغات التي تقطنها، ولا حتى بالتضاريس الطبيعية. قطعت الحدود التواصل، ومسحت الأرض والبحار بعين واحدة، هي عين النفوذ الكولونيالي مقابل قوى كولونيالية أخرى فقط، ثم ما لبث أن أصبح عكنًا إخراج مساحة البلد المعني من سياقه كخارطة منفصلة وتثبيته وحده على اللوح أو في الكتاب كوطن متخيل، لا يبث أن يكتب له تاريخ متخيل أيضًا. ونقول متخيل لأن هذا الجرء الذي ثم قطعه من الخريطة لم يشهد إطلاقًا بشكله هذا وبحدوده هذه تاريخًا خاصًا به يجمعه سوية ويفصله عن غيره. وأخيرًا يتحول هذا الشكل المتعرج المقطوع من الخريطة والمثبت في الكتاب أو على اللوح أو بدبوس

على الصدر إلى رمز وشعار، إلى «لوغو». ولنتمعن بعد هذه الجملة ماذا يعي تاريخ الأردن، أو للدقة شرق الأردن. فالأردن هو تاريخًا اسم نهر وليس اسم بلد، وماذ يعي تاريخ فلسطين عريطتها الحالية، ومذا يعي تاريخ لبنان، إلا إذ كان جبل لبنان منذ أن تحول من منطقة جغرافية طبيعية إلى منطقة إدارية، وماذا يعي حتى تاريخ سورية كقطر منفصل بحدوده الحالية.

أما علم الأثار الكولونيالي فقد فصل الأثار عن السكان الحليين. فلا علاقة للماضي الجيد بهم وكاضرهم. ولا يلبث أن يفصل الأثار العظيمة، خاصة العمرانية عن الناس ومناطق السكن وكوله إلى منتزه. وعلى كل حال هنالك في النهاية عاولة لتوطين الأجانب الذي بقوا في ثقافة البلد الحلية وتاريخها الذي يمكن الاعتزاز به خلافا لحاضرها البائس . . إلى أن يأتي دور الدولة الوطنية في الاستنساخ من إنشاء التاريخ الوطي والكتب المدرسية وتحويل خارطة البلد إلى «لوغو» وحتى إنشاء السياحة أخيرًا، وكيفية تقديم التواصل بين الحاضر والماضي للسياحة.

## ملاحظة حول القومية والعنصرية:

يعيد أندرسن الحركات العنصرية وغيرها ليس إلى القومية، التي يعلن براءتها منها، بل إلى إدخال الطبقات الأرستقراطية في الإمبراطوريات لتراتبية طبيعية تبرر حكمها. يجري ذلك في سياق تبرير علاقة الحاكم والحكوم مع الشعوب في الإمبراطوريات، فارضة نوعًا من التراتب الطبيعي والناجم عن التفاوت بين ألوان البشرة واللغات والطبائع وغيرها. كانت هذه قائمة عند هذه الطبقات الأرستقراطية حين كانت ضد القومية تتبنى تراتبية طبيعية ضد الفقراء من شعوبها، وبعد تبنيها المصطنع والمتأخر للأفكار القومية.

وفي عصر انتشرت فيه تقليعة تحرر المثقفين التقدميين من القومية (خاصة في أوروبا القائمة على القوميات، وهي أكثر القارات قومية)، وذلك على مستوى الخطاب فقط، ويحري فيه تأكيد طابع القومية شبه المرضي، وتُرجَعُ أصواهًا إلى «الخوف من الآخر» و»كراهية الأخر»، «من المفيد أن نذكّر أنفسنا بأنّ الأمم تُلهم الحب، الذي غالبًا ما يكون عميقًا منطويًا على التضحية بالنفس». وكما أكدنا في البداية فإن مقولة المنظرين القوميين عن القومية ليست كلامًا إيديولوجيًا فارغًا، بل وصف لطبيعتها. فإذا كانت القومية علاقة انتماء لجماعة متخيلة فهي تتضمن الحب طبعًا. «أمًا مُنْتَجَات القومية الثقافية من شعر، ونثر قصصي، وموسيقى، وفنون تشكيلية، فَتُظْهِر هذا الحب بوضوح شديد في آلاف الأشكال والأساليب. ومن جهة أخرى، كم من النادر حقًا أن نجد منتجات قومية عائلة تعبّر عن الخوف والنفور. وحتى في حالة الشعوب المستعمّرة، الي لديها مبرّر فعلي لأن تشعر بالكراهية تجاه حكّامها الإمبرياليين، من المدهش أن نرى مدى الضآلة الي يتسم بها عنصر الكراهية في هذه الضروب من التعبير عن الشعور القومي». وذلك في مقابل الكم الهائل من أدب وفكر وفن الكراهية للأخر غير عن المختلف (أو المسلم في عصرنا) لدى فئات متنورة تدعي التحرر من القومية، في حين أنها تتبنى باسم نقد القومية أحد أسوأ أغاط القومية الرسية الإمبراطورية، الأميركية مثلاً، أنها تتبنى باسم نقد القومية أحد أسوأ أغاط القومية الرسية الإمبراطورية، الأميركية مثلاً،

وتعلن نفسها وصية على الأخرين من دون أن يتوفر لديها الحد الأدنى من المعرفة ناهيك عن التعاطف، وذلك عبر الصحافة ومؤسسات الدعم المشروط والمؤسسات غير الحكومية وغيرها. «وبالمثل، فإنه إذا ما كان المؤرّخون، والدبلوماسيون، والسياسيون، وعلماء الاجتماع على ألفة تامة بفكرة «المصلحة القومية»، فإنّ الميزة الأساس للأمة هي أنها بعيدة عن المصلحة. ولهذا السبب على وجه التحديد، يمكن لها أن تطالب بالتضحيات. التضحية والشهادة تنبع من الحب لا من القوة والمصلحة». وكما قلنا أعلاه في فهم أهمية الحب والانتماء ليس فقط في حالة القومية. فإذا كانت اللبرالية الماركسية والاشتراكية مناهج، فإنها سرعان ما تكتشف أنه لا أحد يضحي ويناضل من أجل منهج علمي، وأن أهم ما فيها هو الإيمان بها كقيم أو الانتماء إلى حاعة، وهذا الإيمان هو الذي يدفع للنضال، وعندما يضيع الإيمان بها فإن المنهج عن دون قيم مركز أبحاث أو حلقة نقاش أو للتحليل والتشخيص في خدمة هدف، ولكن المنهج من دون قيم وجاعة تؤمن بهذه القيم وينتمي إليها الناس لا يصلح لتأسيس حركة تسعى لتحسين المجتمع، ناهيك بالسعى لعالم أفضل.

ليست هذه اللاعقلانية القائمة في الانتماء هي أساس العنصرية. فهي قائمة في كل انتماء أكان لقيم متنورة أو غير متنورة. والنزعة الأرستقراطية الحافظة اتخذت أشكالاً علمية أو شبه علمية عندما بحثت عن نظريات لتبرير ذاتها في عصر تطور الدراوينية وعلم الأنساب والبيولوجيا والإثوغرافيا، وغيرها. وهذه النزعة الأرستقراطية المتعالية هي أساس العنصرية ضد الفقراء عليا، وضد السكان الأصليين في المستعمرات وضد الشعوب الأخرى، وقد كانت قائمة عند غير القوميين بمن يدفعون بمشاعر الاستعلاء ضد الآخرين عند الحكم عليهم، وما زالت قائمة عند عند مدّعي التحرر من القومية ولكنهم ينضوون في المسكر القومي الشوفيي الإمبراطوري عند مدّعي التحرر من القومية وكنهم ينضوون في المسكر القومي الشوفيي الإمبراطوري خصخصة للقرارالدين ومحافظين جدد وغيرهم، أو ممن يدعون أن العلمانية ليست بحرد خصخصة للقرارالدين وتحييد الدولة في الشأن الدين بل إيديولوجية شولية واستعاروا من صاحبها بالتفوق، كما توجد عند قوميين حولوا القومية إلى إيديولوجية شولية واستعاروا من النظريات العنصرية لتبريرها . وغير ذلك أصناف كثيرة.

ليست العنصرية قومية ولا صيغة من صيغ القومية، بل إنها غالبًا ما تنفي القومية عن الخصم أو العدو أو الآخر وتحتزله إلى قسماته البيولوجية. فهي تُنْكِر «الفييتنامي»، وعَل محله مفهوم السلانت اختصار لسلانت آير، أي الذي عيونه مائلة. كما تحل «راتون» محل الجرائري محلهما على هذه الكلمة الآخرة.

والحقيقة أن القومية تفكر بلغة التاريخ والمصائر التاريخية، في حين تفكر العنصرية بلغة الطبيعة الأبدية. فطبيعة الأفارقة، «الزنوج» بلغتها، سوداء خارج التاريخ وخارج التطور التاريخي، واليهود كذلك، هذه طبيعتهم الفاسدة غير المتغيرة عبر التاريخ. العنصرية تنفي القومية عن الأخرين، بل تنفيه خارج التاريخ وتفرقه في الطبيعة في التلوث وفي الفساد، ككيان غير تاريخي تمتصه التضاريس والطبيعة والملامح ولون البشرة وفصيلة الدم. «والحال

ان أصل الأحلام العنصرية هو في إيديولوجيات الطبقة، وليس في إيديولوجيات الأمة: وقبل كل شيء في مراعم الألوهة بين الحكّام ومراعم «النّسل» والدم «الأزرقين» أو «الأبيضين» بين الأرستقراطيات»، وبينها وبين عامة الشعب . . لقد بدأت العنصرية من التسويغ «الطبيعي» النظري أو «العلمي» للسلالات الحاكمة والعائلات الأرستقراطية وانتقلت إلى تبرير «طبيعي» «علمي» لتفوق السلالات العرقية والإثنية واللغوية.

ولا تتجلى العنصرية ومعاداة السامية، بوجه عام عبر الحدود القومية بداية، بل ضمن هذه الحدود وفي إطارها. العنصرية تبدأ كارستقراطية الدم والمصدر الطبيعي للسلطة والحكمة والقوة، وتضرب جذورها في تأسيس التفوق الطبقي الداخلي أكثر نما في العلاقة بين القوميات، ومن هنا أرستقراطية صاحب نظرية الأعراق الكونت دي غوبينو والذي أخذت عنه نظرية الأعراق الألمانية ماقبل النازية الكثير، وأسست عليه. ويبدأ التمييز العنصري بالتمييز داخل نفس الشعب، ومن هنا شراسة العداء للسامية، بالذات لأنها داخلية وضد عدو داخلي، ثم تنتقل إلى الخارج، إلى المستعمرات.

وليس صدفة أن القومية الرسمية التن نتجت عن تبن سلالات أرستقراطية للفكرة القومية هي الأقرب للفكر العنصري من القومية الشعبية التأسستها الانتجلنسيا والطبقات الوسطى. وكانت العنصرية الكولونيائية واحدًا من العناصر الرئيسة في ذلك التصوّر لـ»إمبراطورية» حاولت أن تجمع بين الشرعية السلالية وشرعية تمثيل الجماعة القومية . . في بريطانيا، والنمسا، وروسيا. وما كان بوسعها أن تفعل ذلك إلا بتعميم مبادئها وأدواتها وأهمها التفوّق المولود الموروث الذي كان يقوم عليه وضعها وشرعيتها الداخلية. لقد عُمّم المبدأ وراء البحار، وهذا سر الانتشار الضمي لفكرة «إذا ما كان اللوردات الإنغليز، مثلاً، متفوقين بصورة طبيعية على بقية الإنغليز هؤلاء لا يقلّون تفوقاً على الحليين الخاضعين». فبدت وكأنها فكرة قومية.

وأحد الدلائل المنتشرة على أن المنصرية بدت غالبًا في تبن الكولونيالية حتى الراسمالية البرجوازية منها رداء أرستقراطيا في الخارج لا يشبه القومية البيتية. فالقومية البيتية الشعبية عمومًا مع المتيازات الأرستقراطية والكليروس ودعت لفكرة الأمة المتساوية، وانسجمت عمومًا مع الانتفاضات الديمقراطية المطالبة بالحقوق للشعب. ولكن الجيش، وهو الذي قام على العداء للامتيازات الفروسية كما قام الجيش الجمهوري الفرنسي، فلا يعود في المستعمرات الجيش القومي الحديث، بل يتبنى مظاهر ورونق أرستقراطي في الملابس والزركشة ولغة المراءاة والتصنع بين ضباطه، مثلما بدا الجيش البريطاني حتى خسينيات القرن الماضي. كما كانت تجمع جيوش المستعمرين البيض من قوميات مختلفة علاقات أخوة بين ضباط وسادة، وحتى أسرى حرب . . خلافًا للعلاقة الي كان يلقاها حتى ضباط عليين في الجيش المستعمر ناهيك بالدنيين المستعمرين أو حركاتهم المسلحة الي لم يحظ سجنائها يومًا بحقوق أسرى الحرب، وغالبًا ما قتلوا بدل أن يأسر وا 14.

الجماعات المتخيّلة . . .

وليس صحيحًا أن القوميات المعادية في المستعمَرات طورت عنصرية مضادة إلا في الموامش. ولكن اللغة خداعة. فوسم البيض بصفات معينة جرى لأن المستعمَر لم ير من البيض الا المستعمَرين، وهو لم يؤدلج ولم يبن نظريات عنصرية تستهدف البيض عمومًا في الديولوجية أو في لغة تُحطُ من قدرهم مثلاً.

وعلى العكس، فإنَّ روح القومية المناهضة للكولونيالية كانت دائمًا معادية للعنصرية تحاول ان تستند إلى أفضل ما في التراث الغربي التنويري لكي تحرجه به، فهي تصدّق فعلاً، أو تتظاهر بتصديق، الديمقراطية وحقوق الإنسان في الغرب وتحاول أن تشي بالفجوة بينها وبين الممارسة الغربية في المستعمرات. لهذا الغرض استخدم أندرسن دستور جهورية كاتاغالوغان (1902) «الذي يفطر القلوب لسذاجته في توقه للمساواة في مقابل فكر وثقافة المستعمر، والمقصود هو جهورية ماكاريو ساكاي قصيرة الأجل، الذي نصّ، من بين أشياء أخرى، على أنَّه «لن يرفع أيُّ تاغالوغي، وُلِدَ في هذا الأرخبيل التاغالوغي، أيُّ شخص فوق البقية بسبب من عرقه أو لون بشرته؛ فالأشقر، والأسر، والغي، والفقير، والمتعلّم، واجّاهل متساوون عَامًا جميعهم، وينبغي أن يكونوا قلبًا واحدًا. وقد تكون هنالك فروق في التعليم، أو الثروة، أو المظهر، غير أنّه ما من فروق قطّ في الطبيعة الجوهرية والقدرة على العمل من أجل قضيةٍ ما».

بهذا الاقتباس الجميل والشاعري من دستور حالم طموح في مستعمرة بعيدة نختتم هذه المقدمة.

# 1) مدْخل

غّة غَوّلٌ جوهري يعتري تاريخ الماركسية والحركات الماركسية، رعا من دون أن يُلْحَظ بعد كما ينبغي، وأبرز علامات هذا التحوّل هي الحروب الحالية بين فيتنام وكمبوديا والصين. وهي حروب له اهميتها التاريخية -العالمية لأنّها الأولى الت تنشب بين أنظمة لا يمكن إنكار استقلالها ورصيدها الثوري، ولأنّ أحداً من المتحاربين لم يَقُمْ بَعْدُ بأكثر من عاولاتٍ فاترةٍ لا ترقى إلى تبرير المنجة من منظور نظريً ماركسيً جدير بالتقدير، وبينما كان لا يزال من المكن تفسير النزاعات الحدودية الصينية -السوفيتية في ألمانيا (1953)، الحدودية الصينية السوفيتية في ألمانيا (1953)، وهنغاريا (1956)، وتشيكوسلوفاكيا (1968)، وافغانستان (1980) بأنّها "إمبريالية اشتراكية"، أو "دفاع عن الاشتراكية"، إلخ، بحسب ذائقة المُفسِّر، فإنَّ أحداً لا يُصَدِّق، كما أتصوَّر، أنَّ لمثل هذه المصطلحات كبيرَ صِلَةٍ عا حدث في المند الصينية.

وإذا ما كان الغزو الفيتنامي لكمبوديا واحتلالها في كانون الأول 1978 وكانون الثاني 1979 قد مثّل أول حرب تقليدية واسعة النطاق يشنّها نظام ماركسي ثوري على نظام ماركسي ثوري آخر لللاً، فإنَّ هجوم الصين على فيتنام في شباط سرعان ما عزّز تلك السابقة. ولا أحسب أنّ أحداً، سوى الشخص مفرط الثقة، كرؤ على المراهنة بأنَّ أنحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وجمهورية الصين الشعبية، دع عنك الدول الاشتراكية الأصغر، سوف يساندان واحدهما الآخر، أو يقاتلان معاً بالضرورة إذا ما اندلع أيّ عداء خطير بين الدول في السنوات

الأخيرة الباقية من هذا القرن. ومن الذي يمكن أن يكون واثقاً بأنَّ القتال لن ينشب يوماً ما بين يوغسلافيا وألبانيا؟ وتلك الجماعات المتباينة الت تسعى وراء انسحاب الجيش الأحمر من معسكراته في أوروبا الشرقية ينبغي أن تتذكّر كم خال حضوره الطاغي، منذ العام 1945، دون نشوب نزاعات مسلّحة بين الأنظمة الماركسية في تلك المنطقة.

تفيد مثل هذه الاعتبارات في تأكيد واقعة مفادها أنَّ كلَّ ثورة ناجحة منذ الحرب العالمية الثانية فصاعداً قد عرّفت ذاتها بمصطلحات قومية -جهورية الصين الشعبية، جهورية فيتنام الاشتراكية، وهلمجرا- ووطّدت أركانها، بذلك، في فضاء إقليمي واجتماعي موروث من الماضي قبل الثوري. وبالمقابل، تشير واقعة أنَّ الاتحاد السوفيي يشاطر مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وإيرلندا الشمالية تلك الميزة النادرة المتمثّلة في غياب خانة الجنسية أو القومية عن المويات الي يمنحها إلى أنّه وريث الدول الملكية السلالية ماقبل القومية الي عرفها القرن التاسع عشر بقدر ما هو طليعة نظام أعيّ يشهر القرن الواحد والعشرون [21].

لقد أصاب إريك هو من المحتيقة بقوله إنَّ "الحركات والدول الماركسية قد نرعت لأن تغدو قومية لا في الشكل من المجوهر أيضًا، أي لأن تغدو قومية المذهب. وما من شيء يشير إلى أنَّ هذا الاتجاه سوف لن تواصل "أقاً. لكن هذا النزوع لا يقتصر على العالم الاشتراكي. ففي كلّ عام تقريباً تعترف الأسم تحدة بأعضاء جدد. وكثيرٌ من "الأمم القديمة"، التي كانت تُخْسَب أنها متماسكة عاماً، تجد بن الله تعلقه قوميات "فرعية" داخل حدودها، قوميات تخرع عنها هذه الفرعية في يوم سعيدٍ من المن من الواقع واضحٌ عاماً: إنَّ "نهاية عصر القومية"، التي لطالما جرى التبشير بهاً، لا تلوح بي الله قولو من بعيد. بل إنَّ الانتماء إلى أمّة هو تلك القيمة التي تحظى بأكبر قَدْر من الشرعية الشامل في من توصرنا السياسية.

غير أنّه إذا ما كانت الوقائع واضحة، فإنّ تفسير الايرس على التحليل. وبالتعارض مع القومية، والقومية أثبتت جميعاً أنها عصية على التحريف، نا في التحليل. وبالتعارض مع النفوذ الهائل الذي مارسته القومية على العالم الحديث، فإنّ هرس النظريات التي تتناولها لا يرال واضحاً وجليّاً. وها هو هيو سيتون-واطسن، مؤلّف أفضل وأثل نصّ حول القومية في اللغة الإنغليزية، ووريث تقليد شاسع من التأريخ وعلم الاجتماع اللبراليين، ها هو يلاحظ بحرن أنه يحد نفسه "منساقاً إلى استنتاج مفاده أنَّ من غير الممكن تدبّر أيّ "تعريف علميّ" للامة؛ مع أنّ الظاهرة كانت موجودة ولا تزال "44! أمّا توم نايرن، مؤلّف كتاب «تفكك بريطانيا» الذي شقّ سبيلاً جديداً في تناول هذا الموضوع، ووريث تقليد لا يقلّ شساعةً من التأريخ وعلم الاجتماع الماركسيين، فيلاحظ صراحةً أنّ "نظرية القومية تمثّل إخفاق الماركسية التاريخي الكبير "45أ. لكن هذا الإقرار ذاته مضلّلٌ بعض الشيء، بِقَدْر ما يمكن أن يُؤْخَذ كإشارة إلى الحصيلة المؤسفة لكن مثلت للنظرية الماركسية ذلك الخروج على القياس أو الشذوذ المرعج، وهذا على وجه التحديد مثلت للنظرية الماركسية ذلك الخروج على القياس أو الشذوذ المرعج، وهذا على وجه التحديد ما دفع إلى محاهل بدلًا من مواجهتها. وإلا كيف لنا أن نفسّر إخفاق ماركس في توضيح ذلك ما دفع إلى محاهل بي القياس أو الشذوذ المرعج، وهذا على وجه التحديد مثلة على وجه التحديد مثلة المؤلفة بالمؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة النا أن نفسّر إخفاق ماركس في توضيح ذلك مثلة على المثلة المؤلفة ال

النّعت الحاسم الذي ورد في صياغته اللافتة عام 1848: "وبالطبع، فإنّ على البروليتاريا في كلّ بلد أن تحسم الأمور مع برجوازيتها الخاصة أولاً" أفاً؛ وكيف لنا أن نفسر استخدام مفهوم "البرجوازية القومية"، طوال أكثر من قرن، دون القيام بأيّ عاولة نظرية جدّية في تبرير الممية هذا النّعت؟ وما الدلالة النظرية التي ينطوي عليها تفرّق البرجوازية هذا، مع أنها طبقة علية حين تُعَرَّف من حيث علاقات الإنتاج؟.

ما يهدف إليه هذا الكتاب هو تقديم بعض الاقتراحات غير النهائية بغية التوصّل إلى تأويل أكثر إقناعاً لما عَثَله القومية من "خروج على القياس". وما أحسّ به هو أنَّ الجهد البطليموسي الذي بذلته كلّ من النظرية الماركسية واللبرالية في عاولة لـ "إنقاذ الظواهر" للا قد سلب العافية منهما، وأنَّ ما نحتاجه بصورة ماسّة هو تغيير المنظور بنوع من الروح الكوبرنيكية، إذا ما جاز القول. وتتمثّل نقطة الافتراق لديّ في أنَّ الموية القومية -أو الانتماء إلى أمّة، كما قد يُفَضَّل القول نظراً لتعدّد دلالات التعبير الأول- وكذلك القومية، هي نتاجات ثقافية من نوع عدد. ولكي نفهمها كما ينبغي نحتاج أن نعن النظر في كيفية بروزها إلى حيّز الوجود التاريخي، وكيفية تغيّر معانيها عرور الزمن، وما نجعلها تحوز اليوم ما تحوزه من شرعية وجدانية عميقة. وسوف أحاول أن أبيّن أنَّ خَلْق هذه النتاجات حوالي نهاية القرن الثامن عشر الما لخلاصة العفوية الي نحمت عن "تقاطع" معقّد بين قوى تاريخية متعددة؛ لكنها ما إنْ خُلِقَتْ حتى غدت اقياسيّة"، قابلة لأن تُزْدَرع، بدرجات محتلفة من وعي الذات، في ضروب من التربة الاجتماعية متباينة أشد التباين، ولأن تندمج في تشكيلات سياسية وإيديولوجية مختلفة أشد الاختلاف. وسوف أحاول أن أبيّن أيضًا تلك الأسباب الي جعلت هذه النتاجات الثقافية الحدّدة تثير ما تثيره من ضروب الارتباط العاطفي العميق.

### 1/1) مفاهیم وتعریفات

يبدو من الأفضل، قبل أن نتناول الأسئلة الت سبق طَرْحُها، أن ننظر بإنجاز في مفهوم "الأمّة" ونقدّم له ذلك التعريف العملي القابل للاستخدام، فمنّظرو القومية كثيرًا ما ارتبكوا، كي لا نقول اغتاظوا، أمام المتناقضات الثلاث التالية: (1) الحداثة الموضوعية الت تبدو عليها الأمم في عين المؤرّخ مقابل القِدَم الذاتي الذي تبدو عليه في أعين القوميين. (2) الكونية الشكلية الت تتسم بها الهوية القومية كمفهوم اجتماعيّ ثقافي ّ حيث يمكن لكل أحد في العالم الحديث أن تكون "له" أو "لها" نوعاً أن تكون "له" هوية قومية، ولا بدّ أن تكون له مثل هذه الهوية، مثلما أنَّ "له" أو "لها" نوعاً جنسياً مقابل الخصوصية العُضال الت تتسم بها بُلياتها الملموسة، حيث تبدو الهوية القومية "اليونانية"، بالتعريف، فريدة وفذة. (3) القدرة "السياسية" الت تتمتّع بها القوميات مقابل فقرما الفلسفي، بل وعدم عاسكها. وبعبارة أخرى، فإنَّ القومية، كلاف معظم الإيّات الأخرى، فقر ما الفلسفي، بل وعدم عاسكها. وبعبارة أخرى، فإنَّ القومية، كلاف معظم الإيّات الأخرى، هذا "الفراغ" من السهل أن يفضي، بين المثقفين الكوسوبوليتانيين ومتعددي اللغات، إلى نوع هذا "الفراغ" من السهل أن يفضي، بين المثقفين الكوسوبوليتانيين ومتعددي اللغات، إلى نوع هذا "الفراغ" من السهل أن يفضي، بين المثقفين الكوسوبوليتانيين ومتعددي اللغات، إلى نوع

من الشعور بالتفوّق. ومثلما قالت غرترود شتاين عن أوكلاند، قد يسارع المرء إلى استنتاج أنّه "لا يحد أيَّ هناك هناك" أبياً. وإنّه لمن اللافت أن يكتب دارس للقومية مثل توم نايرن، على الرغم من تعاطفه الشديد، أنّ ""القومية" هي مرض التاريخ التطوري الحديث، فلا مفرّ منها شأنها شأن "العصاب" لدى الفرد، حيث يكتنفها إلى حدِّ بعيد الإبهام الجوهري ذاته، وتتمتع بالقدرة الأساسية ذاتها على التدهور والتحول إلى ضَرْبٍ من العُثّه، الذي يضرب يحذوره في معضلات الضعف والعجز المنتشرة في معظم أرجاء العالم (مكافئ الطَّفالة بالنسبة إلى المجتمعات) والي لا واء لما بوجه عام "[8].

ويتمثّل جزء من الصعوبة في أنَّ المرء يميل بصورة لاواعية لأن يبالغ في تصوره وجود القومية فيعاملها معاملة الاسم العلم (كما يمكن أن يتعامل مع العصر) ثم يميل لأن يصنَّف "ها" كواحدة من الإيديولوجيات. (لاحظوا أنّه إذا ما كان لكلِّ امرئ عصرٌ، فإنَّ هذا الأخير مجرد تعبير تحليلي). وإنه لما يجعل الأمور أسهل، في اعتقادي، أن نتعامل مع القومية على أنّها من قبيل "القرابة" و"الدين"، وليس "اللبرالية" أو "الفاشية".

إليكم، إذاً، هذا التعريف للأمّة، الذي أقترحه بروح أنثروبولوجية: الأمة هي جماعة سياسية مُتَخَيَّلَة، حيث يشمل التخيّل أنها محدّدة وسيّدة أصلاً.

وهي متخيَّلة لأنَّ أفراد أيَّة أمَّة، ما فيها أصغر الأمم، لن عِكنهم قطَّ أن يعرفوا معظم نظرائهم، أو أن يلتقوهم، أو حتى أن يسمعوا بهم، مع أنَّ صورة تشاركهم تعيش حيّة في ذهن كلِّ واحد منهم 191. ولقد أشار رينان إلى هذا التخيّل بطريقته المبطّنة المنمقة حين قال: "والحال، إنَّ جوهر الأمّة يتمثّل في وجود الكثير من الأشياء المشتركة بين سائر أفرادها، وفي أنّ سائر هؤلاء قد نسوا أشياء عديدة" [110]. ويقدّم غلنر بشيء من الحدّة ما يمكن مقارنته عا يقدّمه رينان، حيث يقرّر أنَّ "القومية ليست يقظة الأمم على وعي ذاتها: إنها تخترع الأمم حيث لا وجود لها" لللله. غير أنَّ العيب في هذه الصياغة يتمثّل فيما يبديه غلنر من قلق شديد لأن يبيّن أنّ القومية تتخفّى وراء مزاعم زائفة عا يدفعه لأن بحوّل "الاختراع" إلى "تُلفيق" و"زيف"، وليس إلى "تخيّل" و"خَلْق". وبذلك يكون ما يعنيه أنَّ هنالك جماعات تمتاز عن الأمم إذ تُقارَن معها بانها "حقيقية". والحال، أنَّ كلِّ الجماعات الت تفوق في حجمها حجم أبسط القرى القائمة على التماس والاتصال المباشرين (ورعا هذه القرى أيضًا) هي جماعات متخيّلة. والتمييز بين الجماعات لا ينبغي أن يكون تبعاً لزيفها/أصالتها، بل تبعاً لنمط تخيّلها. ولطالما أدرك قرويّو جاوة أنهم مرتبطون بأناس لم تسبق لهم رؤيتهم، لكن هذه الروابط كان قد تمّ تُخيّلها ذات مرّة على نحو معيّن وخاص؛ بوصفها شبكات قرابة وتبعيّة قابلة للامتداد إلى ما لا نهاية. وحتى فع ة قريبة عَاماً، لم يكن في اللغة الجاوية أيّ كلمة تدلّ على التجريد الذي تشير إليه كلمة "مجتمع". وقد ننظر اليوم إلى الأرستقراطية الفرنسية أيام النظام القديم على أنَّها طبقة؛ لكنَّه من المؤكد أنَّه لم يَجْر تخيّلها على هذا النحو إلاّ في فترة متأخّرة كثيرًا للكلِّه. فالسؤال "من هو كونت المنطقة س؟" لم يكن جوابه المعتاد "أحد أفراد الأرستقراطية"، بل "لورد المنطقة س"، أو "عم بارون المنطقة ع"، أو "تابع دوق المنطقة ص".

ويجري تخيّل الأمّة على أنّها محدّدة لأنّ لجميع الأمم، عا فيها أكبرها التي قد تضمّ بليون نسمة، حدودها النهائية، وإنْ كانت مرنة، والتي تقع خلفها الأمم الأخرى. فما من أمّة تتخيّل أن حدودها هي حدود البشرية جعاء. بل إنَّ أعتى القوميين المسيانيين [الخلاصيين] لا يحلمون بيوم ينضمُ فيه أفراد الجنس البشري جميعاً إلى أمّتهم على ذلك النحو الذي أَمْكَنَ فيه للمسيحيين، مثلاً، وفي عهود معينة، أن يحلموا بكوكب مسيحينً عاماً.

وكري تخيّل الأمّة على أنّها سيّدة لأن مفهوم الأمّة وُلِدَ في عصر كان يطيح فيه التنوير والثورة بشرعية الملكة السلالية التراتبية، المفروضة إلهياً. ولأنَّ الأمم بلغت حالة النضج في مرحلةٍ من التاريخ البشري كان لا بدّ فيها حتى لأتقى المؤمنين بأيّ ديانةٍ كونية من أن يواجهوا ما تشتمل عليه مثل هذه الديانات من تعدّدية حيّة، ومن كثرة أشكال الارتباط بين المزاعم الانطولوجية لكلِّ عقيدة وحيّرها الإقليمي، فإنها تحلم أن تكون حرّة، وأن تكون تحت الله مباشرة، إذا ما كان عليها أن تكون تحة، والدولة السيّدة هي رمز هذه الحرية ومقياسها.

وأُخيراً، عَرِي غَيِّل الأمَّة على أنَّها جَاعَة، لأنَّ الأمة يتمَّ تصورها على الدوام كعلاقةٍ رفاقيةٍ الفقيةِ ، أفقيةٍ ، عميقةٍ مهما يكن انعدام المساواة والاستغلال الفعليين السائدين. فهذه الأخوة هي، في النهاية، ما مَكَّنَ ملايين كثيرة من البشر، خلال القرنين الماضيين، لا من أن تَقْتُل وحسب، بل من أن تَقتُل وحسب، بل من أن تَقتُل وحسب، بل

وهذه الميتات تضعنا وجهاً لوجه أمام المشكلة المركزية التي تطرحها القومية: ما الذي يحكن التخيّلات الحدودة التي عرفها التاريخ القريب (الذي لا يكاد يتخطّى القرنين) تولّد مثل هذه التضحيات الضخمة؟ ما أعتقده هو أنَّ بدايات الإجابة عن هذا السؤال تكمن في الجذور الثقافية للقومية.

# 2) جذورٌ ثقافية

ليس ثمّة رموز للثقافة القومية الحديثة تفوق أضرحة الجنود الجهولين في لفتها الأنظار واسترعائها الانتباه. وما تناله هذه النُّصب من إجلال طقسيّ عام لا سابق في الازمنة القديمة الله ولمو يعود على وجه الدّقة إلى كونها فارغة عن قصد أو إلى أنَّ أحداً لا يعلم من الذي يرقد في داخلها. ولكي يتحسّس المرء قوّة هذه الحداثة ليس عليه سوى أن يتخيّل ردّة الفعل العامة التي عكن أن تواجه الفضوليّ الذي "يكتشف" اسم الجندي الجهول أو يصرّ على ملء الضريح ببعض العظام. يا له من انتهاكِ للحرمات من ذلك النوع الغريب، المعاصر! فعلى الرغم من خلو هذه القبور من أيّة بقايا فانية أو أرواح خالدة عكن تحديدها، إلاّ أنّها مُثرَعة بالتخيّلات القومية الشبحية الثالث النه وهذا هو السبب في أنّ لدى كثير من الامم المختلفة مثل هذه القبور من ادون أن تشعر بأيّ حاجة إلى تحديد جنسية شاغليها العائبين أو هويتهم القومية. فهل عكن أن يكونوا سوى ألمان، أو أميركيين، أو أرجنتينين...؟).

وينتضح المفزى الثقافي لمثل هذه النصب مزيداً من الوضوح حين كاول المرء أن يتخيّل، مثلاً، ضراعاً للماركسي الجهول أو نُصُباً تذكارياً للبراليين الذين لقوا مصرعهم. ألن نحسّ بالسخف والهبث الأكيدين في هذه الحالة؟ ذلك أنَّ الماركسية واللبرالية لا تُعنيان كثيرًا بالموت والخلود. وإذا ما كُان التخيّل القومي شديد العناية بهما، فذلك يوحي بألفة قوية مع التخيّلات الدينية. ولأنَّ هذه الألفة ليست بالأمر العَرَضيّ على الإطلاق، فإنّه قد يكون من المفيد أن نبدأ بحثنا في الجذور

الثقافية للقومية بالموت، بوصفه الدرجة الأخيرة في سُلَّم ضروب القضاء.

تبدو طريقة موت الإنسان اعتباطيةً في العادة، أمّا فناؤه فأمر محتوم لا مفرّ منه. وحياة البشر مترعة بمثل هذه الضروب من التضافر بين الضرورة والمصادفة. فنحن ندرك جيعاً ما يتَّسم به تركيبنا الوراثي، وجنسنا، وأمَد حياتنا، وقدراتنا البدنية، ولغتنا الأم، وسواها من عَرَضيَّة وحتميَّة. ومن أعظم مزايا رؤى العالم الدينية التقليدية (الت ينبغي، بالطبع، أن نفرّق بينها وبين الدور الذي تمارسه في إضفاء الشرعية على أنظمة السيطرة والاستغلال) أنها عُنِيت بالإنسان -في-الـ سكون، وبالإنسان ككائن من جنس معيّن، وبعَرَضيَّة الحياة. وما استمرار البوذية، أو المسيحية، أو الإسلام ذلك الاستمرار الاستثنائي على مدى ألاف من السنين، وفي عشرات التشكيلات الاجتماعية المختلفة، سوى دليل على استجابتها المبدعة حيال ذلك العبء الثقيل من المعاناة البشرية: المرض، والتشوُّه، والحزن، والشيخوخة، والموت. لماذا وُلِدْتُ ضريراً؟ لماذا شُلَّ أعرِّ أصدقائي، لماذا ابنت مُعَوَّقة عقلياً؟ تحاول الديانات أن تفسّر. أمّا أساليب التفكير التطورية /التقدّمية جميعاً، عا فيها الماركسية، فتكمن نقطة ضعفها الكبرى في أنها لا تردّ على مثل هذه الأسئلة سوى بالصمت المتبرّم [13]. بل إنّ الفكر الدين يستجيب أيضًا، وبطرائق شتَّى، للرغبة الفامضة في الخلود، الأمر الذي يتمّ عموماً عبر تحويل القضاء إلى نوع من الاستمرار (الكارما، الخطيئة الأصلية، الخ). وهو يهتمّ، على هذا النحو، بالصلات بين الموتىّ والذين لم يولدوا بعد، أي بلغز التجدد. ومَنْ مِنَّا الذي يعيش الحَمْل بطفله ثم ولادته دون أن يحسّ على نحو ما بتضافر كلّ من الترابط، والمصادفة، والقضاء في إطار من "الاستمرار"؟ (مرّة أخرى، تتمثّل إحدى سيئات الفكر التطوريّ ∕التقدمي في ذلك العداء ألمير اقليطي الله فكرة أ عن الاستمرار).

وما يدفعن إلى طرح هذه الملاحظات الت قد تكون ساذجة هو في المقام الأول أنَّ القرل الثامن عشر في أوروبا الغربية لم يكن فَجْرَ عَصْرِ القوميةِ وحسب بل كان أيضًا غسق الطرائق الدينية في التفكير. وقَرنُ التنوير والعلمانية العقلانية هذا جلب معه ظلامه الحديث الخاص. والمعاناة الي لعب الإيمان الدين دوراً في تكوينها لم تحتفِ بالحسار هذا الإيمان. فإذا ما كان الفردوس قد تفكّك، فإنَّ ذلك قد جعل القضاء اعتباطياً على ذلك النحو الذي لا يفوقه فيه أيّ شيء أخر. وإذا ما كان الخلاص سخف وتخاريف، فإنَّ ذلك يجعل قيام عط أخر من أنماط الاستمرار أمراً ضرورياً على ذلك النحو الذي لا يفوقه فيه أيّ شيء اخر. وما كان مطلوباً عندئذ هو تحويل علماني للقضاء إلى استمرار، والاعتباط إلى معنى، وسوف نرى انَّ قلّة من الأشياء وحسب مي علماني للقضاء إلى استمرار، والاعتباط إلى معنى، وسوف نرى انَّ قلّة من الأشياء وحسب مي التي كانت (ولا تزال) تلائم هذه الغاية أكثر من فكرة الأمة. فإذا ما كانت الدول الأمم شعنًا تعدو نطاق واسع "جديدة" و"تاريخية"، إلا أنَّ الأمم التي تعبّر عنها هذه الدول الأمم سياسياً تعدو على الدوام من ماض موغل في القِدَم الله من ذلك أنها تبدو منزلقة إلى مستقبل لا حد على الدوام من ماض موغل في القِدَم الى مصير. وبكن أن نقول مع دوبريه: "أجل، أنها لمادفة عضة أنن وُلِدْتُ فرنسياً؛ لكن فرنسا خالدة على أيّ حال".

رولا حاجة للقول إني لا أزعم أنَّ ظهور القومية حوالي القرن الثامن عشر قد كان "نتاجاً" للتلكل اليقينيات الدينية، أو أنَّ هذا التآكل لا يحتاج هو ذاته إلى تفسير مركب. كما أني لا أشير إلى أنَّ القومية "تُبْطِلُ" الدين تاريخياً على نحو ما. فما أقتر حه هو أنَّ القومية لا ينبغي أن تُفْهَم عبر ربطها بالإيديولوجيات السياسية المُتَبَنَّاة بوعي، بل عبر ربطها بالمنظومات الثقافية الكبرى التي سبقتها، والي ظهرت إلى الوجود انطلاقاً منهاً وضدها في أن معاً.

وسوف نتناول، في حدود الأغراض التي يتوخّاها هذا الكتاب، اثنتين من المنظومات الثقافية ذات الصلة، هما الجماعة الدينية والمملكة السلالية.

### 1/2) الجماعة الدينية

قليلةٌ هي الأشياء الن تثير العجب كما يثيره ذلك الامتداد الإقليمي الشاسع الذي عُتدّه أمّة الإسلام من المغرب إلى أرخبيل سولو [جنوب غرب الفِلبين، ثد]، وعتده العالم المسيحي من الباراغوي إلى اليابان، ويمتدّه العالم البوذي من سريلانكا إلى شبه الجزيرة الكورية. فالثقافات القدسيّة الكبرى (الت يمكن، لأغراضنا في هذا الكتاب، أن نضيف إليها "الكونفوشية") تشتمل على تصوّر جماعات هائلة. إلاّ أنَّ تحيّل العالم المسيحي، وأمّة الإسلام، وحتى المملكة الوسطى -الي لم تكن تتخيّل ذاتها على أنها صينية بل على أنها مركزية، مع أننا نحسبها اليوم صينية-كان كِري في قَدْر كبير منه عبر وسيط اللغة المقدسة والنصّ المقدّس المُدوَّن. خُذِ الإسلام، مثلاً: جِين يلتقي مسلم من ماجنداناو مع مسلم من البربر في مكَّة، من دون أن يعرف واحدهما أيّ شيء من لغة الآخر، ويمجز عن التواصل الشفهي معه، فإنهما يفهمان على الرغم من ذلك علامات واحدهما الآخر الكتابية، لأنَّ النصوص المقدَّسة التي يتقاعانها لا توجد إلاَّ بالعربية الفصحى، وبهذا المعنى، فإنَّ اللغة العربية المكتوبة تعمل عمل الحروف الصينية في خَلْق جاعةٍ من خلال العلامات، لا من خلال الأصوات. (هكذا تواصل لغة الرياضيات اليوم تقليداً قدعاً. فالروماني ليس لديه أدنى فكرة عن الكلمة التي يعبّر بها التايلندي عن +، والعكس : بالمكس، لكن كليهما يدركان ما يعنيه هذا الرمز). والجماعات الكلاسيكية الكبرى جميعها كانت تتصوّر أنّها في مركز الكون، عبر وسيطِ لغةٍ مقدّسةٍ مرتبطةٍ بنظام قوّةٍ فوقارضيّ. وعلى هذا الأساس، كان امتداد اللاتينية، أو الباليّة، أو العربيّة، أو الصينية المكتوبة غير محدود، نظرياً. (والواقع أنّه كلما كانت اللغة المكتوبة أكثر مواتاً، أي كلما قلّ استخدامها في الكلام، كان ذلك أفضل حيث يكون لكلِّ امرئ، من حيث المبدأ، منفذ إلى عالم من العلامات خالص ونقيّ).

غير أنَّ لهذه الجماعات الكلاسيكية التي تترابط من خلاًل اللغات المقدسة خاصية عيرها عن جماعات لامم الحديثة المتحققة ويتمثّل أحد الفروق الحاسمة في ثقة الجماعات القديمة بقدسيّة لغاتها الفريدة، وتالياً في أفكارها المتعلقة بقبول الاعضاء. فكبار الموظفين الصينيين كانوا ينظرون بعين الرضا إلى البرابرة الذين تعلموا بعد لأي رسم العلامات الكتابية التي كانت تستخدمها المملكة الوسطى. ذلك أنَّ هؤلاء البرابرة يكونون قد تخطّوا منتصف الشوط على

طريق استيعابهم الكامل [2]. ونصف المتحضِّر أفضل عا لا يُقاس من البربري، ومن المؤكِّد أنَّ مثلاً ، مثل هذا الموقف لم يكن مقتصراً على الصينيين، ولا حكراً على العصور القديمة، خُذْ، مثلاً ، "سياسة التعامل مع البرابرة" التي صاغها اللِبرالي الكولمي بيدرو فيرمين دي فارغاس في أوائل القرن التاسع عشر:

لكي نتوسّع في زراعتنا من الضروري أَسْبَنَة هنودنا. ذلك أنَّ بلادتهم. وغباوتهم، ولا مبالاتهم بالمساعي المعتادة تدفع المرء لأن يحسب أنّهم قد تحدّروا من عِرْقِ منحطٌ يزداد تدهوراً كلما ابتعد عن أصله . . إنّه لمن المرغوب فيه كثيرًا أن يفنى الهنود، عبر تزاوجهم مع البيض، وإعفائهم من الخراج وسواه من الالتزامات، وتمليكهم الأرض ملكية خاصة أكلًا.

إنّه لمن المدهش أنَّ هذا اللِبرالي لايزال يدعو إلى "إفناء" هنوده عن طريق "إعفائهم من الخراج" و"عليكهم الأرض ملكية خاصة"، بدلًا من القضاء عليهم بالبنادق والجراثيم على النحو الذي سرعان ما مارسه ورثّتُهُ في البرازيل، والأرجنتين، والولايات المتحدة. ولنلاحظ أيضًا ما لدى فيرمين من تفاؤل كونيّ، إلى جانب قسوته المتعطّفة: فالهندي قابل للإصلاح في النهاية، بإلقاحه بنطفة بيضاء، "متحضّرة"، ومنحه ملكية خاصة، مثل أيّ أحدٍ آخر. (ويالاختلاف موقف فيرمين عن تفضيل الإمبريالي الأوروبي لاحقاً الملاويين، والجورخا، والهوسا "الاقحاح" على "المولّدين"، و"أنصاف المتعلمين الحلين"، و"الملوّنين"، وأضرابهم).

بيد أنَّه إذا ما كانت اللغات المقدسة الصامتة تلك الوسيلة الى مَّ عبرها نخيُّل الجماعات العالمية الكبرى في الماضي، إلا أنَّ واقع تلك الرؤى كان يستند إلى فكرةٍ غريبةٍ كثيرًا على العقل: الغربي المعاصر: عدم اعتباطية العلامة. فالعلامات الكتابية الصينية، أو اللاتينية، أو العربية كانت انبعاثات من الواقع، وليست عميلات له غُتلَقةً على نحو عشوائي. وغن نعرف ذلك الخلاف المبيد حول اللغة الى تناسب عامة الشعب (اللاتينية أم الحلية). وفي التقليد الإسلامي، ظلُّ القرآن، حتى فترة جدّ قريبة، غير قابل للترجمة الحرفيّة (ولذلك لم يُتَرْجَم)، لأنَّ الحمّ الإلمي لا عكن النفاذ إليه إلا عبر علامات العربيةُ المكتوبة الصحيحة التي لا مجال للاستعاضة عنها. فما من فكرة هنا عن عالم منفصل عن اللغة أشدّ الانفصال حيث تكون اللغات جيعاً علامات عليه تقف على مسافةً واحدة (ما يمكن من إحلال لغةِ محل أخرى). فالواقع الأنطو لوحي لا عكن أن أُعاط به إلا عبر منظومة واحدة ومتميّرة من منظومات التمثيل: لاتينية الكنيسة، أو **عربيّة القرآن،** أو صينية الامتحان، الت تُعَدّ كلّ واحدةٍ منها لغةً للحقّ<sup>171</sup>. ولأنّ هذه اللغات هي لغات الحقّ، فإنها مفعمة بدافع غريب على القومية، هو الدافع إلى المداية. وما أعنيه بالمداية لا يقتصر على تقبّل عقائد دينية معينة، بل يتعدّاه إلى الاستيعاب الخيم يائي القائم على التحوّل الجوهريّ، حيث يغدو البربريّ من أبناء "الملكة الوسطى" والريابيّ مسلماً، والإلونغو مسيحياً. فطبيعة الكائن الإنساني ليّنة ومطواعة برمّتها إزاء القداسة. (قارن على هذا الأساس بين تلك الهيبة الي تحوزها هذه اللغات العالمية القديمة، التي تُرْفع أعلى بكثير من

حميع اللغات الحلية، والإسبرانتو أو الفولابُك إصلى التي تقبع بينها في حالٍ من التجاهل والإهمال). وإمكانية المداية عبر اللغة المقدسة هي، في النهاية، ما عكن "إنغليزياً" من أن يصبح بابا [8] وما عكن "مانشو" من أن يصبح ابن السماء.

غير أنّه على الرغم من أنّ اللغات المقدّسة جَعَلَتْ جاعاتٍ مثل العالم المسيحي قابلة للتخيّل، إلاّ أنّ المدى الفعلي الذي وصلته هذه الجماعات والمعقولية التي تنطوي عليها لا يمكن تفسيرهما بالنصّ المقدّس وحده ذلك أنّ قرّاء هذا النصّ لم يكونوا، في النهاية، سوى شعاب متعلّمة ضئيلة ترتفع فوق محيطاتٍ شاسعة من الأمّيين [2]. ويقتضي التفسير الأكمل أن نلقي نظرةً على العلاقة بين المتعلمين ومجتمعاتهم. فمن الخطأ أن ننظر إلى أولئك المتعلمين على أنّهم نوع من التكنوقراطية اللاهوتية. فاللغات الي كانوا يكلأونها برعايتهم لم يكن فيها، على الرغم من البهامها، أيّ شيء من ذلك الإبهام المقصود الذي نجده في رطانات الحامين أو الاقتصاديين، على هامش الفكرة الي بحملها المجتمع عن الواقع. والأحرى، أنَّ هؤلاء المتعلمين كانوا نوعاً من الخبراء، أو شريحة استراتيجية ضمن تراتب كونيّ ذروته السماء الأال التصورات الأساس عن "الجموعات الاجتماعية" تصورات مركزية وتراتبية، وليست طَرَفيّة التوجّه أو أفقيّة. ولا يمكننا أن نفهم تلك القوة المذهلة الي كانت البابوية تتمتّع بها أيّام عزّها إلا من خلال الإكليروس بمناده أنَّ الإنتلجنسيا ثنائية اللغة بتوسّطها بين اللغة الحلية واللغة اللاتينية، إنّا تتوسّط بين المقدة أنَّ الإنتلجنسيا ثنائية اللغة بتوسّطها بين اللغة الحلية واللغة اللاتينية، إنّا تتوسّط بين الأرض والسماء. (تعكس رهبة الحرمان الكنسيّ هذه النظرة إلى الكون).

وعلى الرغم من كلَّ عظمة الجماعات الكبرى المُتَخَيِّلُة دينياً وقوّتها، فإنَّ قاسكها غير الواعي راح يضعف باطراد بعد أواخر العصور الوسطى، ومن بين أسباب هذا التدهور أودُّ هنا أن أشدّد على اثنين وحسب يتعلَّقان مباشرةً بالقداسة الفريدة اليّ ميّرت هذه الجماعات.

الأول، هو أثر عمليات استكشاف العالم غير الأوروبي، التي عملت في أوروبا بصورةٍ أساس لكنها غير حصرية على "توسيع الأفق الثقافي والجغرافي فجأةً كما عملت تالياً على توسيع تصوّر البشر لأشكال الحياة الإنسانية المكنة الله وهذا ما نحده واضحاً في كتب الرحلات الأوروبية العظيمة جميعها، خُذْ هذا الوصف المذهول الذي يصف به ماركو بولو، المسيحي الصالح من البندقية، قبلاي خان عند نهاية القرن الثالث عشر:

بعد أن أحرز الخان الأعظم هذا النصر البين، عاد إلى المدينة العاصمة كانبالو في موكب نصر عظيم. وكان ذلك في شهر تشرين الثاني، وظلَّ مقيماً هناك خلال شهري شباط وآذار، اللذين كان فيهما عيد قصحنا. ولما كان على بيّنةٍ من أنَّ هذا العيد هو واحد من احتفالاتنا الأساس، أمر المسيحيين جيعهم بالمثول بين يديه، وأن مجملوا معهم كتابهم، الذي يحتوي على أناجيل الأنجيليين الأربعة. وبعد أن أمر بتعطيره بالبخور مرّات، في مراسم احتفالية، قبّله بخشوع، وأشار إلى جميع نبلائه الحاضرين أن يحذوا حذوه، وكانت هذه عادته اليّ جرى عليها في الأعياد المسيحية الأساس جيعاً، كالفصح

وعيد الميلاد؛ وكان يلتزم الشيء ذاته في أعياد المسلمين، واليهود، والوثنيين، ولما سُئِلَ عمّا يدفعه إلى هذا المُسْلَك، قال: "هناك أربعة أنبياء عظام تَجلَهم وتعبدهم مختلف فئات البشر. فللسيحيون يعدون يسوع المسيح إلههم؛ والمسلمون، عمداً؛ واليهود، موسى؛ والوثنيون، سوجوعباركان، أبرز أصنامهم. وأنا أُجِلُ الأربعة جيعاً وأُظْهِر لهم الاحتزام، وأدعو لنجدتي أعلاهم في السماء كائناً من كان". ولكن الطريقة التي كان يتصرف بها جلالته حيالهم تبيّن أنّه كان يعدّ عقيدة المسيحيين الاصدق والاحسن... [112].

واللافت في هذا المقطع ليس النسبيّة الدينية الرائقة لدى وارث حكم المغول العظيم (فهي تبقى نسبية دينية)، بل موقف ماركو بولو ولغته. فلم يخطر له قطّ أن يصف قبلاي بالمنافق أو الوثي، مع أنّه كان يكتب لمسيحيين أوروبيين مثله. (ولا شكّ أنّ ذلك يعود في جزء منه إلى أنَّ قبلاي خان "من حيث عدد الرعايا، واتساع المساحة، وحجم الإيرادات، يبزُ كلّ مليك ظهر إلى الآن أو لايزال يعيش في هذه الدنيا") 131 وككن لنا أن نتبيّن في استخدام ماركو بولو غير الواعي "نا" الدالة على الجماعة (والت تغدو "هم")، وفي وصف عقيدة المسيحيين بأنها "الأصدق"، لا بأنها "صادقة" وحسب، بذور إضفاء الطابع الإقليمي على الأديان والذي يستبق لغة كثير من القوميين (أمّد"نا" هي "الأحسن"، إذا ما جرت المقايسة والمقارنة).

ويا له من تعارض موح ذاك الذي تقدّمه افتتاحية الرسالة الت كتبها الرحّالة الفارسي "ريكا" إلى صديقه "أيبّن" من باريس عام (1712) [في كتاب مونتسكيو ‹رسائل فارسية›]:

البابا رأس المسيحيين؛ وهو صنم قديم، يُعْبَد الآن بحكم العادة. وقد كان في السابق يرهبه الأمراء أنفسهم، إذ كان مقدوره أن يخلعهم بالسهولة التي يخلع بها سلاطيننا العظام ملوك إرمينية وجورجيا. لكن أحداً لم يعد يخشاه. وهو يرعم أنّه خليفة واحد من المسيحيين الأوائل، يُدعى القديس بطرس، ولا شكّ أنّها خلافة دعة، لأنّ لديه كنوزاً هائلة وبلداً عظيماً طوع بنائه 1414.

هذه الاختلاقات المتعمَّدة، المُتُقَنَة التي قدّمها كاثوليكي من القرن الثامن عشر [مونتسكيو] أمّا تعكس الواقعية الساذجة لدى سلفه من القرن الثالث عشر [ماركو بولو]، لكن "النسبية" و"الإقليمية" باتتا الآن واعيتين عاماً، وعُملان قصدية سياسية. فهل نجافي المنطق إذ نرى في تحديد أية الله روح الله الخمين هوية الشيطان الأكبر - ليس كبدعة، أو حتى كشخص شيطاني (فكارتر الضئيل البليد لا يفي بالحاجة)، بل كه أمّة - إحكاماً لهذا التقليد المتنامي، على الرغم من المفارقة الن ينطوى عليها؟

أمًا السبب الثاني، فهو تدنّي شأن اللغة المقدّسة ذاتها على ذلك النحو التدري. ولقد لاحظ بلوخ، في سياق كتابته عن أوروبا الغربية القروسطية، أنَّ "اللغة اللاتينية لم تكن لغة التعليم الوحيدة وحسب، بل كانت أيضًا اللغة الوحيدة التي تُعَلَّم "أَكَلًا. (وكلمة "الوحيدة" الثانية هذه تبيّن بوضوح تام قدسية اللاتينية، فلم يكن يخطر في بال أن ثمّة لغة أخرى جديرة بالتعلّم). غير أنّه سرعان ما تغيّر ذلك كلّه كلول القرن السادس عشر. ولن نتوقّف هنا عند أسباب هذا

التغيّر، فسوف نناقش لاحقاً تلك الأهمية المركزية الن اتسمت بها رأسمالية الطباعة. حَسْبنا أن نتذكّر مداها وسرعتها، حيث يقدّر فيفر ومارتن أنّ 77% من الكتب المطبوعة قبل العام 1500 كانت لاتزال باللاتينية (الأمر الذي يعن أيضًا أنَّ %23 من الكتب كانت باللغات الحلية) 1161. وإذا ما كانت 8 طبعات فقط، من إجمالي 88 طبعة صدرت في باريس 1501، هي باللاتينية، فإنَّ غالبية الطبعات كانت بالفرنسية بعد العام 1575 ل171 . وعلى الرغم من التراجع المؤقت أثناء الإصلاح المضاد، فإنّ هيمنة اللاتينية كانت قد آلت إلى الزوال. ونحن لا نتكلم هنا عن شعبيتها العامة وحسب. فبعد ذلك بقليل، وبسرعةٍ مذهلةٍ بالمثل، كفّت اللاتينية عن أن تكون لغة الإنتلجنسيا الأوروبية الراقية. ففي القرن السابع عشر، ذاع صيت هوبز (1588-1678) في القارّة كلها لأنّه كتب باللغة الحقَّة. أمَّا شكسبير (-1564 1616)، الذي كان يكتب باللغة الحلية، فلم يكن ممروفاً على الضفة الأخرى من القنال القال الله الله الله الإنغليزية لم تَغْدُ، بعد مئتين من الأعوام، اللغة الإمبريالية العالمية البارزة، أما كان عِكن له أن يبقى مفموراً داخل جزيرته كما كان في الأصل؟ وفي هذه الأثناء، كان معاصراه القريبان عبر القنال، ديكارت (1596-1650) وباسكال (1623-1662)، ينجزان معظم مراسلاتهما باللاتينية؛ أما جميع مراسلات فولتير (-1694 1778) فكانت باللغة الحلية [191]. "بعد عام 1640، ومع الخفاض عدد الكتب المكتوبة باللاتينية، وريادة عدد الكتب المكتوبة باللغات الحلية، كفَّ النشر عن كونه مشروعاً دولياً [كذا]"[<del>[20]</del>. وباختصار، فإنَّ \_ سقوط اللاتينية كان عِثّل لسيرورةٍ أكبر راحت فيها الجماعات المقدسة اليّ قام عاسكها على لغات مقدّسة قديمة تتشظى، وتتعدد، وتتمايز مكانياً على نحو متدرّج.

# 2/2) الملكيّة السلالية

رما كان من الصعب في هذه الأيام أن يتصوّر المرء نَفْسَه في عالم تبدو فيه الملكية السلالية لعظم البشر على أنّها النظام "السياسي" الوحيد الذي يمكن تخيّله. ذلك أنَّ الحكم الملكي" الجدّي" يتعارض من نواح أساسية مع جميع التصورات الحديثة عن الحياة السياسية. فالملكيّة تنظم كلّ شيء حول مركز رفيع. وتستمدّ شرعيتها من السماء، لا من السكّان، الذين هم رعايا، في النهاية، وليسوا مواطنين. وفي حين تُبْسَط سيادة الدولة، في التصوّر الحديث، تامةً ومستويةً ومتساويةً على كلِّ سنتمتر مربَّع من إقليم له حدوده القانونية، فإنَّ الحدود، في التخيّل القديم، حيث الدول ثُكِّد بالمراكز، كانت نَفُوذَة وغير متمايزة، والسيادات متداخلة تذوب واحدتها في الأخرى على ذلك النحو الدقيق الذي لا تدركه العين المالات، ومن هنا، ويا للمفارقة، السهولة الي تكنّت بها الإمبراطوريات والمالك ما قبل الحديثة من أن تُحفظ لأماد طويلة من الزمن حكمها على شعوب متغايرة العناصر أشد التغاير، بل ومتباعدة في الغالب [22].

وعلى المرء أن يتذكّر أيضًا أنَّ هذه الدول الملكية القديمة لم تكن تتوسّع عبر الحروب وحدها بل عبر سياساتٍ جنسيةٍ من نوع مختلفٍ كثيرًا عن تلك اليّ تُعارس اليوم. فالريجات السلالية كانت تجمع معاً، على أساس مبدأ التراتب الشاقولي العام، بين شتّى صنوف السكّان تحت قمم جديدة. ويُمَدّ آل هابسبورغ نموذجاً على هذا الصعيد. وكما يقول المثل السائر، "Bella gerant جديدة. ويُمَدّ آل هابسبورغ نموذجاً على هذا الصعيد. وكما يقول المثل أنت أيتها النمسا المحظوظة فتزوجي"]. وهذه ألقاب آخر الحكّام، في شكل مختصر بعض الشيء:

إمبراطور النمسا؛ ملك هنغاريا، وبوهيميا، ودلاتيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، وغاليسيا، ولودميريا، وإليريا؛ ملك القدس، إخ؛ أرشيدوق النمسا [كذا]؛ دوق توسكاني وكراكوف العظيم؛ دوق لوتارينجيا، وسالزبورغ، وستيريا، وكارنثيا، وكارنيولا، وبوكوفينا، دوق ترانسلفانيا العظيم، ومارغريف مورافيا؛ دوق سيلزيا العليا والدنيا، ومودينا، وبارما، و بياسينزا، وغواستيلا، وأوشفتيز وساتور، وتيسكن، وفرايول، وراغوزا، وزارا؛ كونت أمير هايسبورغ وتريول، وكيبورغ، وغورتز، وغراديسكا؛ دوق ترينت وبريزن؛ مارغريف لوسيتز العليا والدنيا وفي استيريا؛ كونت هوهينيمبس، وفيلدكيرش، وبريغنز، وسوننبرغ، الخ؛ لورد تريست، وكاتارو، وأعلى الوينديش مارك؛ فويفود فويفودينا، وسيرفيا العظيم . . إلا 123

هذا ما كان عليه "سجّل زيات آل هابسبورغ، وأسلابهم، وأنهابهم التي لا تُحصى . . [ذلك السجلّ] الذي لم يكن يخلو من وجه كوميدي معين"، كما يلاحظ ياسي بحقّ.

وفي الممالك الت كان فيها تعدد الزوجات عُرَّماً دينياً، كانت منظومات التَّسَرَّي متعددة المستويات أساسية في عاسك المملكة والحفاظ على وحدتها. والحال، أنَّ السلالات الملكية غالباً ما كانت تستمد هيبتها، بصرف النظر عن أيّ هالة تاوية تحيط بها، مما يمكن أن ندعوه عازج الاجناس 1241. ذلك أنَّ مثل هذه الضروب من الاختلاط كانت علامات على مكانة بالغة الرفعة، ومن اللافت أنَّ لندن لم تحكمها سلالة "إنغليزية" منذ القرن الحادي عشر (إن لم يكن قبل ذلك)؛ ومن ثمَّ، ما "الجنسية" أو"الموية القومية" اليّ يمكن أن ننسبها إلى آل بوربون؟ [25].

بيد أنَّ الشرعية الألية التي كانت تحظى بها الملكية المقدسة راحت تشهد انهيارها البطيء في القرن السابع عشر، وذلك لأسباب لن نتوقف عندها الأن. ففي العام 1649، قُطِع راس تشارلر ستيوارت في أولى ثورات العالم الحديث، وفي خمسينيات القرن السابع عشر كان وصيّ عاميّ وليس ملكاً هو الذي يحكم واحدةً من أهمّ الدول الأوروبية. غير أنَّ أن ستيوارت كانت لا تزال تشفي المرضى بلمستها الملكية حتى في عصر بوب وأديسون، وهذا ما كان يفعله أيضًا أل بوربون، لويس الخامس عشر والسادس عشر، في فرنسا التنوير حتى نهاية النظام القديم 1261. أما لويس الحام 1789 فبات من الواجب الدفاع عن مبدأ الشرعية ذلك الدفاع المدرك الصريح، وغدت "الملكية"، في سياق ذلك، نموذجاً شبه معياريّ. وغدا تينو وابن السماء [25] "أباطرة". وفي سيام البعيدة أرسل راما الخامس (شولالونكورن) أبناءه وأبناء أخوته إلى بلاطات سان بطرسبورغ ولندن وبرلين لكي يطّلعوا على تعقيدات هذا النموذج العالمي. وفي العام 1887 بسنّ المبدأ الخاص بخلافة الابن الشرعي البكر، وبذلك جعل سيام "تتماشي مع ملكيات أوروبا "المتحضّرة" الحرّل. وفي العام 1910، بوّا النظام الجديد سدّة العرش لوطياً غريب الأطوار من "المتحضّرة" المتحضّرة والعام 1910، بوّا النظام الجديد سدّة العرش لوطياً غريب الأطوار من "المتحضّرة" المتحسّرة العرب القطوار من المتحسّرة العرب المتوزي النظام الهديد المتحسّرة العرب الأسلام المتعرب المتعرب المتعرب النظام المتعرب ا

المؤكَّد أنّه ما كان له أن يحتلَّ مثل هذا الموقع في عصر سابق. غير أنَّ موافقة اللوك على اعتلائه العرش باسم راما السادس مُهرَتْ بحضور أمراء من بريطانيا، وروسيا، واليونان، والسويد، والدغارك، واليابان حفل تتويد [28].

وحتى العام 1914، كانت الدول الملكية السلالية لا تزال تشكّل غالبية أعضاء النظام السياسي العالمي، غير أنَّ كثيرًا من الملوك السلاليين، كما سنرى أدناه بالتفصيل، كانوا كاولون الحصول على خَتْم "قوميّ" بعد ذلك الذبول الصامت الذي اعترى مبدأ الشرعية القديم. وفي حين كانت جيوش فريدريك الأكبر (1740-1786) تعجُّ بـ "الأجانب"، فإنَّ جيوش فريدريك فلهلم الثالث (1797-1840) كانت "بروسية-قومية" على وجه الحصر [29]، نتيجة الإصلاحات المشهودة الي أجراها كلَّ من شارنهورست، وغنيسينو، وكلاوسفيتز.

## 3/2) إدراك الزمن

إنّه لمن قِصَر النظر، على أيّ حال، أن نحسب أنَّ أمر جاعات الأمم المُتَخَيَّلَة لا يتعدّى خروجها من أحشاء الجماعات الدينية والملكيات السلالية وحلولها علها. ذلك أنَّ انهيار الجماعات، واللفات، والسلالات المقدّسة كان يخفي تحته ما كان يعتري طرائق إدراك العالم من تغيّر جوهريٍّ عَمِلَ، أكثر من أيّ شيء آخر، على جعل "التفكير" في الأمة أمراً محكناً.

ولكى نأخذ فكرةً عن هذا التغيّر، من المفيد أن نلتفت إلى عَثيلات الجماعات المقدَّسة البصرية، مثل النقوش الجدارية والنوافذ الزجاجية الملوّنة في كنائس العصور الوسطى، أو رسومات الفنانين الإيطاليين والفلامنك الكبار الأوائل. فقد كان من بين السمات الميزة لهذه التمثيلات شيءٌ يشبه "اللباس الحديث" أوا ذلك الشبه الخادع. فالرعاة الذين تبعوا النجم إلى المُزْوَد حيث وُلِدَ المسيح لهم ملامح فلاحين من بورغندي. وتبدو مريم العذراء مثل ابنة تاجر من توسكانيا. ويظهر القديس الشفيع في كثير من اللوحات بكامل ريّ البرجواري أو النبيل، راكعاً في خشوع إلى جانب الرعاة. وما يبدو لنا اليوم غريباً ومتنافراً كان يبدو طبيعياً عَاماً في نظر المؤمنين في العصور الوسطى. فنحن إزاء عالم كان تصوير الواقع المُتَخَيَّل فيه بصرياً وعمياً على نحو طاغ. وقد اتَّذ العالم المسيحي شكله ًالكوني من خلال ألاف التفاصيل الميّزة والدقائق الحدَّة: هذَّا النقش، تلك النافذة، هذه العظة، تلك الحكاية، هذه المسرحية الأخلاقية، ذاك الأثر . وفي حين كان الإكليروس الذين يعرفون اللاتينية والمنتشرون في أرجاء أوروبا عنصراً أساسياً في بناء الخيال المسيحي، فإنَّ إيصال تصوِّراتهم إلى الجماهير الأمية، عن طريق الإبداعات البصرية والسمعية، الشخصية والحدَّدة على الدوام، لم يكن يقلُّ حيويةً. وكان قسَّ الأبرشية المتواضع، الذي يعرف أصله ونقاط ضعفه كلُّ من يصفون إلى عِظاتِه، لا يزال الوسيط المباشر بين أبناء أبرشيته والسماء. وهذا التجاور بين الكوني-الشامل والدنيويّ-الحدّد كان يعي أنَّه مهما بلغ العالم المسيحي في شساعته، ومهما كان الإحساس بذلك، فإنَّه يتجلَّى للجماعة السوابية أو الجماعة الأندلسية على نحو مختلف كما لو أنه تكرار لهما. وما كان لِيَرِدَ في الخيال

أن تُصَوَّر مريم العذراء علامح "ساميّة" أو بأزياء "القرن الأول" بروح الاستعادة الي نحدها في المتاحف الحديثة لأنَّ العقل المسيحي القروسطي لم يكن لديه أيّ تصوّر للتاريخ بوصفه سلسلة لانهائية من الأسباب والنتائج أو من الانقطاعات بين الماضي والحاضر 1301. ويلاحظ بلوخ أنّه كان ثمّة اعتقاد شائع وراسخ بأنَّ نهاية الزمن وشيكة، ععنى أنَّ قيامة المسيح الثانية يكن أن تحصل في أيّ لحظة: فقد سبق لبولس الرسول أنْ قال إنَّ "يوم الرَّبّ كلِصِّ في الليل هكذا يجيءُ". ولذلك كان من الطبيعي ألا يكفّ الأسقف أوتو الفريزنغي، المؤرِّخ العظيم من القرن الثاني عشر، عن القول: "نحن الذين وقعنا عند آخر الزمان". ويستنتج بلوخ أنه حين كان القروسطيون "يستفرقون في التأمل، ما من شيء كان أبعد عن تفكيرهم من تصوِّر مستقبل القروسطيون "يستفرقون في التأمل، ما من شيء كان أبعد عن تفكيرهم من تصوِّر مستقبل مديد يعيشه جنسٌ بشريٌّ فيّ معافى "118.

ويرسم أورباخ لهذا الشكل من الوعي صورةً عامةً لا تُنْسى:

حين تُؤَوَّل حادثة مثل التضعية بإسحق على أنّها تصوير مسبق للتضعية بالمسيح، حيث تكون الأولى كانها تُعْلِنُ عن الأخيرة وتَعِدُ بها وتكون الأخيرة كانها "غَقُقُ" الأولى . ، فإنَّ صلة تُقام عندئذٍ بين حدثين ليسا مترابطين في الزمان أو العلّة؛ صلة يستحيل أن يقيمها العقل في البُعْد الأفقي . . ولا يمكن أن تُقام إلاّ إذا رُبِطَ الحادثان شاقولياً بالعناية الإلهية، التي يمكن لما وحدها أن تبتدع مثل هذا التخطيط التاريخي وتوفّر المفتاح لفهمه . . ويكفّ "الأن والمُنا" عن أن يكون مجرّد حلقة في سلسلة احداث أرضية، ويغدو في آنٍ معا ذلك الشيء الذي لطالما كان موجوداً، والذي سوف يتحقق في المستقبل؛ فهو في عين الربّ شيء أبديّ، شيء كليّ الزمن، شيء مكتملٌ أصلاً في نطاق الحدث الأرضي الناقص 1321.

ويشدد أورباخ بحق على أنَّ مثل هذه الفكرة عن التأين أو التزامن غريبة عاماً عن فكرتنا. فهي ترى إلى الزمن على أنّه شيء قريب عا يدعوه بنيامين بالزمن المسياني، تزامن الماضي والمستقبل في حاضر فوري مباشر [33]. وفي مثل هذه النظرة إلى الأمور، لا يمكن أن يكون لعبارة "في الوقت ذاته" أيَّ دلالة فعلية.

امًا تصورنا للتزامن فقد ظلَّ قيد التكوين زمناً طويلاً، ولا شكَّ أنَّ ظهوره يرتبط بتطور العلوم العلمانية ذلك الارتباط الذي ينبغي أن يُدْرَس جيداً. غير أنّه تصوّر ذو أهمية جوهرية، وإذا لم نأخذه بكامل الاعتبار فسوف نحد صعوبةً في سبر غوامض نشوء القومية. فما جاء ليحلّ على التصوّر القروسطيّ عن التزامن، على طول، الزمن هو بحسب تعبير بنيامين أيضًا، فكرة "الزمن المتجانس، الفارغ"، الذي يكون فيه التزامن مُسْتَعْرَضاً، إذا جاز القول، وعَبْرَ الزمن، وموسوماً لا بالتصوير المسبق والتحقق، بل بالتوافق المؤقّت، ويُقاس بالساعة والروزنامة 1341.

أمّا ما يحل هذا التحوّل بالغ الأهمية بالنسبة لولادة حماعة الأمة المُتَخَيَّلَة فيمكن أن نراه على أفضل وجه إذ ننظر في البنية الأساس لاثنين من أشكال التخيّل لم يزدهرا في أوروبا إلاّ في القرن الثامن عشر: الرواية والصحيفة [35]. حيث وفّر هذان الشكلان الوسائل التقنية اللازمة

لـ "إعادة-تقديم" ذلك النوع من الجماعة الْتَخَيَّلَة الذي هو الأمّة.

لننظر أولاً في بنية الرواية قديمة الطراز، تلك البنية التي لا نجدها في روائع بلزاك وحسب به أيضًا في أيّة أعمال نجارية معاصرة. فمن الواضح أنها وسيلة لتمثيل التزامن في "زمن متجانس، فارغ"، أو تعليق معقّد على عبارة "في الوقت ذاته". لناخذ على سبيل الايضًاح، شذرة من حبكة روائية بسيطة، حيث ثمّة رجل (أ) له زوجة (ب) وعشيقة (ج)، لما بدورها حبيب (د). ويمكن أن نتخيّل مخططاً زمنياً لهذه الشذرة على النحو التالي:

3	2	الزمن 1
د يثمل في حانة	أ يهاتف ج	الأحداث أ يتشاجر مع ب
أ يتناول العشاء في البيت مع ب	ب تتسوّق	ج ود عارسان الجنس
ج تحلم حلماً مزعجاً	د يلعب البلياردو	

ما نلاحظه في هذه المتوالية أنَّ (أ) و(د) لا يلتقيان قطّ، ولعلَّ واحدهما لا يعلم بوجود الآخر إذا ما لعبت (ج) أوراقها جيداً الكافل. ما الذي يربط إذاً بين (أ) و(د)؟ تصوّران متنامّان: الأول، أنّهما منفرسان في "محتمعات" (ويسيكس، ليبيك، لوس أمحلوس). وهذه المحتمعات هي كيانات اجتماعية لها واقعها الراسخ والمستقر بحيث يمكن وصف أفرادها ((أ) و(د)) بأنهما برّان واحدهما بالآخر في الشارع، من دون أن يتعارفا قطّ، ويظلان مرتبطين المجالاً. والثاني، أنَّ (أ) و(د) منفرسان في عقول قرَّاء كليّي المعرفة. فهم فقط، مثل الله، من يراقبون (أ) وهو يتصل هاتفياً مع (ج)، و(ب) وهي تتسوّق، و(د) وهو يلعب البلياردو، كلّ ذلك في وقت واحد. وكون هذه الأفعال جيعاً تُؤدَّى في الوقت ذاته الذي تشير إليه الساعة والروزنامة، إنما من قِبَل فاعلين قد لا يعرفون بعضهم بعضاً، هو ما تتجلّى فيه جِدَّة هذا العالم المتخيَّل الذي استحضره الكاتب في عقول قرّائه الحالم.

ثّة تشابه دقيق بين فكرة العضوية الاجتماعية الت تتحرك روزنامياً عبر زمن متجانس، فارغ وفكرة الأمّة، الت يتمّ تصوّرها هي أيضًا كجماعة صلبة تتحرك بثباتٍ هابطة (أو صاعدةً) التاريخ [139]. ولا يمكن لأميركي قط أن يلتقي، أو حتى أن يعرف أسماء، أكثر من حفنة من مواطنيه البالغ تعدادهم 240000000 ونيّف. وهو لا يعلم ما يوشكون على فعله في أيّ وقت من الأوقات. لكنه واثق كلّ الثقة بوجود فعاليتهم الراسخة، الظُفْل، المتزامنة.

رما يبدو المنظور الذي أقترحه أقلَّ تجريداً إذا ما تفحّصنا بإنجاز أربع روايات من ثقافات ختلفة وعهود مختلفة، وجمعها ترتبط بالحركات القومية ذلك الارتباط الذي لا فكاك منه ما عدا واحدة. ففي العام 1887، كتب خوسيه ريزال، "أبو القومية الفليبينية"، روايته «Nole Me المنافعة الفليبينية الحديث. كما كانت أيضًا أول Tangere [لا تلمسين]، التي تُعدُّ اليوم أعظم مأثرة للأدب الفليبيني الحديث. كما كانت أيضًا أول رواية يكتبها "إنديو" [140]. وتلك هي بدايتها المنهاة حدّ الإعجاز:

حوالي نهاية تشرين الأول، كان دون سانتياغو دي لوس سانتوس، الشهير بالكابتن

تياغو، يقيم مادبة عشاء. ومع أنّه لم يكن قد أعلن عنها إلا بعد ظهيرة ذلك اليوم، خلاف عادته، إلا أنّها كانت مدار كلّ حديث في بينوندو، وفي أحياء أخرى من المدينة، بل وفي إنتراموروس [وهي مدينة داخلية مُسوَّرة]. وفي تلك الأيام كان للكابتن تياغو صيت المضيف السخيّ حدّ الإسراف. وكان معروفاً أنَّ بيته، مثل بلده، لا يغلق أبوابه في وجه أيّ شيء، ما عدا التجارة وأيّ فكرة جديدة أو جريئة.

هكذا سرت الأنباء مثل صدمة كهربائية بين جماعة الطفيليين والعالات، والذين يأتون بلا دعوة عن خلقهم الله، بجوده الذي لا حدّ له، ويتضاعفون بيسر بالغ في مانيلا. بعضهم اقتنص دهاناً لتلميع أحذيته، وآخرون بحثوا عن أزرار لياقاتهم وربطات عنق. لكنهم جميعاً كانوا منشغلين بمشكلة التسليم على مضيفهم بتلك الألفة اللازمة لخلق مظاهر الصداقة القديمة، أو الاعتذار، إذا دعت الحاجة، عن عدم الوصول باكراً.

أقيمت المأدبة في بيت في شارع أنلوغو. ولأننا لا نتذكر رقم الشارع، فسوف نصفه بحيث عكن أن يظلَّ عيّراً، هذا إنْ لم تكن الزلازل قد دمّرته بَعْدُ. ولا نعتقد أنَّ مالكه قد أمر بهدمه، لأنَّ مثل هذا العمل عادةً ما يُثرَّك لله أو الطبيعة، التي تُبْرِمُ كثيرًا من العقود مع حكومتنا علاوةً على ذلك 141 .

من المؤكّد أنّه لا ضرورة للتعليق المُسْهَب الموسَّع. يكفي أن نلاحظ أنَّ صورة مأدبة العشاء (الجديدة عَاماً على الكتابة الفليبينية)، إذ تُناقَش منذ البداية من قِبَل مئات الأشخاص الذين لا يُشار إلى أسمائهم، والذين لا يعرفون بعضهم بعضاً، في أجزاء مختلفة عاماً من مانيلا، في شهر محدَّد من عَقْد محدَّد، تَسْتَحْضِرُ الجماعة المُتَحَيَّلَة مباشرةً، وفي العبارة "بيت في شارع أنلوغو"، ذلك البيت الذي "سوف نصفه بحيث يمكن أن يظلَّ عيراً"، فإنَّ الذين يُفْتَرَض بهم أن يميّزوه هو نحن البيت الذي "سوف نصفه بحيث يمكن أن يظلَّ عيراً"، فإنَّ الذين يُفْتَرَض بهم أن يميّزوه هو نحن البيت من زمن الرواية "الداخلي" إلى رمن حياة القارئ اليومية "الخارجي" [في مانيلا] هو بمثابة تأكيد يخلب اللبَّ على صلابة جماعة زمن حياة الشارئ اليومية "الخارجي" [في مانيلا] هو بمثابة تأكيد يخلب اللبّ على صلابة جماعة عددة، تضمّ الشخصيات والكاتب والقرّاء، تتحرك قُدُماً عبر زمن روزنامي المؤلد. لاحظوا النبرة أيضًا. فعلى الرغم من أنَّ ريزال ليس لديه أدنى فكرة عن هويّات قرّائه الفردية، إلا أنّه يكتب أيضًا. فعلى الرغم من أنَّ ريزال ليس لديه أدنى فكرة عن هويّات قرّائه الفردية، إلا أنّه يكتب أيضًا. فعلى الخرة، وكأنَّ العلاقة فيما بينهم رائقة لا يعكر صفوها أيّ شيء الحكال.

وما من شيء يثير لدى القارئ ذلك الإحساس الفوكوي الها بالانقطاع المفاجئ في الوعي بالقدر الذي تثيره المقارنة بين Noli والعمل الأدبي الأشهر والاسبق الذي كتبه "إنديو"، هو فرانشيسكو بالاغتاس (بالتازار)، وحمل عنوان الأشهر والاسبق الذي كتبه "إنديو"، وما فرانشيسكو بالاغتاس (بالتازار)، وحمل عنوان ولورا في علكة البانيا]»، وتعود طبعته الأولى إلى العام 1861، مع أنّه ركما يكون قد كُتِبَ منذ العام 1838 144 فعلى الرغم من أنَّ بالاغتاس كان لا يزال على قيد الحياة عندما وُلد ريزال، إلاّ أنَّ عالمَ رائعته غريب عن عالم Noli من النواحي الأساسية جميعاً. فبيئة العمل –البانيا قروسطية خرافية- بعيدة تماماً عن بينوندو ثانينيات القرن التاسع عشر، وبطلاه –فلوران، النبيل الألباني المسيحي، وصديقه الحميم علاء الدين،

الأرستقراطي الفارسي المسلم- لا يذكر اننا بالفيلييين إلاَّ من خلال الصلة مسيحي-مسلم. وفي حين يعمد ريزال إلى ذرّ كلمات تاغالوغية في نثره الإسباني لإحداث أثَر "واقعي"، أو ساخر، أو قومي، فإنَّ بالاغتاس لا ينثر عباراتِ إسبانية في رباعياته التاغالوغية إلَّا لَيثير الانتباه إلى كِبَر ورنين معجم مفرداته، و Noli مكتوبة لكي تُقْرَأ، أمّا فلوران ولورا فلكي تُغَنَّى بصوتٍ مرتفع. وما يسترعى الانتباه أكثر من أيّ شيء أخر هو تعامل بالاغتاس مع الزمن. فما يلاحظه لومبيرا هو أنَّ "تكشَّف الحبكة لا يسير وفق ترتيب زمن متسلسل، حيث تبدأ القصّة من المنتصف، وتصلنا كاملةً من خلال سلسلة من الخطب تنطوي على ضروب من الاسترجاع والخَطْف خلفاً" <sup>[45]</sup>. ويكاد نصف الرباعيات البالغة 399 رباعية أن يكون وصفاً لطفولة فلوران، وسنوات دراسته في أثينا، ومأثره العسكرية اللاحقة، حيث بجرى هذا الوصف على لسان البطل في أحاديثه مع علاء الدين 146]. و"الاسترجاع الحُكن" هو عند بالاغتاس البديل الوحيد للسرد الخطّي الذي يتوالى كالطابور، وحين نعلم عن فلوران وعلاء الدين أشياء ماضية "متزامنة"، يكون الرابط بينهما صوتيهما التحاورين، وليس بنية الملحمة. ولكم تبدو هذه التقنية بعيدةً عن تقنية الرواية: "في ذلك الربيع ذاته، بينما كان فلوران لا يزال يدرس في أثينًا، طُردَ علاء الدين من بلاط مولاه . . ". والحال، إنَّ بالاغتاس لا يخطر له قطَّ أن "يضع" شخصياته في "جتمع"، أو أن يناقش أمرهم مع جهوره. كما أننا لا نحد كثيرًا من "الفليبينية" في نصه، ما عدا ذلك الدفق النساب من الكلمات التاغالوغية متعددة المقاطع [47].

وفي العام 1816، قبل سبعين عاماً من كتابة Noli، كتب خوسيه يواكين فيرنانديز دي ليزاردي روايةً عنوانها El Periquillo Sarniento [الببغاء المتشوِّق]، لا شكَّ انّها أول عمل أميركي لاتين في هذا الجنس. وبحسب أحد النقّاد، فإنَّ هذا النصّ هو "اتهام شرس للإدارة الإسبانية في المكسيك: حيث يرى أنّ الجهل، والخرافة، والفساد هي أبرز "عات هذه الإدارة" المال الأساس لهذه الرواية "القومية" فيشير إليه هذا الوصف لمضمونها:

منذ البداية، يكون [البطل، الببغاء المتشوَّق] عرضةً لتأثيرات سينة؛ فالفتيات الجاهلات يغرسن في ذهنه الخرافات، وأمّه تتسامح مع نزواته، ومدرّسوه ليس لديهم الأهلية أو القدرة على ضَبْطِه. ومع أنَّ والده رجل ذكي يريد لولده أن يعمل في حرفة نافعة بدلاً من أن يسهم في تضخّم صفوف المحامين والطفيليين، إلاَّ أنَّ والدة بيريكويلو المولعة به أشد الولع هي الت تفوز، وترسل ابنها إلى الجامعة وتضمن بذلك أنه لن يتعلم سوى السفاسف الخرافية . . ويبقى بيريكويلو على جهله الميؤوس منه على الرغم من لقاءات كثيرةٍ مع أناس حكماء وطيّبين. ولأنه لا يريد أن يعمل أو يأخذ أيّ شيء على عمل الجدّ، فإنّه يغدو قسّاً، ومقامراً، ولصّاً، ومتدرّباً عند بائع عقاقير، وطبيباً، وموظّفاً كاتباً في إحدى البلدات البعيدة، على التوالي . . ومثل هذه الحوادث تتيح للكاتب أن يصف المشافي، والسجون، والقرى النائية، والاديرة، بينما يعمل في الوقت ذاته على أيضًاح الأمر الأساسي –تشجيع الحكم والنظام التربوي الإسبانيين الطفيلية ذاته على أيضًاح الأمر الأساسي –تشجيع الحكم والنظام التربوي الإسبانيين الطفيلية

والكسل- ذلك الأيضّاح الوافي . . ومغامرات بيريكويلو عَضي به مرّات عدّة بين المنود والزنوج . .[49].

ها نحن نرى "الخيال القومي" من جديد وهو يفعل فعله في حركة بطل متوحّد عبر لوحة اجتماعية ذات ثبات فيربط العالم داخل الرواية مع العالم خارجها. غير أنَّ جولة الأفق (tour dhorizon) البيكارسكية له هذه - المشافي، السجن، القرى النائية، الأديرة، الهنود، الرنوج - ليست جولة حول العالم (tour du monde). فالأفق تحدّد على نجو واضح: أفق المكسيك الكولونيالية. ولا شيء يؤكّد لنا هذه الصلابة الاجتماعية بقدر ما يؤكّدها تعاقب صيغ الجموع ذلك أنها تستحضر فضاء اجتماعيا تمثلاً بالسجون الي يمكن المقارنة فيما بينها، دون أن يكون أيّ منها ذا أهمية فريدة بحدّ ذاته، لكنها جيعاً عُثّل (بوجودها المتزامن، المنفصل) ظلم هذه المستعمرة أوداك، (لنقارن ذلك مع السجون في الكتاب المقدّس، اليّ لا يحري تخيّلها قطّ على أنّها خاصة بهذا المجتمع أو ذاك. فكلٌ منها قائمٌ بذاته سحرياً، كذاك السجن الذي خلب فيه يوحنا المعمدان لبّ سالومي).

أخيراً، ولكي أزيل احتمال أن تكون الأُطُر الت ندرسها "أوروبيةً" على نحو ما، حيث كَتَبَ كلِّ من ريزال وليزاردي بالإسبانية، إليكم افتتاحية <Semarang Hitam [سيماراًنغ السوداء]،، وهي حكاية كتبها ماس ماركو كارتوديكرومو، الشيوعي-القومي الإندونيسي الشاب المنحوس 151 ، ونُشرَت مسلسلةً في العام 1924:

كانت الساعة السابعة، مساء يوم السبت؛ لكن أحداً لم يكن في الخارج هذه الليلة. فالمطر المدرار طيلة النهار جعل الدروب بليلة وزلقة، فبقى الجميح في بيوتهم.

وصباح السبت بالنسبة لمن يعملون في المتاجر والمكاتب هو وقت انتظار –انتظار فراغهم من العمل ومتعة التجوال في المدينة مساءً، لكنهم خُيبوا في هذه الليلة – بسبب الكسل الناجم عن رداءة الطقس والطرق الموحلة في الأحياء. وعادةً ما تكون الطرق الرئيسة مكتظّةً بكلّ صنوف العربات، والأرصفة تعجّ بالبشر، لكنها كانت خالية جيعاً. ومن حين لأخر كان يمكن عاع فرقعة كرباج تحتّ حصاناً على المضيّ في طريقه، أو وقع حوافر الاحصنة وهي تجرّ العربات.

كانت سيمارانغ خاليةً. وأضواء مصابيح الغاز تلقي بأشعّتها إلى الطريق الإسفلي مباشرةً. وفي بعض الأحيان كان ضوء مصابيح الفاز يخفت إذ تهبّ الريح من الشرق..

كان ثمة فتى جالس على أريكة طويلة من الخيزران يقرأ صحيفة. كان مستغرقاً عاماً. فغضبه حيناً وابتسامه حيناً آخر كانا علامة أكيدة على اهتمامه العميق بالقصة. وراح يقلب أوراق الصحيفة، معتقداً أنه قد يحد شيئاً بمكنه أن يضع حداً لما كان يشعر به من بؤس شديد. وفجأة وقع على مقالة عنوانها:

الرخاء: متشرّد مُعدَم وقع فريسة المرض ومات إلى جانب الطريق بسبب تعرّضه

#### لقسوة الجو

تأثّر الفتى بهذا التقرير الموجز، وراح يتخيّل معاناة الرجل المسكين وهو محتضر إلى جانب الطريق ، وفي لحظة شعر بغضب يفور في داخله ويكاد أن ينفجر، وفي لحظة أخرى شعر بالإشفاق. وفي لحظة ثالثة كان غضبه منصباً على النظام الاجتماعي الذي ولّد مثل هذا الفقر، ووفّر الثراء لفئة قليلة من البشر [52].

غن هنا، كما في ‹الببغاء المتشوق›، في عالم من صيغ الجموع: متاجر، مكاتب، عربات، أحياء، ومصابيح غاز، وكما في Noli، نغطس مباشرة غن القرّاء —الإندونيسيين في زمن روزنامي ومشهد مألوف؛ بل إنّ بعضنا بمكن أن يكون قد سار في تلك الدروب السيمارانغية "الموحلة". ومن جديد غّة بطلً متوحّد بقرب لوحة اجتماعية موصوفة بذلك التفصيل العام وتلك العناية، غير أنّ هنالك شيئاً جديداً أيضًا: ذلك البطل الذي لا يُذكّر اسمه قطّ، لكنه كثيرًا ما يُشار إليه على أنّه "فتانا". وخراقة النصّ وسذاجته الأدبية هما على وجه التحديد ما يؤكّد على "صدق" هذا الضمير المتصل، فليس لدى ماركو أو قرّائه أيّ شكوك بشأن مرجع هذا الضمير أو من يشير إليه. وإذا ما كان الجاز "بطلنا" في القصّ المرلي المُثقّن في أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بحرّد تأكيد على تواصل الكاتب مع قارئ (أيّ قارئ)، فإنَّ "فتانا" لدى ماركو تعين، بجِدَّتها خاصةً، فتى ينتمي إلى جماعة قرّاء الإندونيسية جلةً، وبذلك تشير ضمناً إلى "جماعة متخيّلة" إندونيسية جنينية. وما نلاحظه هو أنَّ ماركو لا يستشعر حاجة لأن يعيّن هذه الجماعة بالاسم: فهي موجودة أصلاً. (وحتى لو انضمَّ الرقباء الكولونياليون ضمندو اللغات إلى مجموع قرّائه، فإنهم مُسْتَبْقدون عن هذه الـ "خا"، الأمر الذي تشير إليه حقيقة أنَّ غضب الفتى منصبّ على "الـ " نظام الاجتماعي وليس على نظامـ "نا" الأجتماعي.

وأخيراً، فإنَّ التأكيد على الجماعة المُتَخَيَّلَة يتأتّى من تكرار قراءتنا ما قرأه فتانا. فهو لا كد جثّة المتشرد المعدم إلى جانب طريق موحلٍ في سيمارانغ، بل يتخيّلها من سطور الصحيفة [53]. وهو لا يعير أدنى اهتمام لهوية المتشرّد الميت الفردية: إذ يفكّر عا عُثَله الجثة، وليس بحياة صاحبها الشخصية.

ومن اللائق أن تظهر صحيفة في قلب القصّ في Semarang Hitam، ذلك أننا، إذا ما التفتنا الان إلى الصحيفة بوصفها مُنْتَجَا ثقافياً، فلا بدً أن تستوقفنا قصصيتها أو تخييليتها العميقة. فما هو عُرْفُ الصحيفة الأدبيّ الأساسيّ؟ لو نظرنا إلى الصفحة الأولى في عددٍ من أعداد النيويورك تايمز، على سبيل المثال، فقد نجد أخباراً عن منشقين سوفيت، وبحاعة في مألي، وجرية بشعة، وانقلاب في العراق، واكتشاف مستحاثة نادرة في زيبابوي، وخطاب لميتران. فلماذا توضع هذه الأحداث متجاورة؟ ما الذي يربط بعضها ببعضها الآخر؟ لا شكّ أنّه ليس محرّد نزوة. لكنه من الواضح أنَّ معظمها قد حدث على نحو مستقلّ، دون أن يعلم الفاعلون واحدهم بوجود من الخر أو يا ينوي القيام به. وما تبيّنه اعتباطية الجمع بين هذه الأحداث ومحاورتها معاً (حيث

يستبدل عددٌ لاحقٌ عيتران انتصاراً في البيسبول) هو أنَّ الرابط بينها هو رابط متَخَيَّل. ويُسْتَمَدُ هذا الرابط المُتَخَيَّل من مصدرين متصلين على نحو غير مباشر. الأول هو التوافق الروزناميّ. فالتاريخ أعلى الصحيفة، وشعارها الميّز الذي يحظى بأهمية بالغة، يوفّران الصلة الأساس: تَقَدُم الزمن الفارغ، المتجانس، ذلك التقدّم الثابت إلى الأمام [54]. وضمن ذلك الزمن، يشي "العالم" قُدُماً مشيته الواثقة الحازمة. وأية ذلك أنّه إذا ما غابت مالي عن صفحات النيويورك تايز بعد يومين من نشر تقرير الجاعة، وعلى مدى أشهر متوالية، لن يتخيّل القرّاء النيويورك تايز بعد يومين من نشر تقرير الجاعة قد فتكت يجميع مواطنيها. فالشكل الروائيّ الذي تتسم به الصحيفة يؤكّد لمؤلاء القرّاء أنّ "الشخصية" اليّ اعها مالي موجودة هناك في مكانٍ ما تتحرّك دون ضجيح، منتظرة ظهورها الجديد في الحبكة.

أمًا المصدر الثاني للرابط المُتَخَيِّل فيكمن في العلاقة بين الصحيفة، كشكل من أشكال الكتاب، والسوق. فقد قُدِّر عدد الكتب المطبوعة في أوروبا خلال الأربعين عاماً ونيَّف الماصلة بين كتاب غوتنبرغ المقدّس ونهاية القرن الخامس عشر بأكثر من 20000000 وبين 1500. و1600، بلغ عدد هذه الكتب 150000000 و150000000 ومنذ ذلك الحين فصاعداً . . . راحت ورشات الطباعة تبدو أشبه بالورشات الحديثة منها بحجرات العمل الن عرفتها العصور الوسطى. وفي العام 1455، كان العمل الذي يديره فوست وشوفر قد ارتقى إلى مستوى الإنتاج النوعيّ الذي يُقاس عليه، وبعد ذلك بعشرين عاماً كانت الأعمال الطباعية الضخمة جاريةً في جميع أرجاء أوروبا" [57]. ومعنى ما، كان الكتاب أول سلعة صناعية تُنتَج إنتاجاً جاهيرياً ضخماً على الطريقة الحديثة [58]. ويمكن أيضًاح المعنى الذي يدور في ذهن إذا ما عقدنا مقارنةً بين الكتاب والمنتجات الصناعية الأسبق، مثل النسيج، أو الأجر، أو السكر. ذلك أنَّ هذه السلع تُقاس بمقاديرها الرياضية (بالأرطال أو الأحمال أو القطع). ورطل السكر هو مجرد كمية، أو وزن ملائم، وليس شيئاً بحدّ ذاته. أمّا الكتاب فشيء ميّز، مستقلّ، ويُعاد إنتاجه هو ذاته مقادير ضخمة، وهو بذلك يستبق السلع الممّرة في أيامنا [59]. ورطل السكّر عكن أن علّ علّه أيّ رطلّ سكّر آخر؛ في حين أنّ كلّ كتابُ مكتفٍ بذاته على ذلك النحو الذي نحده لدى الزهّاد والنسّاك. (ولا عجب أن تكون المكتبات، والجموعات الشخصية من السلع الْنُتَجَة إنتاجاً ضخماً، قد غدت أمراً مألوفاً، في المراكز المدينية مثل باريس، بحلول القرن السادس عشر) [60].

ومن هذا المنظور، فإنَّ الصحيفة ليست سوى "شكل متطرّف" من أشكال الكتاب، أو كتاب يُباع بكميات هائلة، لكن رواجه عابر سريع الزوال. هل يسعنا القول إنها الأكثر رواجاً ليوم واحد 161 ؟ ومع أنَّ الصحيفة تعتق وتتقادم في اليوم التالي لطباعتها -ومن اللافت هنا أن تُستبق واحدة من سلع الإنتاج الضخم الباكرة ما تنطوي عليه السلع المعمرة الحديثة من تقادم جوهري - إلاّ أنَّ هذا السبب ذاته هو الذي يجعلها تخلق هذا الطقس الجماهيري الاستثنائي: استهلاك ("تخيّل") الصحيفة-بوصفها-قَصَّا على نحو يكاد أن يكون متزامناً عاماً. فنحن نعلم إنَّ طبعت الصباح والمساء ليوم معين سوف تُسْتَهاكان ذلك الاستهلاك الكاسح بين هذه

الساعة وتلك، في هذا اليوم وحسب، دون سواه. (خلاف السكّر، الذي يتوالى استعماله على غو متواصل غير مُعَدَّد زمنياً؛ وقد يفسد، لكنه لا يبطل أو يتقادم). ودلالة هذا الطقس الجماهيري حيث لاحظ هيغل أنَّ الصحف تقوم عند الإنسان الحديث مقام صلاة الصبح- هي دلالة متناقضة. فهو يُؤدَّى بصمتٍ وعلى انفراد، داخل الجمجمة [62]. غير أنَّ كلّ مشارك يُدُرِكُ جيداً أنَّ الطقس الذي يؤديه يُكَرُر في الوقت ذاته من قِبَل آلاف (أو ملايين) الأخرين الذين لا يشكّ بوجودهم، لكنه لا يمتلك أدنى فكرة عن هويتهم. وعلاوةً على ذلك، فإنَّ هذا الطقس يُكَرَّر دون انقطاع كلّ يوم أو نصف يوم على مدار الروزنامة. فهل من صورة يحكن تصوّرها للجماعة المُتَخَيَّلَة، العلمانية، المسايرة تاريخياً تفوق هذه الصورة في حيويتها؟ [63] بل إنَّ قارئ الصحيفة، إذ يرى نسخ صحيفته ذاتها تُسْتَهْلك في الميرو الذي يستقلّه، وفي علّ الحلاقة، ومن الصحيفة، إذ يرى نسخ صحيفته ذاتها تُسْتَهْلك في الميرو الذي يستقلّه، وفي علّ الحلاقة، ومن قبل جيرانه حيث يقيم، يتأكّد مرّة بعد مرّة من أنّ العالم المُتَخَيِّل يضرب بحذوره في الحياة اليومية على نحو واضح. فالرواية، كما هو حال Noli Me Tangere، تنزّ إلى الواقع وتنسرب فيه بهدو، وبصورة مستمرة، خالقة تلك الثقة اللافتة بحماعة غُفْلٍ تشكّل غفليّتها العلامة فيه بهدو، وبصورة مستمرة، خالقة تلك الثقة اللافتة بحماعة غُفْلٍ تشكّل غفليّتها العلامة المميّرة للأمم الحديثة.

رُكا كان من المفيد، قبل أن نواصل مناقشة ما للقومية من أصول نوعية أن كُمِل ما قدّمناه إلى الآن من أطروحات أساسية. فما حاولتُ تبيانه في الأساس هو أنَّ إمكانية تخيّل الأمّة لا تنشأ تاريخياً هي ذاتها إلا حين، وحيث، تفقد ثلاثة تصورات ثقافية جوهرية، بالغة القدم حيعاً، سطوتها البدهيّة على عقول البشر. وأول هذه التصورات هو الفكرة الي مفادها أنّ لغة مدوّنة بعينها قد وفّرت أفضل نفاذ إلى الحقيقة الأنطولوجية، وذلك على وجه التحديد لأنها جزء لا يتجزّأ من تلك الحقيقة. وهذه الفكرة هي الي دعت إلى الوجود تلك الجماعات الدينية عابرة القارات، مثل المسيحية، وأمّة الإسلام، وسواها. والتصوّر الثاني هو الاعتقاد بأنّ المحتمع من خلال شكل من أشكال التّجلّة الكونية (الإلهية). وبذلك كانت ضروب الولاء البشرية تراتبية ومركزية الوجهة بالضرورة لأنّ الحاكم، مثل الكتاب المقدس، كان منبت الكينونة ومتأصّلاً فيها. أمّا التصوّر الثالث فهو تصوّر الزمن على ذلك النحو الذي لا يمكن التمييز فيه بين الكورمولوجيا (الرؤيا الكونية الشاملة) والتاريخ، وتتطابق فيه أصول العالم وأصول البشر عميقاً في طبيعة تطابقاً جوهرياً. وهذه الأفكار محتمعة كانت قد ضَرَبَتْ مجذور حياة البشر عميقاً في طبيعة الأشياء ذاتها، مُضْفيَةُ معنى معيناً على أقدار الوجود اليومية (وعلى رأسها الموت، والفَقْد، والاستعباد)، وموفّرة سُبُل الخلاص منها بطرائق شتّى.

غير أنَّ انهيار هذه اليقينيات المرابطة البطيء والمتفاوت، في أوروبا الغربية، ثمّ في غير مكان، بتأثير التغيّر الاقتصادي، و"الاكتشافات" (الاجتماعية والعلمية)، واطّراد تطور وسائل الاتصال السريعة، دقّ إسفيناً غليظاً بين الكوزمولوجيا والتاريخ. ولا عجب إذا أن جرى البحث، إذا جاز القول، عن طريقةٍ جديدة للربط على نحو ذي معنى بين الأخوة، والقوة، والزمن. ولعلَّ

الجماعات المُتخيَّلة . . .

ما من شيء عجَّل هذا البحث، وجعله أشدَّ خصوبةً، بالقَدْر الذي عجَّلته به رأَّ الطباعة، اليّ مكّنت أعداداً من البشر متناميةً بسرعةٍ من أن يفكّروا بأنفسهم، وأن يربطوا أنفسهم بأخرين، بطرائق جديدة كلّ الجِدَّة.

## 3) أصول الوعي القومي

إذا ما كان تطور الطباعة-بوصفها-سلعة هو المفتاح في توليد أفكار التزامن الجديدة عاماً، فذلك يعن أننا بلغنا النقطة الت تغدو عندها الجماعات من النمط ذي "الزمن العلماني-الأفقي، المستعرض" محكنةً. فلماذا حظيت الأمة، ضمن ذلك النمط، مما حظيت به من شعبية ورواج كبيرين؟ من الواضح أنَّ العوامل التي أسهمت في ذلك معقدة ومتنوعة. إلاَّ أنَّ الأولوية التي تحظى بها الراسالية هي أولوية محكن الدفاع عنها بقوة.

لقد سبق أن لاحظنا أنَّ ما لا يقلَّ عن عشرين مليوناً من الكتب كانت قد طُبِعَت بُحلول العام 1500 الله معلنة عن بداية ما أسماه بنيامين "عصر الاستنساخ الآلي" أو "إعادة الإنتاج الآلية". فإذا ما كانت المعرفة المُستَمَدَّة من المخطوطات تلك المعرفة النادرة والغامضة المقصورة على فئة قليلة، فإنَّ المعرفة المستمدّة من الطباعة هي تلك المعرفة الي تعتاش على إعادة الإنتاج والانتشار [14]. وإذا ما كانت المطابع قد أخرجت مئي مليون كتاب حتى العام 1600، كما يعتقد فيفر ومارتن، فلا عجب أن يعتقد فرنسِس بيكون أنَّ الطباعة قد غيرت "وجه العالم وحاله" [15].

اختبرتُ صناعة النشر، بوصفها واحداً من أبكر أشكال المشروع الرأسمالي، كلّ ما اختبرته الرأسالية من بحث دؤوب عن الأسواق. وقد فتح أصحاب المطابع الأوائل فروعاً في كلّ أنحاء أوروبا: "وبهذه الطريقة أقيمت دور نشر "دولية" حقيقية، تجاهلت الحدود القومية [كذا]" [44]. ولانً

الأعوام 1500-1550 كانت مرحلة رخاء أوروبي استثنائي، فقد ساهم النشر في هذا الازدهار. وكان "أكثر من أي وقت مضى صناعةً عظيمةً يسيطر عليها رأ الليون أثرياء "أكل وطبيعي أن "اهتمام باعة الكتب كان منصباً في المقام الأول على تحقيق الربح وتصريف منتجاتهم، ولذلك فقد سعوا أولاً وقبل كل شيء وراء تلك الأعمال الي تهمّ أكبر عدد عكن من معاصريهم "أكل.

وكان أول سوق هو أوروبا المتعلّمة، تلك الشريحة واسعة الانتشار لكنها قليلة الكثافة من قرّاء اللاتينية. وقد استغرق إشباع هذه السوق منة وخسين عاماً. ومن الحقائق الي وَسَعَتْ اللغة اللاتينية -إلى جانب قدسيتها- أنّها كانت لغة أناس ثنائيي اللغة. فقلة قليلة نسبياً هم أولئك الذين كانوا ينطقون بها منذ الولادة بل وأقلّ منهم، كما نتصوّر، أولئك الذين كانوا يحلمون بها. وفي القرن السادس عشر كانت نسبة ثنائيي اللغة إلى إجمالي السكان في أوروبا صغيرة عاماً؛ لا تفوق على الأرجح نسبتهم إلى سكان العالم اليوم، وفي القرون القادمة على الرغم من الأعية البروليتارية. فالغالبية الساحقة من البشر أحادية اللاتينية، حتى تبدأ الأسواق الضخمة الحُتمَلة منطق الرأيحالية بأنّه ما إنْ تُشْبَع سوق النخبة اللاتينية، حتى تبدأ الأسواق الضخمة الحُتمَلة المتمثّلة بالجماهير أحادية اللغة بمارسة إغرائها. ولا شكّ أنّ الإصلاح المضاد قد شجّع على انتعاش النشر اللاتين بصورة مؤقّتة، وما إن انتصف القرن السابع عشر حتى تفسّخت حركة الإصلاح المضاد هذه، وغصّت المكتبات الكاثوليكية المتحمّسة بالكتب. وقد كان لنقص الأموال الذي شهده عموم أوروبا في هذه الفترة ذاتها أن يدفع الناشرين أكثر فأكثر إلى التفكير بطرح طبعات رخيصة باللغات الحلية المارية.

هذا الاندفاع الثوري الذي أبدته الرأسالية في التحوّل إلى اللغات الحلية استمدّ مزيداً من الرخم من ثلاثة عوامل خارجية، أسهم اثنان منها ذلك الإسهام المباشر في نشوء الوعي القومي. وأول هذه العوامل، وأقلّها أهمية في النهاية، هو التغيّر في طابع اللاتينية ذاتها. فبفضل الجهود التي بذلها الإنسانويون في إحياء اداب العصور القدية السابقة على المسيحية ونشرها عبر سوق الطباعة، تكوّنت لدى الإنتلجنسيا في أرجاء أوروبا ذائقة جديدة تقدّر مأثر القدماء الاسلوبية المتثقة. وراحت اللاتينية التي باتوا يطمحون لأن يكتبوا بها تقترب أكثر فأكثر من لفة شيشرون، وتبتعد أكثر فأكثر عن الحياة الكنسيّة واليومية، فغدت بذلك مقصورةً على فئة قليلة وختلفة غاماً عن لاتينية الكنيسة في العصور الوسطى. ذلك أنَّ غموض اللاتينية القدعة لم يكن ناجاً عن موضوعها أو أسلوبها، بل عن كونها مكتوبة أو مدوَّنة، أي عن حالتها كـ نصِّ. أمّا غموضها الأن فبات ناجاً عن اللغة-ف-ذاتها.

والعامل الثاني هو تأثير الإصلاح، الذي يدين، بدوره، إلى رأسالية الطباعة بكثير من النجاحات التي أحرزها. فقبل عصر الطباعة، كان من اليسير على روما أن تكسب كلَّ حرب تخوضها ضد الهرطقة في أوروبا نظراً لما كانت تجوزه على الدوام من خطوط اتصال داخلية أفضل قياساً عن يتّحدون سلطانها. غير أنّه حين علّق مارتن لوثر أطروحاته على باب الكنيسة في ويتنبرغ عام 1517، طُبِقَت بترجمةٍ ألمانية، "وانتشرت في كلّ ركن من أركان البلاد في غضون

خسة عشر يوماً "[8]. وفي العقدين بين 1520-1540 كان عدد الكتب المنشورة في المانيا ثلاثة أضعاف ما نُشِرَ في العقدين بين 1500-1520، وكان ذلك تحولاً مذهلاً لعب فيه لوثر الدور المركزي المطلق. فقد شكّلت أعماله ما يزيد على ثلث بحموع الكتب المكتوبة بالألمانية والمباعة بين 1518 و1525. كما ظهر في الفترة بين 1522 و 1546 ما بحموعه 430 طبعة (كاملة أو جزئية) من ترجمته الكتاب المقدّس. "وهذه أول مرّة نكون فيها إزاء قراءة جاهيرية حقيقية وإزاء أدب شعي في متناول الجميع "[9]. بل إنَّ لوثر بات أول كاتب بين الكتّاب الأكثر رواجاً يُعْرَف بهذه الصفة. أو بعبارة أخرى، أول كاتب يمكنه أن يبيع كتبه الجديدة لجرد أن اسمه عليها [10].

وحيث وطأ لوثر، سار كثيرون في أعقابه مسرعين، مطلقين العنان لحرب الدعاية الدينية الهائلة التي استعرت في أرجاء أوروبا خلال القرن التالي. وفي "معركة كسب العقول" الطاحنة هذه، كانت البروتستانتية في موقع الهجوم على الدوام، وذلك على وجه الدَّقة لأنها عرفت كيف تفيد من توسّع سوق الطباعة باللغات الحلية الذي خلقته الرأ عالية، في حين كان الإصلاح المضاد في موقع الدفاع عن قلعة اللاتينية. وما يمثّل لذلك كلّه هو الد Index Librorum Prohibitorum [ قائمة الكتب الحُرَّمة] التي أصدرها الفاتيكان ولم يكن لها نظير بروتستانيت ولعل أفضل فكرة عن هذه العقلية الحاصرة هي تلك التي يعطيها الحظر المذعور الذي فرضه فرانسوا الأول عام 1535 على طباعة أي كتاب في علكته، تحت طائلة الإعدام شنقاً! أمّا السبب الذي يقف خلف هذا الحظر وخلف عدم القدرة على فرضه في أن معاً فهو أنَّ الحدود الشرقية الملكته كانت عاطة آننذ بدول ومدن بروتستانتية تُنْتِجُ دفقاً هائلاً من المواد المطبوعة التي يكن تهريبها. ولو اقتصرنا على جنيف أيام كالفن، لوجدنا أنّه لم يُنْشَر هناك سوى 42 كتاباً في الفترة بين 1533 و 1550، لكن هذا العدد ارتفع إلى 527 بين 1550 و1564، وفي هذا العام الأخير لم يكن يقلً عدد دور الطباعة الت تعمل بكامل طاقتها عن 40 دار الللا.

سرعان ما خلق هذا التحالف بين البروتستانتية ورأسمالية الطباعة، ومن خلال الطبعات الشعبية الرخيصة، جماهير جديدة من القرّاء -خاصةً بين التجار والنساء، عن كانوا يجهلون اللاتينية في العادة أو لا يعرفون منها سوى النزر اليسير - وعبّاهم وراء غايات دينية وسياسية. ولم يكن بُدِّ من أن تهتر الكنيسة، لكن ذلك لم يقتصر عليها وحدها. فقد كان هذا الزلزال ذاته وراء قيام أولى الدول الأوروبية الهامة غير القائمة على الحكم السلالي وغير المقتصرة على مدينة بعينها، في الجمهورية الهولندية والكومنولث البيوريتاني. (فذعر فرانسوا الأول كان سياسياً بقدر ما كان دينياً).

أمّا العامل الثالث فكان انتشارُ لغاتٍ عليةٍ عدَّدةٍ ذلك الانتشار البطيء، والمتفاوت جغرافياً، كادواتٍ للمَرْكَرَة الإداريةِ استخدمها بعض الملوك المتمكّنين المرشّحين للتحول إلى الملكية المطلقة. ومن المفيد أن نتذكّر هنا أنَّ الشمول الذي اتّسمت به اللاتينية في أوروبا الغربية القروسطية لم يكن متماشياً قطّ مع نظام سياسي شامل. وذلك بخلاف الصين الإمبراطورية، حيث كان المدى الذي بلغته البيروقراطية الإدارية متطابقاً إلى حدّ بعيد مع المدى الذي بلغته الحروف المرسومة. والحال، أنَّ تفتّت أوروبا الغربية السياسي بعد انهيار الإمبراطورية الغربية كان يعن أنَّ ما من عاهل علم عنه أن عتكر اللاتينية ومجعلها لغة دولته وحدها دون سواها من الدول، ولذلك لم يكن للسلطة الدينية التي تعتقعت بها اللاتينية ما عائلها حقّاً على الصعيد السياسي.

سَبَقَت ولادةُ اللغات الحلية الإدارية كلاً من الطباعة والانقلاب الدين في القرن السادس عشر، ولذلك ينبغي اعتبارها (في البداية على الأقلّ) عاملاً مستقلاً في تفتيت الجماعة المتخيّلة المُقَدَّسة. وفي الوقت ذاته، فإنَّ ما من شيء يشير إلى وجود أيَّة دوافع إيديولوجية، ناهيك عن الدوافع القومية البدئية، تقف وراء هذا التحول إلى اللغات الحلية في الأماكن الن حصل فيها. ومثال "إنغلترا" -في الطرف الشمالي الغربي من أوروبا اللاتينية- هو مثال مُعَبِّر على هذا الصعيد. فقبل الغزو النورماندي، كانت الأنغلوساكسونية هي لغة البلاط، والأدب، والإدارة. أمّا خلال القرن ونصف القرن اللاحق فكانت حميع الوثائق الملكية تُكْتَب باللاتينية. وبين حوالي 1200 و1350 حلَّت الفرنسية النورماندية محلِّ لاتينية الدولة هذه. وفي غضون ذلك، حصل انصهار بطيء بين لغة الطبقة الحاكمة الأجنبية هذه ولغة السكان الخاضعين الأنغلوساكسونية أَسْفَرَ عن الإنفليزية الباكرة. وقد مكّن الانصهارُ اللغةَ الجديدة من أن تأخذ دورها، بعد العام 1362، كلغة للبلاط، كما مكّن من افتتاح البرلمان. وتَلَتْ ذلك مخطوطة ويكليف الى ترجم فيها الكتاب المقدس إلى اللغة الحلية في العام 1382[12]. ومن المهمّ أن نبقي في أذهاننا أنّ هذه المتوالية كانت سلسلةً من لغات "الدولة" وليس اللغات "القومية"؛ وأنَّ الدولة المعنيَّة قد عُلت ف أوقات مختلفة ليس إنغلرًا وويلر الحاليتين وحسب، بل أيضًا أجزاء من إيرلندا، واسكتلندا، وفرنسا. ومن المؤكّد أنَّ أعداداً ضخمة من سكّان هذه البلدان الخاضعة لم تكن تعرف سوى القليل أو لا تعرف شيئاً من اللاتينية، أو الفرنسية النورماندية، أو الإنفليزية الباكرة 1131. ولم يَمْض ما يقارب القرن على تتويج الإنفليرية الباكرة السياسي حتى كَنِسَت سلطة لندن خارج "فرنسا".

ولقد جرت حركة مشابهة على ضفاف السين، وإنْ تكن وتيرتها أبطأ. وكما يقول بلوخ باستياء، فإنَّ "الفرنسية قد استفرقت عدّة قرون لكي ترتقي إلى مصاف الأدب، وذلك لأنها كانت تُعَدّ بحرّد شكل فاسد من أشكال اللاتينية "أطاب ولم تَغْدُ لغة رسمية للمحاكم والقضاء إلاّ في العام 1539، حين أصدر فرانسوا الأول مرسوم فيليه كوتيريه الشهير الذي يقضي بذلك 1511. وفي بعض الممالك السلالية بقيت اللاتينية مدّةً أطول بكثير، حيث وصلت حتى القرن التاسع عشر بغظ آل هابسبورغ. وفي بعضها الأخر، كانت الغلبة للغاتِ علية "أجنبية"، كالفرنسية والألمانية في بلاط ال رومانوف في القرن الثامن عشر 1914.

وفي كلِّ حالة من هذه الحالات، يبدو "احتيار" اللغة تطوراً تدريجياً، وبراغماتياً، وغير واع، كي لا نقول عشوائياً. وبذلك، كان مختلفاً عاماً عن السياسات اللغوية الواعية التي اتبعها الملوك السلاليون في القرن التاسع عشر حين واجههم صعود قوميات ولغات شعبيةٍ معادية. (انظر

الفصل السادس). وإحدى علامات هذا الاختلاف الواضحة أنَّ لفات الإدارة القديمة لم تكن سوى ذلك: أي أنّها لم تكن سوى لفات تستخدمها فئة الوظّفين وتُسْتَخْدَم معها بما يلائم أغراض الإدارة. ولم يكن عُّة نيّة لفرض هذه اللفات فرضاً منهجياً على السكّان الخاضعين لمؤلاء الملوك [111]. ومع ذلك، فإنَّ ارتقاء اللغات الحلية إلى مصاف لفات—الـ—سلطة، حيث نافست اللاتينية بمعنى ما (الفرنسية في باريس، الإنغليزية [الباكرة] في لندن)، كان له إسهامه الخاص في انهيار جاعة العالم المسيحي المُتخيَّلة.

ولعلّ الأهمية الت يحظى بها، في هذا السياق، كلّ من قَصْر اللاتينية على فئة قليلة، والإصلاح، وتطور اللغات الحلية الإدارية العشوائي، أن تكون أهمية بالمنى السلي، في المقام الأول: من حيث إسهامها في إقصاء اللاتينية عن سدّة العرش. فمن المكن عاماً أن نتصور بروغ الجماعات القومية المُتخيّلة الجديدة دون وجود أيّ من هذه العوامل، ورما دون وجودها حميعاً. فما جعل الجماعات الجديدة قابلة للتخيّل، بالمنى الإعابي، هو تفاعل يكاد أن يكون عارضاً، لكنه انفجاريّ، بين منظومة وعلاقات إنتاجية (رأسمالية)، وتكنولوجيا اتصال (الطباعة)، وقدر متمثّل بالعدد اللغوي البشرى [18].

وعنصر القَدَر هُو عنصر أساسي، فمهما تكن المأثر الخارقة التي استطاعت الرأسالية أن بَحْرَحها، إلاّ أنّها وجدت في الموت واللغات ذينك الخصمين العنيدين [19]. فقد تموت لغات معينة أو تُكْتَسَح اكتساحاً، لكنّه لا بحال، في الماضي أو في الحاضر، لتوحيد البشرية في إطار لغة عامة واحدة. بيد أنّ هذا الاستغلاق المتبادل بين البشر لم يُغظّ بأهميةٍ تاريخيةٍ كبيرة إلا بعد أن عملت الراسالية والطباعة على خَلْقِ ضروبٍ من حماهير القرّاء الذين يقرأ كلّ حمهور منهم بلغته الواحدة.

ومع أنّه من الاساسي أن نبقي في أذهاننا فكرة القَدَر، بمعنى الشرط العام المتمثّل بوجود تعدد لغوي لا دواء له، فإنَّ من الخطأ أن نساوي بين هذا القَدَر وذلك العنصر الشائع في الإيديولوجيات القومية الذي يلحّ على تميّز لغات بعينها بقَدَر أزليّ خاص واقترانها بوحدات إقليمية بعينها. فالشيء الأساس هو التفاعل بين القدر، والتكنولوجيا، والرأسمالية، وتعدد اللغات المنطوقة، تلك اللغات الي شكّلت (وتشكّل) للناطقين بها سداة حياتهم وحُمتها، كان في أوروبا ماقبل الطباعة، وفي غير مكان من العالم بالطبع، ذلك التعدد الهائل؛ لدرجة أنّه لو سعت رأسمالية الطباعة إلى استغلال كلّ سوق من أسواق اللغات الحلية الشفاهية لبقيت رأسمالية ذلت أبعاد محدودة. لكن هذه اللهجات المتنوعة كانت قابلةً لأن تُخْمَع، ضمن حدود معيّنة، في لغات طباعية أقلّ عدداً بكثير. و ما سهّل عملية الجمع هو الاعتباطية الي يتّسم بها أيّ نظام للعلامات من حيث أصواته الماك. (وفي الوقت ذاته، فإنّه كلّما كانت العلامات عبارةً عن رموز مرسومة أو صور، زادت مساحة الجمع المكن. وعكن أن نتبيّن هنا ضَرْباً من الرّاتب نزولاً من الجبر إلى الأبجديات المقطعية النظامية الفرنسية والإندونيسية، مروراً بالصينية والإنغليزية). وما من شيء عَمِلَ على "جمع" اللغات الحلية المتقاربة بالقَدْر الذي عملته الرأسمالية الي خلقت، وما من شيء عَمِلَ على "جمع" اللغات الحلية المتقاربة بالقَدْر الذي عملته الرأسمالية الي خلقت، وما من شيء عَمِلَ على "جمع" اللغات الحلية المتقاربة بالقَدْر الذي عملته الرأسمالية الي خلقت،

ضمن الحدود الت فرضها القواعد والنحو، لغات طباعية قابلة للاستنساخ الألي وقادرة على الانتشار في السوق المالي وقادرة على الانتشار في السوق المالية المال

ولقد أرسَت اللغات الطباعية الأساس لضروب الوعي القومي بثلاث طرائق عيّزة. فقد خلقت، أولاً وقبل كلّ شيء، حقول تبادل واتصال موحّدة أدنى من اللاتينية وأرفع من اللغات الخلية المنطوقة. فالناطقون بتلك التشكيلة الضخمة من الفرنسيات، أو الإنغليزيات، أو الإسبانيات، عن قد يحدون صعوبة أو حتى استحالة في فهم واحدهم الأخر محادثة، غدوا قادرين على التفاهم عبر الطباعة والورق. وبات بمقدورهم شيئاً فشيئاً أن يدركوا وجود مئات آلاف، بل ملايين، البشر في حقلهم اللغوي الحدد، وأن يدركوا في الوقت ذاته أنّه لا ينتمي إلى هذا الحقل سوى مئات الألاف، أو الملايين، هذه وحسب. وزملاء أو أخوة القراءة هؤلاء، المرتبطون ببعضهم بعضاً من خلال الطباعة، هم الذين شكّلوا، بخفائهم المرئيّ، الحدّد، العلماني، جنين الجماعة القومية المتحيّلة.

أمّا ثانياً، فقد أضفت رأ الله الطباعة على اللغة ثباتاً جديداً، أسهم على المدى الطويل في بناء صورة القِدَم التي تَحتلَ مكانةً مركزيةً في فكرة الأمة عن ذاتها. فقد حافظ الكتاب المطبوع، كما يذكّرنا فيفر ومارتن، على شكل ثابت، يمكن إعادة إنتاجه أو استنساخه إلى ما لا نهاية، في أيّ وقت وفي أيّ مكان، ولم يَعْدُ خاضعاً لعادات الناسخين الرهبان الشخصية وضروب "التحديث اللاواعي" التي كانوا يدخلونها عليه. وهذا ما أبطأ سرعة تغيّر الفرنسية ذلك الإبطاء الحاسم في القرن السادس عشر، في حين كانت فرنسية القرن الثاني عشر مختلفة أشد الاختلاف عن الفرنسية التي كتب بها فيللون في القرن الخامس عشر. "وفي القرن السابع عشر الخذت اللغات الفرنسية المستقرة منذ في أوروبا عموماً أشكالها الحديثة "أكداً. وبعبارة أخرى، فإنَّ هذه اللغات الطباعية المستقرة منذ ثلاثة قرون وإلى الأن قد اكتست بطبقة داكنة تحميها؛ وباتت كلمات أسلافنا في القرن السابع عشر متاحةً لنا على نحو لم يتوفّر لفيللون إزاء أسلافه في القرن الثاني عشر.

كما خلقت رأتالية الطباعة، ثالثاً، لغات سلطة من نوع يختلف عن اللغات الحلية الإدارية القديمة. فمن المؤكّد أنّ لهجات معينة كانت "أقرب" إلى كلّ لغة من اللغات الطباعية وسيطرت على شكلها النهاني. أمّا بنات عمّها المتضررات فقد خَسِرْنَ مكانتهن، على الرغم من قابليتهن للجمع والاستيعاب في اللغة الطباعية البازغة، ويعود ذلك قبل كل شيء إلى أنهنّ لم ينجحن (أو تحمن نسبياً وحسب) في الإصرار على شكلهن الطباعي. هكذا غدت "الألمانية الشمالية الغربية"، مع أنها ألمانية شفاهية عموماً وأدنى من القياسية إذاً، الألمانية المتداولة [Platt Deutch] لانها كانت قابلة للجمع والاستيعاب في الألمانية الطباعية على نحو لا نحده لدى التشيكية الشفاهية البوهيمية. كما ارتقت الألمانية الرفيعة، وإنغليزية الملك [جيمس]، والتايلندية الوسطى لاحقاً، إلى مصاف جديدة من السمو السياسي—الثقافي. (ومن هنا ذلك الكفاح الذي خاضته قوميات "فرعية" في أوروبا أواخر القرن العشرين لتغيير مكانتها المتدينة عبر اقتحام ميدان الطباعة والإذاعة).

ويبقى أن نؤكّد على أنَّ عملين تثبيت اللغات الطباعية والمفاضلة بينها في المكانة قد كانتا، في أصولهما، عمليتين غير واعيتين إلى حدِّ بعيد نحمتا عن التفاعل الانفجاري بين الرأاالية، والتكنولوجيا، والتعدد اللغوي البشري. لكنهما، مثل كثير من الاشياء الأخرى في تاريخ القومية، ما إنَّ قامتا، حتى أمكنهما أن تغدوا غاذج شكلية تُقلَّد وعُاكي، وتُستَغلَّ عمداً وبتلك الروح الماكيافيللية حين تسنح الظروف. فالحكومة التايلندية، اليوم، غُبط عاولات الإرساليات الأجنبية تزويد أقلياتها القبلية الجبلية بأنظمتها الكتابية وإصدار منشورات بلغاتها، في حين الشعوب الناطقة بالتركمانية في المناطق التي أُخِقت بتركيا، وإيران، والعراق، والأنحاد السوفيين. الشعوب الناطقة بالتركمانية في المناطق التي أُخِقت بتركيا، وإيران، والعراق، والاتحاد السوفيين. الإملاء العربي، لكنها فقدت تلك الوحدة نتيجة ضروب من التلاعب المقصود. فلكي يرفع أتاتورك من شأن الوعي القومي الخاص بتركيا الناطقة بالتركية على حساب أي هوية إسلامية أوسع، فرض بالقوة كتابة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية ذلك الفرض السلطات السوفيتية في أعقابه، أولاً من خلال الروسنة بفرض الحروف اللاتينية ذلك الفرض في مناهضة للإسلام والفارسية، ثمّ من خلال الروسنة بفرض الحروف الكيريلية السلافية، في مناهضة للإسلام والفارسية، ثمّ من خلال الروسنة بفرض الحروف الكيريلية السلافية، في مناهضة للإسلام والفارسية، ثمّ من خلال الروسنة بفرض الحروف الكيريلية السلافية، في مناهضة للإسلام والفارسية، ثمّ من خلال الروسنة بفرض الحروف الكيريلية السلافية، في مناهضة للإسلام والفارسية، ثم من خلال الروسة بفرض الحروف الكيريلية السلافية، في مناهضة للإسلام والفارسية أيورا المشرين أيام ستالين الحكال.

عكن إنجاز النتائج الت خرجنا بها من نقاشنا إلى الأن بالقول إن تلاقي الرأسالية وتكنولوجيا الطباعة مع ما تتميّز به اللغة البشرية من تعدّد قَدَريّ خَلَق إمكانيةَ شكل جديد من أشكال الجماعة المتخيّلة، هيّا المنصّة للأمة الحديثة عا اتسم به من هيئة وتركيبة أساسية. أمّا الامتداد المتاح أمام هذه الجماعات فكان محدوداً أصلاً، ولم تكن تربطه بالحدود السياسية القائمة (التاع أمام علامات تدلّ على أقصى ما بلغته ضروب التوسّع التي مارستها السلالات الحاكمة) سوى علاقة عَرضيّة تماماً.

غير أنه في الوقت الذي عُتلك فيه أمم اليوم الحديثة -والدول الأمم- جميعها تقريباً "لغات طباعية قومية"، فإنّ كثيرًا منها يتقاسم هذه اللغات، وغّة أخرى لا "يستخدم" لغتها القومية في الحديث أو على الورق سوى نسبة ضئيلة من السكّان. وتشكّل الدول الأمم في أميركا الإسبانية أو تلك الي "العائلة الأنغلوساكسونية" أمثلة بارزة على الحالة الأولى، في حين يشكّل كثير من الدول المُستَعْمَرة سابقاً، خاصة في إفريقية، مثالاً على الحالة الثانية. وبعبارة أخرى، فإنّ تشكّل الدول الأمم المعاصرة الملموس والعيانيّ لا يتطابق بأي حال من الأحوال مع المدى الحدد الذي تبلغه لغات طباعية معينة. ولكي نفسر تلك الحالة من الانفصال-في-الاتصال بين اللغات الطباعية، والوعي القومي، والدول الأمم، لا بدّ لنا من أن نلتفت إلى تلك المحموعة الكبيرة من الكيانات السياسية الجديدة اليّ بزغت في نصف الكرة الغربي بين 1776 و 1838، واليّ راحت تشير إلى ذاتها بوعي على أنها أمم، وعلى أنها جمهوريات (غير سلالية)، باستثناء مثال البرازيل تشير إلى ذاتها بوعي على أنها أمم، وعلى أنها حموريات (غير سلالية)، باستثناء مثال البرازيل اللفت. ذلك أنّ أمر هذه الكيانات لا يقتصر على كونها تاريخياً أول دول من هذا النوع تظهر على اللافت. ذلك أنّ أمر هذه الكيانات لا يقتصر على كونها تاريخياً أول دول من هذا النوع تظهر على اللافت. ذلك أنّ أمر هذه الكيانات لا يقتصر على كونها تاريخياً أول دول من هذا النوع تظهر على

المسرح العالمي، وتوفّر تالياً أول النماذج الفعلية لما ينبغي أن "تبدو عليه" مثل هذه الدول، بل يتعدّاه إلى أنّ أعدادها وضروب ولادتها توفّر أرضية خصبة للبحث المقارن.

## 4) روّاد کریولیون

تتسِمُ الدول الأميركية الجديدة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر باهمية غير عادية نظراً لاشتمالها على عاملين يكاد يستحيل تفسيرهما كانا قد سيطرا على قَدْر كبير من التفكير الأوروبي الحلّي في نشوء القومية، ربما لأنّهما مستمدّان أصلاً من قوميات منتصف القرن الأوروبية.

يتمثّل العامل الأول في أننا لو نظرنا إلى البرازيل، أو الولايات المتحدة الأميركية، أو المستعمرات الإسبانية السابقة، لوجدنا أنَّ اللغة لم تكن ذلك العنصر الذي يفرّق بينها وبين المتروبولات الإمبريالية التي استعمرتها، فجميعها، عا في ذلك الولايات المتحدة، كانت دولاً كريولية، شكّلها وقادها أناس تقاسموا مع أولئك الذين قارعوهم لغة مشتركة ومحداً مشتركاً للله لم النصاف القول إنَّ اللغة لم تَرْقَ قطَ حتى إلى مستوى طرحها كقضية في هذه الصراعات الباكرة من أجل التحرر القومي.

ويتمثّل العامل الثاني بوجود أسباب وجيهة للشكّ في إمكانية تطبيق أطروحة نايرن في مناطق كثيرة من نصف الكرة الغربي على الرغم من إقناعها في غير مكان:

لقد ارتبط عيء القومية عمناها الحديث الميّز عمودية الطبقات الدنيا السياسية . . فالحركات القومية، على الرغم من معاداتها للدعقراطية في بعض الأحيان، كانت شعبوية على الدوام في تطلّعها وسعيها إلى دفع الطبقات الدنيا في الحياة السياسية. ولقد اتّخذ هذا

الأمر، في طبعته النمطية، شكلً طبقةٍ وسطى وقيادةٍ فكرية قلقتين تحاولان استنهاض ما لدى الطبقات الشعبية من طاقات وتوجيهها نحو مساندة الدول الجديدة [2].

وفي أميركا الجنوبية والوسطى على الأقلّ، كانت "الطبقات الوسطى" من النمط الأوروبي لا تزال بلا أهمية في أواخر القرن الثامن عشر. ولم يكن هنالك أيضًا ذلك القَدْر الكبير من الإنتلجنسيا. ذلك أنّه "في تلك الأيام الكولونيالية الهادئة قليلاً ما كانت القراءة تقطع إيقاع حياة البشر المهيب والمتفاخر" [13]. ولقد رأينا أنَّ أول رواية أميركية—إسبانية لم تُنْشَر إلا في العام 1816، بعد اندلاع حروب الاستقلال بفترة طويلة. وتشير الدلائل بوضوح إلى أنَّ زمام القيادة كان بأيدي ملاّك الأرض الأثرياء، المتحالفين مع عدد أصغر نسبياً من التجار، والمهنيين من صنوف شتّى (كالحامين، والموظفين الحليين والإقليميين) [14].

وبعيداً عن "دفع الطبقات الدنيا في الحياة السياسية"، كان واحداً من العوامل الأساسية الت حفرت في البدء دافع الاستقلال عن مدريد، في حالات هامة مثل فنرويلا والمكسيك والبع و ذلك الخوف من تعبئة الطبقات الدنيا وعَرَّكها السياسي: أعن انتفاضات المنود أو العبيد الرنوج <sup>[5]</sup>. (ولقد تصاعد هذا الخوف عندما قام من اعتبره هيغل "سكرتير الروح العالمي" [نابليون] بغزو إسبانيا، وحرم كريول شبه الجزيرة من الدعم العسكري إذا ما اقتضى الأمر). ففي البيرو، كانت ذكريات الـ jacquerie [التمرّد] العظيم الذي قاده توباك أمارو (1730 1730-) لا تزال طرية 161 وفي العام 1791، قاد توسان لوفر تور عُرداً للعبيد الزنوج أدّى في العام 1804 إلى قيام ثاني جهورية مستقلة في نصف الكرة الغربي، وروّع كبار أصحاب المزارع من ملاّك العبيد في فنرويلا [17]. وحين أصدرت مدريد، في العام 1789، قانوناً جديداً، أكثر إنسانية، وفصّلت فيه حقوق الأسياد والعبيد وواجباتهم، "رفض الكريول تدخّل الدولة بحجّة أنّ العبيد مفطورون على الرذيلة والاستقلال [!]، وأنهم ضروريون للاقتصاد. وفي فنزويلا -بل وفي الكاربي الإسباني برمّته– قاوم ملاّك المزارع القانون وتوصّلوا إلى إيقاف العمل به في العام 1794" <mark>لقا</mark>. بل إنّ الحرّر بوليفار نفسه صرّح ذات مرّة بأنَّ عَرّداً يقوم به الزنوج "أسوأ ألف مرّة من غزو تقوم به إسبانيا" <sup>[91</sup>. ولا ينبغي أن ننسى أنّ كثيرًا من قادة حركة الاستقلال في المستعمرات الثلاث عشرة كانوا من كبار المزارعين ملاّك العبيد. وكان توماس جفرسُن نفسه من بين أصحاب الزارع في فيرجينيا الذين أثار سخطهم في سبعينيات القرن الثامن عشر إعلان الحاكم الموالي عُرير أولئك العبيد الذين لم عِتثلوا لأوامر سادتهم المتمر دين [10]. وعا له دلالته أنَّ أحد أسباب كاح مدريد في العودة إلى فنزويلا من 1814 1816- وفي إبقاء سيطرتها على كويتو النائية حتى العام 1820 يكمن في كسبها دعم العبيد في الحالة الأولى، والهنود في الحالة الثانية، في صراعها مع الكريول المتمردين 1111. بل إنَّ الأمد الطويل الذي استفرقه صراع هذه القارة مع إسبانيا، اليّ كانت أنذاك قوة أوروبية من الدرجة الثانية وتعرّضت للفزو حديثاً هي نفسها، يشير إلى ما عَيّرت به حركات الاستقلال الأميركية اللاتينية هذه من "نحول اجتماعي".

غير أنَّها كانت حركات استقلال قوميّ. فقد غيّر بوليفار رأيُّه في العبيد الكلاء وأعلن زميله في

التحرّر سان مارتن في 1821 أنَّ "السكّان الأصليين لن يُطْلَق عليهم في المستقبل اسم الهنود أو الحرّر سان مارتن في 1821 أنَّ ومواطنوها وسوف يُدعَون بالبيروفيين" [131]. (وبمكن أن نضيف: على الرغم من حقيقة أنَّ رأّ الله الطباعة لم تكن قد وصلت بعد إلى هؤلاء الأميين).

ها عن أمام أحجية إذاً: لماذا طوّرت الجماعات الكريولية على وجه التحديد تصوراتِ عن انتمائها إلى أمّة على هذا النحو الباكر جداً، قبل معظم أوروبا بوقت طويل؟ لماذا خَرَجَتْ مثل هذه الأقاليم الكولونيالية، الي عادةً ما احتوت أعداداً ضخمة من السكّان المضطهّدين الذين لا يتكلمون الإسبانية، بأولئك الكريول الذين أعادوا عن وعي تعريف هؤلاء السكّان على انّهم أبناء قوميتهم؟ ولماذا أعادوا تعريف إسبانيا ألها التي كانوا يرتبطون بها من نواح كثيرة، على أنّها عدو غريب؟ وما الذي جعل الإمبراطورية الأميركية –الإسبانية، الي نعمت بألمدوء ما يقارب قروناً ثلاثة، تتفتّت بصورة مفاجئة عاماً إلى ثان عشرة دولة مستقلة؟.

العاملان اللذان شاع ورودهما في معظم الإجابات عن هذه الأسئلة هما اشتداد سيطرة مدريد وانتشار أفكار التنوير التحررية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن الصحيح بلا شكّ أنَّ السياسات التي اتبعها كارلوس الثالث (حكم بين 1759 - 1788)، ذلك المستبدّ المستنير" القادر، قد أحبطت الطبقات الكريولية العليا، وأغْضَبَتْها، وأَفْرَعَتْها على ذلك النحو المتصاعد. فخلال الفترة التي تُدعى في بعض الأحيان، ومن باب التهكّم المرير، بالغزو الثاني للبلدان الأميركية، فرضت مدريد ضرائب جديدة، وجعلت عملية جمعها أشدّ كفاءة، وفرضت احتكار المتروبول في تجارات شتّى، وقيّدت التجارة بين نصفيّ الكرة لمصلحتها الخاصة، ومركزت ضروب التراتب الإداري، وحمّلت سكّان شبه الجزيرة على هجرة كثيفة أقالًا. فالمكسيك، مثلاً، كانت تدرّ على التاج في أوائل القرن الثامن عشر إيراداً سنوياً حوالي 3000000 بيرو. غير أنَّ هذا المبلغ تضاعف خس مرات تقريباً ليبلغ في نهاية القرن 14000000، لم يُسْتَخْدَم منها سوى 4000000 في دفع نفقات الإدارة الحلية أفعاف ما كانت عليه بين 1710 - 1730 المجرة من شبه الجزيرة في العقد بين 1710 - 1730 أضعاف ما كانت عليه بين 1710 - 1730 المجاراة الحديدة في العقد بين 1710 - 1730 المحالة المحرة من شبه الجزيرة في العقد بين 1710 - 1730 المحالة المحرة من شبه الجزيرة في العقد بين 1710 - 1730 المحالة المحرة من شبه الجزيرة في العقد بين 1710 - 1730 المحالة المحرة من شبه الجزيرة في العقد بين 1750 - 1750 المحرة ضعاف ما كانت عليه بين 1710 - 1730 المحرة المحرة المحرة من شبه المحرة في العقد المحرة المحر

ولا شكّ أيضًا أنّ تحسن الاتصالات بين ضفي الأطلسي، وتقاسم بلدان أميركية عديدة اللغات والثقافات ذاتها مع متروبولاتها، قد أفضيا إلى انتقال المذاهب الاقتصادية والسياسية المُنْتَجَة في أوروبا الغربية بسرعة وسهولة نسبيتين. كما ترك نجاح تمرد المستعمرات الثلاث عشرة في أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر، وانطلاق الثورة الفرنسية في أواخر ثانينياته، ذلك الاثر الكبير. وأكثر ما يؤكّد هذه "الثورة الثقافية" هو تلك النزعة الجمهورية الي عمّت الجمعات المستقلة حديثاً الحالي في أي مكان المحتمعات المستقلة حديثاً العالم. فلم تَجُر أية محاولة جدية لإحياء نظام الحكم السلالي في أي مكان من الأميركيتين، ما عدا البرازيل؛ وحتى هناك، لعلّ هذا الإحياء لم يكن ممكناً لولا هجرة ملك البرتغال نفسه عام 1808، هرباً من نابليون. (حيث أقام طيلة 13 عاماً، وحين عاد إلى وطنه توج ابنه ملكاً على البرازيل باسم بيدرو الأول) [191].

غير أنَّ عدوانية مدريد والروح اللِبرالية، على الرغم من مكانتهما المركزية في أيّ فهم

لدافع المقاومة في البلدان الأميركية الإسبانية، لا تفسّران وحدهما ما جعل كيانات مثل تشيلي، وفنرويلا، والمكسيك تبدو مقبولة وجدانيا وقابلة للحياة سياسياً [20]، ولا ما دفع سان مارتن لأن يقرر إطلاق اسم "البيروفيين" المُسْتحدَث على بعض السكّان الأصليين. كما أنهما لا تفسّران، في النهاية، تلك التضحيات الفعلية التي بُذِلَت. ذلك أنّه إذا كان من المؤكّد أنَّ الطبقات الكريولية العليا، المُتَصَوَّرة كتشكيلات اجتماعية تاريخية، قد أفادت من الاستقلال على المدى البعيد، إلاّ أنَّ كثيرًا من أفراد هذه الطبقات الذين عاشوا بين 1808 و1828 كان مالهم الإفلاس. (لكي نضرب مثالاً واحداً: خلال الهجوم المضاد الذي شنّته مدريد بين 1814 1816 "تعرّض ما يزيد على ثلثي العائلات الفنزويلية من ملاك الأرض لمصادرة عتلكاتهم تلك المصادرة الثقيلة "[21]). كما ضحّى الكثيرون بحياتهم طوعاً من أجل القضية. وهذه الطواعية في التضحية من جانب الطبقات الميسورة هي أمر يثير التأمل والتفكير.

ما التفسير إذاً؟ تكمن بداية الإجابة في الواقعة اللافتة اليّ مفادها أنَّ "كلّ جهورية من الجمهوريات الأميركية الجنوبية الجديدة كانت وحدة إدارية منذ القرن السادس عشرحتي القرن الثامن عشر"<sup>[22]</sup>. وكانت تُنْذِرُ على هذا الصعيد بما ستكون عليه الدول الجديدة في إفريقية وأجزاء من أسيا في أواسط القرن العشرين، وتبدي ذلك التعارض الحاد مع الدول الأوروبية الجديدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان تَشَكُّلُ الوحدات الإدارية الأميركية الأصلى تشكّلاً اعتباطياً وعَرَضيّاً بعض الشيء، إذْ وقفت حدودها عند الحدود الن بلغتها غزوات عسكرية معينة. غير أنَّها اكتسبت، عرور الوقت، واقعاً أشدَّ ثباتاً بتأثير عوامل جفرافية وسياسية واقتصادية. فاتساع الإمبراطورية الأميركية الإسبانية المائل، والتنوع الشديد في تربتها ومناخها، وقبل ذلك كلُّه صعوبة الاتصال الرهيبة في العصر ماقبل الصناعي، كانت تميل نحو إضفاء طابع الاكتفاء الذاتي على هذه الوحدات. (كانت الرحلة البحرية من بوينس آيريس إلى أكابولكو تستفرق أربعة أشهر في الحقبة الكولونيالية، وكانت رحلة العودة تستفرق أكثر؛ وكانت الرحلة البرية من بوينس أيريس إلى سانتياغو تستفرق شهرين في الأحوال العادية، وإلى كارتاجينا تسعة أشهر العلامة على هذا، فقد كان لسياسات مدريد التجارية أثرها في تحويل الوحدات الإدارية إلى مناطق اقتصادية منفصلة. ذلك أنّه "كان مُحَظِّراً على البلدان الأميركية أن تدخل في أيّ منافسة مع البلد الأم، ولم يكن باستطاعة أجزاء القارّة حتى أن تتاجر مع بعضها بعضاً. وكان على البضائع الأميركية المنقولة من طرف في أميركا إلى طرفِ آخر فيها أن عُرّ في الموانئ الإسبانية، فالبحرية الإسبانية كانت تحتكر التجارة مع المستعمرات" [24]. ومثل هذه الوقائع والخبرات تساعد في تفسير ما جعل «مبدأ uti possidetis الذي يقضي بأن تُبقى كلُّ أمة على الوضع الإقليمي الذي كان قائماً عام 1810، عام انطلاق حركة الاستقلال" واحداً "من المبادئ الأساسية للثورة الأميركية" 1251. ولا شكَ أيضًا أن تأثير هذه الوقائع والخبرات قد أسهم في تفكك غران كولومبيا التي أقامها بوليفار لفترة وجيزة وتفكك اتحاد أقاليم الريو دي لابلاتا إلى مكوّناته السابقة (اليّ هي اليوم فنزويلا- كولومبيا-الإكوادور والأرجنتين-الأوروغواي-الباراغواي-بوليفيا). بيد أنَّ المناطق-الأسواق، كدّ ذاتها، سواء كانت جغرافية "طبيعية" أم إدارية سياسية، لا تخلق الروابط. فمن ذا الذي عوت طواعيةً من أجل الكوميكون أو الأنحاد الاقتصادي الأوروبي؟

ولكن نرى كيف أمكن تصوّر الوحدات الإدارية، مرور الوقت،على أنها أراضي الأباء، ليس في البلدان الأميركية فقط بل في أجزاء أخرى من العالم أيضًا، لا بدّ لنا من أن نلقي نظرة على الطرائق الن تُخلق بها التنظيمات الإداريةُ معنىً. وكان الأنثروبولجي فيكتور ترنر قد كتب بصورةٍ مُلْهِمَةٍ عن "الرحلة"، بين الأزمنة، والأحوال، والأمكنة، بوصفها تجربة خالقة للمعنى <sup>1261</sup>. فكلّ رحلة من هذه الرحلات تتطلّب تفسيراً (مثال على ذلك، أنّ الرحلة من الولادة إلى الموت قد أدّت إلى قيام تصورات دينية شتى). والرحلة الن توافق أغراضنا هنا هي رحلة الحجّ. ليس فقط كما هي في أذهان المسيحيين، أو المسلمين، أو المندوس، تلك الرحلة إلى روما، أو مكَّة، أو بينارس حيث مراكز الجغرافيات المقدَّسة، بل من حيث تلك المركزية الن كَتَبَر و"تُؤَدّى" (بالمعنى المسرحي) من قِبَل دَفْق متواصل من الحجّاج الذين يقصدون تلك المدن من مناطق نائية لا ترتبط بها بأي رابط أخر. والحال، أنَّ الحدود الخارجية للجماعات الدينية المُتَخَيّلة كانت غَدّد معنى ما من خلال ما كان يفعله الحجّاج [27]. فقد سبق أن أشرنا إلى أنَّ التجاور البدني الغريب للمالاويين، والفرس، والهنود، والبربر، والأتراك في مكَّة لا عِكن أن يُفهَم دون فكرة أنَّهم جماعة بشكل ما. فالبربري الذي يلتقي المالاوي عند الكعبة لا بدِّ لأن يتساءل: "لماذا يفعل هذا الرجل ما أفعله، وينطق بالكلمات التي أنطق بها، مع أننا لا نستطيع أن نكلُّم واحدنا الآخر؟". وليس عُّة سوى جواب واحد، سبق أن تعلُّمه المرء، وهو: "لأننا . . مسلمان". ولطالما كان لتصميم حركات (أو كوريوغرافيا) ضروب الحج الدينية الكبرى وجهٌ مضاعفٌ أكيد عِيّرها: حيث نجد حشداً هائلاً من الأميين الناطقين بلغات علية يشكّل واقع الحج الطقسي المادي الكثيف، في حين تؤدّي فئةٌ قليلة من الخبراء المتعلمين ثنائيي اللغة المُستَمَدّين من كلّ جاعةٍ لغويةٍ عليةٍ الشعائرَ الْمُوحِّدة، مفسّرين لاتباعهم معنى حركتهم الجمعية [<del>28]</del>. وفي عصر ما قبل الطباعة، كان واقع الجماعة الدينية المتخيّلة يعتمد أشدّ الاعتماد على رحلات متواصلة لا يحصر ها العدّ. وما من شيء يستوقف المرء بشأن المسيحية الغربية أيام عرّها أكثر من ذلك الدُّفْق الطوعي من المريدين المؤمنين القادمين إلى روما من جميع أرجاء أوروبا، عن طريق "المراكز الإقليمية" الشهيرة الخاصة بالتعليم الرّهبانيّ. فهذه المؤسسات الكبري الناطقة باللاتينية كانت تجمع معاً مَنْ يمكن أن نعتبرهم اليوم إيرلنديين، ودغاركيين، وبرتغال، والمان، وهلمجرا، في جاعاتٍ كان معناها المُقَدُّس يُفَضَّ كلُّ يوم من خلال بُحاور أفرادها في غرفة الطعام في الدّير، ذلك التجاور الذي ما كان عكن تفسيره لولا هذا.

ومع أنَّ رحلات الحجّ الدين قد تكون الأعظم والأشدّ أثراً بين رحلات الخيال، إلاّ أنّه قد كان لها، ولا يزال، تلك النظائر العلمانية الحدودة والأكثر تواضعاً 129 . وأهمَها، فيما يخصّ موضوعنا، تلك الأسفار المتنوّعة الت خلقها قيام الملكيات المطلقة، ثم الدول الإمبراطورية العالمية ذات

المركز الأوروبي. فقوة الدافع الداخلي لدى الحكم المطلق كانت تدفعه إلى خلق جهاز للسلطة مُوَحَّدِ، خاضع للحاكم مباشرةً وموال له في وجه نبالةٍ إقطاعيةٍ خصوصية ولا مركزية. وقد عنى التوحيد تبادل البشر والوثائق البييّ الداخلي. حيث تعزّز تبادل البشر من خلال الضمّ -المتفاوت في مداه بالطبع- لـ homines novi السلام، بحكم طبيعتهم هذه، أيّ قوّة مستقلة خاصة بهم، فعملوا كاستطالات لإرادات أسيادهم1<u>30</u>1. وهكذا، كان موظّفو الحكم المطلق يقومون برحلات مختلفة جوهرياً عن رحلات النبلاء الإقطاعيين [31]. ويمكن أن عُثّل لهذا الاختلاف على النحو التخطيطي العريض التالي: في الرحلة الإقطاعية النموذجية، يصعد وريث النبيل (A) خطوة، عند وفاة والده، ليأخذ مكان ذلك الوالد. وهذا الصعود يتطلُّب رحلةً ذهاب وإياب، إلى مركز التنصيب، ثم العودة إلى مِلْك الأجداد. أمّا الموظّف الجديد فأموره أعقد بكثير، والموهبة، وليس الموت، هي الن ترسم مساره، وما يراه أمامه هو قمة وليس مركزاً. فيرحل صاعداً أفاريزها بسلسلةِ من الحركات القوسية اللولبية التي يأمل أن تغدو أصغر وأَرْسَخَ كلما اقترب من النروة. فهو إذ يُرْسَل إلى القسم الإداري في المدينة A ومرتبته ٧، قد يعود إلى العاصمة بالرتبة W؛ ويتابع إلى المقاطعة B بالرتبة X؛ ثمّ إلى الولاية C بالرتبة Y؛ وينهي حجّه في العاصمة بالمرتبة Z. ولا يوجد في هذه الرحلة أيّ مكان موثوق عكن للمرء أن يرتاح فيه؛ وكلُّ وَقُفَةٍ هي وقفة مؤقَّتة. وآخر ما يريده الموظَّف هو أن يعود إلى بيته؛ ذلك أنَّه ليس له أيّ بيت ذي قيمة جوهرية. وهو في طريقه الحلزوني الصاعد يقابل أمثاله من الحجيج التوّاقين هم زملاؤه الموظّفين، الذين أتوا من أماكن وعوائل نادراً ما سم بها ويأمل من غير شك ألا يضطر لرؤيتها. غير أنَّ وعياً بالارتباط يبزغ من تجربة العيش مع هؤلاء كرفاق رحلة (لماذا نحن . . هنا . . معاً؟")، خاصةً حين يتقاعون جيعاً لغة دولةٍ واحدةً. ومن ثمَّ، إذا ما كان الوظف A من المقاطعة B يدير المقاطعة C، بينما الموظّف D من المقاطعة C يدير المقاطعة B -وهو وَضْعٌ يبدأ الحكم المطلق بجعله ممكناً- فإنَّ بَحربة التبادل تلك تقتضي تفسيرها الخاص: إيديولوجيا الحكم المطلق، التي يُحْكِمُها الرجال الجدد أنفسهم، بقدر ما يُحْكِمُها العاهل.

أمّا تبالد الوثائق، الذي دعّم تبادل البشر، فقد عرّره هو ذاته تطورُ لغةٍ للدولة معياريةٍ. وكما يبيّن تعاقب الأنغلوساكسونية، واللاتينية، والنورماندية والإنغليزية الباكرة منذ القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر، فإنَّ أيّ لغة مكتوبة يمكنها، من حيث المبدأ، أن تقوم بهذه الوظيفة، شريطة أن عُنّح حقوقاً احتكارية. (غير أنَّ من الممكن القول أنّه حيثما عَتّعت اللغات المحلية، وليس اللاتينية، بهذا الاحتكار، كانت وظيفة المُركزة تتقدّم مزيداً من التقدّم، عبر الحدّ من تحوّل موظفي عاهل معين إلى أجهزة منافسيه؛ أي أنها كانت تضمن ألا يجري تبادل الموظفين الموظفين التابعين لمدريد مع أولئك التابعين لباريس).

من حيث المبدأ، كان ينبغي لما قامت به الممالك الكبرى في أوروبا الحديثة الباكرة من توسّع خارجي أن يوسّع النموذج آنفَ الذّكر باتجاه تنامي بيروقراطيات كبرى، عابرةٍ للقارات. غير أن ذلك لم يحصل، في حقيقة الأمر. فالمقلانية الأداتية لدى أجهزة الحكم المطلق –خاصةً ميلها

إلى التجنيد والترقية على أساس المهارة وليس المولد- لم تعمل عملها على النحو المناسب إلا ما وراء سواحل الأطلسي الشرقية [32].

وهذا الفرار واضحٌ في البلدان الأميركية. وعلى سبيل المثال، فإنَّه من بين 170 من الولاة أو نوّاب الملك في أميركا الإسبانية قبل العام 1813، كان 4 وحسب من الكريول. وهذه الأرقام تغدو مدهشةً حين نعلم أنَّ الإسبانيين المولودين في إسبانيا كانوا في العام 1800 أقلُّ من 5% من أصل 3200000 "أبيض" كريوليّ في الإمبراطورية الفربية (مفروضين على حوالي 13700000 من السكان الأصليين). وعشية الثورة في المكسيك، لم يكن هناك سوى أسقف كريولي واحد، مع أنَّ الكريول كانوا في هذه الولاية يفوقون أبناء شبه الجزيرة بنسبة 70 إلى 1 [<del>[33]</del>. ولا حاجة للقول إنّه لم يكد يُسْمَع بأيّ كريوليّ تسلّم منصباً رسمياً مهماً في إسبانيا 134 . بل إنّ رحلات حجّ الموظَّفين الكريول لم تكن مغلقةً صعوداً أو شاقولياً وحسب. فإذا ما كان بمقدور الموظفين من شبه الجزيرة أن يقطعوا الطريق من سراقوسة إلى قرطاجنة، ومدريد، وليما، ثم مدريد مرّة أخرى، فإنّ الكريول "المكسيكي" أو "التشيلي" لم يكن بخدم في العادة إلا في المناطق المكسيكية أو التشيلية الكولونيالية: فحركته الأفقية كانت معاقة مثل صعوده الشاقولي. وبذلك، كانت ذروة تسلّقه اللولي، وأعلى مركز إداري عكن أن يوكل إليه، هو عاصمة الوحدة الإدارية الإمبر اطورية الن عد فيها نفسه [<del>35]</del>. غير أنّه كان يرى في هذا الحجّ المُعَاق رفاق رحلة، راحوا عُسُّون أنَّ زمالتهم لا تتأتَّى من امتداد الرحلة الخاص وحسب، بل أيضًا من ذلك القَدَرْ المشرِّك المتمثّل بالولادة عبر الأطلسي. وحتى لو كان قد وُلِدَ بعد أسبوع واحد من هجرة والده، فإنّ جرد ولادته في البلدان الأميركية كانت تحكم عليه بالخضوع، مع أنَّه لم يكن يختلف كثيرًا عن الإسبان المولودين في إسبانيا سواء من حيث اللغة، أو الدين، أو الأصول، أو طرائق السلوك. ولم يكن مقدوره أن يفمل شيئاً على هذا الصعيد: فهو كريولي على نحو لا علاج له. ولكمْ كان يبدو إقصاءه بعيداً عن العقلانية! لكنَّ هذه اللاعقلانية كانت تنطوي على منطق خفيَّ: فما دام قد وُلدَ في البلدان الأميركية، لا يستطيع أن يكون إسبانيا حقيقياً؛ وبالمثل، فأنَّ ابن شبه الجزيرة، الذي وُلِدَ في إسبانيا، لا عكنه أن يكون أميركياً حقيقياً [36].

ما الذي جعل هذا الإقصاء يبدو عقلانياً في المتروبول؟ لا شكّ أنّه اقتران الميكافيللية العريقة مع تنامي تصورات التلوّث البيولوجي والبيئي الذي ترافق مع انتشار الأوروبيين والقوة الأوروبية فوق الكوكب منذ القرن السادس عشر فصاعداً. فمن وجهة نظر العاهل، كان الكريول الأميركيون، بأعدادهم المتزايدة باطّراد وبتنامي تحدّرهم الحلّي جيلاً بعد جيل، مشكلة سياسية فريدة تاريخياً. فتلك كانت أول مرّة تضطر فيها المتروبولات إلى التعامل مع أعداد هائلة —بالنسبة لتلك الحقبة — من "أبناء جلدتها الأوروبيين" (الذين زادوا على الثلاثة ملايين في البلدان الأميركية الإسبانية بحلول العام 1800) بعيداً عن أوروبا أشد البعد. فإذا ما كان من المكن فتح السكان الأصليين بالاسلحة والمرض، والسيطرة عليهم بغيبيات المسيحية وثقافة غريبة عاماً (فضلاً عن تنظيم سياسي كان متقدّماً بالنسبة لتلك الأيام)، فإنَّ ذلك لا يصحّ غريبة عاماً (فضلاً عن تنظيم سياسي كان متقدّماً بالنسبة لتلك الأيام)، فإنَّ ذلك لا يصحّ

على الكريول، الذين تربطهم العلاقة ذاتها بكلً من الاسلحة، والمرض، والمسيحية، والثقافة الاوروبية شانهم شأن أبناء المتروبول. وبعبارة أخرى، فقد كان في متناولهم، من حيث المبدأ، تلك الوسائل السياسية، والثقافية، والعسكرية اللازمة لإثبات وجودهم بنجاح. وكانوا يشكّلون جماعةً كولونيالية وطبقةً عليا في أن معاً. وعلى الرغم كونهم عرضة للخضوع الاقتصادي والاستغلال، إلا أنَّ دورهم كان أساسياً في استقرار الإمبراطورية. ويمكن أن نرى، في هذا الضوء، ضروباً معينة من التوازي بين وَضْع كِبار الكريول ووضع البارونات الإقطاعيين، الذين كان دورهم حاساً في سلطة العاهل، لكنهم كانوا يشكّلون تهديداً لهذه السلطة. ولذلك قام أبناء شبه الجزيرة الذين أرْسلوا وُلاةً وأساقفة بالوظائف ذاتها الي كان يقوم بها الـ homines novi من طلائع بيروقراطيات الحكم المطلق الآلالي، وحتى لو كان الوالي نبيلاً وشريفاً في موطنه الاندلسي، فقد كان هنا، على بعد 5000 ميل، وبقرب الكريول، نوعاً من الـ homo novus الفعلي التابع كلياً لسيّده في المتروبول. وعلى هذا النحو، كان التوازن المتوتر بين الموظف القادم من شبه الجزيرة والكريول الكبير تعبيراً عن سياسة فرق تَسُدُ القديمة في وَضْع جديد.

وعلاوة على هذا، فقد كان لا بد لتنامي جاعات الكريول، في البلدان الاميركية بصورة أساسية، وكذلك في أجزاء من أسيا وإفريقية، من أن يؤدي إلى ظهور الأوراسيين، والأورافريقيين، فضلاً عن الأوراميركيين، لا كغرائب عارضة بل كجماعات اجتماعية واضحة. وقد أتاح بروغ هذه الجماعات اردهار اسلوب في التفكير كان بمثابة استباق للعنصرية الحديثة. وتشكّل البرتغال، التي كانت الأولى بين فاتحي الكوكب الأوروبيين، مثالاً مناسباً على هذا الأمر. ففي العقد الأخير من القرن الخامس عشر كان لا يرال بمقدور الدوم مانويل الأول أن "كلّ" ما لديه من "مشكلة يهودية" عن طريق التنصير الجماعي القسري. ولعلّه آخر حاكم أوروبي يحد هذا الحلّ مُرْضياً و"طبيعياً" على السواء [38]. غير أننا، بعد أقلّ من قرن، نرى الكسندر فاليفنانو، منظّم التبشير الجزوييّ في آسيا بين 1574 و1606، يعارض بشدّة قبول المنود والأوروبيين المنود بين أعضاء الكهنوت:

حيعُ هذه الأعراق قاعمة اللون غبيّة وأثيمة، وأرواحها أحطّ الأرواح . . أمّا الـ mestiços والـ Castiços والـ Castiços في فينبغي ألاّ نقبل منهم إلا أقلّ القليل أو لا أحد على الإطلاق؛ خاصة الـ mestiços لانّه كلما زاد الدم الحلي الذي يجري في عروقهم، زاد تشابههم مع المنود وقلّ تقديرهم عند البرتغال 1391.

(لكن فاليغنانو كان يشجّع بقوة قبول اليابانيين، والكوريين، والصينيين، و"المنود الصينيين" في الوظائف الكهنوتية، ربما لأن الـ mestizos لم يكونوا قد ظهروا بعد في تلك المناطق؟). وبالمثل، فقد عارض الفرنسيسكان البرتغاليون في جوا معارضة عنيفة قبول الكريول في نظامهم، حجّة أنهم "حتى لو كانوا قد وُلِدوا لأبوين أبيضين نقيين فقد رضعوا من مربّيات هنديات في طفولتهم وتلوث دمهم بذلك مدى الحياة" [40]. ويكشف بوكسر أنَّ الحواجز "العرقية" وضروب الإقصاء قد زادت على نحو ملحوظ في القرنين السابع عشر والثامن عشر قياساً بما

كان سائداً قبل ذلك. كما أسهم إحياء العبودية على نطاقٍ واسع (لأول مرّة في أوروبا منذ زمن العصور القديمة)، والذي كانت البرتغال رائدته بعد العام 1510، ذلك الإسهام الفادح في هذه النزعة الخبيثة. ففي خسينيات القرن السادس عشر، كان العبيد يشكلون 10% من سكّان لشبونة؛ وفي 1800 كان عدد العبيد يقارب المليون بين سكان البرازيل البرتغالية البالغ عددهم 2500000 أو ما يقارب ذلك 1411.

ولقد أسهم التنوير أيضًا بصورةٍ غير مباشرة في بَلْوَرَة عييز قاطع بين أبناء المتروبول والكريول. فالأوتوقراطي المستنير بومبال، خلال حكمه الذي استمرّ أثنين وعشرين عاماً (1755–1777)، لم يقتصر على طرد الجرويت من المناطق الواقعة تحت السيطرة البرتغالية، بل اعتبر إطلاق أساء مهينة على الرعايا "الملوّنين"، مثل "ربحي" أو "mestiço" [كذا]، فعلاً جرمياً. لكنه برّر هذا القرار مستشهداً بالتصورات الرومانية القديمة عن المواطنة الإمبراطورية، وليس عذاهب الفلسفات 142 كما مارست تأثيراً واسعاً على هذا الصعيد كتابات روسو وهيردر، الت ترى أنَّ للمناخ و"البيئة" تأثيراً مكوّناً على الثقافة والطَّبْع الكلاء وكان من السهل عاماً بعد ذلك التوصّل إلى الاستنتاج المبتذل المناسب الذي مفاده أنَّ الكريول، الذين ولدوا في نصف الكرة الممجي، مختلفون بطبيعتهم عن أبناء المتروبول، وأدنى منهم، وليسوا مناسبين إذاً لتولّي المناصب الرفيعة 1441.

لقد تركز اهتمامنا إلى الآن على عوالم الموظّفين في البلدان الأمريكية، وهي عوالم هامة استراتيجياً، لكنها تظلّ صغيرة ومحدودة. بل إنّها، بما عرفته من صراع بين أبناء شبه الجزيرة والكريول، كانت سابقة على ظهور الوعي القومي الأميركي في نهاية القرن الثامن عشر. ورحلات الحجّ المُعاقّة داخل الولايات لم يكن لها أيّ عواقب حاسمة إلا بعد أنْ أَمْكَنَ تَخيّل مداها الإقليمي كأمّة، أي بعبارة أخرى بعد وصول رأسالية الطباعة.

والطباعة ذاتها كانت قد انتشرت إلى إسبانيا الجديدة باكراً، لكنها بقيت طوال قرنين تحت سيطرة العرش والكنيسة الحكمة. وحتى نهاية القرن السابع عشر، لم يكن ثمّة مطابع إلا في مكسيكو سين وليما، وكان إنتاجها كَنَسيّاً بصورة تكاد أن تكون حصرية. وفي أميركا الشمالية البروتستانتية لم تكد الطباعة توجد على الإطلاق في ذلك القرن. غير أنَّ ثورةً فعليةً حدثت على هذا الصميد خلال القرن الثامن عشر، فبين عامي 1691 و1820 صدر ما لا يقلّ عن 2120 صحيفة"، استمر 461 منها أكثر من عشر سنوات الحالاً.

ولقد ارتبطت شخصية بنجامين فرانكلين بالقومية الكريولية في البلدان الأميركية الشمالية ذلك الارتباط الذي لا يُحى، أمّا أهمية حرفته فقد تكون أقلّ وضوحاً. ومن جديد، عُة فائدة في العودة إلى فيفر ومارتن. فهما يذكراننا بأنّ "الطباعة لم تتطور حقّاً في أميركا [الشمالية] في القرن الثامن عشر إلا بعد أن اكتشف أصحاب المطابع مصدر دخل جديد، هو الصحيفة" [146]. فكان ثمّة صحيفة على الدوام بين منتجات أصحاب المطابع الذين وضعوا قيد العمل مطابع جديدة، وعادة ما كانوا عرريها الاساسيين، بل الوحيدين. ولذلك كانت ظاهرة

الصحفيّ-الطابع في البداية ظاهرة أميركية شالية بصورة أساس. ولأنّ المشكلة الأساس الت واجهت الصحفي-الطابع كانت الوصول إلى القرّاء، فقد تطور تحالف وثيق بينه وبين مدير مكتب البريد لدرجة أنّ واحدهما كثيرًا ما كان يتحول إلى الأخر. وهكذا، برز مكتب صاحب المطبعة على أنّه المفتاح في اتصالات الجماعة الأميركية وفي حياتها الفكرية. ولقد أدّت سيرورات ماثلة، وإن تكن متقطعة وأبطأ، إلى قيام أولى المطابع الحلية في أميركا الإسبانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر 1471.

ماذا اتصفت الصحف الأميركية، سواء في الشمال أم في الجنوب؟ لقد بدأت في الأساس تابعة للسوق ومُلْحَقة به. فقد اشتملت الجرائد الرسية الأولى -إلى جانب أخبار المتروبول- على أخبار على أخبار أمواعيد وصول السفن ومغادرتها، أسعار السلع والموانئ الموجودة فيها)، وزيجات الأثرياء، وما إلى ذلك. وبعبارة أخرى، فإنَّ ما كان يجمع معاً، على الصفحة ذاتها، هذا الزواج مع تلك السفينة، وهذا السعر مع ذلك الأسقف، هو بنية الإدارة الكولونيالية ذاتها ونظام السوق ذاته. وعلى هذا النحو، كانت صحيفة كاراكاس تخلق بطريقة طبيعية عاماً، بل وغير سياسية، جماعة مُتَحَيِّلَة بين مجموعة معينة من زملاء قراءتها، تخصّهم هذه السفن، والريحات، والأسعار، وأولئك الاساقفة. وكان متوقّعاً، بالطبع، أن تدخل المواد السياسية بمرور الوقت.

ولطالما، كانت عليّة تلك الجرائد واحدةً من ساتها المثمرة. فقد يقرأ الكريول الكولونيالي صحيفةً من مدريد إذا ما سنحت له الفرصة (مع أنّها لن تأتي على ذكر عالمه)، أمّا كثير من الموظّفين من شبه الجزيرة، الذين يعيشون في الشارع ذاته، فلن يقرأوا صحيفةً من كاراكاس، الموظّفين من شبه الجزيرة، الذين يعيشون في الشارع ذاته، فلن يقرأوا صحيفةً من كاراكاس، مهما تعددت وتكاثرت. أمّا السّمة الأخرى فهي التعددية. فالصحف الأميركية—الإسبانية الي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر كانت تُكْتَب بإدراك كامل لوجود صحف علية في عوالم مشابهة لعالمها. وكان قراء الصحف في مكسيكو سيت، وبوينس آيريس، وبوغوتا على وعي تام بوجود الصحف لدى بعضهم بعضاً، حتى لو لم يقرأوها. ومن هنا تلك الازدواجية الشهيرة في القومية الأميركية—الإسبانية الباكرة. والمتمثّلة عراوحتها بين الامتداد الفسيح والحلية الخصوصية. ولقد فُسّرَتْ كتابة القوميين المكسيك الأوائل عن أنفسهم أنّهم nosotros los Americanos أميركا الي لنا]، على أنّها تكشف عن أكن الاميركين] وعن بلدهم أنّه مسافق المسافق الميركا الإسبانية جميعها كانوا ينظرون إلى أملاك إسبانيا الأميركية الميركيون"، لأن هذا المصطلح كان يشير على وجه الدقّة إلى القدر المشتك النفسهم على أنهم "أميركيون"، لأن هذا المصطلح كان يشير على وجه الدقّة إلى القدر المشتك المنسؤل بالولادة خارج إسبانيا المكالية.

ومن جهة أخرى، لقد رأينا أنَّ مفهوم الصحيفة ذاته ينطوي على تعريض "أحداث العالم" لعملية انكسار تعكسها إلى عالم قرّاء اللغة الحلية المتخيَّل الخاص؛ كما رأينا مدى أهمية فكرة الترامن الراسخ، الصلب عبر الزمن بالنسبة لتلك الجماعة المتخيَّلة. لكن مثل هذا الترامن كان عسيراً على التخيّل بسبب اتساع الإمبراطورية الأميركية الإسبانية الهائل، وانعزال أجزائها المكوِّنة الحوائة فقد يعلم الكريول المكسيك بالتطورات الجارية في بوينس أيرس بعد أشهر من حدوثها، وذلك من خلال الصحف المكسيكية، وليس صحف الريو دي لابلاتا؛ وسوف تبدو لهم تلك الأحداث "شبيهة" بأحداث المكسيك دون أن تكون "جزءاً منها".

وبهذا المعنى، فإنَّ "فشل" التجربة الأميركية-الإسبانية في توليد قومية أميركية-إسبانية واسعة ودائمة يعكس كلاً من المستوى العام لتطور الرأسمالية والتكنولوجيا في أواخر القرن الثامن عشر وتخلّف الرأسالية والتكنولوجيا الإسبانيتين "الحلّى" بالعلاقة مع اتّساع الإمبراطورية الإدارية. (ربما كان للحقبة التاريخية-العالمية الن تولُّد فيها كلُّ قومية من القوميات ذلك الأثر المام على بحالما أو مداها. ألا ترتبط القومية المندية ذلك الارتباط الذي لا انفصام فيه بتوحيد السوق والإدارة الكولونيالية بعد التمرد، على يد القوة الإمبراطورية الأكبر والأكثر تقدّماً؟) ولقد كان الكريول البروتستانت، الناطقون بالإنغليزية في وُعي أَنْسَب بكثير لتحقيق فكرة "أمير كا" ونحوا في النهاية في عَلَّك لقب "الأمير كيين". فالمستعمراتُ الثلاث عشرة الأصلية كانت تشكّل منطقةً أصغر من فنزويلا، ولا تزيد عن ثلث حجم الأرجنتين [51]. وحين جُمِفَت مماً من الناحية الجغرافية، كانت مراكز أسواقها في بوسطن، ونيويورك، وفيلادلفيا منفتحة أصلاً واحدهما على الآخر، وسكَّانها مرتبطين ذلك الارتباط الوثيق نسبياً عن طريق الطباعة علاوةً على التجارة. ولقد استطاعت "الولايات المتحدة" أن تضاعف عددها بالتدريج خلال الـ183 سنة التالية، بانتقال سكَّان قدامي وجدد من قلب الساحل الشرقي القديم باتجاه الغرب. غير أننا نجد عناصر "فشل" نسيّ أو انكماش – عدم استيعاب كندا الناطقة بالإنغليزية، وذلك العقد من استقلال تكساس وسيادتها (1835-1846) - حتى في حالة الولايات المتحدة الأميركية. ولو وُجِدَت في كاليفورنيا القرن الثامن عشر جماعة كبيرة تنطق بالإنفليزية، أما كان من الحتمل أن تنشأ هناك دولة مستقلَّة تلعب إزاء المستعمرات الثلاث عشرة ذلك الدور الذي لعبته الأرجنتين إزاء البيرو؟ وحتى في الولايات المتحدة، كانت الروابط الوجدانية القومية من المرونة بما يكفي، حيث اقترنت بتوسّع الحدود الغربية السريع وما نشأ بين اقتصاديات الشمال والجنوب من تناقضات، الأمر الذي عجّل بنشوب حرب الانفصال بعد قرن تقريباً من إعلان الاستقلال؛ وتذكِّرنا هذه الحرب اليوم بتلك الحروب الن انتزعت فنزويلا والإكوادور من غران كولومبيا، والأورغواي والباراغواي من اتحاد أقاليم الريو دي لابلاتا <u>152</u>1.

ولعلّه من المناسب –على سبيل الختام المؤقّت- أن نعيد التأكيد على ما اتّسم به نقاشنا إلى الأن من اندفاع محدود وخاص. فلم تكن النيّة أن نشرح الأسس الاقتصادية-الاجتماعية التي قامت عليها المقاومة المناهضة للمتروبول في نصف الكرة الغربي بين 1760 و1830 على سبيل المثال، بل كانت أن نبيّن الأسباب التي دفعت إلى تصوّر تلك المقاومة بأشكال جمعية، "قومية" دون سواها. أمّا المصالح الاقتصادية المعنيّة فهي معروفة جيداً وأهميتها هي تلك الأهمية الجوهرية التي لا لبس فيها. كما كان للبرالية والتنوير ذلك الأثر القوى الواضح، خاصةً من حيث توفير

الجماعات المتخيّلة . . .

ترسانة من الانتقادات الإيديولوجية للأنظمة القديمة والإمبراطورية. لكن ما أراه هو أنّه لا يكن، ولم يكن، ولم يكن، للمصلحة الاقتصادية، ولا للبرالية، ولا للتنوير أن تخلق بمفردها ذلك النوع، أو الشكل، من الجماعة المتخيّلة الي ينبغي الدفاع عنها في وجه انتهاكات تلك الأنظمة؛ وبعبارة أخرى، فإنّ أيّا من هذه الأمور لم يوفّر الإطار – أو هامش الرؤية الذي نادراً ما يُرَى – لوعي جديد لا يقتصر على ما يثير الإعجاب أو النفور من أشياء تقع في وسط حقل الرؤية الحالم بإنجازهم هذه لعب الموظفون الحجّاج وأصحاب المطابع الكريول ذلك الدور التاريخي الحاسم بإنجازهم هذه المهمة على وجه التحديد.

## 5) لغات قديمة، نماذج جديدة

ترامنت نهاية حقبة حركات التحرر القومي الناجحة في البلدان الأميركية ذلك الترامن الدقيق مع انطلاق عصر القومية في أوروبا. ولو تفحّصنا طابع هذه القوميات الجديدة اليغيرت وجه العالم القديم بين 1820 و1920 لوجدنا محين لافتتين عُيّرانها عن سابقتها. تتمثّل أولاهما في الأهمية الإيديولوجية والسياسية المركزية التي حظيت بها "اللغات الطباعية القومية" في حميع هذه القوميات تقريباً، في حين لم تكن الإسبانية والإنغليزية علّ خلاف قط في البلدان الأميركية الثورية. وتتمثّل ثانيتهما في أنَّ جميع هذه القوميات كانت قادرة على العمل انطلاقاً من غاذج واضحة قدّمتها سابقاتها البعيدة، وغير البعيدة كثيرًا بعد اضطرابات الثورة الفرنسية. هكذا غدت "الأمّة" ذلك الشيء الذي هو علّ طموح واع قديم ومتواصل إلى تحقيقه، بدلاً من أن تكون إطاراً لرؤيا تتضّح وتزداد حدّة شيئاً فشيئاً. والحقيقة، كما سنرى، أنَّ "الأمّة" قد تكشّفت عن كونها ذلك الاختراع الذي يستحيل أن عُنْح عليه براءة اختراع. وغدت عرضة قد تكشّفت عن كونها ذلك الاختلاف، وغير متوقّعة في بعض الأحيان. وهذا ما يدفعنا لان نركّز تعرضة أيد غتلفة أشد الاختلاف، وغير متوقّعة في بعض الأحيان. وهذا ما يدفعنا لان نركّز عليانا، في هذا الفصل، على كلّ من اللغات الطباعية والقَرْصَنَة.

لقد سبق ليوهان غوتفريد فون هيردر (1744-1803) أن أعلن، حوالي نهاية القرن الثامن عشر، وفي استخفافٍ ببعض الحقائق الساطعة خارج أوروبا، أنَّ: "¿Ponn jedes Volk ist Volk;" عشر، وفي استخفافٍ ببعض الحقائق الساطعة خارج أوروبا، أنَّ: "es hat seine National Bildung wie seine Sprache القومي مثلما أنَّ له لغته" [11]. ولقد كان لهذا التصور أوروبي المنشأ عن تكوِّن الأمة، بوصفه مرتبطاً بلغة هي ملكيةٌ خاصة، أثره الواسع في أوروبا القرن التاسع عشر فضلاً عن أثره الأضيق على التنظير اللاحق حول طبيعة القومية. فما هي أصول هذا الحلم؟ إنها تكمن، على الأرجح، فيما تعرّض له العالم الأوروبي من انكماش شديد في الزمان والمكان بدءاً من القرن الرابع عشر، وكم في البداية عن حفريات الإنسانويين في حين نجم لاحقاً، وعلى نجوٍ فيه مفارقة، عن توسّع أوروبا الكوكيّ.

ولقد عبّر أورباخ عن هذا الأمر أحسن تعبير،، في كتابه ﴿الحاكاةِ﴾ [2]:

مع أوّل فجر المذهب الإنساني، كان ثمّة إحساس بأنّ أحداث التاريخ القديم والأسطورة وأحداث الكتاب المقدّس لا يفصلها عن الحاضر بُغدُ الزمان وحسب بل أيضًا شروط الحياة المختلفة تماماً. والمذهب الإنساني ببرنائه الرامي إلى تحديد أشكال الحياة والتعبير القديمة إنّا نخلق منظوراً تاريخياً عميقاً لم يسبق أن امتلكته أيّ حقبة سابقة نعرفها: فالإنسانويون يرون العصور القديمة في عمق تاريخي، ويرون، على هذه الخلفية، حقب الظلام في العصور الوسطى البينيّة. . [لقد جعل هذا من المستحيل] إعادة تأسيس حياة الاكتفاء الذاتي الطبيعية الت عرفتها الثقافة القديمة أو سذاجة القرنين الثاني عشر والثالث عشر التاريخية.

هذا التنامي لما عِكن أن ندعوه "التاريخ المقارن" كان له أن يفضي عرور الوقت إلى تصوّر لم يسبق أن شُعِعَ به عن "حداثةٍ" بحاورةٍ لـ "القديم" صراحةً، ولكن على نحو ليس من الضروري أن يكون في صالح هذا الأخير على الإطلاق. وقد طُرِحَت هذه القضية بقوة في "معركة القدماء والحّدثين" التي سيطرت على الحياة الفكرية الفرنسية في الربع الأخير من القرن السابع عشر [13] ولو اقتبسنا أورباخ مرّة أخرى، لوجدناه يقول: "كان لدى الفرنسيين في عصر لويس الرابع عشر شجاعة أن يعتبروا ثقافتهم غوذجاً صالحاً بقدر ثقافة القدماء، وقد فرضوا هذا الرأي على بقية أوروبالله الـ

ولقد أوحى ها شهده القرن السادس عشر من "اكتشاف" أوروبا حضارات عظيمة لم تكن قبل ذلك سوى إشاعات غامضة - في الصين، واليابان، وجنوب شرق الأزتيك في الكسيك والإنكا في البيرو- بوجود تعددية إنسانية لا فكاك منها. فمعظم هذه الحضارات كان قد تطور بانفصال تام عن التاريخ المعروف لكلً من أوروبا، والعالم المسيحي، والعصور القديمة، والإنسان بوجه عام: فأنسابها تكمن خارج جنة عدن ولا يمكن لهذه الأخيرة أن تستوعبها وتتمثّلها. (وحده الزمن الفارغ المتجانس كان يمكن أن يتيح مثل هذا الاستيعاب). ويمكن أن نقيس الأثر الذي تركته الاكتشافات من خلال الجغرافيات الحددة التي اتسمت بها كيانات ذلك العصر السياسية المتخيَّلة. فقد زعمت يوتوبيا توماس مور، التي ظهرت في العام 1516، أنها حكاية بحار، صادفه المؤلّف في أنتويرب، وكان من المشاركين في بعثة أميركو فيسبوتشي إلى القارة الأميركية 1487- 1498. ولعلّ الجِدَّة في أطلنطس الجديدة (1726) لفرنسِس بيكون قد نبعت قبل كلّ شيء من

أنَّ أحداثها تدور في الحيط المادي. أمّا جريرة الموينهمر الرائعة في عمل سويفت رحلات غاليفر (1726) فقد طلعت بخارطة زائفة تحدد موقعها جنوبي الأطلسي. (يرداد معنى هذه الخلفيات وضوحاً حين ندرك كم كان بعيداً عن التخيّل أن توضع جهورية أفلاطون على أيّ خارطة، سواء كانت رائفة أم حقيقية). ولقد صُوِّرَت جميع هذه اليوتوبيات الساخرة، "المُصاغَة على غرار" اكتشافات فعلية، لا على أنّها جنّات عدن مفقودة، بل على أنّها بحتمعات معاصرة. ويمكن القول إنها قد اضطرت لأن تكون كذلك، نظراً لأنها كانت قد كُتِبَت كنقد للمجتمعات المعاصرة، ولأن الاكتشافات كانت قد وضعت حدّاً لضرورة التماس النماذج في عصور قديمة أفلة الحالي أو أعقاب اليوتوبيين جاء أعلام التنوير، فيكو ومونتسكيو وفولتير وروسو، الذين استثمروا علماً "حقيقياً" غير أوروبي في وابل من الكتابات المدّامة الموجّهة ضد المؤسسات الاجتماعية والسياسية الأوروبية القائمة. والحال، أنّه بات من المكن النظر إلى أوروبا على أنّها بحرّد حضارة بين كثيرٍ من الحضارات، حضارة ليس بالضرورة أن تكون المختارة أو الافضل أفاً.

وكذلّك فقد أُحدّت الاكتشاف والفتح ثورة فيما كان لدى أوروبا من أفكار عن اللغة. فمنذ الايام الأولى، عَمَدَ البحّارة، والمبسّرون، والتجار، والجنود البرتغاليون، والمولنديون، والإسبان بيدفع من أغراض عملية، كالإبحار، والتنصير، والتجارة، والحرب – إلى إعداد قوائم مفردات اللغات غير الأوروبية لكي يُصار إلى جمعها في معاجم بسيطة. أمّا دراسة اللغات العلمية المقارنة فلم تبدأ بالفعل إلا في أواخر القرن الثامن عشر. فمن الفتح الإنغليزي للبنغال جاءت تلك الاستقصاءات الرائدة التي قام بها وليم جونز في بحال السنسكريتية (1835)، والتي أفضت إلى تحقّق متنام من أنّا الحضارة المندية أقدم بكثير من الحضارة اليونانية أو اليهودية. ومن حملة نابليون على مصر الحضارة المندية أقدم بكثير من الحضارة اليونانية أو اليهودية. ومن حملة نابليون على مصر أوروبا المائد المناسيون مغاليق الميروغليفية (1835)، الذي زاد من تعدّد الحضارات القديمة خارج أوروبا ألاً. أما ضروب التقدّم التي أُحْرِزَتْ في دراسة اللغات السامية فقد قَوَّضَت فكرةَ أنَّ العبرية أما أن تكون قديمة ذلك القدم الفريد أو أن تكون من مصدر ساوي. ومرة أخرى، كان يجري تصوّر أنساب لا بحال لاستيعابها من غير الزمن الفارغ، المتجانس. "لم تعد اللغة تواصلاً بين قوة خارجية والناطق البشري بل حقلاً داخلياً يخلقه مستخدمو اللغة ويحققونه فيما بينهم "أقال ومن هذه الاكتشافات جاء فقه اللغة، بدراساته في القواعد المقارنة، وتصنيفه اللغات في عائلات، وإعادة بنائه "لغات أولية" واستعادتها من عالم النسيان على أساس من منطق علمي. وكما ولاحظ هوبسباوم كفيّ، فقد كان هذا "أول علم يعتبر التطور جوهره ولبّه" أللة.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بات على اللغات المقدسة -اللاتينية واليونانية والعبرية- أن تختلط على أساس أنطولوجي متكافئ مع حشد متنافر من اللغات الحلية العادية المنافسة، في حركة أُمَّتُ ما سبق أن أذاقتها إياه رأسمالية الطباعة من تقليل شأنها في السوق. ولأن اللغات جميعها غدت تتقاسم تلك المكانة المشتركة الدنيوية، فقد باتت جميعاً جديرة بالمثل، ومن حيث المبدأ، بان تكون عل دراسة وإعجاب. ولكن من قِبَلْ مَنْ؟ ما دام أيّ منها لم يَعُدْ من عند الرب، فمن المنطقي أن يكون الجواب هو من قِبَلْ مالكيها الجدد؛ الناطقون الحليون بكلّ لغة وقرّاؤها.

وكما يبين سيتون-واطسون على نحو مفيد أشد الفائدة، فإنَّ القرن التاسع عشر كان، في أوروبا وعيطها المباشر، عصراً ذهبياً لواضعي معاجم اللغات الحلية وعاتها، وفقهائها، وادبائها 101 وكانت الأنشطة الفعّالة التي قام بها هؤلاء المثقفون الاختصاصيون أساسية في تشكيل قوميات القرن التاسع عشر الأوروبية بين 1770 و1830، فالمعاجم أحادية اللغة كانت خلاصات وافية ضخمة للكنز الطباعي الذي تمتلكه كلّ لغة، يمكن حملها (على الرغم من بعض الصعوبة في بعض الأحيان) من المكتبة إلى المدرسة، ومن الوظيفة إلى البيت. أمّا المعاجم ثنائية اللغة فقد متحت على نزعة مساواتية بين اللغات آخذة بالاقتراب؛ فبصرف النظر عن الأوضاع السياسية الخارجية، كانت اللغتان التشيكية والألمانية المقترنتان بين دفي المعجم التشيكي-الألماني/ الخالمعات، هي ما اتّكا عليه أو ترعرع فيه بالضرورة أولئك الكادحون من أصحاب الرؤى الذين الجامعات، هي ما اتّكا عليه أو ترعرع فيه بالضرورة أولئك الكادحون من أصحاب الرؤى الذين كرّسوا سنوات من أعمارهم لجمع تلك المعاجم. ولا يقلّ عن ذلك ضرورة أنَّ قَدْراً كبيراً من زبائنهم المباشرين كان مؤلّفاً من طلاّب الجامعة وما قبل الجامعة. ولا شكّ أنَّ قول هوبسباوم إنَّ تقدّم القوميات يُقاس بتقدّم الموميات"، هو قول يصحّ على أوروبا القرن التاسع عشر، إنْ لم يكن عدت أوْعَى نصير لتلك القوميات"، هو قول يصحّ على أوروبا القرن التاسع عشر، إنْ لم يكن يصحّ على أرمنة وأمكنة أحرى 111.

يَكُن إِذاً أَن نَتْبَع هَذه الثورة المُعْجَمية على النحو الذي نتتبّع فيه دويّاً متصاعداً في مستودع للذخيرة أُضْرِمَت فيه النار، حيث يقدح كلُّ انفجارٍ صغيرٍ زنادَ انفجاراتٍ أخرى، إلى أن يقلب الانفجارُ الأخيرُ الليل نهاراً.

ومع أواسط القرن الثامن عشر، لم يكن ما وفّره كدُّ الباحثين الألمان والفرنسيين والإنغليز المائل مقتصراً على كامل الكلاسيكيات اليونانية الت قُدَّمَت في شكل طباعيًّ سهل الاستعمال، وزُوِّدتْ بالملاحق فقه اللغوية والمعجمية اللازمة، بل تعدّاها إلى عشرات الكتب الت أعادت خلق حضارة هيلينية قديمة، باهرة، وراسخة في الوثنية. وما إنْ حلَّ الربع الأخير من ذلك القرن، حتى تزليد انفتاح هذا "الماضي" أمام عدد صغير من المثقفين المسيحيين الشباب الذين يتكلمون اليونانية، كان معظمهم قد درس أو سافر خارج حدود الإمبراطورية العثمانية المائل وقد تولّى هؤلاء، وقد أثار خيالهم ما وجدوه في مراكز الحضارة الأوروبية الغربية من وَلَع باليونان، أمر تخليص اليونان الحُديثين من "البربرية"، بتحويلهم إلى كائنات جديرة ببيركليس وسقراط [13] وعا يمثل لهذا التغيّر في الوعي كلمات واحد من هؤلاء الشباب، هو أدامانتيوس كورايس (الذي غدا لاحقاً معجمياً متحمساً!)، في خطبة أمام جهور فرنسي في باريس عام 1803:

لأول مرّة تتفحّص الأمّة منظر جهلها الشنيع وترتعد إذ ترى بأمّ العين تلك المسافة التي تفصلها عن بحد أسلافها. غير أنَّ هذا الكشف المؤلم لا يلقي باليونانيين في مهاوي اليأس، بل يقولون في دواخلهم: نحن أبناء الإغريق، إمّا أن نعمل لكي نكون جديرين بهذا الاسم من جديد، أو نتركه 144 .

وبالمثل، فقد ظهرت قواعد اللغة الرومانية، ومعاجها، وتواريخها في أواخر القرن الثامن عشر، مصحوبةً بِدَفْع، نجح أولاً في المناطق الي كان عكمها آل هابسبورغ ثم في المناطق الي كان عكمها العثمانيون، إلى إحلال الأبجدية الرومانية (الي تميّز الرومانيين بحدة عن جيرانهم السلاف-الأرثوذكس) على الابجدية الكيريلية الحالى وبين 1789 و1794، أصدرت الأكاديمية الروسية، المقامة على غرار الأكاديمية الفرنسية، معجماً روسياً بستة بحلّدات، أعقبه وضع قواعد رسمية المغة الروسية عام 1802. وقد مثل هذان الأمران انتصاراً للغة الحلية على سلافية الكنيسة. ومع أنَّ اللغة التشيكية لم تكن طيلة القرن الثامن عشر سوى لغة الفلاحين في الكنيسة. ومع أنَّ اللغة التشيكية لم تكن طيلة القرن الثامن عشر سوى لغة الفلاحين في الكنيسة وهيميا (في حين كان النبلاء والطبقات الوسطى الصاعدة يتكلمون الألمانية)، فقد أصدر الكاهن الكاهن الكاثوليكي جوزيف دوبروفسكي (1753–1829) كتابه Geschichte der böhmischen وهو أول الكاهن الكاثوليكي جوزيف دوبروفسكي وبين 1835–1839 ظهر المعجم التشيكي-الألماني الرائد تأريخ منهجي للغة والأدب التشيكيين. وبين 1835–1839 ظهر المعجم التشيكي-الألماني الرائد

ويكتب إغنوطيوس عن ولادة القومية المنغارية أنّها كانت حَدَثاً "من الجِدَّة ما يكفي لتحديد تاريخه بالعام 1772، ذلك العام الذي نشر فيه الكاتب المنغاري متعدد المواهب جورجي بسنايي، الذي كان مقيماً أنذاك في فيينا حارساً شخصياً لماريا تيريزا، بعض الكتب غير القابلة للقراءة . . . فقد أراد بسنايي لعمله opera opera [العمل العظيم] أن يثبت أنَّ اللغة المنغارية تلائم الاجناس الأدبية الرفيعة "أكلاً غير أنَّ مزيداً من الحوافز تأتّى عن الأعمال الوافرة التي نشرها فيرنيك كارينسكي (1759-1831)، "أبو الأدب المنغاري"، وعن نقل الجامعة التي غدت جامعة بودابست من بلدة ترنافا الصغيرة الريفية إلى مدينة بودابست. وقد تجلّى أوّل تعبير سياسي بودابست من بلدة ترنافا الصغيرة الريفية إلى مدينة بودابست. وقد تجلّى أوّل تعبير سياسي عشر ضد قرار الإمبراطور جوزيف الثاني إحلال الألمانية على اللاتينية كلغة رئيسة للإدارة الإمبراطورية المقال.

وفي الفترة بين 1800 - 1850، أسفر العمل الرائد الذي قام به باحثون عليون عن قيام ثلاث لغات أدبية ميّرة شمال البلقان: السلوفينية، والصربوكرواتية، والبلغارية. وفي حين كان يُعْتَقَد على نطاق واسع، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أنَّ "البلغار" ينتمون إلى الأمّة ذاتها التي ينتمي إليها الصرب والكروات، وأنّهم قد شاركوا بالفعل في الحركة الإليرية الله أن دولة قومية بلغارية مستقلة قد برزت إلى الوجود في العام 1878. وكانت اللغة الأوكرانية (أو الروسية الصغيرة) تُعامَل باردراء في القرن الثامن عشر باعتبارها لغة فلاحين اجلاف. لكن إيفان كوتلاريفسكي كتب «الإنيادة» في العام 1798، وهي قصيدة ساخرة حول الحياة الأوكرانية الأوكرانية لأوكرانية الأوكرانية القرن التاسع عشر تتالت أعمال تاراس شيفشينكو، الذي

يلاحظ سيتون-واطسون أنَّ "تشكّل لغة أوكرانية أدبية مقبولة ينين له أكثر عا يدين لأي شخص آخر. وقد كان استخدام هذه اللغة مرحلة حامة في تشكّل وعي قوميًّ أوكراني" أوالًا. ولم عَضِ فترة وجيزة بعد ذلك حتى تأسست أول حركة قومية أوكرانيةً في كييف 1846، وكان مؤسسها واحد من المؤرّخين!

وفي القرن الثامن عشر كانت السويدية لفة الدولة فيما يُمْرَف الأن بفنلندا. وبعد اتحاد المنطقة مع القيصرية في العام 1809، صارت اللغة الرسية هي الروسية. غير أنَّ "يقظة" الاهتمام بالفنلندية والماضي الفنلندي، التي عبّرت عنها في البداية نصوصُ كتِبَت باللاتينية والسويدية أواخر القرن الثامن عشر، راحت تتجلى في اللغة الحلية على نحو متزايد في عشرينيات القرن التاسع عشر [20]، وكان قادة الحركة القومية الفنلندية الأخذة بالتبرعم "أشخاصٌ تقوم مهنهم على التعامل الواسع مع اللغة: كتّاب، ومدرّسون، وقساوسة، وعامون. وقعد مضت دراسة الفولكلور وإعادة اكتشاف الشعر الشعي الملحمي وجمعه جنباً إلى جنب مع نشر كتب القواعد والمعاجم، عا أدّى إلى ظهور دوريات عملت على جعل اللغة الفنلندية الأدبية تعلّق بهذه اللغة" الغة معيارية أو غطية، الأمر الذي مكّن من التقدّم عطالب سياسية أقوى تتعلّق بهذه اللغة" الغة مكتوبة مع الذعار كبين، على الرغم من الاختلاف الكامل في اللفظ، بزغت القومية مع قواعد النروكية الجديدة الي وضعها إيفار أسن (1848) ومعجمه (1850)، ومع نصوص كانت عثابة استجابة للمطالبة بلغة طباعية نروكية خاصة فضلاً عن إثارتها تلك المطالبة.

وفي غير مكان، في الشطر الأخير من القرن التاسع عشر، نحد أنَّ القساوسة والأدباء البوير هم الذين كانوا روّاد القومية الإفريقانية الحالى حيث نححوا في سبعينيات القرن التاسع عشر في تحويل اللهجة المولندية الخلية إلى لفة أدبية واعتبارها ذلك الشيء الذي لم يعد أوروبياً. وكان موارنة وأقباط، تخرّج كثير منهم في الجامعة الأميركية في بيروت (التي تأسست عام 1866) وجامعة القديس يوسف "اليسوعية" (التي تأسست عام 1875) أكبر المساهمين في إحياء العربية الفصحى وانتشار القومية العربية العربية الحالية في المتانبول سبعينيات القرن التاسع عشر التحال.

ولا ينبغي أن ننسى أنَّ هذه الحقبة ذاتها كانت قد شهدت إضفاء الطابع اللغوي الحلي على شكل آخر من أشكال الصفحة المطبوعة: هو النوتة الموسيقية. فبعد دوبرفسكي جاء "عيتانا، ودفور جاك، وياناتشيك [في تشيكيا]؛ وبعد أسن، جاء غريخ [في النروج]؛ وبعد كازينكسي، جاء بيلا بارتوك [في هنغاريا]؛ وهكذا دواليك وصولاً إلى قرننا هذا.

ومن البدهي، في الوقت ذاته، أنَّ كلِّ هؤلاء المعجميين، وفقهاء اللغة، والنحويين، والفولكلوريين، والناشرين، والمؤلفين الموسيقيين لم يقوموا بأنشطتهم الثورية في فراغ. فقد كانوا، في النهاية، ينتجون لسوق الطباعة، وكانوا مرتبطين، عبر تلك السوق الصامتة، يجمهور المستهلكون؟ لقد كانوا بالمنى الأعم عوائل الطبقات القارئة ليس

"الأب العامل" وحده، بل الزوجة المقيدة بأعمال البيت والأطفال في سنّ المدرسة أيضًا. وإذا ما علمنا أنَّ ما يقارب نصف السكّان كان لا يزال أمياً في أواخر 1840، حتى في بريطانيا وفرنسا، وهما الدولتان الأكثر تقدّماً في أوروبا (في روسيا المتخلفة كان الأميون يشكلون حوالي 98% من السكّان)، لاتّضح لنا أنَّ "الطبقات القارنة" كانت تضم بشراً يتمتعون بشيء من القوة. وبصورة ملموسة أكثر، فقد تألف هؤلاء، علاوة على الطبقات الحاكمة القديمة من النبلاء وأشراف الأرض، من رجال بلاط وكهنة، وشرائح وسطى صاعدة من الموظفين ذوي المراتب الدنيا من أبناء العامّة، ومهنيين، وبرجوازيين تجار وصناعيين.

شهدت أوروبا أواسط القرن التاسع عشر تزايداً سريعاً في نفقات الدولة وحجم البيروقراطية والمسكرية)، على الرغم من غياب أيّ حروب علية كبرى. "بين 1830 و1850 زاد الإنفاق العام بنسبة %25 للفرد الواحد في إسبانيا، و40% في فرنسا، و44% في روسيا، و50% في الإنفاق العام بنسبة %55 للفرد الواحد في إسبانيا، و60% في فرنسا، و75% في مولندا" [244]. و75% في النمسا، و75% في الولايات المتحدة الأميركية، وتجاوز 90% في هولندا" [244]. وعَمِلَ التوسّع البيروقراطي، على فتح أبواب الترقي الوظيفي لأعداد أكبر بكثير وأشد تنوعاً في أصواها الاجتماعية مقارنة عاكان في السابق، وحتى في ألة الدولة النمساوية—الهنفارية المتحدرين ألثقلة بالمتبطّلين الذين لا عمل لهم، والخالية من النبلاء، ارتفعت النسبة المؤية للمتحدرين من الطبقة الوسطى في الأنساق العليا من قطاعها المدني من 0 في العام 1804، إلى 27 في العام 1878. أما في الجيش، فقد ظهر هذا الأنجاه ذاته، وإن كان ذلك بتسارع أبطأ وبصورة متأخرة: حيث ارتفعت نسبة أبناء الطبقة الوسطى في سلك الضباط من 10% إلى 75% بين 1859 و1918.

وإذا ما كان توسّع الطبقات الوسطى البيروقراطية ظاهرة متكافئة نسبياً، تحدث معدلات عمن المقارنة بينها في كلِّ من الدول الأوروبية المتقدّمة والمتخلّفة، فإنَّ نشوء البرجوازية التجارية والصناعية كان بعيداً عن التكافؤ أشد البعد، حيث اتسم بالكِبر والسرعة في بعض الأماكن، وبالضآلة والبطء في بعضها الأخر. غير أنَّ هذا "النشوء"، بصرف النظر عن مكانه، ينبغى أن يُفْهَم في علاقته مع رأعالية الطباعة باللغات الحلية.

كانت الطبقات الحاكمة ما قبل البرجوازية قد أُوْجَدَت ضروب عاسكها والتحامها خارج اللغة بمعنى ما، أو على الأقل خارج لغة الطباعة. فإذا ما اغّذ حاكم سيام امرأة نبيلةً من الملايو خليلة له، أو إذا تزوج ملك إنغلترا أميرة إسبانية، فهل كانا يكلّمان واحدهما الأخر قطّ على نحو جدّي؟ كانت ضروب التضامن نتاجاً للقرابة، والتبعية، والولاء الشخصي. وكان بعقدور النبلاء "الفرنسيين" أن يساعدوا الملوك "الإنغليز" ضد الملوك "الفرنسيين"، ليس على أساس اللغة أو الثقافة المشتركة، بل على أساس قرابة وصداقات مشتركة، بعيداً عن الحسابات الماكيافيللية. أمّا حجم الأرستقراطيات التقليدية الصغير نسبياً، وقواعدها السياسية الثابتة، وإضفاء الطابع الشخصي على العلاقات السياسية عبر الاتصال الجنسي والإرث، فقد جعل ضروب تماسكها كطبقات تلك الضروب الملموسة بقدر ما هي مُتخيَّلة. كان بمقدور النبالة الأمية

أن تظلّ تتصرف كنبالة. ولكن ماذا عن البرجوازية؟ كان ها هنا طبقة لم تبرز كطبقة إلى الوجود، بالمعنى الجازيّ، إلاّ من خلال ترجيعات كثيرة جداً. فلم يكن صاحب مصنع في ليل يرتبط بصاحب مصنع في ليون إلا من خلال الترجيع والصدى. ولم يكن غة سبب ضروري لان يعرف واحدهما بوجود الأخر؛ فهما في العادة لا يتزوجان ابنيّ واحدهما الأخر أو يرث أحدهما أملاك الأخر. لكنهما كانا يتوصلان لأن يتصوّرا بوجه عام الاف والاف من أمثالهما من خلال اللغة الطباعية. ذلك أنَّ تحيّل برجوازية أميّة يكاد أن يكون مستحيلاً. ولذلك فقد كانت البرجوازيات على المستوى التاريخي العالمي أولى الطبقات اليّ تقيم ضروب التضامن على أساس مُتَخَيَّل في جوهره. غير أنَّ الحدود القصوى لهذه الضروب من التضامن، في أوروبا القرن التاسع عشر اليّ هُرِمَتْ فيها اللاتينية منذ حوالي القرنين على يد طباعة رأتالية باللغات الحلية، كانت عدودة بفهم اللغة الحلية. وبعبارةٍ أخرى، عكن للمرء أن ينام مع أيّ أحد، لكنه لا يستطيع أن عبورة موى كلمات بعض البشر.

كان النبلاء، وأشراف الأرض، والمهنيون، والوظّفون، ورجال السوق آنذاك المستهلكين المحتملين للثورة اللغوية. لكن مثل هذه الربانة لم تتحقق على نحو كاملٍ في أيّ مكان تقريباً، وتنوّعت بحاميع المستهلكين الفعلية ذلك التنوع الكبير من منطقة إلى أخرى. ولكي ذرى سبب ذلك، لا بدّ من العودة إلى التعارض الأساس الذي سبقت الإشارة إليه بين أوروبا والبلدان الأميركية. ففي هذه الأخيرة كان ثمة تناظر كامل تقريباً بين امتداد الإمبراطوريات المختلفة وامتداد لغاتها الحلية. أمّا في أوروبا فكانت مثل هذه التوافقات نادرة، وكانت الإمبراطوريات السلالية داخل أوروبا متعددة في الأساس من حيث لغاتها الحلية. وبعبارة أخرى، كانت خرائط السلطة واللغة الطباعية تشير إلى نطاقات مختلفة.

وكان التنامي العام في التعليم، والتجارة، والصناعة، والاتصالات، وأجهزة الدولة الذي وَسَم القرن التاسع عشر قد خلق دوافع جديدة قوية للمطابقة بين كلّ لغة محلية وعلكة سلالية. فقد ظلّت اللاتينية لغة دولة في هنغاريا النمساوية حتى أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر، لكنها اختفت مباشرة تقريباً بعد ذلك. حيث كان مقدورها أن تكون لغة دولة، لكنه لم يكن مقدورها، في القرن التاسع عشر، أن تكون لغة الأعمال، أو العلوم، أو الصحافة، أو الأدب، خاصةً في عالم كانت تواصل هذه اللغة فيه اختراق واحدتها الأخرى والنفاذ إليها.

وفي هذه الأثناء، كانت لغات الدولة الحلية تكتسب قوة ومكانة متعاظمتين باطراد في سيرورة لم تكن مُخطَّطة عموماً، في البداية على الأقلّ. هكذا دفعت الإنفليزية الفَيْلية خارج معظم إيرلندا، ودفعت الفرنسية البريتونية إلى الحائط، وهمّشَت القشتالية الكاتالانية. وفي تلك الممالك، مثل بريطانيا وفرنسا، الت شهدت في أواسط القرن، ولأسباب خارجية عاماً، توافقاً شديداً نسبياً بين لغة الدولة ولغة السكّان 1261، لم يكن للتنافذ العام الذي المعنا إليه آنفاً تلك الآثار السياسية الدراماتيكية. (وهذه الحالات هي الأقرب لحالات البلدان الأميركية). أمّا في كثير من الممالك الأخرى، التي قد تكون هنغاريا النمساوية مثالها الحوري، فكانت العواقب انفجارية حتماً. فإحلال

أيّ لفة علية، في أواسط القرن التاسع عشر، مكان اللاتينية، بنطاقها الضخم، المتداعي، كثير اللغات، إغّا المتعلّم على نحو متزايد، كان يَعِدُ عزايا ومنافع هائلة أولئك الرعايا الذين يستخدمون تلك اللغة الطباعية أصلاً، وبدا بالمقابل عثابة تهديد لأولئك الذين لا يستخدمونها. وأنا أشدّ على كلمة أيّ، لأنَّ رَفْع بلاط آل هابسبورغ من شأن الألمانية في القرن التاسع عشر، وكما سنناقش بتفصيل أكبر أدناه، لم يجعل للألمانية كما يعتقد بعضهم أيّ علاقة مهما تكن بالقومية الألمانية. (وفي مثل هذه الظروف، يتوقع المرء أن تنشأ القومية الواعية متأخّرة في كلّ علكة سلالية بين قرّاء اللغة الحلية الرسمية الحليين. ومثل هذه التوقعات يؤيّدها السجلّ التاريخي).

وليس مدهشاً أن نحد بين ربائن معجميينا جماعات غتلفة جداً تبعاً لاختلاف الظروف السياسية. ففي هنغاريا، مثلاً، حيث لم يكن غة برجوازية ماجيارية عملياً، وكان واحد من بين كلّ غانية يدّعي مكانة أرستقراطية ما، فإنّ من دافع عن المنغارية الطباعية ضدّ مدّ الالمنية كان فئات من النبلاء الصّغار وأشراف الأرض المُفقرين [27]. وهذا ما يصحّ إلى حدّ بعيد على قرّاء البولونية. لكنَّ التوافق الأكبر تحسّد في تحالف بين الاشراف الاقل شاناً، والاكادعيين، والمهنيين، ورجال الاعمال، غالباً ما قدّم فيه الطرف الأول القادة "البارزين"، والطرفان الثاني والثالث الاسطورة والشّعر والصحف والصياغات الإيديولوجية، والطرف الرابع المال وتسهيلات التسويق. ويقدّم لنا كورايس الظريف وصفاً موجزاً وبارعاً لزبائن القومية اليونانية الأوائل، النين كان معظمهم من المثقفين والمقاولين:

في تلك البلدات التي كانت أقل فقراً، وكان فيها بعض السكّان الموسرين وبعض المدارس، وتالياً بعض الأفراد الذين يمكنهم على الأقلّ أن يقرأوا الكتّاب القدماء ويفهموهم، بدأت الثورة بصورة أبكر وأحرزت تقدّماً أَسْرَع وأَسْلَس. وفي بعض هذه البلدات، كانت المدارس قد توسّعت أصلاً، وأُدْخِلَت إليها دراسة اللغات الأجنبية بل وتلك العلوم التي تُدرّس في أوروبا [كذا]. وقد رعى الاغنياء طباعة الكتب المُترْجَمة عن الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنفليزية؛ وأرسلوا إلى أوروبا على نفقتهم شبّاناً توّاقين للعلم؛ ووفّروا لابنائهم تعليماً أفضل، ما في ذلك الفتيات . . . [128].

ظهرت مثل هذه التحالفات القرائية، بتراكيبها الت تتنوع على طول الطيف بين المثال المنغاري والمثال اليوناني، في جميع أرجاء أوروبا الوسطى والشرقية، وكذلك في الشرق الأدنى بتوالي سنوات القرن [29]. وكان طبيعياً أن يتباين أشدّ التباين حجم مشاركة الجماهير المدينية والريفية في هذه الجماعات المتحيّلة الجديدة المرتبطة باللغات الحلية حيث توقّف ذلك في قَدْر كبير منه على العلاقة بين هذه الجماهير ورُسُل القومية المبشّرين بها. ولعلّ مقدورنا أن نشير، من طرف أول، إلى إيرلندا، حيث لعب الكهنوت الكاثوليكي المتحدّر من الفلاحين والقريب منهم دوراً وسيطاً عورياً. أمّا الطرف الأخر فيشير إليه تعليق هوبسباوم الساخر أنّ: "الفلاحين الفاليسيين عارضوا الثوريين البولنديين في العام 1846 على الرغم من إعلان هؤلاء الأخيرين إلغاء السخرة، وفضّلوا دبح السادة والثقة موظفي الإمبراطور" [30]. غير أنّ زيادة التعلّم العام 1846 على المغرة، وفضّلوا دبح السادة والثقة موظفي الإمبراطور" عير أنّ زيادة التعلّم

جعلت إثارة الدعم الشعي أسهل في كلّ مكان، حيث اكتشفت الجماهير بحداً جديداً فيما حققته الطباعة من سوّ لتلك اللغات التي لطالما كانوا ينطقون بها باتّضاع ومذلّة.

ولذلك، فإنَّ صياغة نايرن اللافتة "كان على إنتلجنسيا القومية الجديدة المتحدِّرة من الطبقة الوسطى ان تدعو الجماهير إلى التاريخ؛ وكان من الواجب كتابة بطاقة الدعوة بلغة يفهمونها "أفال من الصعب أن نعرف ما الذي جعل يفهمونها "أفالة من الصعب أن نعرف ما الذي جعل الدعوة تبدو جذَّابة بهذا القَدْر، وما الذي مكّن مثل هذه التحالفات المتباينة من أن تطلقها (فإنتلجنسيا نايرن المتحدِّرة من الطبقة الوسطى لم تكن المضيف الوحيد)، من غير أن نعود أخراً إلى القَرْصنة.

يلاحظ هوبسباوم أنَّ "الثورة الفرنسية لم يَقُمْ بها أو يَقُدْها حرب مُنَظَّم أو حركة مُنَظَّمة بالمعنى الحديث، ولا رجال كاولون تحقيق برنامج منهجيّ. بل إنها لم تَكَد تطلع بـ "قادة" من النوع الذي عوّدتنا عليه ثورات القرن العشرين، إلى أن ظهرت شخصية نابليون مابعد الثورية "132أ. لكنها ما إنْ وقعت حتى دخلت ذاكرة الطباعة التراكمية. وغدا تسلسل الاحداث المذهل والحير الذي عاشه صُنَّاعها وضحاياها "شيئاً" له اسمه الخاص: الثورة الفرنسية. ومثل حجر ضخم بَشِع حوّله عدد لا يُحصى من قطرات الماء إلى جلمود مُذوَّر، كذلك عَمِلت ملايين الكلمات للطبوعة على تحويل التجربة إلى "مفهوم" على الصفحة المطبوعة، وإلى "غوذج"، في السياق المناسب. وغدت الأسئلة – لماذا اندلعت، ما الذي رَمَت إليه، لماذا نجحت أو فشلت – محل جدالات لا نهاية لما سواء بين الأصدقاء أم الأعداء: لكن أحداً قطّ لم يعد يشكَ فيما تشير إليه تاء التأنيث الخاصة بها 1366.

وعلى النحو ذاته تقريباً، غَدَت حركات الاستقلال في البلدان الأميركية "مفاهيم" و"غاذج"، بل و"برامج عمل"، ما إن طبع عنها. ففي "الواقع"، كان خوف بوليفار من عردات الزنوج ودعوة سان مارتن السكّان الأصليين ليكونوا بيروفيين شيئين متعارضين على نحو مشوّش أشد التشوّش. لكن الكلمات المطبوعة سرعان ما جرفت أولهما بعيداً، بحيث بات يظهر، إذا ما ذُكِرَ أصلاً، على أنّه نوع من الشنوذ الذي لا تتربّب عليه أيّة عواقب. ومن هذا التشوّش الأميركي خرجت هذه الوقائع المتخيّلة: الدول الأمم، والمؤسسات الجمهورية، والمواطنة العامة، وسيادة الشعب، والرايات والاناشيد الوطنية، الخ، وتصفية المفاهيم المعاكسة لها: الإمبراطوريات السلالية، والمؤسسات الملكية، والحكم المطلق، والخضوع، والنبالات الموروثة، والسخرة، والغيتو، وهلمجرا. (والشيء المنهل أكثر من أيّ شيء آخر، في هذا السياق، هو "حَذْف" العبودية الكثيفة من الولايات المتحدة الأميركية التي "غدت غوذجاً أو نمطاً" في القرن التاسع عشر، و"حَذْف" اللغة المشتركة من الجمهوريات الجنوبية التي "غدت غوذجاً أو غطاً"). بل إنَّ الأمر بلغ الحدّ الذي باتت فيه تعدّدية الدول المستقلة إثباتاً لا يطاله الشكّ لصحة برنامج العمل وقابليته للتعميم.

والحال، أنَّ "غوذج" "الـ" دولة القومية المستقلة كان متاحاً للقرصنة منذ العقد الثاني

من القرن التاسع عشر، إن لم يكن قبل ذلك [134]. (وأولى الجماعات الت فعلت ذلك هي تحالفات المتعلمين الماهشية القائمة على أساس اللغة المحلية والت تَرَكَّر عليها هذا الفصل). ولأنَّ هذا النموذج بات نموذجاً معروفاً آنذاك، فقد فَرَض "معايير "معينة لم يكن يُسْمَح بالانحراف عنها ذلك الانحراف السافر. ولقد اضطر الأشراف المنفار والبولونيون الرجعيون والمتأخرون أنفسهم لأن يتظاهروا بانهم "يدعون إليها" (إلى مطبخها على الأقل) مواطنيهم المضطهدين. وإذا أردتم، فإنَّ منطق سان مارتن في البيرونة هو الذي كان يفعل فعله. فإذا ما كان "المنفار" يستحقون دولة قومية، فذلك يعن المنفار، جيعهم [35] ؛ يعن دولة ينبغي أن يكون علَّ سيادتها الأساسي حيم من ينطقون المنفارية ويتكلمون بها؛ ثمَّ، في الوقت المناسب، تصفية السخرة، والارتقاء بالتعليم الشعي، وتوسيع حقّ التصويت، وهلمجرا. هكذا كان طابع القوميات الأوروبية الباكرة الشعي"، حتى حين قادتها على نمو دياغوجي تلك الجماعات الاجتماعية الأشد تخلّفاً، اعمق من مثيله في البلدان الأميركية؛ كان على السخرة أن تمضي، والعبودية القانونية لم تكن قابلة من مثيله في البلدان الأميركية؛ كان على السخرة أن تمضي، والعبودية القانونية لم تكن قابلة للتخيّل، خاصةً لأنّ النموذج المفهوميّ كان قد تبوّاً مكانةً يتعذّر اجتثاثه منها.



## 6) القومية الرسمية والإمبريالية

في بحرى القرن التاسع عشر، وخاصةً في نصفه الأخير، عَمِلَت الثورة المعجمية—اللغوية ونشوء الحركات القومية داخل أوروبا، اللذان كانا هما نفساهما نتاجين لا للرأسمالية وحسب، بل لتضخم الدول الملكية السلالية الهائل أيضًا، على خَلْقٍ مريدٍ من المصاعب الثقافية، ومن ثمّ السياسية، التي اعترضت كثيرًا من الملوك السلاليين. ذلك أنَّ الشرعية الأساسية لمعظم هؤلاء الملوك لم يكن لها كما رأينا، أيّ علاقة بالانتماء القومي، فقد حكم آل رومانوف التتار والليتوانيين، والألمان والأرمن، والروس والفنلنديين. وجَثَمَ آل هابسبورغ عالياً فوق الماجيار والكروات، والسلوفاك والطليان، والأوكرانيين والألمان—النمساويين. وكان آل هانوفر على رأس البنغال والكيبيك، والاسكتلنديين والإيرلنديين، والإنغليز والويلزيين المأ. بل إنَّ أفراداً من العائلات الملكية ذاتها غالباً ما حكموا دولاً مختلفة، ومتعادية أحيانًا، في القارة الأوروبية ذاتها، في قومية ننسب البوربون الذين حكموا فرنسا وإسبانيا، والموينزولرن الذين حكموا بأوريا واليونان؟

ولقد رأينا أيضًا أنَّ هذه الممالك السلالية كانت قد استقرت، بسرعاتٍ متفاوتةٍ ولأغراض إدارية في أساسها، على لغات محلية طباعية كلغاتٍ للدولة، ولم يكن "اختيار" اللغة في جوهره اكثر من مسالة إرثٍ أو ارتياح غير واعيين.

بيد أنَّ الثورة المعجمية في أوروبا خَلَقَتْ، ونَشَرَتْ بالتدريج، قناعةً بأنَّ اللغات (في أوروبا

على الأقلّ) ملكية شخصية، إذا جار التعبير، لجموعات محدّدة عاماً - هي مجموعات الناطقين بها وقرّائها- وبأنَّ هذه الجموعات، التي يجري تخيّلها كجماعات، مؤمَّلة لأن تحتلّ مكانها المستقل في أخوية تضمُّ أنداداً متساوين. هكذا طرحت القنابل اللغوية الحارقة على الممالك السلالية معضلةً عويصةً راحت تزداد حدّةً عرور الوقت. ولم تبرز هذه المعضلة في أيّ مكان بذلك الوضوح الذي ظهرت به في حالة هنغاريا النمساوية. فحين قرّر الحاكم المطلق المستنير جوزيف الثاني في أوائل غانينيات القرن الثامن عشر تغيير لغة الدولة من اللاتينية إلى الألمانية، " لم كارب اللغة الماجيارية، مثلاً، بل حارب اللاتينية. . . وكان يعتقد أنَّ من غير المكن القيام بأيّ عمل فاعل في مصلحة الجماهيم، على أساس إدارة النبلاء اللاتينية القروسطية. وبدا له أنَّ وجود لغة موحّدة تربط أجزاء إمبراطوريته جيعها هو ضرورة ملحّة. وتحت ضغط هذه الضرورة، لم يسعه أن يُختار أيّ لغة أخرى سوى الألمانية، اللغة الوحيدة الت تسيطر على ثقافة وأدب شاسعين ولها أقليّة مُعْتَبَرة في كلّ مقاطعةٍ من مقاطعاته"<sup>[2]</sup>. والحال، أنَّ "آل هابسبورغ لم يكُونوا قُوَّةَ أَلْنَةِ واعيةِ وذات شأن. . . وكان من أل هابسبورغ من لا يتكلمون الألمانية أصلاً. وحتى أولئك الأباطرة من آل هابسبورغ الذين شجّعوا سياسة الألَّنَة في بعض الأحيان لم تكن تدفع جهودهم هذه أيّ وجهة نظر قومية، بل أَمْلُتْ إجراءاتهم هذه النيّة في توحيد إمبراطوريتهم ولمّ شملها <sup>[2]</sup>". وكان هدفهم الأساسيّ هو الـ Hausmacht [أراضي السلالة الخاصة]. غير أنّ الألمانية راحت تتَّسم بوضع مردوج بعد منتصف القرن التاسع عشر: ففدت على نحو متزايدٍ لغةً "إمبراطورية-شاملة" و"قومية - خاصة ". ومع تصاعد إلحاح الملكية السلالية على استخدام الألمانية بكلُّ طاقتها، بدت منحارةً إلى الرعايا الناطقين بالألمانية، وأثارت ضغينة الباقين. لكنها لو لم تلحّ ذلك الإلحاح -مع منحها بعض الامتيازات للفاتٍ أخرى، على رأسها المنفارية- لما اقتصر الأمر على تعويق التوحيد وحسب، بل لتعدَّاه إلى شعور رعاياها الناطقين بالألمانية أنَّهم مهانون، الأمر الذي كان سيتهدَّدها بأن تكون مكروهةً بوصفها نصيرةً للالمان وخائنةً لهم على حدِّ سواء. (وهذا ما يشبه كثيرًا حالة العثمانيين، الذين كرههم الناطقون بالتركية بوصفهم مُرْتدّين وكرههم من لا ينطقون بالتركية بوصفهم عارسون التتريك).

ولأنَّ حميع الملكيات السلالية كانت تستخدم لفةً عليةً ما كلفةٍ للدولة في منتصف القرن [4]، وكذلك بسبب الهيبة المتصاعدة بسرعة التي حظيت بها الفكرة القومية في حميع أوروبا، كان ثمّة نزوع ملحوظ بين الملكيات الأوروبية المتوسطية لمماشاة الهوية القومية التي كانت تومئ وتُغْري، واكتشف ال رومانوف أنهم ينتمون إلى روسيا العظيمة، وآل هانوفر أنهم إنفلير، وآل هوينزولرن أنّهم ألمان، في حين تحوّل أبناء عمومتهم بشيء من الصعوبة إلى رومان، ويونان، وهلمجرا. ولقد عَمِلَتْ هذه الهويات الجديدة، من جهة أولى، على إسناد شرعيات قلّت قدرتها، في عصر الرأسمالية والعلم ونزعة الشكّ، على أن ترتكز بأمان على قداسة مزعومة وقِدَم محض. عصر الرأسمالية والعلم ونزعة الشكّ، على أن ترتكز بأمان على قداسة مزعومة وقِدَم محض. غير أنّها طرحت مخاطر جديدة، من جهة أخرى. فحين يعتبر القيصر فيلهلم الثاني نفسه "الألماني الأول"، يقرّ ضمناً أنّه واحدٌ بين كثيرين من نوعه هو نفسه، وأنَّ له وظيفةً

غثيلية، وعكن إذاً، من حيث المبدأ أن يخون مواطنيه الألمان (وهو شيء لم يكن قابلاً للتصوّر أيام عزّ الملكية السلالية. فمن الذين يخونهم وما الذي يخونه؟). وفي أعقاب الكارثة التي أحاقت بالماني في العام 1918، عومِلَ على أساس أنّه صادق في قَوْلِه. فقد أعاده السياسيون المدنيون (علناً) والأركان العامة (بشجاعتها المعهودة، سرّاً)، وباسم الأمّة، من أرض الأباء إلى ضاحية هولندية مغمورة. وهذا ما جرى محمد رضا بهلوي، الذي لم يحمل نفسه شاهاً وحسب، بل شاهاً لإيران، حيث وُصِمَ بالخيانة. وإقراره هو نفسه، ليس حكم الحكمة القومية، بل سلطانها وحقّها في الحكم والتشريع، إذا جاز القول، إنما يظهر في مشهد كوميدي صغير لحظة مغادرته إلى المنفى. المحرّد فقبل صعوده سلّم الطائرة، لثم الأرض أمام الموّرين وأعلن أنّه يأخذ معه حفنةً من الرّاب الإيراني المقدّس. وعمليةُ أَخْذِ الرّاب هذه منحولة من فيلم عن غاريبالدي، وليس عن الملك الشمس لمقاً.

أدّت عمليات "تجنيس" السلالات الحاكمة في أوروبا -وهي إجراءات اقتضت في كثير من الحالات بعض الحركات البهلوانية المُسلّية- إلى ما يُطلّقُ عليه سيتون-واطسون بسخرية اسم "القوميات الرسية" أفلًا، التي لم تكن الرَّوْسَنَة القيصرية سوى أشهر أمثلتها. ويكن أن نفهم هذه القوميات الرسية على أفضل وجه بوصفها وسيلة للجمع بين التجنيس والاحتفاظ بالسلطة السلالية، خاصةً فوق مناطق ضخمة متعددة اللغات تراكمت منذ العصور الوسطى، أو بوصفها وسيلة لِشَدِّ بَشَرَةِ الأمّة الضيقة القصيرة بحيث تغطي جسد الإمبراطورية العملاق. هكذا مثلّت "رَوْسَنَة" السكان المتغايرين من رعايا القيصر ضَرْباً من الصَّهْر العنيف والواعي بين نظامين سياسيين متعارضين، أحدهما قديم، والأخر جديد كل الجدّة. (على الرّغم من بعض التشابه مع أَسْبَنَةِ البلدان الأميركية والفليبين، مثلاً، إلا أنّه يبقى هنالك اختلاف أساس. بعض التشابه مع أَسْبَنَةِ البلدان الأميركية والفليبين، مثلاً، إلا أنّه يبقى هنالك اختلاف أساس. واعية، أمّا أسلافهم الإسبان في القرن السادس عشر فكانوا يتصرفون انطلاقاً من براغماتية يومية لا واعية. كما أنَّ الأمر لم يكن بالنسبة لهم "أَسْبَنَة" فعلية، بل كان مقتصراً على هداية يومية لا واعية. كما أنَّ الأمر لم يكن بالنسبة لهم "أَسْبَنَة" فعلية، بل كان مقتصراً على هداية الوثنين والهمج وتنصيرهم).

والمفتاح في تحديد موقع "القومية الرسمية" -ذلك الاندماج المُراد بين الأمة والإمبراطورية السلالية- هو أن نتذكّر أنّها ظهرت بعد تكاثر الحركات القومية الشعبية في أوروبا منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، وكردّة فعل عليها. وإذا ما كانت هذه القوميات قد صيغت على غوذج التاريخين الأميركي والفرنسي، فقد غدت قوالب قياسية وغطية بدورها [71]، ولم يَبْقَ سوى بعض الشعوذة وخفّة اليد لكي يتسنّى للإمبراطورية أن تبدو جذّابة في ثيابها القومية المرقة.

ولكي نكوّن فكرةً عن عملية القَولَبَة الرجعية الثانوية هذه ككلّ، ربما كان مفيداً أن ننظر في بعض الحالات الموازية لما، لكنها تتعارض معها ذلك التعارض الدالّ.

يبيّن سيتون-واطسون على نحو محتار مقدار الضيق الذي كانت تشعر به اوتوقر اطية أل رومانوف في البداية لدى "النزول إلى الشوارع"  $\frac{181}{2}$ . وكما لاحظنا من قبل، كانت لغة البلاط في

سان بطرسبورغ القرن الثامن عشر هي الفرنسية، أمّا لغة كثير من نبلاء الريف فكانت الألمانية. وفي أعقاب غزو نابليون، اقترح الكونت سيرغى أوفاروف، في تقرير رسمي عام 1832، أن تقوم الملكة على ثلاثة مبادئ هي الأوتوقر اطية، والأرثوذكسية، والقومية. وفي حين كان البدآن الأولان قدعان، كان الثالث جديداً عاماً، بل وسابق لأوانه نوعاً ما في عصر كان نصف "الأمة" لا يزالون أقناناً، وأكثر من نصفها يتكلمون لغةً أمّاً سوى الروسية. ولم يَغُد تقرير أوفاروف عليه بأكثر من منصب وزير التعليم. ذلك أنَّ القيصرية راحت تقاوم الإغراءات الأوفاروفية طيلة نصف القرن التالي. ولم تَغْدُ الرَّوْسَنَة سياسةً سلالية رحمية، إلا في عهد الكسندر الثالث (1881-1894): بعد زمن طويل من ظهور القوميات الأوكرانية، والفنلندية، والليتوانية وسواها ضمن الإمبراطورية. والمفارقة الساخرة، أنَّ إجراءات الرَّوْسَنَة الأولى قد اتَّخِذَت على وجه التحديد ضد تلك "القوميات" الى كانت موالية إلى حدّ بعيد، مثل ألمان البلطيق. ففي العام 1887، فُرضَت الروسيةُ في مقاطعات البلطيق لغةً للتعليم إجباريةً في جميع مدارس الدولة في الصفوف بعد الابتدائية، وقد امتدَّ هذا الإجراء لاحقاً ليطول المدارس الخاصة أيضًا. وفي العام 1893، أغْلِقَتْ جامعة دوربات، وهي واحدة من أبرز الجامعات في المقاطعات الإمبراطورية، لأنَّها كانت تستخدم الألمانية في قاعة الحاضرات (لنتذكّر أنَّ الألمانية كانت حتى ذلك الحين لغة دولة في بعض الأقاليم، وليس صوت حركةٍ قومية شعبية)، فضلاً عن إجراءات عائلةٍ أخرى. بل إنّ الأمر يصل بسيتون-واطسون حدّ الجازفة بالقول إنّ ثورة العام 1905 كانت "ثورة غير الروس على الرُّوْسَنَة بقدر ما كانت ثورة عمال وفلاحين ومثقفين جذريين على الأوتوقر اطية. وكانت هاتان الثورتان مر تبطتين بالطبع: فالثورة الاجتماعية كانت أعنف في المناطق غير الروسية، حيث كان أبطالها العمال البولنديين، والفلاحين اللاتفيين، والفلاحين الجورجيين "191.

وإنّه لن الخطأ الفادح، في الوقت ذاته، أن نفترض أنّ الرَّوْسَنة، لأنّها كانت سياسةً ملكيةً سلالية، لم تحقق واحداً من أغراضها الأساسية، ألا وهو تنظيمُ قوميةٍ "روسيةٍ عظيمةٍ" متناميةٍ خلف العرش، وليس على أساس العاطفة وحسب. ففي النهاية كان غمّة فرص هائلة أتيحت للموظفين والمقاولين الروس بين صفوف البيروقراطية الضخمة وفي السوق الواسعة التي وفرتها الإمبراطورية.

وليست فيكتوريا فون ساكس -كوبرج-غوتا، ملكة إنفلترا وإمبراطورة الهند لاحقاً، باقلّ إثارةً للاهتمام من معاصرها الكسندر الثالث، القيصر الذي رَوْسَنَ روسيا كلّها. بل إنَّ لقبها أكثر إثارة للاهتمام من شخصها، إذْ يَثَل على نحو رمزي ذلك المعدن الكثيف الذي تمَّ به خَمُ الأمّة والإمبراطورية [10]. كما أنَّ حكمها يَسِمُ أيضًا انطلاقَ "قومية رسية" على الطريقة اللندنية تبدي كثيرًا من أوجه التشابه القوي مع الروسنة التي كانت تسعى سان بطرسبورغ وراءها. ويمكن أن نفهم هذا التشابه فهماً جيداً عن طريق المقارنة على طول فترة من الزمن. ففي كتابه تفكك بريطانيا، يطرح توم نايرن مشكلة الأسباب الي حالت دون قيام أي حركة قومية اسكتلندية في أواخر القرن التاسع عشر، على الرغم من وجود برجوازية اسكتلندية قومية اسكتلندية

صاعدة وإنتلجنسيا اسكتلندية بالغة التميّر [111]. لكنَّ هوبسباوم رفض نقاش نايرن الثاقب رفضاً قاطعاً، وقال: "إنّها لمفارقة تاركية صرف أن نتوقع من الاسكتلنديين المطالبة بدولة مستقلة في ذلك الوقت [121]. غير أننا إذا تذكّرنا أنَّ بنجامين فرانكلين، الذي شارك في توقيع إعلان الاستقلال الأميركي، وُلِدَ قبل ديفيد هيوم بخمس سنوات، فإننا قد غيل إلى اعتبار هذا الحكم ذاته منطوياً على شيء من المفارقة التاريخية [131]. ويبدو لي أنَّ المصاعب –وحلّها- إغّا تكمن في مكان آخر.

غّة، من جهة أخرى، ما لدى نايرن من نزوع قومي قويّ لأن يتعامل مع بلده اسكتلندا على الله بدهيّة أساسية، خالية من الإشكاليات. ويذّكرنا بلوخ بالحّتِد المُنوّع لهذا "الكيان"، مُلاحِظاً أنَّ ضروب التخريب اليّ مارسها الدغاركيون ووليم الفاتح دمّرت إلى الأبد ما كان لنورغبريا الأجُلوساكسونية، الشمالية من هيمنةٍ ثقافية، كان يرمز لها أشخاص لامعون مثل ألكوين وبديه اللها!

لقد فُصِلَ جزء من المنطقة الشمالية إلى الأبد عن إنفلترا الأصلية. وبانقطاعها عن بقيّة السكّان الناطقين بالأنجلوساكسونية باستيطان الفايكنغ في يوركشاير، فإنَّ الأراضي الواطئة حول قلعة أدنبرة النورغبرية وقعت تحت سيطرة الزعماء السلتيين في التلال. وبذلك كانت عملكة اسكتلندا ثنائية اللغة بضربةٍ خرقاء نتاجاً للغزوات الاسكندينافية 1141.

ويكتب سيتون-واطسون، بدوره، أنَّ اللغة الاسكتلندية:

بررت من تداخل كل من الساكسونية والفرنسية، وإنْ تكن نسبة الموارد الفرنسية أقلّ منها في الجنوب، خلاف الموارد السلتية والاسكندينافية. ولم يَكُن يُنْطَق بهذه اللغة في شرق اسكتلندا وحسب بل في إنغلترا الشمالية أيضًا. وكان يُنْطق بالاسكتلندية، أو "الإنغليزية الشمالية" في البلاط الاسكتلندي وبين النخبة الاجتماعية (سواء كانت تتكلم الغيلية أم لا)، وكذلك بين سكّان الاراضي الواطئة ككلّ. وكانت لغة الشاعرين روبرت هنريسون ووليم دَنْبر. ولعلّها كانت تغدو لغة أدبية عيّرة في العصر الحديث لو لم يُفْض توحيد التاجين في العام 1603 إلى سيطرة الإنغليزية الجنوبية من خلال المتدادها إلى البلاط، والإدارة، والطبقة العليا في اسكتلندا الماليا.

والأمر الأساسي هنا هو أنَّ أجزاء كبيرة عا كان سيجري تخيّله يوماً ما على أنّه اسكتلندا كانت منذ أوائل القرن السابع عشر تنطق بالإنغليزية وتتمتع عنفذ مباشر على الإنغليزية الطباعية، على الرغم من وجود أدنى درجات التعليم. وفي أوائل القرن الثامن عشر تعاونت الأراضي الواطئة الناطقة بالإنغليزية مع لندن على استئصال الغيلية إلى حدِّ بعيد. ولم يكن عُمّ سياسةُ أنغلة (فرض الإنفليزية) واعية متُبَعّة في أيّ من "الاندفاعين نحو الشمال"؛ ففي كلتا الحالتين كانت الانغلة نتاجاً جانبياً في الأساس. غير أنّهما نجحتا، باجتماعهما معاً، و"قبل" عصر القومية، في إزالة أيّ إمكانية لقيام حركة قومية مستندة إلى لغة علية خاصة على

الطريقة الأوروبية. فلماذا لم تقم هذه الحركة على الطريقة الأميركية إذاً؟ يقدّم لنا نايرن على نحو عابر جزءاً من الجواب، حين يشير إلى "هجرة فكرية كثيفة" باتجاه الجنوب منذ منتصف القرن الثامن عشر فصاعداً 101 غير أنَّ هنالك ما يزيد على الهجرة الفكرية. فالسياسيون الاسكتلنديون كانوا يأتون إلى الجنوب لكي يشرّعوا ويسنّوا القوانين، وكان لدى رجال الأعمال الاسكتلنديين منفذ مفتوح على أسواق لندن. ولم تكن هناك أي حواجز على جميع طرق الحجّاج هذه المؤدّية إلى المركز، على النقيض تماماً من حالة المستعمرات الثلاث عشرة (ومن حالة إيرلندا بدرجة أقل). (وتمكن مقارنة ذلك بالطريق الواسع الواضح الذي كان مفتوحاً أمام المنفاريين الذين يقرأون اللاتينية والألمانية إلى فيينا في القرن الثامن عشر). كان لا يزال على الإنغليزية أن تغدو لغة "إنغليزية".

ومُكن رؤية الأمر ذاته من زاوية مختلفة. فمن الصحيح أنَّ لندن استأنفت في القرن السابع عشر السيطرة على مناطق ما وراء البحار بعد أن توقّف ذلك على أثر النهاية الكارثية التي انتهت إليها حرب المئة عام، إلا أن "روح" هذه الفتوحات كانت لاتزال في جوهرها روح عَصْر ما قبل قوميّ. وما يثبت ذلك بصورة مذهلة أكثر من أيّ شيء آخر هو حقيقة أنَّ "الهند" لم تَغنُ "بريطانية" إلاّ بعد عشرين عاماً من تولي فكتوريا سدّة العرش، وبعبارة أخرى، لقد ظلّت "الهند"، إلى ما بعد التمرّد عام 1857، محكومةً من قِبَل مشروع تجاري، لا من قِبَل دولة، ولا من قِبَل دولة أمّة بالتأكيد.

غير أنَّ التغيّر كان قادماً. وعندما طُرح امتياز شركة الهند الشرقية للتجديد في العام 1813، أمر البرلمان بتخصيص 100000 روبيه في العام للارتقاء بالتعليم الحليّ، "الشرقي" و"الغربي" على حدِّ سواء. وفي العام 1823، جرى إنشاء لجنة التعليم العام في البنغال؛ وفي العام 1834، صار توماس بابنغتن ماكولي رئيساً لهذه الجنة. وفي العام التالي أصدر مذكرته سيئة الصيت حول التعليم، حيث أعلن أنَّ "رفًا واحداً من رفوف مكتبة أوروبية جيدة ليفوق في قيمته كلّ الأدب الحليّ في الهند وعند العرب" [171]. غير أنَّ ماكولي كان أوفر حظاً من أوفاروف، ودخلت توصياته حيّز التطبيق مباشرة. فكان من الواجب إدخال نظام تعليمي إنغليزي شامل من شأنه أن يُلق، كما يقول ماكولي، "طبقةً من الأشخاص، هنود الدم واللون، لكنهم إنغليزيو الذائقة، والرأي، والأخلاق، والفكر "[181]. وقد كتب في العام 1863 أنَّ:

ما من هندي تلقّى تعليماً إنغليزياً يبقى مرتبطاً بدينه ذلك الارتباط الصادق. وقناعيّ الراسخة [كذلك كانت على الدوام] أنّه إذا ما نُفّذَت خططنا التعليمية، لن يبقى وثن واحد بين الطبقات الحرمة في البنغال بعد ثلاثين عاماً من الآن [19].

لا شكَ أننا هنا أمام ضَرْب من التفاؤل الساذج، الذي يذكّرنا بفيرمين في بوغوتا قبل نصف قرن من ذلك التاريخ. لكن الشيء الهام هو أننا إزاء سياسة طويلة الأمد (30 عاماً!)، صِيغُت ونُهُّذَت بوعي، لتحويل "الوثنيين"، ليس إلى مسيحيين، بل إلى إنغليز ثقافياً، على الرغم من دمهم ولونهم اللذين لا دواء لهما. والمقصود هنا هو نوع من التمازج العقلي الذي يبيّن، إذا ما

قورن بتمازج فيرمين الجسدي، أنَّ الإمبريالية قد أحررت في العصر الفيكتوري تقدماً هائلاً في الذائقة، شأنها في كثير من الأمور الأخرى. وعلى أيّ حال، فإنَّ بمقدورنا القول دون خشية أنَّ الماكولية قد اتُبِعَت منذ تلك اللحظة فصاعداً، في كلّ مكان من الإمبراطورية المتنامية، وإنْ يكن بدرجات متفاوتة من السرعة [20].

ومن الطبيعي أن تكون الأنغلة، مثل الرّوْسَنَة، قد أتاحت فُرَصاً راهية لجحافل من أبناء الطبقة الوسطى في المتروبول (خاصة الاسكتلنديين) -من الموظّفين، وأساتذة المدارس، والتجار، والمزارعين النين سرعان ما انتشروا في جميع أرجاء المملكة الشاسعة، الي لا تغيب عنها الشمس. ومع ذلك كان ثمة اختلاف أساس بين الإمبراطورية الي تحكمها سان بطرسبورغ والإمبراطورية الي تحكمها لندن. فالقيصرية بقيت محالاً قارّياً "متواصلاً"، مقتصراً على مناطق أوراسيّة معتدلة المناخ وقطبيّة ثمالية. حيث كان يمكن للمرء، إذا جاز القول، أن يقطعها سيراً من طرف إلى طرف. وكانت القرابة اللغوية مع سكّان أوروبا الشرقية السلافيين، والروابط التاريخية، والسياسية، والدينية، والاقتصادية -إذا ما استخدمنا عبارة سائغة - مع الشعوب غير السلافية، تعي أنَّ الحواجز على الطريق إلى سان بطرسبورغ لم تكن، نسبياً، كتيمة المالى موزَّعة في كلّ قارة. ولم يكن من بين الشعوب الخاضعة سوى أقليّة تربطها بالمتروبول أيّ روابط دينية، أو لغوية، أو ثقافية، أو حتى سياسية واقتصادية طويلة الأمد. وحين وُضِعَت بحوار دينية، أو الغوية، أو ثقافية، أو حتى سياسية واقتصادية طويلة الأمد. وحين وُضِعَت بحوار بعضها بعضاً في السنة اليوبيلية، بدت شبيهة بتلك الجموعات الفنية العشوائية من أعمال الفنانين الكبار الي كان أصحاب الملايين الإنفليز والاميركيين يجمعونها بعجلة ثم تتحول في النهاية إلى متاحف الدولة الإمبراطورية المهيبة.

أمّا العواقب التي ترتّبت على ذلك فتوضحها بجلاء ذكريات بيبين شاندرا بال المريرة، والذي كان في العام 1932، بعد قرن من "مذكّرة" ماكولي، لا يزال يشعر بغضب يكفي لأن يكتب أنَّ القضاة الهنود:

لم يكن عليهم أن يُعتازوا اختباراً بالغ الصرامة كالذي يُعتازه عناصر الخدمة البريطانيون وحسب، بل كانوا يقضون أفضل سنوات مرحلة التشكيل من شبابهم في إنغلترا. ولدى عودتهم إلى وطنهم، كانوا يعيشون عملياً بالطريقة ذاتها التي يعيشها المدنيون من أخوتهم، ويتبعون دينياً أعراف هؤلاء الاجتماعية ومعاييرهم الأخلاقية ذاتها التقريباً. وفي تلك الايام كان المدني المولود في المند [كذا -قارن ذلك بكريولنا الاميركيين الإسبانيين] ينقطع عملياً عن مجتمع والديه، ويعيش ويتحرك وبحد نفسه في جو أنيس جداً وسط زملائه الإنغليز، أما في عقله وسلوكاته فكان إنغليزياً مثل أي انغليزي. ولم يكن ذلك بالتضحية البسيطة من طرفه، لأنه على هذا النحو يفرب نفسه غاماً عن مجتمع شعبه ويغدو منبوذاً بينهم اجتماعياً وأخلاقياً. . . كان غريباً في أرضه مثل المستوطنين الاوروبيين في البلد المتأكلة.

هذا بالنسبة إلى ماكولي. غير أنَّ الأشدّ خطورة هو أنَّ هؤلاء الغرباء في أرضهم ظلُّ مكتوباً عليهم - بِقَدَريَّةٍ لا تقلَّ عن قَدَريَّة الكريول الأميركيين - أن يخضعوا للماتورانغوس الإنغلير ذلك الخضوع "اللاعقلاني" الأبدي. فلم يكن الأمر مقتصراً على أنَّ أمثال بيبين شاندرا بال كان مُظراً عليهم أن يصلوا قمم الراج العليا، مهما تشبّهوا بالإنغليز، بل تعدّاه إلى أنّهم كان عظراً عليهم أن يتحرّكوا خارج حدوده؛ أفقياً، إلى الساحل الذهي أو هونغ كونغ على سبيل المثال، وشاقولياً، إلى المروبول. فلعلَّ الواحد من هؤلاء أن يكون قد "غرَّب نفسه عاماً عن محتمع شعبه"، لكنه كان محكوماً عليه أن يعمل بينهم طوال عمره. (ولا شكّ أنَّ منْ تشير إليهم هذه الـ "هُمْ" كانوا يختلفون ويتنوّعون تبعاً للمنطقة اليّ فتحها البريطانيون في شبه القارّة) المُثال.

سوف ننظر لاحقاً في العواقب التي رتبتها القومية الرسية على نشوء القوميات الأسيوية والإفريقية في القرن العشرين. لكن ما تقتضي أغراضنا الحالية أن نلح عليه هو أنَّ الانغلة قد أنتجت الألاف من أمثال بيبين شاندرا بال في أرجاء العالم. وما من شيء آخر يؤكّد كثل هذه الحدة على تناقض القومية الرسمية الإنغليزية الجوهري؛ أي على التنافر الداخليّ العميق بين الإمبراطورية والأمّة. وأقول "الأمّة"، عن عَمْد، لأنّه من المُغْري على الدوام أن نفسر حالة أمثال بيبين شاندرا بال على أساس العنصرية. فما من عاقل ينكر الطابع العنصري العميق الذي اتسمت به الإمبريالية الإنغليزية في القرن التاسع عشر. غير أننا نحد أمثال بيبين شاندرا بال في المستعمرات البيضاء أيضًا؛ مثل أستراليا ونيوزيلندا وكندا وجنوب إفريقية. وكان غُشَد هناك أساتذة المدارس الإنغليز والاسكتلنديين، وكانت الانغلة ثقافية أيضًا. وكما كان الحال عشر لا تزال مفتوحة أمام الاسكتلنديين. فالأستراليون المؤغّلون لم يكونوا يحمون في دبلن أو عشر لا تزال مفتوحة أمام الاسكتلنديين. فالأستراليون المؤغّلون لم يكونوا يحمون في دبلن أو مانشستر، ولا حتى في أوتاوا أو كيبتاون. ولم يكن عقدورهم، حتى وقتٍ متأخّر عاماً، أن يغدوا حكّاماً عامّين في كانبيرا المحالة. وحدهم "الإنغليز الإنغليز"، أي أبناء أمّة إنغليزية نصف عتجبة، كأن عقدورهم ذلك.

وقبل ثلاث سنوات من فقدان شركة الهند الشرقية أرض صيدها الهندية، دك العميد البحري بيري بقنابل سفنه السوداء الأسوار التي كانت قد أبقت اليابان في عزلة فرضتها على ذاتها لأمد طويل. وبعد العام 1854، سرعان ما أدّى العجز الواضح أمام الغرب المندفع إلى تقويض ما كان لدى الباكوفو (نظام توكوغاوا شوغوناتي) من ثقة بالنفس وشرعية داخلية. واستطاعت زمرة صغيرة من الساموراي متوسطة المرتبة، من الساتسوما والشوشو هان، أن تطيح به في النهاية عام 1868، رافعين شعاراً هو سونو جوي (جّلوا العاهل، واطردوا البرابرة)، وكان من بين أسباب نجاحهم عُثلهم الخلاق الفذّ، خاصة بعد 1860، للعلوم العسكرية التي كانت قد نظمت منذ العام 1815 على أيدي الاختصاصيين البروسيين والفرنسيين. وبذلك عَكَنوا من نيستخدموا على نجو فقال 7300 بندقية حديثة جداً (معظمها من بقايا الحرب الأهلية الأميركية)، كانوا قد اشتروها من بجار سلاح إنغليز المنادق . . كان رجال

الشوشو بارعين أشدً البراعة فلم يكن ينفع معهم على الإطلاق الدم القديم وقصف الرعد أو أية طرائق أخرى" [26].

غير أنّه ما إنْ صار المتمردون، الذين نعرفهم اليوم باسم الأوليغارشيين الميجيين، في السلطة حتى وجدوا أنّ بسالتهم لا تضمن لهم الشرعية السياسية بصورة آلية. فإذا ما كان من المكن اعادة التينو ("الإمبراطور") بسرعة بوضع حدِّ للباكوفو، فإنَّ من غير المكن طرد البرابرة بتلك السهولة أ271. وقد بقي أمن اليابان الجغرافي السياسي هشّاً كما كان قبل العام 1868. وكانت إلحدى الوسائل الأساسية التي المُؤِنَّت لتوطيد وضع الأوليغارشية الداخلي مُنْوَعاً من منوَعات "القومية الرسية" في أواسط القرن، صيغ بوعي على غوذج ألمانيا البروسية الموينزولرنية. وبين طوكيو من أن غارس احتكاراً مركزياً لوسائل العنف. وفي 1872، أمر مرسوم إمبراطوري طوكيو من أن غارس احتكاراً مركزياً لوسائل العنف. وفي 1873، أمر مرسوم إمبراطوري بالارتقاء بالتعليم الجامعي بين الذكور البالغين. وفي 1873 أدخلت اليابان التجنيد الإلزامي، قبل الملكة المتحدة بزمن لا بأس به. كما قام النظام، في الوقت ذاته، بتصفية الساموراي كطبقة الملكة المتحدة بزمن لا بأس به. كما قام النظام، في الوقت ذاته، بتصفية الساموراي كطبقة ببطء) أمام جميع الوهوبين وحسب، بل أيضًا بأناه ملاءمته مع غوذج أمّة المواطنين الذي بات "متاحاً". وقد تحرر الفلاحون اليابانيون من الخضوع لنظام المان الإقطاعي وغدوا بذلك عل "متاحاً". وقد تمرر الفلاحون اليابانيون من الخضوع لنظام المان الإقطاعي وغدوا بذلك عل استغلال الدولة وملاك الأرض الزراعيين—التجاريين مباشرة المحدد في العام 1898، تلى كلّ ذلك دستور من النمط البروسي وفي النهاية حقّ الاقتراع العام لجميع الذكور.

غة عوامل ثلاثة تكاد تكون قائمةً على المصادفة وفرت الدّعم لرجال الميجي في حلتهم المنظّمة هذه. أوّل هذه العوامل هو الدرجة العالية نسبياً من التجانس الإثي الثقافي الياباني الناجم عن قرنين ونصف القرن من العرلة والتهدئة الداخلية اللتين وفّرهما الباكوفو. وفي حين لم تكن اليابانية المنطوقة في كيوشو مفهومة كثيرًا في هونشو، بل وكانت إيدو—طوكيو وكيوتو—أوساكا تجدان صعوبة في التواصل اللغوي، فإنَّ نظام القراءة نصف الصيي القائم على العلامات الكتابية التصويرية لطالما كان موجوداً في حميع أرجاء الجزر، ولذلك كان تطور التعليم الجماهيري من خلال المدارس والطباعة سهلاً وليس علّ خلاف. والعامل الثاني، هو القِدَم الفريد الذي تمتّع به البيت الإمبراطوري (فاليابان هي البلد الوحيد الذي احتكرتُ فيه الملكيّة الفريد الذي تحتكرتُ فيه الملكيّة ملالة واحدة على مدى التاريخ المدوَّن)، حيث عملت يابانيته المميّزة (كلاف ال بوربون وال هابسبورغ) على جَعْلِ استغلال الإمبراطور الأغراض قومية رحيةٍ أمراً بسيطاً نوعاً ما 121 ما أمّا العامل الثالث، فهو أنَّ اختراق البرابرة كان من المفاجأة، والاتساع، والتهديد كا يكفي لأن يصطف معظم السكّان الذين بحملون وعياً سياسياً وراء برنامج الدفاع عن النفس الذي جرى تصوّره بمصطلحات قومية جديدة. ومن الجدير بالتنويه أنَّ هذه الإمكانية لما كلّ العلاقة بتوقيت المجوم الغربي، أي بستينيات القرن التاسع عشر بخلاف ستينيات القرن التامن عشر. بتوقيت المجوم الغربي، أو أوروبا المسيطرة، كان قد مضى عليها نصف قرن، سواء في طبعتها بتوقية القومية"، في أوروبا المسيطرة، كان قد مضى عليها نصف قرن، سواء في طبعتها على طبعها نصفة قرن، سواء في طبعتها على المناحة القومية"، في أوروبا المسيطرة، كان قد مضى عليها نصف قرن، سواء في طبعتها على المناحة المحورة على النفس المناحة المحورة الموروبا المسيطرة، كان قد مضى عليها نصف قرن، سواء في طبعتها على النفس المحورة في طبعتها على المحورة المحرورة المحورة المحرورة المحورة المحرورة المحرورة المحورة المحرورة المحرورة المحرورة المحرورة المحرورة المحرورة المحرورة المحرورة المحرورة الم

الشعبية أم الرسمية. وهذا ما مكّن من صياغة الدفاع عن النفس تبعاً لما كان في سياق تحوّله إلى "معايير دولية".

ولا شكّ أنّ نجاح هذه المفامرة، على الرغم من المعاناة الرهيبة التي جلبتها على رؤوس الفلاحين تلك الابترازات المالية القاسية المطلوبة لتمويل برنامج للتصنيع يقوم على تصنيع السلاح بصورة أساسية، يعود في جزء منه إلى عزيمة الأوليفارشيين أنفسهم وتصميمهم الراسخ. وقد كان من حسن حظّهم أنْ وصلوا إلى السلطة في حقبة لم تكن فيها الحسابات المرقومة توضع في ريوريخ، فلم يُغْرهم أن ينقلوا الفائض المُبتّزُ خارج اليابان. وكان من حسن حظّهم أن يككموا في عصر كانت التكنولوجيا العسكرية لا تزال تتقدّم على نحو بطيء نسبياً، تما مكّنهم، ببرنامج التسلّح الذي وضعوه للّحاق بركب الأخرين، من تحويل اليابان في نهاية القرن إلى قوة عسكرية مستقلة. ولقد كان للانتصارات المذهلة التي أحرزها جيش اليابان النظامي ضد الصين بين 1894 – 1895، وأحرزتها بحريتها ضد القيصرية في العام 1905، فضلاً عن ضمّ اليوان (1895) وكوريا (1910)، وجميعها جرت الدعاية لما من خلال المدارس والطباعة، كان لما أبعد الأثر والقيمة في خلق انطباع عام بأنَّ الأوليفارشية الحافظة عثّل موثوق للأمّة التي راح اليابانيون يتخيّلون أنفسهم أبناءهاً.

أمّا الطابع الإمبريالي العدواني الذي اتّخذته هذه القومية، حتى خارج الدوائر الحاكمة، فيمكن تفسيره على أفضل وجه بعاملين اثنين: إرث عزلة اليابان الطويلة وقوة النموذج القومي الرسميّ. ويشير ماروياما بدهاء، فيما يتعلق بالعامل الأول، إلى أنَّ جميع القوميات في أوروبا نشأت في سياق تعددية تقليدية ميّزت الدول الملكية السلالية المتفاعلة؛ فشمول اللاتينية لأوروبا، كما أشرتُ من قبل، لم يكن له معادل سياسي قطّ:

لذلك حمل الوعي القومي في أوروبا منذ البداية صفةً وعي مجتمع دولي. فمنطلق ذلك الوعي وأساسه البدهي الواضح بذاته أنَّ النزاعات بين الدول ذات السيادة هي صراعات بين أعضاء مستقلين في هذا المجتمع الدولي. ولهذا السبب على وجه التحديد راحت الحرب عَتلَ، منذ غروتيوس، تلك المكانة الهامة والمنهجية في القانون الدولي 1301.

أمّا معنى قرون العزلة اليابانية فقد عَثّل:

بغياب كلّي لوعي المساواة في الشؤون الدولية. ورأى دعاة طرد [البرابرة] إلى العلاقات الدولية من مواقع ضمن التراتب القومي المرتكز إلى تفق ق الأُعلين على الأُدنين. وحين كانت أسس التراتب القومي تُنْقَل أفقياً إلى الجال الدولي، كان من الطبيعي أن تُتْرَل المسكلات الدولية إلى بديل وحيد: أن تَفْتَح أو تُفْتَح. ففي غياب أيّ معايير سوية رفيعة تُقوم العلاقات الدولية على أساسها، لم يكن بدّ من أن تغدو نزعة الأمس الدفاعية الجبانة نزعة اليوم التوسعية المنفلة المنفلة الحالية.

أمًا بالنسبة للعامل الثاني، فقد كانت السلالات التي اتَّذت لنفسها جنسيات محدة في أوروبا هي النماذج الأساسية التي اقتدت بها الأوليغارشية اليابانية. ولأنّ تحديد هذه السلالات لنفسها

مصطلحات قومية كان يتزايد، في الوقت ذاته الذي كانت قدّ سلطتها خارج أوروبا، ليس مدهشاً ان هذا النموذج كان لا بدً أن يُفْهَم على نحو إمبراطوري [32]. فالأمم العظمى، كما أوضح تقاسم إفريقية في مؤتر برلين (1885)، كانت قوى فائحة عالمية. فلماذا لا نقول إذا إنّه كان على اليابان، كيما تُشْبَل على أنّها "عظيمة"، أن تحوّل التينو إلى إمبراطور وتنطلق في مغامراتها وراء البحار، حتى ولو كانت قد تأخّرت في دخول اللعبة وكان عليها أن تفعل الكثير على سبيل اللحاق أو التعويض. ولعل قلّة الأشياء هي تلك الي توضح ذلك الإحساس الحاد بالطريقة الي اثرت بها هذه الأمور على وعي السكّان القرّاء كما يوضحها القول التالي الذي صدر عن الإيديولوجي والثوري القومي الجذري كيتا إكّي (1884-1937)، في كتابه النافذ ‹خطوطٌ عامّة لإعادة بناء اليابان›، الذي نُشرَ في العام 1924؛

كما ينشب الصراع الطبقي داخل أمّة ما لتعديل الفوارق والتباينات، كذلك سوف تعمل الحرب بين الأمم والي تنشب من أجل قضية شريفة على إصلاح الفوارق الظالمة الراهنة. فالإمبراطورية البريطانية هي مليونير يمتلك الثروات في أرجاء العالم قاطبة؛ وروسيا مالك أرض عظيم يحتل نصف الكرة الشمالي، أمّا اليابان يُحُرُرها المُبغثرة المرتبطة بها كالحواشي [كذا] فهي واحد من البروليتاريا، ولها الحق في أن تعلن الحرب على القوى الاحتكارية الكبرى. والاشتراكيون في الغرب يناقضون أنفسهم حين يقرّون حقّ البروليتاريا بأن تخوض الصراع الطبقي داخل الوطن ويدينون في الوقت ذاته الحرب، الي تشنّها بروليتاريا معينة بين الأمم، باعتبارها نزعة عسكرية وضَرْباً من العدوان . . وإذا ما كان مسموحاً للطبقة العاملة أن تتحد لكي تطيح بالسلطة الظالمة عبر إراقة الدماء، فلا بدّ من منح اليابان موافقة غير مشروطة على تطوير جيشها وبحريتها وشنّ الحرب لتصحيح الحدود الدولية الظالمة. فباسم الديمراطية الاجتماعية العقلانية تطالب اليابان بتملّك أستراليا وسيبيريا الشرقية [33].

ولا يبقى سوى أن نضيف أنَّ اليَيْبَنَة على طريقة ماكولي باتت سياسة الدولة المُتَبَعة على غو واع، مع توسّع الإمبراطورية بعد العام 1900. ففي السنوات بين الحربين أُخْضِعَ الكوريون والتايوانيون والمنشوريون والفيليبينيون، لسياساتِ شكّل النموذج الأوروبي بالنسبة لها تلك المارسة الفاعلة الوطيدة. وكما هو الحال في الإمبراطورية البريطانية، فقد كان سبيل الكوريين أو التايوانيين أو البورميين المُينبنين إلى المتروبول مسدوداً عاماً. وحتى لو كانوا ينطقون اليابانية ويقرأونها على النحو الأكمَل، فإنَّ ذلك ما كان ليتيح لهم قطّ أن يرأسوا ولاية في هونشو، أو حتى أن تُسْنَد إليهم وظيفة خارج مناطقهم الاصلية.

بعد أن نظرنا في هذه الحالات الثلاث المختلفة من "القومية الرسمية"، من المام أن نشدّد على أنَّ هذا النموذج عِكن أن تتبعه على نحو واع دولٌ لا تزعم جادَّةً أنها قوى عظمى، إِنْ كانت طبقاتها الحاكمة أو عناصرها القائدة تشعر أنَّ انتشار الجماعة المتخيَّلة قومياً على نطاق عالمي يشكّل تهديداً لما. ولعلّه أن يكون من المفيد هنا أن نقارن بين اثنتين من مثل هذه الدول، هي

سيام وهنفاريا ضمن هنفاريا النمساوية.

سبق لمعاصر ميجي، شولالونكورن الذي حكم طويلاً (من 1868 إلى 1910)، أن دافع عن مملكته في وجه النزعة التوسعية الغربية بطريقة تختلف اختلافاً لافتاً عن طريقة نظيره الياباني <sup>134</sup>. فنظراً لانحصاره بين بورما والملايو البريطانيتين، والمند الصينية الفرنسية، كرّس نفسه لدبلوماسية مخادعة بالغة الدهاء بدلاً من أن كاول بناء آلة حرب جدِّيَة. (لم تقم وزارة للحربية حتى العام 1894). وكانت قواته المسلحة مكوّنة في المقام الأول من خليط متنوّع من المرتزقة والموالين الفيتناميين، والخمير، واللاووسيين، والمالاويين، والصينيين، على نحو يَذكّر بأوروبا القرن الثامن عشر، ولم يَقُمْ بأيّ شيء لكي يدفع قُدُماً نوعاً من القومية الرسمية من خلال نظام تعليميِّ حديث. بل إنَّ التعليم الابتدائي لم يَفْدُ إلزامياً إلا بعد مرور أكثر من عقد على وفاته ، ولم تُؤسَّس أول جامعة في البلاد إلاَّ في العام 1917، بعد أربعة عقود على تأسيس الجامعة الإمبراطورية في طوكيو. ومع ذلك، فقد عدَّ شولالونكورن نفسه داعيةً حداثة. لكن غاذجه الأساسية لم تكن الملكة المتحدة أو ألمانيا، بل دول الموظفين (beamtenstaaten) الكولونيالية في الإنديز الشرقية المولندية، والملايو البريطانية، والراج العَلَام معنى اتّباع هذه النماذج فكان يتمثّل في ترشيد الحكم الملكي ومَرْكَزَته، والخلاص من الدويلات التابعة شبه المستقلَّة، وتعزيز النمو الاقتصادي على أسس كولونيالية بعض الشيء، والمثال الأبرز على ذلك - المثال الذي يشكِّل بطريقته الغريبة سابقةً للعربية السعودية المعاصرة - كان تشجيعه على هجرة كثيفة للأجانب الشباب الذكور، العازبين لكي يشكّلوا تلك القوة العاملة فاقدة الأنجاه، والجرَّدة من أيّ قوة سياسية، اليّ كان كِتاجها بناء المرافق البحرية، ومَدُّ السكك الحديدية، وحَفْرٍ الأقنية، والتوسّع في الزراعة التجارية. وكان استيراد ال(gastarbeiter = العمال الضيوف) شبيهاً بالسياسات الت اتّبمتها السلطات في باتافيا وسنغافورة، بل سار على غوذجها وغرارها. وكما هو الحال في الإنديز المولندية والملايو البريطانية، كانت الغالبية العظمي من العمال المستوردين خلال القرن الثامن عشر من جنوبي شرق الصين. ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه السياسة لم تولَّد لديه هواجس شخصية أو تضع أمامه مصاعب سياسية، إلاَّ بالقدر الذي خلقته للحكَّام الكولونياليين الذين سار على نموذجهم. والحال، أنَّ هذه السياسة قد خلقت إحساساً قوياً قصير الأمد بوجود دولة ملكية سلالية، حيث خلقت طبقةً عاملة هامّة "خارج" الجتمع التايلندي وتركت ذلك الحتمع "بعيداً عن الاضطراب" إلى حدِّ بعيد.

وكان على واشيروت، ابنه وخليفته (حكم بين 1910 - 1925) أن يلتقط هذه القِطَع، وأن يسير هذه الرّة على غرار ملوك أوروبا السلاليين الذين اتخذوا لانفسهم جنسيات معينة. فعلى الرغم من أنّه، ولأنّه، كان قد تلقى تعليمه في إنغلترا أواخر العهد الفيكتوري، فقد صوَّر نفسه على غو درامي بوصفه "القوميّ الأول" في بلاده [36]. غير أنَّ دريئة هذه القومية لم تكن للملكة المتحدة، الي كانت تسيطر على 90% من تجارة سيام، ولا فرنسا، الي كانت قد فرّت ببعض المناطق الشرقية من الملكة القديمة؛ بل كانت الدريئة أولئك الصينيين الذين استوردهم

أبوه مؤخّراً وكانوا مصدر سعادة غامرة. وما يشير إلى الأسلوب الذي اتّبعه في موقفه المعادي للصينيين العنوانان اللذان محملهما اثنان من أشهر كتيّباته: ‹يهود الشرق› (1914)، و‹عراقيل على عجلاتنا› (1915).

لماذا التغيير؟ لا شكّ أنَّ الحوادث الدرامية الت سبقت تتوجه في تشرين الثاني 1910 وتلته مباشرة قد كان لما أثرها. ففي حزيران قبل التتويج كان غمّة ضرورة لاستدعاء الشرطة لقمع إضراب عام قام به في بانكوك التجار الصينيون (وهم أبناء المهاجرين الصينيين الأوائل الذين راحوا يرتقون صُعُداً) والعمال الصينيون، وكان بداية تدخّلهم في السياسة السيامية المقاوفي العام التالي، أطاحت بالملكية السماوية في بكين تشكيلة متنوّعة من الجماعات لم يَغِب عنها التجار بطبيعة الحال. هكذا ظهر "الصينيون" بوصفهم طليعة نزعة جهورية شعبية تهدّد مبدأ الملكية السلالية ذلك التهديد العميق. أمّا الأمر الثاني، وكما توحي كلمتا "اليهود" و"الشرق"، فهو أنَّ الملك المُتَأْخِل كان قد تشرّب تلك النزعات العنصرية الحدّدة التي اتسمت بها الطبقة الحاكمة الإنغليرية. غير أنّه كان هناك، علاوةً على ذلك، حقيقة أنَّ واشيروت كان نوعاً من البوربونيّ الأسيوي. ففي المرحلة السابقة على القومية كان اسلافه قد اغّنوا فتياتٍ صينياتٍ جميلاتٍ روجاتٍ ومخطيات، وكانت النتيجة أنّه هو نفسه، إذا ما تكلمنا منطق علم الوراثة المائدلي، كان يسرى في عروقه من "الدم" الصين ما يفوق الدم "التايلندي" [188].

ها كن، إذاً، أمام مثال واضح على طابع القومية الرسية، تلك الاستراتيجية الاستباقية الت تبنتها جاعات مسيطرة تهدّدتها بالتهميش أو الإقصاء جاعة بازغة متخيّلة قومياً. (ولا حاجة للقول إنَّ واشيروت راح كرّك أيضًا جميع العتلات السياسية القادرة على النهوض بالقومية الرسية: التعليم الابتدائي الإلزامي الذي تسيطر عليه الدولة، والدعاية الت تنظّمها الدولة، وإعادة كتابة التاريخ الرسيّ، والنزعة العسكرية -التي كانت استعراضاً ظاهرياً أكثر منها حقيقة فعلية - وإلحاحٌ لا نهاية له على هوية السلالة الحاكمة والأمة) [19].

يبين تطور القومية المنغارية في القرن التاسع عشر أثر النموذج "الرسمي" بطريقة مختلفة. فقد أشرنا في السابق إلى المعارضة الغاضبة الي أبْدَتْها النبالة الماجيارية الي تتكلّم اللاتينية بحاولة جوريف الثاني في غانينيات القرن الثامن عشر جَعُلَ اللغة الألمانية لغة الدولة الإمبراطورية الوحيدة. فالفئات الأوفر حطّاً في هذه الطبقة كانت تخشى من أن تفقد مناصبها في ظلّ إدارة مركزية، مباشرة يسيطر عليها البيروقراطيون الإمبراطوريون الألمان. وكانت الطبقات الدنيا منعورة من إمكانية أن تخسر إعفاءها من الضرائب ومن الخدمة العسكرية الإلزامية، فضلاً عن سيطرتها على الأقنان والمقاطعات الريفية. غير أنّه إلى جانب الدفاع عن اللاتينية، كان غُة دفاع انتهازي عاماً عن الماجيارية، "حيث بدت الإدارة الماجيارية على أنّها البديل الفاعل الوحيد دفاع انتهازي عاماً عن المدى الطويل" [40]. وقد لاحظ بيلا غرينفالد بسخرية أنّ "المقاطعات للإدارة الألمنية قيام إدارة باللسان الماجياري، ذاتها التي أخّت (في معارضة لقرار الإمبراطور) على إمكانية قيام إدارة باللسان الماجياري، أعلنت في العام 1811 – أي بعد سبعة وعشرين عاماً – أنّ في ذلك استحالة". وبعد عقدين أعلنت في العام 1811 – أي بعد سبعة وعشرين عاماً – أنّ في ذلك استحالة".

على ذلك، قِيلَ في مقاطعة هنغارية "قومية" جداً إنَّ "إدخال اللغة الماجيارية سوف يعرّض للخطر دستورنا ومصالحنا حميعاً "ألكاً. والحقيقةُ، أنَّ النبالة الماجيارية – تلك الطبقة المؤلفة من 136000 نسمة والتي تحتكر الأرض والحقوق السياسية في بلدٍ يبلغ تعداد سكّانه أحد عشر مليوناً 142 – لم تلتزم، الخيرة على نحو جدّي إلا في أربعينيات القرن التاسع عشر، ولم يكن ذلك في حينه إلا للحيلولة دون تهميشها التاريخي.

وفي الوقت ذاته، عَمِل التعليم المتنامي ببطء (كان يشمل في العام 1869 ثلث السكان البالغين)، وانتشار الماجيارية الطباعية، وظهور طبقة صغيرة، لكنها نشطة، من الأنتلجنسيا اللبرالية على إيقاظ قومية هنغارية شعبية جرى تصوّرها غتلفةً عَاماً عن قومية النبلاء. وقد كان لمذه القومية الشعبية، اليّ عَتَّل رمزها لدى الأجيال اللاحقة في شخص لايوش كوشوت (1802-1894)، ساعة محدها في ثورة العام 1848. فالنظام الثوري لم يقتصر على التخلُّص من الحكام الإمبراطوريين الذين عيّنتهم فيينا، بل تعدّى ذلك إلى إلغاء دايت مقاطعات النبلاء الإقطاعي، والإعلان عن إصلاحات تضع حدّاً للقنانة ولاستثناء النبلاء من الضرائب، فضلاً عن لَجْمِه بقوةٍ وَقْفَ توريث الضَّيع على ورثة معينين. كما تقرِّر، علاوة على هذا، أن يكون كلُّ من يتكلم الماجيارية هنفارياً (وهو الأمر الذي كان مقتصراً في السابق على من يتمتَّعون بالامتيازات) وأن يتكلُّم كلُّ هنفاري الماجيارية (الأمر الذي لم يكن قد اعتاد عليه حتى ذلك الحين سوى بعض الماجيار). وكما يعلِّق إغنوطيوس بشيء من الجفاف، فإنَّه "كان من المُبِّرِّر لـ "الأمة"، ععيار ذلك الزمن (الذي شهد ظهور النجمين التوأمين، اللبرالية والقومية، بتفاؤل لا حدّ له)، أن تشعر أنّها بالغة السخاء حين "اعترفت" بالفلاح الماجياري دون أن عير سوى ذلك التمييز المتعلّق باللكية <sup>[431</sup>؛ وبالسيحيين غير الماجيار شريطة أن يصبحوا من الماجيار؛ ثم باليهود في نهاية المطاف، على مضض وبعد تأخير بلغ عشرين عاماً" [441]. وقد عُمَّل موقف كوشوت الخاص، في مفاوضاته العقيمة مع قادة الأقليات غير الماجيارية المتعددة، في أنَّه ينبغي أن يكون لمؤلاء الحقوق المدنية ذاتها اليّ للماجيار، لكنهم لا يستطيعون أن يشكلوا أعاً خاصة بهم ما داموا يفتقرون إلى "الشخصيات التاريخية". وقد يبدو مثل هذا الموقف اليوم متغطرساً وتافهاً. لكنه يبدو في ضوءٍ أفضل إذا تذكَّرنا أنَّ الشاعر القومي الجذري الشاب واللامع شاندور بَتوفي (1823-1849)، تلك الروح القائدة في 1848، كان قد أشار في إحدى المناسبات إلى الأقليات بوصفها "تقرّحات على جسد الأرض الأم" [<del>45]</del>.

وبعد قمع الجيوش القيصرية للنظام الثوري في العام 1849، مضى كوشوت إلى المنفى الذي بقي فيه طيلة عمره. وكانت الخشبة الأن جاهزةً لإحياء قومية ماجيارية "رسية"، تحسدت في نظاميّ الكونت كالمان تيسا (1875–1890) وابنه اشتفان (1903–1906) الرجعيين. وأسباب هذا الإحياء هي أسباب بالغة الدلالة. ففي خسينيات القرن التاسع عشر، جَمَعَتْ إدارة باخ السلطوية البيروقراطية في فيينا القمع السياسي الشديد إلى تطبيق صارم لسياسات اجتماعية وسياسية معينة كان قد أعلنها ثوريو العام 1848 (خاصةً إلغاء القنانة وإعفاء النبلاء من الضرائب) إلى

تطوير وسائل الاتصال الحديثة والمشاريع الراعالية واسعة النطاق 146l. وبذلك تدهورت النبالة المجيرية الوسطى والدنيا القديمة، بعد أن جُرِّدَت إلى حدٍّ بعيد من امتيازاتها وأمنها، وباتت عاجزةً عن منافسة اللاتيفونديين الكبار وأصحاب المشاريع الألمان واليهود النشطين، وتحولت إلى أشراف ريفيين غاضبين وخائفين.

غير أنَّ الحظَّ كان حليف هؤلاء. فبعد المزعة المُدِلَة التي الحقتها الجيوش البروسية بفيينا في معركة كونيغراتز في العام 1866، اضطرت فيينا لقبول قيام المملكة الثنائية في تسوية العام 1867. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، عتعت علكة هنغاريا بقدر كبير من الاستقلال في إدارة شؤونها الداخلية. وكان أول المنتفعين من التسوية بحموعة من الأرستقراطيين والحرفيين المتعلمين الماجيار ذوي العقلية اللبرالية. وفي العام 1868، سنّت إدارة الكونت السيّد جيولا أندراسي قانوناً للقوميات منح الأقليات غير الماجيارية "كلّ حقّ سبق لها أن طالبت به أو أمكنها أن تطالب به؛ دون أن يصل الأمر إلى تحويل هنغاريا إلى اتحاد فيدرالي " [47]. لكنَّ صعود تيسا إلى المقام الأرفع في العام 1875 كان فاتحة عهد أفلح فيه الأشراف الرجعيون في استعادة موقعهم، متمتّعين بحرية نسبية بعيداً عن تدخّل فيينا.

أمّا في الحقل الاقتصادي، فقد أطلق نظام تيسا يد كبار المزارعين [48]، لكن السلطة السياسية كانت حكراً على الأشراف بصورة أساسية، والسبب في ذلك أنّه:

لم يبق لمن انْتُرِعَتْ حيازاتهم من ملجأ سوى الشبكة الإدارية التابعة للحكومة القومية والحلية والجيش. ولكي تملا هنغاريا وظائف هذه الشبكة كانت بحاجة إلى كادر هائل؛ وكان بمقدورها أن ترعم ذلك على الأقل حتى لو لم يكن الأمر على هذا النحو. وكان نصف البلد مكوّناً من "قوميات" لا بدّ من ضبطها وإبقائها تحت السيطرة. وقد قيل آنذاك أنَّ الدَّفع لجَمْعٍ من أعيان البلد الماجيار الموثوقين هو ثمن متواضع للمصلحة القومية. وكانت مشكلة تعدد القوميات نعمة "عاوية أيضًا؛ فقد برّرت انتشار المناصب.

هكذاً "احتفظ الاسياد بضياعهم الموروثة؛ واحتفظ الاشراف بوظائفهم الموروثة" [49]. وكانت هذه هي القاعدة الاجتماعية التي قامت عليها سياسة عُيْرَةٍ قسرية لا هوادة فيها جعلتْ قانون القوميات محرد حبر على ورق بعد العام 1875. وقد عمل التضييق القانوني لحق الاقتراع، وانتشار الدوائر الانتخابية الفاسدة، والانتخابات المزوَّرة، والبلطجية السياسية المنظمة في المناطق الريفية [50] على تعزيز سلطة تيسا ودائرته الانتخابية وتأكيد الطابع "الرسمي" لقومية هؤلاء في أن معاً.

ويقارن ياسي بحق بين هذه الجَيْرَة في أواخر القرن التاسع عشر و"سياسة القيصرية الروسية ضدّ البولنديين، والفلنديين، والروثنيين؛ وسياسة بروسيا ضد البولنديين والدغاركيين؛ وسياسة إنفلترا الإقطاعية ضد الإيرلنديين المنافق الوقائع التالية على نحو دقيق ما كان من تضافر بين الرجعية والقومية الرسمية: فحين باتت الجَيْرَة اللفوية عنصراً أساسياً في سياسة النظام، لم يكن هناك في غانينيات القرن التاسع عشر سوى %2 من الرومانيين بين

موظّفي الفروع المامة في الحكومتين المركزية والحلية، مع أنَّ الرومانيين كانوا يشكلون 20% من السكان، بل إنَّ "هذه الـ2% كانت تَعَلَّ المراتب الدنيا" [52]. ومن جهة أخرى، لم يكن في البرلمان المنغاري قبل الحرب العالمية الأولى، "أي عمل للطبقات العاملة والفلاحين الذين لا علكون ارضاً (غالبية البلد الساحقة) . . ولم يكن هناك سوى 8 رومانيين وسلوفاك بين محموع أعضاء البرلمان البالغ 413 عضواً في بلد لا يتكلّم سوى 45% من سكّانه اللغة الماجيارية بوصفها لغتهم الأمّ" [52]. فلا عجب، إذاً، أنّه حين أرسلت فيينا قوّاتها لحلّ البرلمان عام 1906، "لم يُعقد أيّ لقاء حماهيري، ولم تُعَلَّق أيّة لافتة، أو يصدر أي بيان شعي احتجاجاً على حقبة "حكم فيينا المطلق" الجديدة. وعلى العكس، راحت الجماهير الكادحة تنظر بفرح إلى ذلك الصراع العقيم الذي خاضته الأوليغارشية القومية "[54].

ولذلك، فإنّه من المتعدّر تفسير انتصار قومية الأشراف الماجيار الرجعيين "الرسية" بعد العام 1875 بالقوة السياسية وحدها التي تقتعت بها تلك الجماعة، أو جرية المبادرة التي ورثتها من تسوية العام 1867. والحقيقة أنَّ بلاط هابسبورغ لم يشعر قبل العام 1906 أنّه في وَضْع يتيح له أن يوطّد أركانه على نحو حاسم ضدَّ نظام ظلَّ عماداً للإمبراطورية من نواح كثيرة. فقد كانت الأسرة الحاكمة عاجزة، أولاً وقبل كلّ شيء، عن أن تفرض قوميتها الرسية الفاعلة الخاصة. ليس فقط لأنَّ النظام كان "نظام حكم مطلق خفّفت منه الفوضي" [absloutismus] ليس فقط لأنَّ النظام كان "نظام حكم مطلق خفّفت منه الفوضي" [gemildert durch Schlamperei إلى السلالة الحاكمة بتصورات متلاشية وتأخّرت في ذلك أكثر من أي مكان آخر تقريباً. فقد "شعر كلّ هابسبورغي، في نزعته الصوفية الدينية، بأنّه مرتبط بالألوهة برباط خاص، بوصفه منفّذاً لمشيئة الإله. وهذا ما يفسّر موقفهم الذي يكاد أن يكون لامبالياً وخالياً من الضمير وسط الكوارث التاريخية، وجحودهم الذي غدا مضرب أمثال. فقد غدت عبارة Der Dank شعاراً واسع الانتشار "أفكاً. وعلاوة على ذلك، فقد عملت الغيرة المريرة من بروسيا المونزلرنية، الي راحت تستأثر بطبق الإمبراطورية الرومانية المقدسة و جعلت من نفسها ألمانيا، على إبقاء السلالة الحاكمة تصرّ على مقولة جوزيف الثاني المدهشة "الوطنية من أجلى".

ومن اللافت، في الوقت ذاته، أنَّ السلالة الحاكمة اكتشفت في أيامها الأخيرة، ربما بشيء من الدهشة، ضروباً من الالفة مع الاشتراكيين الديقراطيين لديها، لدرجة أنَّ بعضاً من أعدائهم المشتركين راحوا يسخرون من "اشتراكية البلاط". ولا شكّ أنّه كان في هذا التحالف المترد خليطٌ من الماكيافيللية والمثالية عند كلا الطرفين. ويمكن رؤية هذا الخليط في الحملة العنيفة التي قادها الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويين ضد "الانفصال" الاقتصادي والعسكري الذي أخّ عليه نظام الكونت استيفان تيسا في العام 1905، وعلى سبيل المثال، فقد "أدان كارل رينر جبن البرجوازية النمساوية الي بدأت تذعن لخطط الماجيار الانفصالية، مع إنَّ "أهمية السوق المنظرية بالنسبة لرأس المال النمساوي أكبر عا لا يقاس من أهمية السوق المغربية بالنسبة

لرأس المال الألماني"، والذي تدافع عنه السياسة الخارجية الألمانية بكلّ ما أوتيت من طاقة. ولم يَرَ في المطالبة عنطقة حركية هنغارية مستقلة سوى صراخ تطلقه أسماك قرش المدينة، وعتالوها، ودعاغوجيّوها السياسيون، ضدّ مصالح الصناعة النمساوية ذاتها، ومصالح الطبقات العاملة النمساوية، ومصالح المزارعين المنفاريين" المقاد وبالمثل، فقد كتب أوتو باور:

في حقبة الثورة الروسية [1905]، لن يجرؤ أحد على استخدام القوة العسكرية العارية لإخضاع البلد [هنفاريا]، الذي مرّقته العداوات الطبقية والقومية. غير أنَّ صراعات البلد الداخلية سوف توفّر للعرش أداةً أخرى من أدوات القوة لا بدّ أن يستخدمها إذا ما أراد أن يتلافي مصير آل بيرنادوت. فهو لا يستطيع أن يكون علَّ إرادتين ويظلُّ على عزمه أن بحكم كلاً من هنغاريا والنمسا. ولذلك لا بدّ أن يتّخذ خطوات تضمن أن يكون لكلُّ من هنغاريا والنمسا إرادة مشتركة، وأن تقيم هذه الإرادة علكة [Reich] واحدة. وعا يوفّر للعرش فرصة تحقيق هذا الهدف ذلك التشظّي الداخلي الذي تعانى منه هنغاريا. فسوف يرسل جيشه إلى هنغاريا لكي يعيدها إلى الملكة، لكنه سوف يكتب على راياته: اقتراعٌ عام ومتكافئ، ونزيه! حقّ العمال الزراعيين في الآعاد! الاستقلال القومي! وسوف يعارض فكرة قيام دولة امّة [Nationalstaat] هنغارية مستقلّة، بأن يضع إزاءها فكرة ولايات النمسا العظمى المتحدة [كذ]، فكرة دولة اتحادية [Bundesstaat]، تدير فيها كلّ أمّة شؤونها القومية على نحو مستقل، وتتّحد فيها جيع الأمم في دولة واحدة حفاظاً على مصالحها المشتركة. فمن المؤكِّد والحتوم أنَّ فكرة قيام دولة اتّحادية للقوميات [Nationalitätenbundesstaat] ستغدو أداةً للعرش [كذا!- Werkzeug der Krone]، الذي يعمل تفسّخ الازدواجية على تدمير [58] 4751c

يبدو منطقياً أن نتبين في ولايات النمسا العظمى المتحدة (USGA) هذه آثار الولايات المتحدة الأميركية (USA) وعلكة بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية المتحدة (الت حكمها حزب العمال ذات يوم)، فضلاً عن استباق لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الذي يشكّل امتداده المكاني تذكرةً غريبة بامتداد القيصرية. وحقيقة الأمر هي أنَّ ولايات النمسا العظمى المتحدة هذه قد بدت، في عقل من تخيّلها، على أنّها الوريث الضروري لجال سيطرة سلالية معينة (النمسا العظمى)، بمكوّناتها الحرَّرة التي هي بالضبط تلك المكوّنات التي أنتجتها قرونٌ من "المتاجرات" الماسبورغية.

ولقد شكّلت مثل هذه التخيّلات "الإمبراطورية" جزءاً من سوء الحظّ الذي أحاق باشتراكيةٍ وُلِدَت في عاصمةٍ واحدةٍ من الإمبراطوريات السلالية العظمى في أوروبا [59]. فالجماعات المتخيّلة الجديدة التي استحضرها وَضْعُ المعاجم و رأسمالية الطباعة (ما فيها ولايات النمسا العظمى المتحدة التي وُلِدَت ميّتةً، لكنها كانت لا تزال قيد التخيّل) لطالما اعتبرت نفسها قديمة، كما سبق أن رأينا. وفي عصر كان لا يزال يتصوّر "التاريخ" ذاته على أنّه "أحداث جسام" و"قادة عظماء"،

وعلى أنّه جواهر ينظمها خيطٌ من السرد، كان فكّ مغاليق ماضي الجماعة من خلال السلالات الحاكمة القديمة أمراً مغرياً أشدّ الإغراء. وهذا ما جاء بفكرة ولايات النمسا العظمى المتحدة التي يكاد غشاؤها الذي يفصل بين الإمبراطورية والأمّة، والعرش والبروليتاريا، أن يكون رقيقاً وشفّافاً. ولم يكن باور بالاستثناء على هذا الصعيد. فأمثال وليم الفاتح وجورج الأول، الذين لا يتكلّم أيّ منهم الإنغليزية، كانوا لا يزالون يظهرون كحبّاتٍ في عقد "ملوك إنغلترا" بعيداً عن أيّة إشكاليات. وكان لا يزال بمقدور "القديس" ستيفن (الذي حكم بين 1001-1038) أن ينصح خليفته بأنّ:

منفعة الأجانب والضيوف تبلغ من العظمة حدّ أن يُتَنحوا المكانة السادسة من حيث الأهمية بين الحليّ الملكية. . . ذلك أنَّ الضيوف، الذين يأتون من مناطق ومقاطعات شتّى، يجلبون معهم شتّى اللغات والعادات، وشتّى المعارف والأسلحة. وكلّ ذلك يزيّن البلاط الملكي، ويزيد بهائه، ويُرْعِبُ القوى الأجنبية المتغطرسة، ذلك أنّ بلداً موحّد اللغة والعادات هو بلد هشّ وضعيف . . 1601.

غير أنّ مثل هذا الكلام ما كان ليحول مطلقاً دون تألهه اللاحق بوصفه ملك هنفاريا الأول.

وختاماً، لقد رأينا أنَّ ما دعاها سيتون-واطسون باسم "القوميات الرسية" راحت تظهر في أوروبا منذ أواسط القرن التاسع عشر. وأنَّ هذه القوميات كانت "مستحيلة" تاريخياً لولا ظهور القوميات اللغوية الشعبية، ذلك أنّها كانت -في قرارتها- ردّات فعل أبدتها جماعات سلطوية القوميات اللغوية الشعبية، ذلك أنّها كانت -في قرارتها- ردّات فعل أبدتها جماعات سلطوية الجماعات المتخيَّلة الشعبية أو التهميش فيها. فقد كان غُة بداية لنوع من الانقلاب التكتوني الذي عَمِلَ، بعد 1918 و 1945، على دَفْع هذه الجماعات إلى بحارير إستوريل ومونت كارلو. وكانت سياسات مثل هذه القوميات الرسية محافظة، كي لانقول رجعية، مستمدّة من غوذج القوميات الشعبية بالفة العفوية التي سبقتها المالة إلى حدَّ بعيد من قِبَل جماعات عائلة في المناطق فباسم الإمبريالية، جرى اتّباع سياسات عائلة إلى حدَّ بعيد من قِبَل جماعات عائلة في المناطق الأسيوية والإفريقية الشاسعة التي تمَّ إخضاعها في بحرى القرن التاسع عشر 1621. وبانتشارها في الثقافات والتواريخ غير الأوروبية، جرى في النهاية التقاطها وعاكاتها من قِبَل جماعات حاكمة الثقافات والتواريخ غير الأوروبية، جرى في النهاية التقاطها وعاكاتها من قِبَل جماعات حاكمة الثقافات والتواريخ غير الأوروبية، جرى في النهاية التقاطها وعاكاتها من قِبَل جماعات حاكمة المنقفة بن تلك المناطق القليلة (من بينها اليابان وسيام) التي نجت من الإخضاع المباشر.

ولقد أزالت القومية الرحمية، في جميع الحالات تقريباً، نوعاً من التباين بين الأمّة والملكة السلالية. ومن هنا أنّها أزالت نوعاً من التناقض عالى النطاق؛ فقد كان على السلوفاك أن يَتَمَجَيَروا، وعلى المنود أن يتأكلوا، وعلى الكوريين أن يتييبنوا، غير أنه لم يكن متاحاً لهم أن يلتحقوا برحلات حجَّ تتيح لهم بأن يتولّوا إدارة الماجيار، أو الإنغليز، أو اليابانيين. فالوليمة الت يُعوا إليها كانت تتكشّف دوماً على أنها وليمة وهمية. ولم يكن السبب وراء كلَّ هذا مقتصراً على العنصرية؛ بل تعدّاه أيضًا إلى حقيقة أنَّ الأمم كانت تبزغ في قلب الإمبراطوريات ذاتها،

كالأمة المنفارية، والإنغليزية، واليابانية. وكانت هذه الأمم أيضًا تُبدي مقاومةً غريزية للحكم "الأجني". ولذلك كان للإيديولوجيا الإمبريالية في حقبة ما بعد العام 1850 طابع نمطيّ نميّر هو طابع الخدعة السحرية. وما يشير إلى ذلك هو تلك اللامبالاة الي أبدتها الطبقات الشعبية المتروبولية في النهاية حيال "فقدان" المستعمرات، حتى في حالات كحالة الجرائر حيث كانت قد صدرت قوانين تضمّ المستعمرة إلى المتروبول. وفي النهاية، فإنَّ الطبقات الحاكمة، البرجوازية بلا شكّ، والأرستقراطية قبل أيّ أحد آخر، هي الي تندب الإمبراطوريات ذلك الندب المديد الدائم، غير أنَّ لحرنها على الدوام ذلك الطابع المسرحيّ.



## 7) الموجة الأخيرة

وصلت الحرب العالمية الأولى بعصر الملكية السلالية إلى نهايته. ففي العام 1992، كان آل هابسبورغ، وآل هونزولرن، وآل رومانوف، وآل عثمان قد ولُوا. وبدلاً من مؤتمر برلين جاءت عصبة الأمم، الي لم يُقصَ عنها غير الأوروبيين. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، باتت الدولة الأمّة هي المعيار الدولي الشرعيّ، حتى إنَّ القوى الإمبراطورية الباقية ذاتها أتت إلى عصبة الأمم مرتدية الزيّ القومي وليس البزّة الإمبراطورية. وبعد كارثة الحرب العالمية الثانية بلغ مدّ الدولة الامّة أوجه. وفي أواسط سبعينيات القرن العشرين غدت الإمبراطورية البرتغالية ذاتها شيئاً من الماضي.

وكان للدول الجديدة الت نشأت في المرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية طابعها الخاص، الذي لا يمكن على الرغم من ذلك الإحاطة يجميع جوانبه من دول تعاقب النماذج الت تناولناها ونتناولها إلى الآن. وتتمثّل إحدى طرائق التأكيد على هذا النَّسب في أن نتذكّر أنَّ عدداً كبيراً من هذه الأمم (غير الأوروبية بصورة أساس) قد اتخذ لغات أوروبية لغات دولة، وإذا ما كانت قد تشبّهت بالنموذج "الأميركي" على هذا الصعيد، فإنها قد اتخذت من القومية الأوروبية اللغوية شعبيتها الحماسية، ومن القومية الرسية توجّهها نحو سياسة الروسينة. وقد فعلت ذلك لأنَّ الأميركيين والأوروبيين كانوا قد خاضوا تجارب تاريخية معقدة صار يجري تخيّلها في كلَّ مكان كنماذج تُحدين والأوروبيين كانوا قد خاضوا تجارب تاريخية القومية الرسمية الإمبراطورية.

وهذا ما يفسر ذلك الحماس القومي الشعي الأصيل وذلك الغَرْس المنهجي، بل والمكيافيللي، للإيديولوجية القومية من خلال وسائل الإعلام، والنظام التربوي، والأنظمة الإدارية وسواها، اللذين غالباً ما نراهما معاً في سياسات "بناء الأمّة" التي تتبعها الدولة الجديدة. وبدوره، فإنّ هذا المزج بين القومية الشعبية والرسمية قد كان نتاجاً لشنوذات أو حالات خروج على القياس خلقتها الإمبريالية الأوروبية: اعتباطية الحدود الشهيرة، وضروب الإنتلجنسياً ثنائية اللغة بتوازنها القلق بين شتى ضروب السكّان أحاديي اللغة. ولذلك يمكن النظر إلى كثير من هذه الأمم على أنّها مشاريع لا تزال قيد التحقق، لكنها مشاريع جرى تصوّرها بروحيّة ما تزين وليس بروحيّة أوفاروف.

ولدى النظر في أصول "القومية الكولونيالية" الحديثة، ثمّة تشابه أساسيّ مع القوميات الكولونيالية الي تعود إلى مراحل أسبق سرعان ما يلفت الانتباه: ألا وهو التناظر بين الامتداد الإقليمي لكلّ قومية وامتداد الوحدة الإدارية الإمبراطورية السابقة. وهذا التماثل ليس بالفَرَضيّ بأيّ حال من الأحوال؛ فهو مرتبطٌ على نجو واضح بجغرافيا كلّ ضَرْب من ضروب الحجّ الكولونيالي. ويكمن الفارق في حقيقة أنَّ حدود رحلات الحجّ الكريولية في القرن الثامن عشر لم تشكّلها الطموحات المركزية لدى الحكم المطلق في المتروبولات وحسب، بل شكّلتها أيضًا مشكلات الاتصال والنقل الفعلية، ونوعٌ من البدائية التكنولوجية العامة. وفي القرن العشرين، كان قد جرى التغلّب على هذه المشكلات إلى حدّ بعيد، وجاءت لتحلّ علّها مشكلة "الرّوسَنَة" بوجهها الشبيه بوجه جانوس الله.

ولقد سبق أن أشرت إلى أنَّ الوحدة الإدارية الإمبراطورية كانت قد اكتسبت في أواخر القرن الثامن عشر شيئاً من المعنى القومي لأنها كانت تحدد دائرة صعود الموظفين الكريول. وكذا الأمر في القرن العشرين أيضًا. ذلك أنّه حتى في الحالات الي كان يأتي شاب إنغليزي أسم أو أسود لكي يتلقّى بعض التعليم أو التدريب في المروبول، بطريقة لم يكن يقدر على القيام بها سوى لكي يتلقّى بعض التعليم أو التدريب في المروبول، بطريقة لم يكن يقدر على القيام بها سوى قمنذ ذلك الحين وصاعداً، كانت قمّة تحليقه الحلزوني تتمثّل بأعلى مركز إداري محكن أن يتولّاه: في رانغون، أو أكرا، أو جورجتاون، أو كولومبو. غير أنّه كان يحد في كلّ رحلة محدّة رفاق طريق ثنائيي اللغة ويشعر أنّه يشكّل معهم طائفة متنامية. وسرعان ما كان يفهم في رحلته أنّ مسألة أصله –الإثن أو اللغوي أو الجغرافي ليس لما تلك الأهمية الكبيرة. فأقصى ما يمكن أن تفعله هو أن تُطلِقه في هذا الحجّ وليس ذاك: فهي لا تحدّ منتهاه أو رفقائه من الناحية أن تفعله هو أن تُطلِقه في هذا الحجّ وليس ذاك: فهي لا تحدّ منتهاه أو رفقائه من الناحية الجوهرية. ومن هذا النّسق برز تجول الدولة الكريولية الدقيق، نصف الخفّي، والمتدرج خطوة في الدولة القومية، وهو تحول لم يُتحدُه ذلك التواصل الراسخ بين كادر الموظفين فحسب، بل كذلك مجموعة وطيدة من الرحلات الي كان موظفو كلّ دولة يحتبرون عبرها دولتهم هذه 11.

غير أنَّ هذه الرحلات لم تَعْدُ بعد منتصف القرن التاسع عشر، وخاصةً في القرن العشرين،

رحلات تقوم بها حفنة من الرحّالة، بل حشود ضخمة متنوعة. وكان ثمّة عوامل ثلاثة فاعلة على هذا الصعيد. أولها وأهمها كان التزايد الهائل في الحراك الماديّ الذي مكّنت منه تلك المنجزات المدهشة التي أتت بها الرأ عالية الصناعية، كالسكك الحديدية والسفن البخارية في القرن التاسع عشر، والسيارات والطيران في القرن العشرين. أما الرحلات الطويلة الممّلة إلى البلدان الأميركية القديمة فسرعان ما باتت أشياء من الماضي.

ويتمثل العامل الثاني في أنَّ "الرَّوْسَنَة" الإمبراطورية كان لها جانبها العملي فضلاً عن جانبها الإيديولوجي. فحجم الإمبراطوريات الأوربية العالمي، وعدد السكّان الخاضعين الهائل، كانا يجعلان من غير الممكن استخدام البيروقراطيات المتروبولية القحّة، أو حتى الكريولية، أو الإنفاق عليها. وكانت الدولة الكولونيالية، والشركات الرأّعالية بعدها بقليل، كاجة إلى جيوش من الموظفين، الذين كان يبغي أن يعرفوا لغتين لكي يكونوا ذوي نَفع، قادرين على التوسط لغوياً بين الأمّة المتروبولية والشعوب المُستَعْمَرَة. ولقد تنامت هذه الحاجة بتضاعف وظائف الدولة الاختصاصية في كلّ مكان بعد منقلب القرن. فإلى جانب مأمور الناحية القديم ظهر المسؤول الطي، ومهندس الريّ، والعامل الزراعي، وأستاذ المدرسة، والشرطي، وهلمجراً. ومع كلّ توسعٌ للدولة، كانت جهرة حجيجها الداخلي تنتفخ وتتضخم 12أ.

أمًّا العامل الثالث فكان نَشْرُ التعليم من النمط الحديث، ليس من قِبَل الدولة الكولونيالية فقط، بل أيضًا من قِبَل المنظمات الخاصة الدينية والعلمانية. ولم يُجْر هذا التوسع بغية توفير كوادر الحكومة والشركات وحسب، بل أيضًا بسبب الإقرار المتنامي بما للمعرفة الحديثة من أهمية أخلاقية حتى بالنسبة للسكان المستعمرين [3]. (بل إنَّ ظاهرة المتعلم العاطل عن العمل كانت آخذة بالبروز في دول كولونيالية شتى).

وغة إقرار عام مركزية الدور الذي تلعبه الإنتلجنسيا في نشوء القومية في المناطق الكولونيالية، خاصةً أنَّ الكولونيالية كانت قد جعلت كبار المزارعين الحليين، والتجار الكبار، وأصحاب المشاريع الصناعية، بل وطبقة الحرفيين الكبيرة، من الأمور النادرة نسبياً. وفي كلَّ مكان تقريباً كانت القوة الاقتصادية إما حكراً على الكولونياليين أنفسهم، أو محلُّ تقاسم غير متكافئ مع طبقة عاجزة سياسياً من رجال الأعمال الغرباء (غير الحليين)، كاللبنانيين والمنود والعرب في أسيا الكولونيالية. وغة إقرار عام عائل بأنَّ دور الإنتلجنسيا الطليعي مستمدًّ من تعلمهم ثنائي اللغة، أو من تعلمهم وثنائية لغتهم. وكان التعلم وقراءة المطبوعات قد مكّنا من قيام الجماعة المتحيَّلة السابحة في زمن فارغ، متجانس سبق أن تكلمنا عليه. أمّا ثنائية اللغة فقد عَنْتْ توفير منفذ، عبر لغة الدولة الأوروبية، إلى الثقافة الغربية الحديثة معناها الواسع، وخاصةً إلى غاذج القومية، والانتماء إلى الثوادة الأمّة المؤبدة في غير مكان في بحرى القرن التاسع عشر ألهاً.

وفي العام 1913، قام النظام الكولونيالي المولندي في باتافيا، وقد أخذ الضوء الأخضر من لاهاي، برعاية مهرجانات في أرجاء المستعمرة احتفاءً بالذكرى المئوية لـ"كُرّر هولندا الوطن"

من الإمبريالية الفرنسية. وقد صدرت أوامر التأكيد على المشاركة الفعلية والمساهمات المالية، ليس من قِبَل الجماعات المولندية والأوراسية الحلية وحسب، بل أيضًا من قِبَل السكّان الحليين الخاضعين. واحتجاجاً على ذلك، كتب القومي الجاوي-الإندونيسي الشاب سواردي سرجاننغارت (كي هاجَر ديوانتورو) مقاله الصحفي الشهير باللغة المولندية "لو كنتُ هولندياً".

في رأيي، أنَّ هنالك ما هو في غير محلّه-وبذيء- حين نطلب من أبناء البلد (فأنا لا أزال أثيل أنن هولندي) أن يخرجوا في تلك المهرجانات التي تحتفل باستقلالنا. إنّنا، أولاً، نحرح مشاعرهم إذ نحتفل باستقلالنا هنا في بلدهم الأصلي الذي نستعمره. فنحن في هذه اللحظة سعداء أشد السعادة لمرور منة عام على تحرير أنفسنا من السيطرة الأجنبية، وكل ذلك يجري أمام أعين أولئك الذين لا يزالون تحت سيطرتنا. ألا يخطر في بالنا أنَّ هؤلاء العبيد البؤساء يتوقون إلى مثل هذه اللحظة، حين يتمكنون مثلنا من الاحتفال باستقلافم؟ أم لعل سياستنا في تدمير الروح تدفعنا إلى اعتبار جميع الأرواح البشرية ميتة؟ إنْ كان الأمر كذلك، فإننا نحدع أنفسنا، لأنه ما من جاعة، مهما تكن بدائية، إلا وتقف ضد أي نوع من الاضطهاد. ولو كنت هولندياً، لما نظمتُ احتفالاً بالاستقلال في بلد سُرقَ منه استقلال شعبه الحكاً.

بهذه الكلمات عمكن سواردي من أن يقلب التاريخ الهولندي ضد الهولنديين، بإشارته الجريئة إلى اللحمة بين القومية الهولندية والإمبريالية. وعلاوة على ذلك، فإنه بتحويل نفسه خيالياً إلى هولندي مؤقت (الأمر الذي ينطوي على دعوة قرَّائه الهولنديين إلى أن يتحوّلوا إلى إندونيسيين بلقابل)، إنما يقوّض جميع المصائر العنصرية الي تشكّل أساس الإيديولوجيا الكولونيالية الهولندية [14].

وهجوم سواردي المركّز هذا - الذي أَفْرَح جهوره الإندونيسي بقدر ما أغاظ جهوره المولندي - هو مثال على ظاهرة عالمية النطاق من ظواهر القرن العشرين. ذلك أنَّ التناقض الذي تنطوي عليه القومية الرسمية الإمبراطورية كان تُختَّماً أن يجلب إلى وعي المستعمّرين ليس عن طريق الاحتفالات البليدة العارضة وحسب، بل عبر حجرات القراءة وغرف الصف أيضًا ألا عن يُنْظُر إليه على نحو متزايد ويُكتَبْ عنه على أنه "تواريخ قومية" أوروبية. فما كان يُنْظُر إليه على نحو متزايد ويُكتَبْ عنه على أنه "تواريخ قومية" أوروبية. فما كان بمقدور الصبيان الفيتناميين أن يتفادوا تعلّم الفلسفات والثورة، وما يدعوه ريجيه دوبريه "عداءنا العلماني لألمانيا" القلاء كما دخلت الماغنا كارتا، وأبو البرلمانات، والثورة الجيدة، التي صيغت جميعاً بوصفها التاريخ القومي الإنغليزي، إلى المدارس في جميع أرجاء الإمبراطورية البريطانية. ولم يكن صراع بلجيكا من أجل الاستقلال عن هولندا ليغيب عن كتب مدرسية سيقرأها أطفال الكونغو ذات يوم. وكذلك كانت تواريخ الولايات المتحدة الأميركية في الفيليبين، وأخيراً تواريخ البرتغال في الموزامبيق وأنغولا. والمفارقة الساخرة، بالطبع، هي أنَّ هذه التواريخ كانت مكتوبة انطلاقاً من وعي تأريخي كان يغدو عند منقلب القرن، وفي جميع أرجاء أوروبا، مُعتَّداً قومياً. (فالبارونات الذين فرضوا الماغنا كارتا على جون البلانتاجين لم يكونوا مُعتَّداً وغيَّداً وغيَّداً وغيَّداً وغيَّداً وغيَّداً وغيَّداً وغيَّداً وغيَّداً وقومياً. (فالبارونات الذين فرضوا الماغنا كارتا على جون البلانتاجين لم يكونوا

يتكلمون "الإنغليزية"، ولم يكن لديهم تصور عن أنفسهم كـ"إنغليز"، لكنهم عُرِّفوا في صفوف مدارس الملكة المتحدة بعد سبعمئة سنة على أنهم الوطنيون الأوائل).

غير أنَّ هنالك ملمحاً يَسِمُ الإنتلجنسيا القومية البازغة في المستعمرات وعيرها إلى حدًّ ما عن ضروب الإنتلجنسيا القومية نصيرة اللغة الحلية في أوروبا القرن التاسع عشر. فهذه الإنتلجنسيا مؤلَّفَة من فِتية يافعين على نحو يكاد أن يشكَّل صفةُ ثابتةً، بل وأضفت على ا يفاعتها هذه دلالة سياسية معقدة، لا تزال تحظى بأهميتها إلى هذا اليوم، على الرغم من تغيرها عرور الزمن. فنشوء القومية البورمية (الحديثة/المنظَّمة) غالباً ما يُؤرِّخ له بتأسيس رابطة الشباب البوذية في رانغون عام 1908، ونشوء القومية المالاوية غالباً ما يُؤرَّخ له بإقامة اتحاد شباب الملايو عام 1938. ويُعتفل الإندونيسيون في كل عام ما يُدْعى قَسَم الشبيبة الذي صاغه مؤمّر الشبيبة القومي عام 1928 وأقْسَمَ به. وهلمجرا. ولا شكَّ أن أوروبا قد كانت حاضرةٌ بمعنيَّ ما هنا أيضًا، الأمر الذي يتّضح حين نتذكّر إيرلندا الفتاة، وإيطاليا الفتاة، وما شابه. وفي كلّ من أوروبا والمستعمرات كانت "الفتوة" و"الشبيبة" تشيران إلى الدينامية، والتقدم، والمثالية القائمة على التضحية، والإرادة الثورية. لكن "الفتوة" في أوروبا لم تكن كبيرة الدلالة على حدود سوسيولوجية قابلة للتحديد. حيث يمكن للمرء أن يكون في منتصف العمر ويبقى جرءاً من إير لندا الفتاة؛ وكان عِكن له أن يكون أميّاً ويظلُّ جزءاً من إيطاليا الفتاة. والسبب، بالطبع، هو أنَّ لغة هاتين القوميتين إما كانت لغةُ أمَّا علية متاحةً للأعضاء منذ المهد، أو، كما في حالة إير لندا، لغةً متروبولية ضَرَبت بجذور عميقة لدى أقسام من السكان على مدى قرون من الفتح بحيث أمكن لها هي أيضًا أن تتجلى، على الطريقة الكريولية، بوصفها لغة محلية. ولم يكن غمة صلة ضرورية بين اللغة، والعمر، والطبقة، والمكانة.

امّا في المستعمرات فكانت الأمور مختلفة أشدّ الاختلاف. فالشبيبة كانت تعي، قبل كلّ شيء، الجيل الأول بين أية أعداد كبيرة مّن حازوا تعليماً أوروبياً، فَصَلَهم لفوياً وثقافياً عن جيل آبائهم، كذلك عن كتلة هائلة من أقرانهم المُسْتَعْمَرين (انظر ب. سي. بال). هكذا أقام طلاب مدارس يقرأون الإنغليزية رابطة الشباب البوذية "إنغليزية اللغة" في بورما، وكانت جزئياً على غرار رابطة الشباب المسيحي. وعجد المرء في الإنديز المولندية، من بين أشياء أخرى، جاوة الفتاة، وأمبوينا الفتاة، ورابطة المسلمين الشباب، وجيدها ألقاب عسيرة الفهم على أي علي شاب لم يكتسب اللغة الكولونيالية. ففي المستعمرات، نحن بـ"الشبيبة"، إذاً، "شبيبة المدارس"، في البداية على الأقل. وهذا بدوره يذكرنا مرة أخرى بالدور الفريد الذي لعبته المنظومات المكولونيالية الكولونيالية في تعزيز القوميات الكولونيالية الأل.

وتشكّل حالة إندونيسيا مثالاً معقّداً لافتاً على هذه العملية، خاصةً بسبب حجمها الهائل، وعدد سكانها الضخم (حتى في العهد الكولونيالي)، وتشظيها الجغرافي (حوالي 3000 جزيرة)، وتعددها الدين (مسلمون، بوذيون، كاثوليك، بروتستانت من شتى الأنواع، هندو-بالينيون، و"أرواحيون" أبدأ)، وتنوعها الإثي اللغوي (اكثر من 100 جماعة نميزة)، وعلاوةً على ذلك،

وكما يوحي اسمها شبه الميللين المجين، فإنَّ رقعتها أو مساحتها لا تنسجم ولو من بعيد مع أيِّ سيطرة ما قبل كولونيالية، وعلى العكس، فإن حدودها، على الأقل حتى غزو الجنرال سوهارتو الوحشي لتيمور الشرقية البرتغالية سابقاً في العام 1975، كانت تلك الحدود الي خلّفها وراءهم آخر الفاتين المولنديين (في العام 1910 تقريباً).

وبعض الشعوب على ساحل سومطرة الشرقي ليسوا قريبين مادياً وحسب، عبر مضائق مَلقاً، من سكّان الساحل الغربي من شبه جزيرة الملايو، بل يرتبطون بهم إثنياً أيضًا، ويفهم بعضهم لغة بعضهم الآخر، ويدينون بدين واحد، وهلمجرا. وهؤلاء السومطريون أنفسهم لا يتقاعون مع الإمبونيين، الموجودين على جزر تبعد ألاف الأميال إلى الشرق، لا اللغة الأم، ولا الإثنية، ولا الدين. ومع ذلك فقد باتوا خلال هذا القرن ينظرون إلى الأمبونيين على أنهم أجانب.

وما من شيء كان يرعى هذا الارتباط أكثر من المدارس اليّ راح النظام في باتافيا يقيمها بأعداد متزايدة بعد منقلب القرن. ولكي نرى السبب وراء ذلك، علينا أن نتذكر أنّ المدارس الحكومية قد شكَّلت تراتبيةً ضخمة، رفيعة العقلانية، شديدة الركزية، شبيهة في بنيتها ببيروقراطية الدولة ذاتها، في تعارض تام مع المدارس الحلية، التقليدية، التي كانت مشاريع علية وشخصية على الدوام (على الرغم من كثرة انتقال الطلاب الأفقى من معلم حسن الصيت من العُلَمَا إلى آخر، على الطريقة الإسلامية الصالحة). ولقد خلقت الكتب المدرسية المؤحدة، والشهادات الدراسية وإجازات التعليم الواحدة، وتدرّج الفئات العمرية ذلك التدرّج المنتظم الصارم<sup>110</sup>1، والصفوف والمواد التعليمية عالماً من التجربة مكتفياً بذاته، ومتماسكاً. غير أنَّ جغرافيا التراتب لم تكن أقلُّ أهمية. فالمدارس الابتدائية الموحّدة كانت موزّعة على القرى والبلدات الصغيرة في المستعمرة، والمدارس المتوسطة للشباب والكبار في البلدات الأكبر ومراكز المقاطعات، في حين كان التعليم من المرتبة الثالثة (قمة الهرم) مقتصراً على العاصمة الكولونيالية باتافيا ومدينة باندونغ الن بناها المولنديون، على بعد 100 ميل إلى الجنوب الغربي على مرتفعات بريانغان الباردة. هكذا جلبت منظومة المدارس الكولونيالية في القرن العشرين إلى الوجود ضروباً من الحجّ كانت توازي رحلات الموظفين الأقدم. وكانت باتافيا قبلة رحلات الحجّ هذه: وليس سنفافورة، أو مانيلا، أو رانفون. أو حتى العاصمتين الجاويتين القديمتين جوغجاكرتا وسوراكرتا المناع ومن جميع أرجاء المستعمرة الشاسعة، ولكن ليس من أي مكان خارجها، كان الحجيج الفضّ يشقّ طريقه الداخلي، الصاعد ويلاقي في المدرسة الابتدائية زملاءه الحجيج من قرى غتلفة، لعلها كانت معادية ذات مرّة، ومن جاعات إثنية لغوية غتلفة في المدرسة الإعدادية، ومن كلّ مكان من المملكة في المعاهد الثانوية في العاصمة 1121. وكان يعلم أيضًا أنه مهما يكن المكان الذي أتى منه فإنه قد قرأ الكتب ذاتها وأجرى الحسابات ذاتها. وكان يعلم أيضًا، حتى لو لم يصل قطّ إلى هذا الحدّ-ومعظمه لم يصل- أن القبلة هي باتافيا، وأنَّ كل هذه الضروب من الترحال إنما تستمدّ "ممناها" من العاصمة، التي تفسّر في الواقع لماذا "نحن"

موجودون "هنا" جميعنا "معاً". وبعبارة أخرى، فإنَّ بَحربة هذا الحجيج المشتركة، القائمة على التنافس الودّي، كانت تعطي خرائط المستعمَرة التي يدرسونها ( والتي تُلوَّن بصورة مختلفة عن الملايو البريطانية أو الفيليبين الأميركية) ذلك الواقع الإقليمي النوعي المُتَخَيَّل الذي كان يُبَرْهَن عليه كلَّ يوم من خلال لكنات أقرانهم في الصّف وقسمات وجوههم المُلاً.

وما الذي كانوا عليه حميعهم معاً؟ لقد كان المولنديون واضحين عَاماً بهذا الشأن: مهما تكن اللغة الأم اليّ يتكلمونها، فَهُم inlanders على نحو لا شفاء منه، وهذه كلمة نحمل على الدوام، مثل كلمة "natives" الإنغليزية و"indigènes" الفرنسية، حولة دلالية متناقضة على نحو غير مقصود. ففي هذه المستعمرة، كما في كل مستعمرة منفصلة أخرى، كانت تمن أن الأشخاص المُشار إليهم هم في الوقت ذاته "أدنى" و"من هناك" (كما إنّ المولنديين هم "natives" هولندا، ومن هناك). وبالعكس، فإن المولنديين عثل هذه اللغة كانوا خصّون أنفسهم، إلى جأنب التفوق، بصفة "عدم كونهم من هناك". كما تشتمل الكلمة على أنَّ الـ inlanders، في دونيتهم المشتركة، حقراء جميعاً بالتساوي، بصرف النظر عن الجماعة الإثنية اللغوية أو الطبقة الت أتوا منها. غير أنّه حتى هذا التساوى البائس في الوضع كان له نطاقه الحدود. ذلك أنَّ الـ inlander لا ين يطرح السؤال: "نحلُّ ماذا؟" فإذا ما كان المولنديون في بعض الأحيان يتكلمون كما أنَّ الـ inlanders صنف عالمّ، فإنَّ التجربة كانت تبيّن أنَّ هذه الفكرة يصعب دعمها في الممارسة. ذلك أنَّ الـ inlanders كانوا يتوقفون عند حافة المستعمرة اللوَّنة الرسومة. أما خلف تلك الحافة فكان غة "natives"، indigènes و indios من شتى الأنواع. وعلاوة على ذلك، فإنَّ المصطلحات القانونية الكولونيالية كانت تشتمل على مقولة vreemde oosterlingen (الشرقيين الأجانب)، الت كان لها ما لعملة زائفة من رئين مريب، كما لو أنها "الحليون الأجانب". ومثل هؤلاء "الشرقيين الأجانب"، الصينيين والعرب واليابانيين بصورة أساسية، مع أنهم قد يكونون عن يعيشون في المستعمرة، كانت لهم مكانة قانونية سياسية أرفع من مكانة "الحليين الحليين". بل إنَّ الرعب من قوة ملوك ميجى الاقتصادية وبراعتهم العسكرية بلغ بهولندا بالغة الصِّغَر ما يكفى لأن ترفع من المكانة القانونية الت يتمتع بها اليابانيون في المستعمرة، منذ 1899 فصاعداً، وتصل بها حدَّ اعتبارهم "أوروبيين شَرَف". ومن كلُّ هذا، وبنوع من التثفيل والترسيب، صارت كلمة inlander -الت تستبعد البيض، والمولنديين، والصينيين، والعرب، واليابانيين، والـ "natives"، والـ indigènes، والـ indios- أشدّ تحديداً باطراد في محتواها، إلى أن تحولت فجأةً، مثل يرقة ناضجة، إلى فراشة لافتة هي الـ "Indonesian".

وفي حين أنّه من الصحيح أنَّ مفهومي الـ inlander والـ "native" لا عكنهما قطّ أن يكونا مفهومين عنصريين عامّين حقاً، إذ أنَّ لهما على الدوام جذور في موطن ما معين المالًا فإنَّ حالة إندونيسيا لا ينبغي أن تسوقنا لأن نفترض أنّ لكلّ موطن "عليّ" تخومه الحددة سلفاً والثابتة. وعمَّة مثالان يبيّنان العكس: إفريقية الغربية الفرنسية والهند الصينية الفرنسية.

في عزّها، كانت مدرسة وليم بوني للمعلمين في داكار قمة الهرم التعليمي الكولونيالي في إفريقية الفربية الفرنسية، مع أنها لم تكن سوى مدرسة ثانوية [21]. وكان يأتي إلى وليم بوني الطلاب عا يُعْرَف اليوم باسم غينيا ومالي وساحل العاج والسنغال، وما إلى ذلك. ولا ينبغي أن يدهشنا أنّ رحلات حجّ هؤلاء الطلاب، الي كانت تنتهي في داكار، كانت تُقْرَأ في البداية بمصطلحات إفريقية (الفربية) الفرنسية، التي يُعَدّ من بينها مفهوم الزنوجة (négritude) المتناقض - في إشارته إلى جوهر الانتماء الإفريقي الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بالفرنسية، لغة صفوف وليم بوني - ذلك الرمز الذي لا يُنْسَى. غير أنَّ احتلال مدرسة وليم بوني موقع القمة كان أمراً عارضاً وسريع الزوال. فمع بناء المزيد من المدارس الثانوية في إفريقية الفربية الفرنسية، لم يعد من المركزية التعليمية الي تعيزت بها مدرسة وليم بوني لم تضاهِها قط مركزية إدارية عائلة تتميز بها داكار. وقابلية الاستبدال الي تمتّع بها طلبة إفريقية الغربية الفرنسية على مقاعد وليم بوني لم تضاهِها قابلية بيروقر اطية لاحقة لتبديلهم في الإدارة الكولونيالية في إفريقية الغربية الفرنسية. هكذا، مضى طلبة المدرسة القدامى إلى الوطن ليصبحوا، في النهاية، الزعماء الفرنسية. هكذا، مضى طلبة المدرسة القدامى إلى الوطن ليصبحوا، في النهاية، الزعماء القوميين الغينيين أو الماليين، في حين ظلّوا متفظين بالرفقة والحميمية التضامنية "الإفريقية الغربية" اللتين فيقدتا لدى الأجيال اللاحقة 161.

ولقد كان للاسم المجين اللافت "الهند الصينية"، لدى جيل واحد من المراهقين المتعلمين، معنى مُتخيًّلاً واقعياً، ومُحرَّباً بالطريقة السابقة ذاتها إلى حدَّ بعيد الله. فهذا الكيان، كما ينبغي أن نتذكر، لم يُعلن رسياً إلا في العام 1887، ولم يتخذ شكله الكامل كإقليم إلا في العام 1907، مع أنَّ التدخل الفرنسي النَّشِط في المنطقة عموماً يعود إلى قبل ذلك بقرن.

وبوجه عام، فقد كان للسياسة التعليمية التي اتبعها الحكام الكولونياليون في "الهند الصينية" غرضان أساسان اثنان [18]، أسهم كلاهما، كما تبيّن، في غو الوعي "الهندوصيي". وقد عَثَل الغرض الأول في فك الروابط السياسية-الثقافية القائمة بين الشعوب المستعمرة والعالم الواقع خلف الهند الصينية مباشرة. وبقدر ما يتعلق الأمر به "كمبودج" و"لاوس" [19]، فإنَّ الهدف كان سيام، التي سبق أن مارست عليهما سيطرة متغيرة وشاركت كليهما شعائر بوذية الهينايانا، ومؤسساتها، ولغتها المقدسة. (وإضافة إلى ذلك لأن اللغة اللاوسية وكتابتها في الأراضي الواطئة كانت ولا تزال وثيقة الصلة باللغة التايلندية وكتابتها). وانطلاقاً من هذا الاهتمام على وجه التحديد كان أن جُرِّبَت الفرنسية أولاً في تلك المناطق التي انترِّعَت أخيراً من سيام، مع ما دُعي باسم "مدارس بوغودا الجُدَّدة"، التي خُطِّطَ لها أن تنقل الرهبان الخمير وتلاميذهم من المدار المند الصينية [20].

وفي شرقي الهند الصينية (وهو الاختصار الذي أستخدمه لأشير إلى "تونكين" و"أنّام" و"الصين الكوشينية")، كان الهدف هو الصين والحضارة الصينية. فعلى الرغم من أنّ السلالات الحاكمة في هانوي وهوي كانت قد دافعت طوال قرون عن استقلالها عن بكين، إلا أنها صارت كُنّكم

من خلال نظام حكم مندرين مُصاغ بصورة واعية على غرار نظام الحكم الصين. فالتعيين في جهاز الدولة كان عري بناءً على امتحان كتابي في الكلاسيكيات الكونفوشية، والوثائق الملكية كانت مكتوبة بالأحرف الصينية؛ والطبقة الحاكمة كانت متصّينة كثيرًا في ثقافتها. وهذه الروابط القديمة اتخنت طابعاً إضافياً غير مرغوب فيه بعد حوالي العام 1895، حين بدأت كتابات إصلاحيين صينيين مثل كانغ يو وي وليانغ شي شاو، وقوميين مثل صن يات صن، تتسرب عبر الحدود الشمالية للمستعمرة [21]، وعلى هذا الأساس، فقد أُلغيت الامتحانات الكونفوشية في "تونكين" عام 1915 وفي "أنام" عام 1918 على التوالي. وبذلك بات التعيين في الحدمة المدنية في الهند الصينية عري بصورة حصرية عبر منظومة تعليمية كولونيالية فرنسية متطورة. وعلاوة على ذلك، فقد جرى على نحو واع رفع مكانة الـ كواك نغو، وهي كتابة لاتينية التصويت كان قد اخترعها في الأصل المبشرون الجرويت في القرن السابع عشر المنامن عشر، وتبنتها السلطات للاستخدام في "الصين الكوشينية" منذ أوائل ستينيات القرن الشامن عشر، بقصد فصم الروابط مع الصين-ورعا أيضًا مع الماضي الحلي- بحل السجلات الملكية والاداب القدية غير متاحة للجيل الجديد من الفيتناميين المستعمرين [22].

امّا غرض السياسة التعليمية الثاني فقد عَثّل بإنتاج كمية محسوبة بعناية من الهندوصينيين الذين يقرأون الفرنسية ويكتبونها لكي يعملوا كنخبة علية موثوقة سياسياً، وعتنّة، ومتثاقفة، عَلا مراتب بيروقراطية المستعمرة الخاضعة ومشاريعها التجارية الكبيرة [24].

ولا حاجة هنا لان نتوقف طويلاً عند تعقيدات نظام التعليم الكولونيالي. ويكفي أغراضًنا الحالية أن نعلم أنَّ السمة الاساس لهذا النظام هي أنّه شكَّل هرماً واحداً، متصدِّعاً، كانت درجاته العليا جيعاً تقع في الشرق، حتى أواسط ثلاثينيات القرن العشرين. وعلى سبيل المثال، فقد كانت الثانويات الوحيدة الت ترعاها الدولة متوضّعة في هانوي وسايغون حتى ذلك الحين؛ وطوال الفترة الكولونيالية ما قبل الحرب، كانت الجامعة الوحيدة في الهند الصينية متوضعة في هانوي، "في الشارع ذاته"، إذا جاز القول، الذي يوجد فيه قصر الحاكم العام الحالة في المنطقة ضمّ متسلقو تلك الدرجات بين صفوفهم ناطقون بمختلف اللغات الحلية الكبرى في المنطقة الكولونياليين الفرنسيين الشباب). وكان لا بدّ لتقارب أولئك المتسلقين، القادمين من ماي ثو وباتامبانغ وفينتيان وفنه، على سبيل المثال، من أن يشير إلى أنهم "هندوصينيون"، بالطريقة ذاتها التي كان لا بدّ لتقارب الطلاب متعددي اللغات والإثنيات في باتافيا وباندونغ من أن يُقْرَأ على أنهم "إندونيسيون" المظلب متعددي اللغات والإثنيات في باتافيا وباندونغ من أن يُقْرَأ على أنهم "إندونيسيون" المقال. و مع أنَّ هذا الانتماء إلى الهند الصينية كان واقعياً عاماً، فإنّه كان منتَخَيَّلاً من قِبَل محموعة بالغة الصِّغر، ولدّة لم تكن طويلة. والسؤال هو لماذا تكشّف عن أنّه سريم الزوال، في حين بقي الانتماء إلى إندونيسيا وراح يتعمّق أكثر فأكثر؟.

غّة، أولاً، ذلك التغيّر الواضح في مسار التعليم الكولونيالي، خاصةً كما كان مطبّقاً في المند الصينية الشرقية، منذ حوالي العام 1917 فصاعداً. فالتصفية الفورية، أو الوشيكة، لنظام الامتحان الكونفوشي التقليدي دفعت أعداداً متزايدة باطراد من أفراد النخبة الفيتنامية لأن كِاولوا وضع أبنائهم في أفضل المدارس الفرنسية المتاحة، بغية ضمان مستقبلهم في صفوف البير وقر اطية. وقد أثار ما نجم عن ذلك من منافسة على الأمكنة في المدارس الجيدة القليلة المتاحة ردّة فعل قوية بين الكولون المعمّرين، الذين كانوا يعتبرون هذه المدارس من حقّهم وحكراً على الفرنسيين. وعُثّل حلّ النظام الكولونيالي لهذه المشكلة بخلق بنية تعليمية "فرانكو-فيتنامية" مستقلة وخاضعة كانت تشدِّه، في مراتبها الدنيا، ذلك التشديد الخاص، على تعليم اللغة الفيتنامية بالكتابة الـ كواك نغو (مع تعليم الفرنسية كلغة ثانية عبر وسيط الـ كواك نفو) 1271 ولقد ترتبت على هذا التغيير في السياسة نتيجتان اثنتان. فمن جهة أولى، عمل نَشُرُ الحكومة مئات ألاف الكتب المدرسية الخاصة بالراحل التعليمية الأولى بالـ كواك نفو على تسريع انتشار هذه الكتابة الى اخترعها أوروبيون، وساعد دون قصد على جعلها، بين 1920 و1945، الأداة الشعبية للتعبير عن التضامن الثقافي (والقومي) الفيتنامي [1<mark>28]</mark>. ذلك أنه على الرغم من أنّ عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة من السكّان الناطقين بالفيتنامية لم يكن يتجاوز 10% في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، إلا أنَّ هذا العدد لا سابق له في تاريخ هذا الشعب. وعلاوةً على ذلك، فإنّ هؤلاء المتعلمين، خلاف الفئة المتعلمة الكونفوشية، كانوا ملتزمين التراماً عميقاً بزيادة أعدادهم تلك الزيادة السريعة. (وبالمثل؛ فقد عززت السلطات في "كمبودج" و "لاوس"، وإنْ يكن على مستوى محدود أكثر، طبع النصوص المدرسية الابتدائية باللغات الحلية، بقواعد الإملاء والتهجئة التقليدية في البداية وبصورة أساسية، وبالكتابة اللاتينية لاحقاً وبصورة أضعف) [29]، ومن جهة أخرى، فقد عملت هذه السياسة على إقصاء الناطقين بالفيتنامية من غير الحليين المقيمين في المند الصينية الشرقية. ففي حالة الخمير الحمر في "الصين الكوشينية"، عملت، بالتضافر مع إرادة النظام الكولونيالي السماح لهؤلاء بإقامة مدارس ابتدائية "فرانكو-خيرية" مثل تلك اليّ شُجّع على إقامتها في الحميّة، على إعادة توجيه المطامح نحو أعلى نهر الميكونغ. وهكذا راح أولئك المراهقون من الخمير الحمر الذين كانوا يطمحون إلى تعليم أعلى في عاصمة إندونيسيا الإدارية (بل وفي فرنسا بالنسبة لقلَّةِ مختارة منهم) يقومون على نحو متزايد بالتفاتة عبر فنوم بنه بدلاً من سلوك الطريق السريع عبر سايغون.

ثانياً، جَرَتْ في عام 1935 ترقية مدرسة سيسوات في فنوم بنه إلى ثانوية متطورة تابعة للدولة، بمكانة مساوية لمكانة ثانويات الدولة الموجودة في سايغون وهانوي، ومنهاج دراسي مطابق لمنهاجها، ومع أنّ طلابها كانوا في البداية ينتمون بكثرة (على جَرْي تقاليد المدرسة) إلى عائلات التجار السينو—غيريين والموظفين الفيتناميين المقيمين، إلا أنّ نسبة الخمير الحليين راحت ترداد باطراد [104]. ولعلّه أن يكون من الإنصاف القول إنّ الكمّ الأكبر من الشباب الناطقين بالخميرية الذين تلقوا تعليماً في المدارس العليا الفرنسية قد فعلوا ذلك، بعد 1940، في العاصمة الكولونيالية الصرفة الن بناها المستعمرون لأل نوردوم.

أمّا ثالثاً، فثمّة حقيقة أنّه لم يكن هنالك تناظر وتشاكل بين رحلات الحج التعليمية والإدارية في الهند الصينية. فالفرنسيون لم يجدوا أيّ حرج في التعبير عن الرأي الذي مفاده أنّه إذا ما كان الفيتناميين ليسوا علّ ثقة ويتصفون بالجشع، إلا أنهم مع ذلك وبلا شكّ أشدّ حيوية وذكاءً من الخمير واللاوسيين "الشبيهين بالأطفال". وعلى هذا الأساس، راحوا يستخدمون الموظفين الفيتناميين ذلك الاستخدام الكثيف في الهند الصينية الغربية [31]. وقد شكّل الله 17600 فيتنامي المقيمين في "كمبودج" عام 1937 - والذين يمثلون أقل من 1% من بين 19 مليون ناطق بالفيتنامية في المستعمرة، وحوالي 6% من سكان الحمية - جاعةً ناجحة نسبياً، عا جعل للهند الصينية معنى ملموساً بالنسبة لم، كما كان الحال بالنسبة للـ 50000 الذين أرسلوا إلى "لاوس" قبل العام 1945. ولقد كان يمقدور الموظفين من بينهم على نحو خاص، أرسلوا إلى "لاوس" قبل العام 1945. ولقد كان يمقدور الموظفين من بينهم على نحو خاص، الذين كان يمكن أن يُرْسَلوا من مكان إلى آخر في أقسام المستعمرة الخمسة جميعها، أن يتخيّلوا المند الصينية بوصفها الخشبة الواسعة الي يواصلون الأداء عليها.

ومثل هذا التخيّل كان أقلّ سهولة بالنسبة للموظفين اللاوسيين والخمير، على الرغم من أنه لم يكن هناك أيّ حظر رسميّ أو قانوني بجول دون حصولهم على فرص للعمل في أيّ مكان من الهند الصينية. فحتى الشباب الأشدّ طموحاً القادمين من جاعة الخمير الحمر شرقي الهند الصينية، البالغ تعدادها في العام 1937 حوالي 326000 ولعلّها عُثّل 10% من مجموع السكان الناطقين بالخميرية، كانوا بجدون عملياً أنَّ أفاق العمل المتاحة أمامهم خارج "كمبودج" هي أفاق جدّ محدودة. ولعلّ الخمير واللاوسيين كانوا بجلسون إلى جانب الفيتناميين في مدارس اللغة الفرنسية الإعدادية والثانوية في سايغون وهانوي، لكنه لم يكن من الحتمل أن يكملوا ذلك ويشاطروهم الوظائف الإدارية هناك. ومثل الشباب القادمين من كوتونو وأبيدجان في داكار، كان مُقدَّراً لهم أن يعودوا، بالتدريج، إلى "الأوطان" الي رسمتها الكولونيالية لهم. وبعبارة أخرى، فإنه إذا ما كانت رحلات حجّهم التعليمية موجَّهة نحو هانوي، فإنّ رحلاتهم الإدارية كانت تنتهي في فنوم بنه وفينتيان.

ومن هذه التناقضات برز أولئك الطلبة الذين يتكلمون الخميرية والذين سيُذكّرون لاحقاً بأنهم أوائل القوميين الكمبوديين. والرجل الذي يمكن أن يُعَدّ "أبو" القومية الخميرية، سون نغوك ثانه، كان، كما يشير اهمه الفيتنامي، من الخمير الحمر الذين تعلّموا في سايغون وتسلّموا لفترة وظيفة قانونية صغيرة في تلك المدينة. لكنه في ثلاثينيات القرن العشرين ترك باريس دلتا الميكونغ ساعياً وراء مستقبل واعد أكثر في بلوا تلك الدلتا. أما الأمير سيسوات يوتيفونغ فقد التحق بالمدرسة الإعدادية في سايغون قبل أن يغادر إلى فرنسا من أجل المزيد من الدراسة. وحين عاد إلى فنوم بنه بعد خسة عشر عاماً، وبعد الحرب العالمية الثانية، أسهم في تأسيس الحرب العكم الديقراطي (الخميري) وتسلّم منصب رئيس الوزراء 1940 - 1947. وكان وزير دفاعه، سون فوينساي، قد قام بالرحلات ذاتها. أمّا هوي كانثول، رئيس الوزراء الديمقراطي 1951 1952-، فينساري، قد قام بالرحلات ذاتها. أمّا هوي كانثول، رئيس الوزراء الديمقراطي الميئة فقد تخرّج في مدرسة المعلمين في هانوي عام 1931، ثم عاد إلى فنوم بنه، حيث انضم إلى الميئة

التعليمية في ثانوية سيسوات [32]. ولعلّ المثال الأبرز على كلّ هذا أن يكون إيو كويوس، الأول في سلسلة مؤسفة من الزعماء السياسيين الخمير الذين قضوا اغتيالاً [33]. فقد وُلِد في مقاطعة باتاميانغ عام 1905 -حين كانت لاتزال محكومةً من قبل بانكوك- والتحق عدرسة علية من "مدارس باغودا الْجُدَّدة" قبل أن يدخل مدرسة ابتدائية "هندوصينية" في مدينة باتامبانغ. وفي العام 1921 ذهب إلى كليّة سيسوات في عاصمة الحمية، ثم إلى كلية التجارة في هانوي، الت تخرّج منها عام 1927 وكان الأول على صفّه الذي يقرأ بالفرنسية. ولما كان يأمل أن يدرس الكيمياء في بوردو، فقد خضع لاختبار المنحة ونحح فيه. غير أنّ الدولة الكولونيالية سدّت عليه الطريق. وعاد إلى باتامبانغ محلَّته، حيث أدار صيدلية، وظلَّ كذلك حتى بعد أن استعادت بانكوك المقاطعة عام 1941. وبعد انهيار اليابان في أب 1945، عاود الظهور في "كمبودج" كبرلماني دعقراطي. ومن اللافت أنَّه كان على طريقته حفيداً مباشراً لفقهاء اللغة البارزين في أوروبا الباكرة، حيث قام بتصميم لوحة مفاتيح آلة كاتبة لكتابة الخميرية ونشر بحلَّدين ضخمين بال فياسا خمر [اللغة الخميية]، أو La Langue Cambodgienne (Un Essai détude raisonne)، كما تشير صفحة العنوان المضلَّلة في طبعة العام 1967 [34]. لكنّ هذا النص ظهر أول مرّة – الجلد الأول منه فقط - في العام 1947، حين كان مؤلِّفه رئيساً للجمعية التأسيسية في فنوم بنه، وليس في العام 1937، حين كان كيا حياة بلادة وخول في باتامبانغ، وحين لم تكن ثانوية سيسوات قد خرّجت بعد أيّ طلاب يتكلمون الخميرية، وحين كانت المند الصينية لا تزال واقعاً وإن يكن عابراً سريع الزوال. أمّا في العام 1947، فلم يعد الناطقون بالخميرية -على الأقل أولئك الذين من "كمبودج" - يلتحقون بصفوف في سايفون أو هانوي. حيث ظهر في المشهد جيل جديد كانت "المند الصينية" بالنسبة له تاريخاً وباتت "فيتنام" بلداً قائماً فعلماً وأجنبياً.

صحيح أنَّ الغزوات والاحتلالات الوحشية الت أمر بها ملوك سلالة نغوين في هيو خلال القرن التاسع عشر قد خلفت ذكريات شعبية مريرة بين الخمير، عن فيهم أولئك الذين في "الصين الكوشينية" الت قُدّر لها أن تغدو جزءاً من فيتنام. غير أنَّ مرارة عاثلة كانت موجودة في الإندير المولندية: السوندانيين ضد الجاويين؛ الباتاك ضد المينانكابو؛ الساساك ضد الباليين؛ التوراجا ضد البوغينيين؛ الجاويين ضد الأمبونيين، وهلمجرا. وما حاولتُ أن تقوم به تلك السياسة التي تُدعى "السياسة الفيدرالية" التي اتبعها بين 1945 و 1948 الحاكم العام، الملازم المياسة التي تُدعى "السياسة الفيدرالية" التي اتبعها بين طلّت على قيد الحياة، على الرغم من الدقة استغلال مثل هذه المرارة [35]. لكن "إندونيسيا" ظلّت على قيد الحياة، على الرغم من أقيض التمردات الإثنية التي لم يكذ يخلوُ منها أي جزء من أجزاء إندونيسيا المستقلة بين 1950 ويعود ذلك في جزء منه إلى أن باتافيا ظلّت القمة التعليمية حتى النهاية، غير أنّه يعود أيضًا إلى أنّ السياسة الإدارية الكولونيالية لم تُعِدْ السوندانيين المتعلمين إلى "بلاد السوندا"، أو أيضًا إلى أنّ السياسة الإدارية الكولونيالية لم تُعِدْ السوندانيين المتعلمين إلى "بلاد السوندا"، أو الباتاك إلى أرضهم الأصلية في تلال سومطرة الشمالية. وفي نهاية الحقبة الكولونيالية، كانت جميع الجماعات الإثنية اللغوية قد اعتادت على فكرة أنَّ هنالك حَشبةً أرخبيلية لهم أدوارهم التجميع الجماعات الإثنية اللغوية قد اعتادت على فكرة أنَّ هنالك حَشبةً أرخبيلية لم أدوارهم التجميع الجماعات الإثنية اللغوية قد اعتادت على فكرة أنَّ هنالك حَشبةً أرخبيلية لهم أدوارهم التجاهية المتورة الشورة المتحرة التحرة المتحرة المتحر

يلعبونها عليها. ولذلك، فإنّ واحداً وحسب من عرّدات الأعوام 1950 - 1964 كانت له طموحاته الانفصالية؛ أمّا الباقي حيعاً فكانت تتنافس ضمن نظام سياسي إندونيسي واحدا 1361.

و لا يسعنا، علاوةً على ذلك، أن نتجاهل الحادث اللافت الذي مفاده أنَّ "لغةً إندونيسية" قد برزت في عشرينيات القرن العشرين ذلك البروز الواعي. وكيفية حدوث ذلك لها دلالتها البعيدة اليّ تبدو جديرةً بأن نحيد عن الموضوع قليلاً من أجلها. فقد سبق أن أشرنا إلى واقعة أنَّ المولنديين لم يحكموا الإنديز إلاَّ إلى حدٌّ معين ومتأخر. وكيف بمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك، إذا ما كان المولنديون قد بدأوا فتوحاتهم الحلية في أوائل القرن السابع عشر، في حين لم يِّر تعليم اللغة المولندية للـ inlanders على نحو جدي إلا في أوائل القرن العشرين؟ وما جرى بدلاً من ذلك هو تطور لغة دولة غريبة عبر سيرورة بطيئة، وغير مخطَّط لما إلى حدٍّ بعيد، انطلاقاً من لغة قديمة مشركة بين الجزر 1371. وهذه اللغة الت دُعيَت dienstmaleisch (رعا "لغة الملايو الخدمية" أو "لغة الملايو الإدارية")، تنتمي إلى النمط الذي تنتمي إليه "العثمانية" وتلك "الألمانية الماليّة" الن انبثقت من الثكنات متعددة اللفات في إمبراطورية هابسبورغ <mark>[38]</mark>. وقد كانت لما مكانتها الراسخة بين الموظفين في أوائل القرن التاسع عشر. وحين غدا لرأسمالية الطباعة ذلك الحضور الكبير بعد منتصف القرن، خرجت هذه اللغة إلى السوق والإعلام. ولأنَّ مستُخْدِميها الأوائل كانوا من الصحفيين والناشرين الصينيين والأوراسيين بصورة أساسية، فإنَّ الـ inlanders لم يلتقطوها إلا مع نهاية القرن، وسرعان ما نُسِيَ الفرع الـ dienst من شجرة عائلتها ليحلّ مكانه سلف مزعوم من جزر الرياو (اليّ لعلّه من حسن الحظ أن سنفافورة البريطانية قد غدت أهمها منذ العام 1819). وفي العام 1928، وبعد أن شكَّلها جيلان من الكتّاب والقرّاء المدينيين، كانت قد غدت جاهزةً لأن تتبنّاها إندونيسيا الفتاة بوصفها اللغة. القومية. فلم تنظر إلى الخلف قطّ منذ ذلك الحين.

بيد أنّ الحالة الإندونيسية، المهمة بالطبع، لا ينبغي أن تضللنا في النهاية وتسوقنا إلى التفكير بانً المولندية ما كان مقدورها أن تكون اللغة القومية ولو كانت هولندا قوة أكبر 1391، ووصلتْ في العام 1850 بدلاً من 1600. فلا شيء يوحي بأنَّ القومية الغانية هي أقلّ واقعية من الإندونيسية نجرد أنّ لغتها القومية هي الإنغليزية وليس الأشاني. ومن الخطأ أيضًا أن تتعامل مع اللغات بالطريقة الي يتعامل بها معها بعض الإيديولوجيين القوميين؛ بوصفها رموزاً للانتماء القومي، مثل الرايات، والازياء، والرقصات الشعبية، وبقية هذه الأمور. والأهم بكثير بشأن اللغة هو قدرتها على توليد حاعات متخيّلة، وعلى بناء ضروب معينة من التضامن في حقيقة الأمر. فاللغات الإمبراطورية هي، في النهاية، لغات محلية، وهي بذلك لغات محلية عددة بين لغات كثيرة. فإذا ما كانت موزمبيق الراديكالية تتكلم البرتغالية، فإن دلالة ذلك هي كلّ من تنزانيا وزامبيا). ومن هذا المنظور، فإنّ استخدام البرتغالية في موزمبيق (أو الإنغليزية في المن البرتغالية في البرازيل. اللغة ليست في المند) لا يختلف أساساً عن استخدام الإنغليزية في أستراليا أو البرتغالية في البرازيل. اللغة ليست

أداة للإقصاء: ومن حيث البدأ، يمكن لأي كان أن يتعلّم أيّة لغة كانت. وعلى العكس، فإنّ اللغة في الأساس هي أداة إدناء أو جَعْء لا يحدها سوى قَدَر بابل: ما من أحد يعيش ما يكفي لتعلّم اللغات جميعاً. واللغة الطباعية هي ما يبتدع القومية، وليس لغة محدّدة بحدّ ذاتها 140 وإشارة الاستفهام الوحيدة التي تقف إزاء لغات مثل البرتغالية في موزامبيق والإنغليزية في المند هي ما إذا كان النظامان الإداري والتعليمي، وخاصةً الأخير، يمكنهما أن يولّدا انتشاراً كافياً سياسياً للثنائية اللغوية. ومنذ ثلاثين عاماً مضت، لم يكن هناك تقريباً أي إندونيسي يتكلم الباهاسا إندونيسيا [الإندونيسية، اللغة القومية] بوصفها لغته أو لغتها الأم؛ حيث كانت لكل امرئ لغته "الإثنية" الخاصة وكان لبعضهم، خاصة أولئك الذين كانوا في الحركة القومية، فالمهما لغته أو لغتها كان هناك ملايين من الإندونيسيين للشباب، من عشرات الخلفيات الإثنية اللغوية، يتحدثون الإندونيسية بوصفها لغتهم الأم.

وليس من الواضح بعد ما إذا كان جيل من الموزامبيقيين الذين لا يتحدثون سوى البرتغالية الموزامبيقية سوف يتولّد بعد ثلاثين عاماً من الأن. غير أنَّ ظهور مثل هذا الجيل ليس، في نهاية القرن العشرين، ذلك الشرط اللازم للتضامن القومي الموزامبيقي، ففي المقام الأول، نحد أن ضروب التقدم في تكنولوجيا الاتصال، خاصة الإذاعة والتلفزيون، توفّر للطباعة حلفاء لم يكونوا متاحين منذ قرن مضى، حيث يمكن للبث متعدد اللغات أن يستحضر الجماعة المتخيّلة في أذهان الأميين والسكان الذين يتكلمون لغات أمِّ مختلفة. (وهنا غَة ضروب من التشابه مع الستحضار العالم المسيحي القروسطي عبر غثيلات بصرية وفئات متعلمة ثنائية اللغة). وفي المقام الثاني، فإن قوميات القرن العشرين بات لها، كما أرى، طابع قياسي غطي. فهي تستطيع أن تستند، وهي تستند، على أكثر من قرن ونصف القرن من التجربة الإنسانية وعلى ثلاثة غاذج سابقة من القومية. وبذلك يكون القادة القوميون في موقع يمكنهم من أن يستخدموا على غو واع الأنظمة التعليمية المدنية والعسكرية المصاغة على غرار أنظمة القومية الرسمية؛ والاحتفالات الثقافية المصاغة على غرار القوميات الشعبية في أوروبا القرن التاسع عشر؛ وفكرة جهورية المواطنين الي جاءت بها البلدان الأميركية إلى العالم. وقبل كل ذلك، فإن فكرة "الأمة" هي الأن معششة بقوة وثبات في جميع اللغات الطباعية؛ والانتماء القومي لا ينفصل عن الوعي السياسي.

وفي عالم تشكّل فيه الدولة القومية تلك القاعدة الطاغية فإنّ ما يعنيه كلُّ هذا هو أنّ من المكن الأن تحيّل الأمم دون اشتراك لغوي؛ ليس بروح الـ nosotros los Americanos إنحن الأميركيين] الخلية، بل انطلاقاً من إدراك عام لما أظهر التاريخ الحديث أنه ممكن [41]. ويبدو من المناسب، في هذا السياق، أن نختم هذا الفصل بالعودة إلى أوروبا والنظر بإنجاز إلى تلك الأمة الت غالباً ما استُخْدِم تعددها اللغوى كهراوة لِضَرْب أنصار النظريات القومية القائمة على اللغة.

ففي العام 1891، وفي خضم الأحتفالات بذكرى مرور 600 عام على الاتحاد الكونفدرالي بين شفيتس وأوبفالدن ونيدفالدن، "قررت" الدولة السويسرية أن يكون العام 1291 تاريخ تأسيس سويسرا 1421. ومثل هذا القرار، الذي انتظر 600 سنة لكي يصدر، له جوانبه المسليّة، ويشير أصلاً إلى أن الحداثة وليس القِدَم هي التي تميّز القومية السويسرية. بل إنَّ الامر يصل بكريستوفر هيوز، في كتابه عن سويسرا، حدّ رؤية أنَّ احتفالات العام 1891 تَسِمُ ولادة هذه القومية، فيقول إنّه "في النصف الأول من القرن التاسع عشر . . كانت القومية تتكئ بخفّة على عاتق الطبقات الوسطى المثقفة: مدام دو ستايل [1766 - 1817]، وفوسيلي [1741 - 1825]، وأيليكا كوفمان [1741 - 1807]، وسيسموندي [1733 - 1842]، وبنيامين كونستان [1767 ألهيتك كوفمان [1761 - 1842]، وبنيامين كونستان [1767 ألهيت المشتمد من حقيقة أن النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد، في جميع أرجاء أوروبا المحيطة بسويسرا، تبرعم الحركات القومية الحلية التي لعبت فيها "الطبقات الوسطى المثقفة" المحيطة بسويسرا، تبرعم الحركات القومية الحلية التي لعبت فيها "الطبقات الوسطى المثقفة" المتأخرة بهذا القَدْر، وما العواقب التي تركها التأخر على شكلها النهائي (خاصةً، ما تتميز به متأخرة بهذا القَدْر، وما العواقب التي تركها التأخر على شكلها النهائي (خاصةً، ما تتميز به من تعدد معاصر في "لغاتها القومية")؟

يكمن جزء من الجواب في شباب الدولة السويسرية، التي يصعب، كما يلاحظ هيوز بجفاف، أن نتعقبها إلى أبعد من 1813 – 1815 "دون شيء من المراوغة" 1441. وهو يذكّرنا بأنّ أول إدخال لمفهوم المواطّنَة، وإدخال حق التصويت المباشر (للذكور)، ووضع حدَّ للمكوس والمناطق الجمركية "الداخلية" كانت من إنحازات الجمهورية الملفتيّة التي فرض وجودها الاحتلال الفرنسي عام 1815. ولم تشتمل الدولة على أعداد مهمة من الناطقين بالإيطالية إلا في العام 1803، مع ضمّ تتشينو. ولم تكسب مناطق فالي وجنيف ونيوشاتل الماهولة بناطقين بالفرنسية من الحلف المقدّس المناهض لفرنسا إلا في العام 1815، مقابل الحياد ودستور عافظ إلى حدّ بعيد 1451. والحال، أنَّ سويسرا متعددة اللغات اليوم هي نتاج أوائل القرن التاسع عشر 1461.

أما العامل الثاني فكان تأخّر البلاد (الذي عَمِلَ، بالتضافر مع تضاريسها الوعرة، وافتقارها إلى الموارد القابلة للاستغلال، على الحيلولة دون ضمّها إلى جيرانها الأشدّ قوة منها). وقد يكون من الصعب اليوم أن نتذكّر أن سويسرا كانت بلداً فقيراً حتى الحرب العالمية الثانية، مع مستوى معيشة لا يبلغ سوى نصف مستوى المعيشة في إنغلترا، كما كانت بلداً زراعياً على نحو طاغ. وفي العام 1850، لم يكن سوى ما يقارب 6% من السكان يعيشون في مناطق تتمتّع بالحد الأدنى من المدينية، ولم يرتفع هذا الرقم في العام 1920 إلا إلى 27,6% الم الكان عائدة عالمية السكان طوال القرن التاسع عشر من الفلاحين المستقرين دون حراك ما عدا ذلك التصدير القديم للشباب القادر على الاحتمال كمرتزقة وحرس بابوي). و لم يكن تأخّر البلاد اقتصادياً وحسب، بل كان سياسياً وثقافياً أيضًا. ذلك أن "سويسرا القديمة"، الي لم تتغير مساحتها بين الكثيرة، كانت محكومة من قِبَل حلف مهلهل من الأوليغارشيات الأرستقر اطية الكانتونية. أمّا الكثيرة، كانت محكومة من قِبَل حلف مهلهل من الأوليغارشيات الأرستقر اطية الكانتونية. أمّا الكثيرة، كانت محكومة من قِبَل حلف مهلهل من الأوليغارشيات الأرستقر اطية الكانتونية. أمّا "سرّ استمرار الكونفدرالية زمناً طويلاً فكان طبيعتها المردوجة. ففي وجه الأعداء الخارجيين، "سرّ استمرار الكونفدرالية زمناً طويلاً فكان طبيعتها المردوجة. ففي وجه الأعداء الخارجيين،

كانت تبدي ذلك القدر الكافي من وحدة شعوبها. وفي وجه التمرد الداخلي، كانت تبدي ذلك القدر الكافي من وحدة أوليغارشياتها. فإذا ما عَرّد الفلاحون، كما كانوا يفعلون مرّات ثلاث أو ما يقاربها في كل قرن، وُضِعَت الخلافات جانباً وقدّمت حكومات الكانتونات الأخرى يد العون، الت غالباً – وليس دائماً – ما كانت تذهب لصالح الحكّام" [48]. وفيما عدا غياب المؤسسات الملكية، فإنَّ اللوحة لا تختلف كثيرًا عن تلك التي للإمارات الصغيرة التي لا حصر لها داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي عَثَل ليشتنشتاين، على حدود سويسرا الشرقية، آخر آثارها الغريبة الماقية،

وما له دلالته أنه في أواخر العام 1848، بعد ما يقارب جيلين على قيام الدولة السويسرية، كانت الانقسامات الدينية القديمة أشد بروراً على الصعيد السياسي من الانقسامات اللغوية. ومن اللافت ما فيه الكفاية أنّ البروتستانتية كانت غير قانونية في المناطق اليّ يُشار إليها على أنها كاثوليكية، وأن الكاثوليكية كانت غير شرعية في المناطق اليّ تُعْتَبَر بروتستانتية؛ وهذه القوانين كانت تُطبَّق بحرم. (كانت اللغة مسألة خيار واقتناع شخصيين). ولم تحتل اللغة مكان الدين، ويغدو البلد عرّقاً إلى مناطق لغوية محدّدة إلا بعد 1848، في أعقاب الانقلابات الثورية في أرجاء أوروبا جميعاً وانتشار الحركات القومية نصيرة اللغات الحلية ذلك الانتشار العام. (غدا الدين الأن مسألة خيار شخصي)

وأخيراً، فإنّ استمرار الكثير من اللهجات الألمانية التي لا تفهم واحدتها الأخرى في بعض الأحيان -في مثل هذا البلد الصغير- إنّما يشير إلى تأخر وصول رأ الله الطباعة والتعليم الخديث الموجّد إلى معظم المجتمع السويسري الفلاحي. هكذا كانت الـ Hochsprache (الألمانية الطباعية)، حتى وقت متأخّر جداً، تمتع بكانة لغة الدولة التي تتمتع بها الـ dienstmaleisch الطباعية)، حتى وقت متأخّر جداً، تمتع بكانة لغة الدولة التي تتمتع بها الـ dienstmaleisch. بل إنّ هيوز يلاحظ أنّه يُتَوَقَّع من الموظفين "الكبار" اليوم أن يكونوا على معرفة فعلية بلغتين فيدراليتين، الأمر الذي ينطوي على أنَّ هذه المقدرة ليست متوقّعة من مرؤوسيهم. وهذا ما يقوله على نحو غير مباشر التوجيه الفيدرالي الصادر عام 1950 والذي يلح على أن يكون "السويسريون الألمان المتعلّمون متمكنين من الفرنسية، شانهم شأن والني يلح على أن يكون "السويسريون الألمان المتعلّمون متمكنين من الفرنسية، شانهم من السويسريين الطليان المتعلمين "المقلقة سياسية ثنائية اللغة جاثة فوق تشكيلة من السكان أحادية وضع موزامبيق؛ حيث نحد طبقة سياسية ثنائية اللغة جاثة فوق تشكيلة من السكان أحادية اللغة، إنما مع اختلاف واحد بين الوضعين، هو أنّ "اللغة الثانية" هي لغة جار قوي وليست لغة حاكم كولونيالي سابة.

ومع ذلك، وفي ضوء الحقيقة التي مفادها أنّه في العام 1910 كانت اللغة الألمانية هي اللغة الأم لحوالي 73% من السكان، والفرنسية لـ 22%، والإيطالية لـ 4%، والرومانشية لـ 1% (ونادراً ما تغيّرت هذه النسب على مرّ العقود)، فإنّه قد يكون من المدهش أنَّ الجَرْمَنة لم بحر معاولتها في النصف الثاني القرن التاسع عشر، وهي حقبة القوميات الرسمية. ولا شك أنَّ ضروباً من الحماس القوي للألمانية كانت موجودة حتى العام 1914. وبين ألمانيا وسويسرا الألمانية

كانت الحدود مفتوحةً على مداها. وكانت التجارة والاستثمارات، فضلاً عن الأرستقراطيين والمهنيين، تتنقّل جيئةً وذهاباً بحرية تامة. لكن سويسرا كانت متاخمةً أيضًا لقوتين أوروبيتين كبريين أخريين، هما فرنسا وإيطاليا، وكانت المخاطر السياسية التي يمكن أن تترتب على الجَرْمَنة خاطر واضحة. ولذلك كانت المساواة القانونية بين الألمانية، والفرنسية، والإيطالية الوجه الأخر من العملة التي يشكّل حياد سويسرا وجهها الأول 1521.

وتشير الدلائل السابقة جميعاً إلى أنّ القومية السويسرية تُفْهَم على أفضل وجه كجزء من "الموجة الأخيرة". فإذا ما كان هيوز عقاً في محديده تاريخ ولادتها بالعام 1891، فإنّها لا تكبر القومية البورمية أو الإندونيسية باكثر من عقد. وبعبارة أخرى، لقد نشأت في تلك المرحلة من التاريخ العالمي الني غدت فيها الامة معياراً دولياً، وكان يمكن فيها "صياغة" الانتماء إلى أمّة بطريقة أعقد بكثير عا جرى حتى ذلك الحين. وإذا ما كانت بنية سويسرا الحافظة سياسياً، والمتأخرة اقتصادياً واجتماعياً، قد "أخّرت" نشوء القومية المتلاكة أو موسساتها السياسية ماقبل الحديثة لم تكن ملكية سلالية أو ملكية أحادية قد ساعد على الحيلولة من دون إفراطات القومية الرحية (قارن ذلك مع مثال سيام الذي تناولناه في الفصل السادس). وأخيراً، كما في القرن العشرين قد جعل من المكن ومن العمليّ "عَثيل" الجماعة المتخيّلة بطرائق لم تتطلّب القرن العشرين قد جعل من المكن ومن العمليّ "عَثيل" الجماعة المتخيّلة بطرائق لم تتطلّب الأحادية اللغوية.

وفي الختام، قد يكون حَريّاً بنا أن نعيد صياغة الحِجَاج العام الذي يشتمل عليه هذا الفصل. وهو أنَّ قوميات "الموجة الأخيرة"، ومعظمها في مناطق آسيا وإفريقية الكولونيالية، كانت في الأصل رداً على الإمبريالية العالمية جديدة الأسلوب الن جعلتها منجزات الرأعالية الصناعية مُكنةً. وكما يقول ماركس بطريقته الفريدة" إنَّ حاجة البرجوازية إلى سوق لمنتجاتها متوسِّعة باطّراد تطارد هذه البرجوازية في جميع أرجاء الأرض" [<u>54]</u>. لكن الرأ التمالية عملت أيضًا، خاصةً بنشرها الطباعة، على خلق قوميات في أوروبا هي قوميات شعبية نصيرة للّغات الحلية، قوّضت بدرجات ختلفة المبدأ السلالي القديم، وحثّت كل سلالة حاكمة على تُحنيس ذاتها. وبدورها، فقد أدّت القومية الرحمية -الن هي مزيج من المبدأ القومي الجديد والمبدأ السلالي القديم (الإمبراطورية البريطانية) -إلى ما يكن للمرء أن يدعوه، بصورة ملائمة، باسم "الرَّوْسَنة" في المستعمرات خارج أوروبا. ولقد تشابك هذا النروع الإيديولوجي مع المقتضيات العملية ذلك التشابك الحَّكَم. فقد كانت إمبراطوريات أواخر القرن التاسع عشر أكبر بكثير وأبعد من أن حُكُم من قبل حفنةٍ من المواطنين. وعلاوةً على ذلك، فإنَّ الدولة كانت تناهر الرأسالية وتعمل على تكثير وظائفها، في كلِّ من المرّوبولات والمستعمرات. وهذه القوى مجتمعةٌ هي الت ولَّدت الأنظمة المدرسية "المَروْسَنَة" والي قُصِد منها أن تنتج الكوادر الخاضعة المطلوبة لكلُّ من الدولة والبير وقراطيات المتكاملة في كلُّ واحد. وهذه الأنظمة المرسية، المركزية والموحَّدة، خلقت رحلات حجّ جديدة عَاماً كانت لها في العادة قبلاتها في عديدٍ من العواصم الكولونيالية، ذلك أنَّ الأمم المخبوءة في مكب الإمبراطوريات لم يعد يُسمَح لها عزيدٍ من الصعود الداخلي. وعادةً ما كان لرحلات الحج التعليمية هذه ما يوازيها، أو عائلها في الحال الإداري. ولقد وقر التشابك بين رحلات الحجّ التعليمية والإدارية الحدّدة الأساس الإقليمي لـ "جاعات متخيّلة" جديدة أمكن فيها للمحليين أن يروا إلى أنفسهم على أنهم "قوميون". وكان توسّع الدولة الكولونيالية الت دعت "انحليين"، إذا جاز القول، إلى المدارس والوظائف، وتوسّع الرأسالية الكولونيالية، الت أقصتهم، إذا جاز القول، عن محالس الإدارة، قد جعلا الإنتلجنسيات المنعزلة، ثنائية اللغة، غير المتصلة بالبرجوازيات الحلية القوية هي الناطق الأساس الأول باسم القومية الكولونيالية، وذلك إلى درجة غير مسبوقة.

غير أنَّ هؤلاء، بوصفهم إنتلجنسيات ثنانية اللغة، وقبل كلَّ شيء بوصفهم إنتلجنسيات في أوائل القرن العشرين، كان لهم منفذ، داخل الصفّ وخارجه، على غاذج الامة، والانتماء القومي، والقومية، التي تم استخلاصهما من التجارب الفوضوية المضطربة التي شهدها ما يزيد على قرن من التاريخ الأميركي والأوروبي. وقد عملت هذه النماذج، بدورها، على إضفاء شكل على آلاف الأحلام الجديدة، ولقد نُسِخَت دروس القومية الكريولية، واللغوية الحلية، والرسية بتراكيب شتى، وتم تحويرها، وتحسينها. وأخيراً، ومع تغيير الراسالية وسائل الاتصال المادي والفكري بتلك السرعة الزائدة، فإنَّ الإنتلجنسيات وجدت طرائق لتجاوز الطباعة في توليد الجماعة المتخيلة ونشرها، ليس بين الجماهير الأمية وحسب، بل حتى بين الجماهير اللتعلمة الن تقرأ لغات مختلفة.

## 8) الوطنية والعنصرية

حاولت في الفصول السابقة أن أحدد معالم السيرورات التي صارت من خلالها الأمة علّ تحيّل، ثمَّ علَّ اقتداء، وتحوير، وتحويل، ما إن ثمّ تحيّلها. وكان من الضروري أن يُعنى مثل هذا التحليل في المقام الأول بالتغير الاجتماعي وأشكال الوعي المختلفة. غير أن من المشكوك فيه ما إذا كان التغير الاجتماعي أو الوعي المتحوّل، بحد ذاتهما، يكفيان لتفسير الرابط الذي يشعر به البشر أن مخترعات خيالاتهم، أو ما يدفع هؤلاء البشر لأن يكونوا مستعدين للموت من أجل مخترعاتهم، إذا ما أعدنا إحياء السؤال الذي سبق أن طرحناه في بداية هذا الكتاب.

وفي عصر شاغ أن يلح فيه المثقفون التقدميون، الكوسوبوليتانيون (خاصة في أوروبا؟) على الطابع شبه المرضي الذي تتسم به القومية، وعلى جنورها الضاربة في تربة الخوف من الأخر وكراهيته، وضروب ألفتها مع العنصرية [11]، من المفيد أن نذكّر أنفسنا بان الأمم تُلهم الحب، الذي غالباً ما يكون حبّاً عميقاً منطوياً على التضحية بالنفس. أمّا مُنْتَجَات القومية التقافية –من شعر، ونثر قصصي، وموسيقا، وفنون تشكيلية – فَتُطْهر هذا الحب بوضوح شديد في آلاف الأشكال والأساليب. ومن جهة أخرى، كم من النادر حقاً أن نجد منتجات قومية عائلة تعبّر عن الخوف والنفور [12]. وحتى في حالة الشعوب المستعمّرة، التي لديها مبرّر فعلي لأن تشعر بالكراهية في الخروب من التعبير عن الشعور القومي. وها هنا، على سبيل المثال، عنصر الكراهية في هذه الضروب من التعبير عن الشعور القومي. وها هنا، على سبيل المثال،

المقاطع الأولى والأخيرة من قصيدة Ultimo Adiós [الوداع الأخير] الشهيرة الت كتبها ريزال وهو ينتظر حكم الإعدام على أيدى الإمبريالية الإسبانية:

> 1 وداعاً، يا أرضى العريزة، يا محبوبة الشمس، يا لؤلؤة بحار الشرق، أيتها المردوس المفقود! سوف أُهبك هذه الحياة، بكلُّ سرور؛ ولو كانت أجمل، وأَيْنُع، وأَكْمَل، لكنتُ تخليتُ عنها أيضًا، من أجل خيرك...

12 وما الذي يعنيه إذاً أن تَنْسن، ما دمتُ قادراً على أن أستكشف كلّ ملجاً عزيز من ملاجئك؟ كوني نابضةً ونقية، مثل نغمة؛ ثمَّ كوني عبيراً، نوراً، نفمةً؛ كوني أغنية أو علامة، من جديد؛

وعبر ذلك كلَّه، كرري لحن إياني.

13 أيتها الأرض الن أقدّسها، أَصْغي إلى وداعي الأخير! أيتها الفيليبين، يا حيّ، يا ألمي الاقسى من كلِّ الألام، إنى أغادركم جميعاً، جميع من أحبّ أشدّ الحب، لأمضى حيث لا عبيد ولا طغاة،

حيث الإعان لا يقتل، والله فوق الجميع. 14 وداعاً يا كلّ من تعرفهم روحي-

أه يا أهلى وأصدقائي في وطن المسكين؛ فلتشكر وا أنَّ أيام قمعي بلغت نهايتها؛ وداعاً، أيها الغريب الجميل، يا مسرّتي وصديقي؛ وداعاً، يا أعرائي. إنَّ الموت راحة [3].

لاحظوا أنَّ الأمر لا يقتصر على عدم ذكر ريزال جنسية "الطغاة"، بل يتعدَّاه إلى أنَّه يعبّر عن وطنبّته الجمومة ذلك التعبير الرائع بـ "لغتهم" [4].

عكن أن نفكٌ بعض الأسرار الن تنطوي عليها طبيعة هذا الحبّ السياسي من خلال الطرائق الي تصف بها اللغات موضوعها: إمّا باستخدام مفردات القرابة (الوطن الأم، mother land، Vater land، patria) أو باستخدام المفردات المتعلقة بالوطن (heimat)، أو tanah air [الأرض والماء، هي العبارة الن تدلُّ على أرخبيل الإندونيسيين الأصلي]). وهذان النوعان من المفردات يشيران كلاهما إلى شيء يرتبط به المرء ذلك الارتباط الطبيعي. وكما سبق أن رأينا، فإنَّ عُهُ شيئاً لم يَجْر اختياره في كلّ ما هو "طبيعي". وعلى هذا النحو، يكون الانتماء إل أمّة شيئاً ينطوي عليه لون الجلد، ونوع الجنس، والنَّسَب، وتاريخ الميلاد؛ أي كلَّ تلك الأشياء التي لا غلك شيئاً إزاءها. ويحسّ المرء في هذه "الروابط الطبيعية" ما يمكن أن يدعوه "جمال الجماعة [gemeinschaft]". وبعبارة أخرى، فإنّ غَّة هالة من النزاهة تحيط بهذه الروابط، لأنها على وجه التحديد روابط غير غُتارَة.

ومع أنه من الصحيح أنه قد كُتب الكثير في العقدين الماضيين عن فكرة العائلة-بوصفهابنية-تُفصح-عن-القوة، إلا أنَّ مثل هذا التصور غريب بلا شكّ عن الغالبية العظمى من الجنس
البشري. والأحرى، أنَّ العائلة يُنظَر إليها تقليدياً على أنّها ميدان الحبّ والتضامن النزيهين
البعيدين عن المصلحة. وبالمثل، فإنه إذا ما كان المؤرّخون، والدبلوماسيون، والسياسيون،
وعلماء الاجتماع على الفة تامة بفكرة "المصلحة القومية"، فإنّ الميزة الاساسية للامة هي
أنها بعيدة عن المصلحة. ولهذا السبب على وجه التحديد، يمكن لما أن تطالب بالتضحيات.

وكما سبقت الملاحظة، فإن استثنائية حروب هذا القرن الكبرى لا تكمن في المدى غير المسبوق الذي فتحته أمام البشر لكي عارسوا القتل، بل في الأعداد الضخمة من البشر الذين كانوا مقتنعين بأن يضحوا بحيواتهم. أليس من المؤكّد أن أعداد القتلي تفوق بصورة هائلة أعداد القتلة؟ وفكرة التضحية القصوى لا تأتي إلا مصحوبة بفكرة الطهر، عبر الموت.

وموت المرء في سبيل الوطن، الذي لا يختاره في العادة، يفترض غَظَمَة أخلاقية لا يمكن أن يبلغها الموت في سبيل حزب العمال، أو الجمعية الطبية الأمبركية، أو حتى في سبيل منظمة العفو الدولية، لأنَّ هذه جميعاً كيانات يمكن للمرء أن ينضم إليها أو يغادرها عشيئته. وكذلك فإنَّ الموت في سبيل الثورة يستمد عَظَمَته من درجة الشعور بأنها ذلك الشيء الطاهر في جوهره. (إذا تخيّل البشر البروليتاريا على أنها مجرد جماعة تلهث وراء الثلاّجات، أو العُطَل، أو السلطة، ما المدى الذي يمكن أن يبلغوه، ومن بينهم أفراد هذه الطبقة، في استعدادهم لأن يموتوا في سبيلها؟) ألحًا. وإنها لمفارقة ساخرة مما يكفي، أنّه بقدر ما تُحسّ التاويلات الماركسية للتاريخ (خُسّ وليس يُفَكّر فيها) على أنّها تمثيلات لضرورة لا مفرّ منها، فإنها تكتسب أيضًا هالة من الطهر والنزاهة.

ورعاً كان مفيداً هنا أن نعود مرّة أخرى إلى اللغة. وما نلاحظه، أولاً، هو ما تتسم به اللغات من قِدَم، عا في ذلك تلك اللغات الت يُعرَف أنها حديثة. فما من أحد يستطيع أن كدد تاريخ ولادة أية لغة من اللغات. وكلّ منها تبدو طالعة على نحو غامض من ماض بلا أفق. (وبقدر ما أنَّ الإنسان العاقل هو إنسان ناطق، فإنّه يبدو من الصعب أن نتخيّل أصلاً للغة أحدث من النوع ذاته). هكذا تبدو اللغة على أنها تضرب بجذورها أبعد من أيّ شيء آخر في الجتمعات المعاصرة. وفي الوقت ذاته، فإنّ ما من شيء يربطنا بالموتى عاطفياً مثل اللغة. وحين يسمع الناطقون بالإنغليزية كلمات (الأدم للأرض، والرماد للرماد، والتراب للتراب/,Earth to earth, التراف ونصف القرن فإنهم كسّون بتلك الحميمية الشبحيّة التي جرى إبداعها منذ أربعة قرون ونصف القرن فإنهم بحسّون بتلك الحميمية الشبحيّة التي ينطوي عليها التزامن عبر الزمن الفارغ، المتجانس، وثقل هذه الكلمات لا يُستَمدّ من معناها المهيب إلّا جرئياً؛ فهو يتاتّى أيضًا عن "إنغليزية" هي "إنغليزية" الأسلاف.

وثمة، ثانياً، نوعٌ خاصٌ من جماعة متعاصرةٍ لا يشير إليها سوى اللغة وحدها، من خلال الشعر والأغاني قبل أي شيء آخر. خذوا، على سبيل المثال، ضروب النشيد الوطن التي تُنشَد في المناسبات الوطنية. فمهما كانت الكلمات مبتذلة والألحان تافهةً، يظلّ هذا الإنشاد منطوياً على تجربة من التزامن. ففي مثل هذه اللحظات على وجه التحديد، يردّد أناس يجهلون بعضهم بعضاً كلّ الجهل الأبيات ذاتها على اللحن ذاته. والصورة: صوتٌ واحدً أفلًا. فإنشاد المارسيليز، وفالسنغ ماتيلدا، وإندونيسيا رايالها يوفّر مناسبة لتوحيد الصوت، لتحقيق الجماعة المتخيّلة ذلك التحقيق المادي الطنّان. (كذلك يفعل الإصغاء إلى تلاوة الشعر الطقسي الاحتفالي [ورعا الترداد الصامت مع تلك التلاوة]، كأن نصغي إلى مقاطع من كتاب الصلوات). ويا لابتعاد هذا الصوت الواحد عن الذاتية! فإذا ما كنّا ندرك أنَّ الأخرين ينشدون هذه الأناشيد حين نشدها وكما ننشدها عاماً، إلاّ أنّه ليس لدينا أية فكرة عمّن هم، أو عن المكان الذي ينشدون فيه، أبعد من مرمى السمع. فلا شيء يربطنا جيعاً سوى الصوت المتخيّل.

غير أنَّ مثل هذه الجوقات مرتبطة بالزمن. وإذا ما كنتُ ليتوانياً، فإنَّ ابني قد تكون استرالية. وسوف يحد ابنُ إيطالي مهاجر إلى نيويورك أسلافاً في الاباء العجّاج لحاً. وإذا ما كان ثق هالة قَدَريَّة معتومة تحيط بالانتماء إلى قومية، فإنَّ تلك القَدَريّة منفرسة في التاريخ. ومن الأمثلة على ذلك مرسوم سان مارتن الذي يقضي بتعميد الهنود الناطقين بلغة الكتشوا كسيروفيين"، على نحو شبيه بالهداية الدينية أو التحول الدين. فهذا المثال يبيّن أنَّ الأمّة قد جرى تصوّرها منذ البداية في اللغة، وليس في الدم، وأنَّ المرء عكن أن "يُدْعى إلى" الجماعة المُتخيَّلة. وكذلك اليوم، فإنَّ أشدّ الأمم انعزالاً تقبل مبدأ التجنيس (يا للكلمة رائعة!)، بصرف النظر عن الماعي ال تضعها في وجه تطبيقه العملي.

وإذ تُرَى الأمة كَقَدَر تاريخي وكجماعة متخيّلة عبر اللغة في أن معاً، فإنّها تقدّم نفسها على أنها مفتوحة ومغلقة في الوقت ذاته. وما يوضح هذا التناقض تلك الإيقاعات المتبدّلة في هذه الأبيات الشهيرة عن موت جون مور في معركة كورونا [17]:

- الم يُسمَع طَبْلٌ، ولا لحن جنائزي، وغن نسرع بجثمانه إلى الحصن؛ ولم يطلق جنديٌ طلقة وداع فوق القبر الذي ضمّ بطلنا.
- 2 لقد دفناه في جوف الليل البهيم، وحفرنا الأرض بحرابنا؛ في ضوء القمر الكابي، والمصباح الخافت.
- 3 لم يُغلَق عليه تابوت لا نفع فيه، لم نلفه في ملاءة أو كفن؛

بل استلقى مثل عارب يأخذ قسطه من الراحة، وعباءته العسكرية بقربه...

5 خَطَر لنا، وغن نحفر سريره الضيّق، ونضع وسادته الوحيدة،

أنّ قدم العدو والغريب سوف تطأ رأسه وغن بعيدون نركب الأهواج...

8 ببطء وبحزن أرقدناه.
 ومن حقل شهرته النَّضر المثير؛
 لم ننقش سطراً، أو نرفع حجراً،
 بل تركناه وحيداً مع محده.

عُتفي هذه الأبيات بذكرى بطولية بذلك الجمال الذي لا عكن فصله عن اللفة الإنغليزية، فلا عكن ترجمته، ولا يسمعه سوى الناطقين بها وقرّائها، غير أنَّ كلاً من مور والشاعر الذي يندبه كانا إيرلنديين. وما من سبب عنع حفيد "أعداء" مور الفرنسيين أو الإسبان من أن يلتقط عاماً رنين القصيدة: فالإنغليزية، مثل أية لفة أخرى، متاحةً دوماً لناطقين جدد، وسامعين جدد، وقرّاء جدد.

اسموا توماس براون، يلخص في جلتين تاريخ الإنسان بطوله وعرضه الطاء

حتى المطامح القديمة كانت لها مرية مطاعنا، في تجريب ضروب صلفها الفارغ، التي بكّرت إلى العمل قبل هاجرة الزمن المتوقعة، وحققت في حينها منجزات عظيمة هي التي صممتها، أطال من خلالها الأبطال القدماء أعمار نُصُبهم، ومحفوظاتهم الميكانيكية. غير أنّه لا يسعنا في هذا المشهد الأخير من مشاهد الزمن أن نتوقع وجود مثل هذه المومياءات بين تذكاراتنا، إذ يمكن للطموح أن يخشى نبوءة إلياس، فلا يمكن قطّ لتشارلز الخامس أن يأمل بأن يعيش ضعف ما عاش متوشال في عمر كعمر هيكتور.

ها هنا خُمْع مصر القديمة، واليونان، ويهودا مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكن مَمْعَهَم عبر آلاف السنين وآلاف الاميال يتمّ ضمن خصوصية نثر براون الإنغليزي في القرن السابع عشر [9]. ومن المكن ترجمة هذا المقطع، بالطبع، إلى حدِّ ما، غير أنَّ الرّوعة المهولة في "Mechanical preservations"، و"Probable Meridian of time"، و"two Methusela's of Hector" لا يمكن أن تقشعر لها سوى أبدان قرّاء الإنغليزية.

إنّها روعة مهولة تفتح نفسها لقارئ الإنغليزية، هنا في هذه الصفحة. أمّا الروعة الي لا تقلّ هولاً في الأسطر الأخيرة من "Yang Sudah Hilang" للكاتب الإندونيسي العظيم براموديا أنانتا تُوير. والي توجد هنا في هذه الصفحة المطبوعة ذاتها، فغالباً ما تكون مستغلقة عليه 111.

Suara itu hanya terdengar beberapa detik saja dalam hidup. Getarannya sebentar berdengung takkan terulangi lagi. Tapi seperti juga halnya dengan kali Lusi yang abadi menggarisi kota Blora dan seperti kali itu juga suara yang tersimpan menggarisi kenangan dan, ingatan itu mengalir juga – mengalir kemuaranya elaut yang tak bertepi. Dan tak seorangpun tahu kapan laut itu akan kering dan berhenti berdeburan.

Hilang.

Semua itu sudah hilang dari jangkauan panc[h]a- indera.

وإذا ما كانت اللغات جميعاً قابلةً للاكتساب، فإنَّ اكتسابها يستغرق جرءاً كبيراً من حياة الشخص: وكلَّ فتح جديد يُقاس قبالة العمر القصير. وما يحدّ من نفاذ المرء إلى اللغات الأخرى ليس كتامتها بل كونه من الفانين ومن هنا ذلك القدر من الخصوصية الذي تتمتّع به كلَّ لغة من اللغات. ولقد حكمت الإمبرياليتان الفرنسية والأميركية الفيتناميين، واستغلّتهم، وقتلتهم على مدى سنوات طويلة، غير أنّه مهما كان ما ولّتا به، فإن اللغة الفيتنامية قد بقيت. ومن هنا ذلك الحنق الذي غالباً ما نحده على "استغلاق" اللغة الفيتنامية، وذلك اليأس الغامض الذي يولّد ذلك الرطانات الحقودة التي ترطن بها الكولونياليات الحتضرة: "ratons"، "gooks"، "على النسحاب أو (فما من ردِّ في النهاية على الخصوصية الهائلة التي تتسم بها لغة المستعمر سوى الانسحاب أو المزيد من المذابح).

ومثل هذه النعوت هي، في شكلها الداخلي، نعوت عنصرية عيّرة، ويفيد فكّ مغاليق هذا الشكل في الكشف عمّا يجعل نايرن خطئاً جوهرياً في رؤيته أنّ العنصرية ومعاداة السامية تُستمدّان من القومية، وفي قوله إنّ "الفاشية، حين يُنظَر إليها بعمق تاريخيٍّ كافٍ، تخبرنا عن القومية أكثر عا تخبرنا عن أي حدث آخر "1131. وعلى سبيل المثال، فإنّ كلمة مثل "slant" [مائلة]، المختصرة من العبارة "slant-eyed" [أصحاب العيون المائلة]، لا تقتصر على التعبير عن عداوة سياسية عادية، بل تتعنى ذلك إلى أنها تمحو الانتماء إلى أمّة بردّها الخصم إلى قسمات وجهه البيولوجية 1141. فهي تُنْكِر "الفيتنامي"، بحلولها علّ هذه الكلمة الأخبرة؛ شأنها شأن وجهه البيولوجية 1141. فهي تُنْكِر "الفيتنامي"، بحلولها علّ هذه الكلمة الأخبرة؛ شأنها شأن "raton، الت تنكر "الجزائري" بحلولها علّ كلمة "جزائري". وهي تعمل، في الوقت ذاته، على وَضْع "الفيتنامي" في خليط لا اسم له إلى جانب "الكوري" و"الصين"، و"الفيليبين"، وهلمجرا. ولعل طابع هذا المعجم من المفردات يرداد وضوحاً عندما نضعه إزاء كلمات أخرى من فترة الحرب الفيتنامية مثل "Charlie" و "V.C"، أو من حقبة أسبق، مثل "Frogs" و"المالة عيدها إلا على جنسية واحدة بعينها، وبذلك تسلّم، عبر و"عوج" إفتماء الخصم إلى عصبة أمم ما 151.

وحقيقة الأمر أنَّ القومية تفكّر بلَّغة المصائر التاريخية، في حين عَلم العنصرية بضروب أبدية من التلوث، منتقلة منذ أوائل الزمن عبر سلسلة لا نهاية لها من التسافدات المقيتة: خارج التاريخ، فالرنوج، بفضل فرشاة القار الخفيّة، رنوج إلى الأبد؛ واليهود، نرية أبراهام، يهود إلى الأبد، بصرف النظر عن جوازات السفر الن محملونها أو اللفات الن ينطقونها ويقرأونها. (وبذلك كان الألماني اليهودي، بالنسبة للنازي، افّاكاً على الدوام) 116أ.

والحال أنَّ أصل الأحلام العنصرية هو في إيديولوجيات الطبقة، وليس في إيديولوجيات الأمة: وقبل كلِّ شيء في مزاعم الألوهة بين الحكّام ومزاعم "النَّسل" والدم "الأزرقين" أو "الأبيضين" بين الأرستقراطيات 1171. فلا عجب إذاً أنَّ أبا العنصرية الحديثة المزعوم لم يكن قومياً من البرجوازية الصغيرة، بل جوزيف أرثر، الكونت دي غوبينو 1881، وأنَّ العنصرية ومعاداة السامية، بوجه عام، لا تتجليان عبر الحدود القومية، بل ضمنها. وبعبارة أخرى، فإنهما لا تبرران الحروب الخارجية بل القمع والسيطرة الداخلين 1191.

وحيثما تطورت العنصرية خارج أوروبا في القرن التاسع عشر، كانت مقترنة على الدوام بالسيطرة الأوروبية، وذلك لسببين اثنين متقاربين. أولهما وأهمهما كان نشوء القومية الرسمية و "الرَّوْسَنَة" الكولونيالية. فالقومية الرسمية، كما سبق أن ألححنا مراراً، كانت في العادة ردّاً من طرف الجماعات الملكية السلالية والأرستقراطية المهدَّدة – أي من الطبقات العليا – على القومية الشعبية نصيرة اللغة الحلية، وكانت العنصرية الكولونيالية واحداً من العناصر الكبرى في ذلك التصوّر لـ "إمبراطورية" حاولت أن تجمع بين الشرعية السلالية والجماعة القومية. وقد فعلت ذلك بتعميم مبدأ التفوّق الفطري، الموروث الذي كان يرتكز إليه وضعها الداخلي الخاص (مهما كان هذا الارتكاز مزعرعاً) على مناطق شاسعة من الممتلكات وراء البحار، عا الخاص (مهما كان هذا الارتكاز مرعرعاً) على مناطق شاسعة من الممتلكات وراء البحار، عا الإنفليز، مثلاً، متفوقين بصورة طبيعية على بقية الإنفليز، فذلك ليس مهماً؛ فبقية الإنفليز الإنبراطوريات الكولونيالية قد عمل على تدعيم معاقل الارستقراطية الداخلية، إذ بدت الإمبراطوريات الكولونيالية قد عمل على تدعيم معاقل الارستقراطية الداخلية، إذ بدت وكانها تثبت على نطاق عالي وحديث تلك التصورات القدية عن السلطة والامتياز.

ولقد استطاعت أن تفعل ذلك بشيء من النجاح لأنَّ الإمبراطورية الكولونيالية، بجهازها البيروقراطي المتوسّع بسرعة، أتاحت لأعداد كبيرة من البرجوازيين والبرجوازيين الصفار وهنا سببنا الثاني أن تلعب دور الأرستقراطي خارج الملعب الأساس: أي في كلَّ مكان من الإمبراطورية ما عدا الوطن الأم. ويحد المرء في كلَّ مستعمرة هذه اللوحة الحيّة لوا غير المسليّة: السيّد البرجوازي يلهج بالشعر ووراءه خلفية من القصور الفسيحة والحدائق الممتلئة بأشجار السنط والجهنميّة، وفريق ضخم من الخدم، وساسة الخيل، والجناينية، والطهاة، والمربيات، والخادمات، والفسّالات، وقبل كلّ شيء الخيول 1201. وحتى أولئك الذين لم يتدبّروا أمر العيش على هذا النحو، مثل العزّاب الشباب، كانت لهم مع ذلك تلك المكانة الملتبسة إلى أبعد حدّ التي كان يتمتع بها نبيل فرنسي عشية ثورة من ثورات الفلاحين:

في مولمين، في بورما السفلى [وهذه البلدة الغامضة تحتاج إلى شرح بالنسبة للقرّاء في

المتروبول]، كنتُ مكروهاً لدى أعداد كبيرة من البشر؛ وكانت تلك هي المرّة الوحيدة في حياتي التي كنت الضابط المسؤول عن قسم حياتي التي كنت الضابط المسؤول عن قسم الشرطة في البلدة [21].

وما جعل هذه "الغوطيّة المدارية" ممكنةً هو تلك القوة الساحقة الى منحتها الرأيمالية المتطورة للمتروبول؛ وهي قوة بلغت من العظمة حدّ أنّه أمكن إبقاؤها وراء الكواليس، إذا جاز القول، وأفضل مثال على ظهور الرأسالية في زيّ إقطاعي-أرستقراطي هو الجيوش الكولونيالية، التي كانت ميّرة على نحو سيء الصيت عن تلك الت في المتروبول، وغالباً ما كان هذا التميّز يظهر حتى في الاصطلاحات ً المؤسساتية الشكلية [22]. هكذا كنا نحد في أوروبا "الجيش الأول"، الذي يتم جمُّعه عبر تجنيد المواطنين في المتروبول ذلك التجنيد الواسع؛ ويتم تصوّره إيديولوجياً على أنه المدافع عن الوطن (heimat)؛ ويرتدى أفراده الخاكي العملي، الذي يُراد لنفعه وليس لجماله أو أناقته؛ ويُسَلِّح بأحدث الأسلحة المتوفِّرة؛ ويُعزَل أيام السلم في ثكنات، ويُنزَل أيام الحرب في الخنادق أو خلف مدفعيات الميدان الثقيلة. أمّا خارج أوروبا فكان ثمَّة "الجيش الثاني"، الذي يُجْمَع (تحت مستوى الضباط) من الأقليات الدينية أو الإثنية الحلية لكي يعملوا كمرتزقة؛ ويتمّ تصوّره إيديولوجياً كقوة شرطة داخلية؛ ويرتدى ما يلفت الأنظار كثيرًا في السرير أو قاعة الرقص؛ ويُسلِّح بالسيوف وأسلحة صناعية مُنْسَقة؛ ويظهر في الأماكن العامة أيام السلم، وعلى ظهور الخيل في أيام الحرب. وإذا ما كانت هيئة الأركان العامة البروسية، وهي المعلِّم العسكري لأوروبا بأجمعها، تركَّز على التضامن الغفل بين ختلف الفرق المتخصصة، من مدفعية، وسكك حديدية، وهندسة، وتخطيط استراتيجي، وما شابه، فإنَّ الجيش الكولونيالي يركّر على الجد، والكِتْفيات، والبطولية الفردية، والبولو، والتملّق بين ضباطه. (أمّا قدرته على فعل ذلك فتتأتّى من أنّ الجيش الأول والبحرية موجودان في الخلفية). ولقد ظلّت هذه المقلية على قيد الحياة لفترة طويلة من الزمن. وقد كتب ليوتي، في تونكين، عام 1894<del>[23]</del>:

ألا ليتك جنت إلى هنا قبل عشر سنين! يا للدروب التي كنت ستشقّها وتسلكها. ما من واحد هنا من هؤلاء الضباط الصغار، ورؤساء مكاتب الاستطلاع، إلا ويُظْهِر في ستة شهور من المبادرة، والعزيمة، والتحمّل، وقوة الشخصية ما يظهره ضابط فرنسي طول فترة خدمته.

وفي تونكين، في العام 1951، نجد أنَّ جان دو لاتر دو تاسين، "الذي كان يروقه الضباط الذين عممون بين الشجاعة و"الأناقة"، قد راقه على الفور الفارس الأنيق [الكولونيل دو كاستري] بقبعته السباهية ووشاحه الأحرين الراهيين، وسوطه الرائع، ومَعْمِه بين التساهل في السلوك ومظهر الدوق، مما جعله ذلك الشخص الذي لا يُقاوَم بالنسبة للنساء في إندونيسيا في خسينيات القرن العشرين كما كان للباريسيات في ثلاثينيات القرن العشرين كما كان للباريسيات في ثلاثينيات القرن العشرين المحسود المعرين المحسود المحسود العشرين كما كان للباريسيات في ثلاثينيات القرن العشرين المحسود العشرين كما كان للباريسيات في شاهد المحسود العشرين العشرين كما كان للباريسيات في شاهد المحسود العشرين العشرين كما كان للباريسيات في شاهد المحسود العشرين المساود المحسود المح

ومن المؤشرات الموحية الأخرى على أصل العنصرية الكولونيالية الأرستقراطي أو الأرستقراطي الزائف ذلك "التضامن بين البيض"، الذي عادةً ما كان يربط بين الحكّام

الكولونياليين من متروبولات قومية مختلفة، بصرف النظر عن ضروب التنافس والصراع فيما بينهم. وهذا التضامن، بطابعه اللافت العابر للدول، يذكّر مباشرة بالتضامن الطبقي بين أرستقراطيي أوروبا في القرن التاسع عشر، عَبْر مشاركة واحدهم الآخر مواسم الصيد، والمنتجعات، وقاعات الرقص؛ كما يذكّر بالأخوّة بين "الضباط والسادة"، الي عبّر عنها في القرن العشرين ما ضمنته اتفاقية جنيف من أن يلقى ضباط العدو الأسرى معاملة مميّرة، كلاف الأنصار أو المدنيين.

ويمكن لنا أن نتابع نقاشنا الذي أجريناه إلى الأن من طرف الشعوب المستعمرة هذه المرّة. فمن اللافت، بصرف النظر عن آراء بعض الإيديولوجيين الكولونياليين، أنّ ذلك الكيان المشبوه الذي يُعرَف باسم "العنصرية المعكوسة" كان محدوداً جداً في الحركات المناهضة للاستعمار. ومن السهل أن تخدعنا اللغة على هذا الصعيد. وعلى سبيل المثال، فإن كلمة لوندو الجاوية (المشتقة من هولندي أو نيدرلاندي) لم تكن تقتصر في معناها على "المولنديين" بل تشير إلى "البيض" عموماً. غير أنَّ الاشتقاق ذاته يبين أنَّ المعنيين كانا متداخلين بالفعل، بالنسبة للفلاحين الجاويين، الذين نادراً ما صادفوا أي "بيض" سوى المولنديين. وبالمثل، فإنَّ "les الفلاحين المكن التمييز بين فرنسيتهم وبياضهم. وبقدر ما أعلم، فإنَّ لوندو أو blanc لم تكونا منطويتين على تقليل الاحترام والحطّ من المأن الحكم.

وعلى العكس، فإنَّ روح القومية المناهضة للكولونيالية هي روح دستور جمهورية كاتاغالوغان (1902) الذي يفطر القلوب، جمهورية ماكاريو ساكاي قصيرة الأجل، الذي نصّ، من بين أشياء أخرى، على أنَّ:

لن يرفع أيُّ تاغالوغي، وُلِدَ في هذا الأرخبيل التاغالوغي، أيُّ شخص فوق البقية بسبب من عرقه أو لون بشرته؛ فالأشقر، والأعر، والغن، والفقير، والمتعلّم، والجاهل متساوون عاماً جيعهم، وينبغي أن يكونوا قلباً واحداً. وقد تكون هنالك فروق في التعليم، أو الثروة، أو المظهر، غير أنّه ما من فروق قطّ في الطبيعة الجوهرية والقدرة على العمل من أجل قضيةٍ ما 1261.

وليس يصعب على المرء أن يجد أشياء مشابهة في الطرف الأخر من العالم، فالمسيكيون المولّدون الذين يتكلمون الإسبانية يردّون نسبهم، ليس إلى الفاتحين القشتاليين، بل إلى الأرتيك، والماليا، والتولتيك، والرابوتيك الذين يكادون أن يكونوا قد طُمِسوا. أما الوطنيون الثوريون في الأورغواي، وهم أنفسهم من الكريول، فقد الخّذوا اسم توباك أمارو، آخر الثوار الحليين العظماء ضد الاضطهاد الكريولي، والذي مات تحت التعذيب الذي لا يُوصَف في العام 1781.

وقد يبدو متناقضاً أن تكون الأشياء التي تشير إليها هذه الارتباطات جميعاً أشياء "مُتخيَّلة": الأخوة التاغالوغ الغُفْل الذين لا ملامح لهم، أو القبائل المُبادّة، أو روسيا الأم، أو الـ tanah air الأخوة التاغالوغ الغُفْل الذين لا ملامح لهم، أو القبائل المُبادّة، أو روسيا الأم، أو الـ السحد عن (البلد الأم، كما يُدعى في إندونيسيا وماليزيا). غير أنَّ حبّ الوطن لا يُختلف بهذا الصدد عن

#### الجماعات المتخيّلة...

العواطف الأخرى، الي لا تخلو من عنصر التخيّل الشفوف. (وهذا هو السبب في أنَّ النظر إلى البومات الصور الخاصة برفاف أشخاص غرباء هو أشبه بدراسة مخطط يضعه عالم آثار للدور الأرضي من حدائق بابل المعلّقة). والعين بالنسبة للعاشق، تلك العين العادية، الحدّدة، اليّ وُلِدَ بها أو وُلِدت بها، هي كاللغة بالنسبة للوطي، مهما تكن اللغة اليّ جعلها التاريخ لغته أو لغتها الأم. فعبر تلك اللغة، اليّ يصادفها عند ركبة أمّه ولا يفارقها إلاّ إلى القبر، تتم استعادة الماضي، وكبري تخيّل الألفة والزمالة، وكُلم بالمستقبل.

## 9) ملاك التاريخ

بدأنا هذه الدراسة الموجزة بالحروب الأخيرة بين جمهورية فيتنام الاشتراكية وكمبوديا الدعقراطية وجمهورية الصين الشعبية، ولذلك فإنّه من المناسب عاماً أن نعود في النهاية إلى نقطة الانطلاق تلك. فهل يساعد أيّ شيء مما قلناه إلى الآن على تعميق فهمنا لاندلاع تلك الحروب؟

لقد صدر عن توم نايرن، في كتابه ‹تفكك بريطانيا›، ما هو قيّم بشأن العلاقة بين المنظومة السياسية البريطانية ومنظومات بقية العالم الحديث:

وحدها [النظومة البريطانية]، بخلاف سواها [من المنظومات]، مثّلت ذلك "النمو التقليدي، البطيء، الذي كان نتاج اختراع مدروس، ناجم عن نظرية". امّا تلك [المنظومات] الآخرى، الي جاءت لاحقاً، فقد "حاولت أن تستخلص بضربة واحدة تلك الثمار الي أسفرت عنها تجربة دولة طورّت مؤسساتها على مدى قرون عدّة" . ولأن التجربة الإنفليزية -البريطانية لاحقاً- كانت الأولى، فقد ظلّت عيَّرةً. ولأن الجتمعات البرجوازية اللاحقة أتت ثانياً، إلى عالم كانت الثورة الإنفليزية قد بحت فيه وامتدّت، فإنّ ما كان لما أن تكرر هذا التطور الباكر. ولقد ولّدت دراستها ومحاكاتها شيئاً مختلفاً جوهرياً: ذلك المذهب الحديث حقاً، مذهب الدولة الجرّدة أو "البعيدة عمّا هو شخصى" والن أمكنت محاكاتها في التاريخ اللاحق بسبب طبيعتها الجرّدة.

وقد يُنْظَر إلى هذا بالطبع على أنّه المنطق العادي الذي ككم سيرورات التطور. وهو عيّنة باكرة على ما تم تعظيم شأنه لاحقاً بألقاب مثل "قانون التطور المشترك واللامتكافئ". فالتكرار الفعلي أو المحاكاة الفعلية نادراً ما يكونان مكنين، سواء سياسياً أم اقتصادياً، أم اجتماعياً، أم تكنولوجياً، لأنَّ العالم يكون قد تغيّر أصلاً ذلك التغيّر الكبير عمّا كانت عليه العلّة الأولى الى تُنْسَخ اللاً.

وما يقوله نايرن عن الدولة الحديثة لا يقل صحّة عن المفهومين التوأمين اللذين تُعَدُّ بلداننا الاشتراكية الثلاثة المتصارعة ضروباً من التجسيد المعاصر لهما: الثورة والقومية. ولعلّه من السهل كثيرًا أن ننسى أنَّ هذا الروح، مثل الرأعالية والماركسية، هو زوج مُخْتَرَع، يستحيل الحافظة على براءتيّ اختراعه. فهاتان البراءتان موجودتان لكي تتم قرصنتهما، إذا جاز القول. ومن هذه القَرْصَنات، ومنها فقط، يأتي هذا الشنوذ الشهير أو الخروج على القياس: مجتمعات مثل كوبا وألبانيا والصين، تدفعها اشتراكيتها الثورية لأن تتصور أنّها "متقدّمة" على مجتمعات مثل فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة، لكن إنتاجيتها المنخفضة، ومستويات معيشتها البائسة، وتكنولوجيتها المتأخرة تَدْفَع لأن يُنْظَر إليها بالمثل على أنّها "خلف" تلك المحتمعات. (ومن هنا حلم شو إن لاى الكئيب بلحاق بريطانيا الرأسالية في العام 2000).

وكما سبقت الإشارة، فإنَّ هوبسباوم كان عقاً فيما لاحظة من أنَّ "الثورة الفرنسية لم يَقُم بنها أو يَقُدُها حرب مُنَظَّم أو حركة مُنَظَّمة بالمعنى الحديث، أو رجال كاولون تنفيذ برنامج منهجي". غير أنَّ أمر التجربة الفرنسية، وبفضل رأتالية الطباعة، لم يقتصر على استحالة اجتثاثها من ذاكرة البشر، بل تعدّاه إلى إمكانية التعلّم منها. فلقد خرج البلاشفة عا يقارب قرنا كاملاً من التنظير القياسي النمطي والتجريب العملي، وصنعوا أول ثورة "غَطْط لها" ناجحة (مع أنُ النجاح لم يكن محكناً لولا انتصارات هندنبرغ الباكرة عند تاننبرغ والبحيرات المازورية للله وحاولوا أن يطبقوا برناجاً منهجياً (مع أنَّ الارتجال كان سائداً في المارسة). ويبدو من الواضح أيضًا أنّه من دون مثل هذه الخطط والبرنامج ما كان ليخطر في الذهن قيام ثورة في علكة لم تكد تدخل عهد الرأتالية الصناعية. غير أنَّ النموذج الثوري البلشفي غدا ذلك النموذج الحاسم بالنسبة لجميع ثورات القرن العشرين لأنّه جعلها قابلةً للتصّور في محتمعاتٍ لا تزال أشد تأخراً من روسيا. (وهذا يعي أنه استهلً إمكانية تغيير محرى التاريخ، إذا جاز القول). وقد اثبتت تأخراً من روسيا. (وهذا يعي أنه استهلً إمكانية استخدام هذا النموذج خارج أوروبا. وبذلك يمكن أن ترى في حالة كمبوديا نوعاً من وصول هذه السيرورة القياسية النمطية إلى ذروتها، حيث كانت الطبقة العاملة" في هذا البلد تشكّل عام 1962 أقلّ من 2.5% من القوة العاملة الراشدة "الطبقة العاملة" في هذا البلد تشكّل عام 1962 أقلّ من 3.5% من القوة العاملة الراشدة القوية البالغة مليونين ونصف المليون، وكان "الرأتاليون" يشكّلون أقل من 2.5% من القوة العاملة الراشدة القوية البالغة مليونين ونصف المليون، وكان "الرأتاليون" يشكّلون أقل من 2.5% من القوة العاملة الراشدة القوية البالغة مليونين ونصف المليون، وكان "الرأتاليون" يشكّلون أقل من 5.0%

ولقد خضعت القومية منذ نهاية القرن الثامن عشر، وعلى نحو مشابه كثيرًا، لسيرورة تعديل وتكييف، تبعاً لاختلاف المناطق، والانظمة السياسية، والاقتصاديات، والبنى الاجتماعية. وعَتْلتُ النتيجة بانتشار "الجماعة المتخيَّلة" إلى كلِّ محتمع معاصر عكن تصوّره. وإذا ما كان من

الجائز أن نضرب كمبوديا الحديثة كمثال على ارتحال "الثورة" القياسية النمطية، فلعله أن يكون من المنصف أن نضرب الفيتنام مثالاً على ارتحال القومية القياسية النمطية، وذلك من خلال غارات سريعة نشنها على اسم هذه الأمة.

عند تتوبجه في العام 1802، تمنى الملك جيا-لونغ أن تُدْعى مملكته باسم "نام فيت" وأرسل المعوثين لكي كصل على موافقة بكين. غير أنَّ المانشو ابن السماء أصرَّ على أن يكون الاسم "فيت نام". أما السبب وراء قُلْب الاسم على هذا النحو فهو التالي " إنَّ "فيت نام" (أو بالصينية -يُوه-نان) تعي، بصورة تقريبية، " جنوب فيت (يُوه)"، وهي علكة فتحها الهان قبل سبعة عشر قرناً ويُعْتقَد أنها اليوم مقاطعت كوانغتونغ وكوانغسي الصينيتين، فضلاً عن وادي النهر الأحر. أمّا اسم "نام فيت" الذي أطلقه جيا-لونغ فيمن " فيت/يُوه الجنوبية"، وينطوي عملياً على مطالبة بالملكة القديمة. وكما يقول ألكسندر وودسايد، فإنَّ "اسم "فيتنام" لم يكن بحظي عموماً بكثير من الاحترام لدى الحكام الفيتناميين منذ قرن مضى، شأنه في هذا القرن، نظراً لصدوره عن بكين. ولأنَّ هذه التسميَّة هي تسمية مصطنِّعة، فإنها لم تُسْتَخْدَم بتلك الكثافة سواء من قِبَل الصينيين أم من قبل الفيتناميين. فقد عَسَك الصينيون باسم "أنَّام"، وهي كلمة مُهينة من عهد سلالة التانغ . . أمّا البلاط الفيتنامي فقد اخترع اسماً لملكته خاصاً به في 1838-1838 ولم يهتمّ لأمر إبلاغ الصين. وراح هذا الاسم الجديد، داى نام، "الجنوب العظيم" أو "الجنوب الإمبراطوري"، يظهر على نحو منتظم في وثائق البلاط والمصنّفات التاريخية الرسمية. غير أنه لم يبق على قيد الحياة إلى الوقتُ الراهن" [3]. وهذا الاسم الجديد هو اسم لافت من ناحيتين. الأولى، هي أنه لا يُحتوى على عنصر "الفيت". والثانية، هي أنَّ مرجعيته الإقليمية، أو المنطقة الن يشير إليها، تبدو علائقية محض، أو منسوبة إلى سواها: "جنوب" (المملكة

ويذكّرنا الدفاع الفيتنامي الفخور هذه الأيام عن اسم فيت نام الذي اخترعه الملك المانشو في القرن التاسع عشر وقَصَدَ به الازدراء بقول رينان الذائع أنَّ الأمم لا بدّ أن تكون قد "نسيت أشياء كثيرة"، لكنه يذكرنا أيضًا، ويا للتناقض، ما تتميّر به القومية من قوة خيال.

وحين ينظر المرء إلى فيتنام في ثلاثينيات القرن العشرين أو إلى كمبوديا في ستينياته، فإنّه بجد، على الرغم من كلّ الفروق، تشابهات كثيرة :أعداد ضخمة من الفلاحين الأميين المُسْتَفَلِين، طبقة عاملة هزيلة، برجوازية متناثرة، وإنتلجنسيا صغيرة، منقسمة 151. وما من عللً معاصر رزين، حين ينظر بصورة موضوعية إلى هذه الشروط، كان ليتنبأ في أيِّ من هاتين الخالتين بالثورة التي سرعان ما أتت، أو بانتصاراتها المنهكة. (والحال، أنَّ هذا يصحّ إلى حدَّ بعيد، ولاسباب تكاد أن تكون عائلة، على الصين في العام 1910). وما جعل هاتين الثورتين عكنتين، في النهاية، هو "الثورة المُخطَّط لها"، و"تحيّل الأمّة" 161.

ولا عِكْن أن تُعْزى سياسات نظام بول بوت إلى ثقافة الخمير التقليدية أو إلى قسوة قادتها وما لديهم من بارانويا وجنون عظمة إلا بصورة محدودة عاماً. فقد نال الخمير حصتهم من

المستبدين المصابين بجنون العظمة؛ لكن بعض هؤلاء كان مسؤولاً عن أنكور العبا. والأهمّ بكثير هو غاذج ما استمدته الثورات، وبمكن أن تستمدّه، وما كان ينبغي، ولا ينبغي، أن تستمدّه من فرنسا، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، والصين، والفيتنام- وجميع الكتب التي كُتِبَت عنها بالفرنسية 171.

ويصح الشيء ذاته على القومية. فالقومية المعاصرة هي وريثة قرنين من التغيّر التاريخي. وتتميّر هذه الضروب من الارث بأنَّ لها حقّاً وجهي جانوس، نظراً لجميع الاسباب الي حاولتُ أن أرسم خطوطها العامة. ذلك أنَّ المورِّثين لا يقتصرون على سان مارتن وغاريبالدي، بل يتعدّونهما إلى أوفاروف وماكولي، وكما رأينا، فقد كانت "القومية الرسية" منذ البداية سياسة واعية، ترمي إلى حماية الذّات، وترتبط ذلك الارتباط الوثيق بالحفاظ على المصالح السلالية-الإمبراطورية. لكنها ما إنَّ "غدت ظاهرةً للعيان" حتى باتت قابلةً للنسخ مثل الإصلاحات العسكرية البروسية في أوائل القرن التاسع عشر، ومن قِبَل التشكيلة ذاتها من الانظمة السياسية والاجتماعية. وكان الملمح الدائم بين ملامح هذا النمط من القومية، ولا يزال، هو السياسية والدياسية النشيء النابع من الدولة، ويُدم مصالح الدولة أولاً وأخيراً.

هكذا يكتسى غوذج القومية الرحمية أهميته قبل كلُّ شيء لحظةَ ينجح الثوار في الإمساك بزمام الدولة، ويكونون لأول مرّة في ذلك الوضع الذي يتيح لهم أن يستخدموا سلطة الدولة في تحقيق رؤاهم. وما يزيد هذه الأهمية هو حقيقة أنّه حتى الثوار الراديكاليين الأشدّ عزيمةً عادةً ما يرثون الدولة من النظام المنهار. ويكون بعض هذا الموروث رمزياً، لكن ذلك لا يجعله أقلُّ أهمية. فعلى الرغم من عدم ارتياح تروتسكي، عادت عاصمة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية إلى العاصمة القيصرية القديمة موسكو؛ ومنذ ما يريد على 65 عاماً وقادة الحرب الشيوعي في الأتحاد السوفياتي يرجون سياستهم في الكرملين، قلمة السلطة القيصرية القديمة، من بين حميم المواقع المكنة في أقاليم الدولة الاشتراكية الشاسعة. وبالمثل، فإنَّ عاصمة جهورية الصين الشعبية هي عاصمة المانشو (في حين نقل شانغ كاي شيك العاصمة إلى نانكينغ)، ويجتمع قادة الحزب الشيوعي الصين في مدينة أبناء السماء الحُرَّمة. والحال، إنَّ قلَّة قليلة وحسب من القيادات الاشتراكية، إنْ كان غَّة أحد، هي الن لم تتسلِّق إلى تلك المقاعد البالية، الدافئة. وعلى مستوى أقلُّ وضوحاً، يرث الثوار المنتصرون أيضًا شبكة أسلاك الدولة القديمة: في بعض الأحيان الموظفين والمخبرين، وعلى الدوام الملفّات، والأضابير، والأراشيف، والقوانين، والسجلات المالية، والإحصاءات، والخرائط، والمعاهدات، والمراسلات، والمذكرات، وهلمجرا. ومثل النظام الكهربائي المعقد في أي بيت كبير هَرَب مالكه، فإنَّ الدولة تنتظر أن عَتد يد المالك الجديد إلى المفتاح لكي تعود بدرجة كبيرة إلى ما كانت عليه من إشراقها القديم.

ولذلك لا ينبغي أن يدهش المرء كثيرًا إذا ما كانت القيادات الثورية تلعب، بصورة واعية أم غير واعية، دور سيّد العربة، وما يخطر في ذهننا هنا لا يقتصر على عاهي دجوغاشفيلي مع إيفان غروزني، أو تعبير ماو عن إعجابه بالطاغية تشِن شيه هوانغ تي، أو إحياء جوزيف بروز

الأبّهة والطقوس الروريتانية العالمة الله بل إنَّ "القومية الرسية" تدخل أساليب القيادات ما بعد الثورية بطريقة أشد حزماً بكثير. وما أعنيه بذلك أن مثل هذه القيادات تتبنى بسهولة السامة المعلنية بلا المعلنية السلالية. وبطريقة الرجاعية لافتة، يغدو الملوك السلاليون الذين لم يكونوا يعرفون أيّ شيء عن "الصين"، أو "يوغوسلافيا"، أو "فيتنام"، أو "كمبوديا" مواطنين وأبناء بلد (حتى لو لم يكونوا على الدوام أولئك المواطنين أو أبناء البلد "الجديرين"). ومن هذه التسوية أو هذا التوفيق تأتي على الدوام ميكافيللية "الدولة" اليّ تشكّل ملمحاً لافتاً جدّاً من ملامح الأنظمة ما بعد الثورية بخلاف الحركات القومية الثورية. فكلما زاد تجنيس الدولة الملكية السلالية القديمة، زادت إمكانية أن تُلَفّ زينتها القديمة الفخمة حول الأكتاف الثورية. وصورة أنكور وات الذي بناه سُريافرمان الثاني، المنقوشة على علم كمبوديا الديمقراطية الماركسية (كما على أعلام جمهورية لون نول الألعوبة وكمبوديا سيهانوك الملكية)، ليست كناية عن التُقى والإيمان بل عن القوة والسلطة [19].

أمّا تركيزي على القيادات، فلأن القيادات، وليس الشعب، هي اليّ ترث لوحات التحكم والقصور. وما من أحد يتصور، كما أزعم، أنّ جماهير الشعب الصين الغفيرة تهتم أدنى اهتمام عا يحدث على طول الحدود الكولونيالية بين كمبوديا وفيتنام. كما أنه من غير الوارد على الإطلاق أن يكون الفلاحون الخمير والفيتناميون قد أرادوا تلك الحروب بين الشعبين، أو أن يكونوا قد استشيروا في ذلك الأمر. فهذه الحروب هي بالمعنى الفعلي "حروب قادة" عادةً ما يُخَدَّد فيها القومية الشعبية باسم الدفاع عن النفس. (ومن هنا ذلك الحماس الخافت في الصين خاصةً، حيث لا تتمتع لغة الدفاع عن النفس إلا بقدر قليل من المعقولية والمنطق، على الرغم من الشعارات المكتوبة بأضواء النيون ضد "الهيمنة السوفياتية") [10]

وليست الصين، والفيتنام، وكمبوديا بالفريدة في كلَّ هذا بأيِّ حال من الأحوال [11]. وهذا هو السبب في أنّه ما من أسس متينة للأمل بألا بجري السير على هَدْي ما اجترحته هذه البلدان من سوابق الحروب بين الدول الاشتراكية، أو بأن يتمّ التخلّص سريعاً من جماعة الأمّة الاشتراكية المتخيّلة. غير أنّه لن يكون بالإمكان القيام بأيّ شيء مفيد للحيلولة دون مثل هذه الحروب أو الحدّ منها ما لم نتخلّى عن خرافات مثل الخرافة التي تقول إنّ "الماركسيين كماركسيين ليسوا قوميين"، أو إنّ "القومية مرض من أمراض التطور التاريخي الحديث"، ونبذل بدلاً من ذلك ما بوسعنا لكي نتعلّم تجربة الماضي الواقعية والمتخيّلة.

لقد سبق لفالتر بنيامين أَنْ كتب عن ملاك التاريخ، قائلاً:

وجههُ ملتفت صوب الماضي. وحيث نتصور سلسلةً من الأحداث، يرى كارثةً واحدةً لا تن تكوّم الانقاض فوق الأنقاض وتلقيها عند قدميه. والملاك يود أن يبقى، وأن يحيى الموتى، ويجمع ما تحطّم. لكن عمّة عاصفةً تهبّ من الفردوس؛ وقد أمسكت بجناحيه بذاك العنف حتى لم يعد بوسعه أن يضمّهما. وهي تدفعه بصورة لا تُقاوم نحو المستقبل الذي

الجماعات المتخيّلة . . .

أدار له ظهره، في حين يعلو الحطام أمامه حتى يبلغ عنان السماء. هذه العاصفة هي ما ندعوه التقدم [112].

غير أنّ الملاك خالد، ووجوهنا متجهة صوب الجهول الذي يقوم قُدَّامنا.

## 10) التعداد، الخارطة، المتحف

كتبتُ في الطبعة الأولى من ‹الجماعات المتخيّلة› عن "ذلك الحماس القومي الشعي الأصيل وذلك الفرّس المنهجي، بل والميكافيللي، للإيديولوجية القومية من خلال وسائل الإعلام والنظام التربوي والأنظمة الإدارية وسواها، اللذين غالباً ما نراهما معاً في سياسات "بناء الأمة" التي تتبعها الدول الجديدة الله. وكنت أفترضُ أننذ بنوع من قِصَر النظر أن القومية الرسمية في الدول في العوالم المستعمَرة في أسيا وإفريقية قد صيغت مباشرة على غرار القومية الرسمية في الدول الملكية السلالية في أوروبا القرن التاسع عشر. ولقد أقنعي التفكير الذي تلا ذلك بأنَّ هذه النظرة هي نظرة متسرّعة وسطحية، وبأنَّ النَّسب المباشر ينبغي أن يتم تتبّعه في تحيّلات الدولة الكولونيالية. وقد يبدو هذا الاستنتاج مدهشاً، للوهلة الأولى، لأنَّ الدول الكولونيالية كانت في العادة مناهضة للقومية، وغالباً ما كانت تلك المناهضة عنيفةً. غير أنَّه حين ينظر المرء تحت الإيديولوجيات والسياسات الكولونيالية إلى القواعد الي كانت تستخدمها، منذ أواسط القرن التاسع عشر، فسيجد بلا شكَ أن خط النَّسب يتّضح مزيداً من الوضوح.

وإنها لقليلة جداً تلك الأشياء الت تُظْهِرُ هذه القواعد بالقَدْر الذي تُظْهِرها به ثلاث من مؤسسات السلطة التي ابتُدِعَت قبل منتصف القرن التاسع عشر لكنها عملت على تغيير شكلها ووظيفتها ما إنْ دخلت المناطق المستعمرة عصر الاستنساخ الميكانيكي، وهذه المؤسسات الثلاث هي التعداد، والخارطة، والمتحف، التي صاغت معاً، وعلى نحو عميق، الطريقة التي تحيّلت بها

الدولة الكولونيالية بحال نفوذها وسلطانها: طبيعة البشر الذين تحكمهم، وجفرافيا أهلاكها، وشرعية أسلافها. ولكي أستكشف طابع هذا التواشج سوف أقصر اهتمامي، في هذا الفصل، على جنوب شرقي اسيا، ذلك أنّ استنتاجاتي مترددة، وما أزعمه من تخصّص جدّي مقصور على هذه المنطقة. غير أنّ جنوب شرقي آسيا يوفّر للمهتمين بالتاريخ المقارن مزايا خاصة، ذلك أنه يشتمل على مناطق استعمرتها جميع القوى الإمبريالية "البيضاء" تقريباً -بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا والولايات المتحدة - فضلاً عن اشتماله على سيام الي لم تُستَعمَر. وسوف يكون القرّاء الذين بجوزون معرفة أكبر من معرفي بالأجزاء الأخرى من آسيا وإفريقية في موقع بمكنهم من الحكم على صحة آرائي في نطاق تاريخي وجغرافي أوسع.

#### 1/10) التعداد

كان عالم الاجتماع تشارلز هيرشان قد بدأ، في بحثين قيّمين نُشرا مؤخّراً، دراسة عقليات البريطانيين الكولونياليين الذين قاموا على إجراء التعداد في مستوطنات المضائق الله وشبه جريرة ملايو، وخلفائهم النين عملوا لدى دولة ماليريا المنتعة المستقلة <sup>[2]</sup>. وما تُظْهره النسخ الت يقدّمها هير ثمان من "بيانات الموية" الت كانت تسمى وراءها التعدادات المتعاقبة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى فترة قريبة من الأن هو سلسلةٌ من التغيرات السريعة على نحو استثنائي، والاعتباطية في الظاهر، كانت تتجمّع من خلالها هذه البيانات وتنفصل، وتتجمّع منّ جديد، وتختلط، وتعيد الترتيب على نحو متواصل (ولكن مع بقاء البيانات الفاعلة سياسياً على رأس القائمة على الدوام). وما يتوصّل إليه هير شان من هذه التعدادات هو استنتاجين أساسين اثنين. الأول هو أنَّ بيانات التعداد كانت تغدو عرقية على نحو أوضح وأشدّ حصريَّة، كلما طالت المرحلة الكولونيالية [3]. وأنّ الموية الدينية، من جهة أخّري، راحت تختفي بصورة تدريجية كبيان تعداديّ أساسيّ. هكذا اختفى "الهندوس" -الذين كانوا يُصَنَّفون إلى جانب "الكلنفيين" و"البنفال"- بعد التعداد الأول عام 1871. وبقي "البارسيون" حتى تعداد العام 1901، حيث واصلوا الظهور جموعين مع "البنفال"، و"البورميين"، و"التاميل" -تحت بيان "التاميل وغيرهم من سكان المند الأصليين". أمّا الاستنتاج الثاني فهو أنّ الفئات العرقية الكبيرة قد جرى الحفاظ عليها، بوجهِ عام، بل وتركّرت بعد الاستقلال، إنَّا مع إعادة تحديدها وتصنيفها باعتبارها "ماليرية"، و "صينية"، و"هندية" و"أخرى". بيد أنَّ الحالات الشاذَّة استمرت حتى غانينيات القرن العشرين. ففي تعداد العام 1980 ظهر "السيخ" على نحو مزعج بوصفهم فئة فرعية شبه إثنية -إلى جانب "المالاواليين" و"التيليفو"، و"الباكستانيين" و"البنفلادشيين"، و"التاميل السريلانكيين"، و"السريلانكيين الأخرين"- تحت العنوان العام "هنود".

لكن نسخ هير ثان الرائعة تشجّع المرء على أن يمضي أبعد من اهتماماته التحليلية المباشرة. خنوا، على سبيل المثال، تعداد العام 1911 في ولايات الملايو الفيدرالية، والذي يضع تحت عنوان "سكان الملايو بحسب العرق" ما يلي: "المالاويين"، "الجاويين"، "الساكاي"، "البنجاريين"،

"اليونانيين"، "المندلنغ" (كذا)، "الكرينشيين) (كذا)، "الجامبيين"، "الأشينيين"، "البوجيين"، و"أخرين"، ومن بين هذه "الجماعات" يعود أصل الجميع ما عدا (معظم) "المالاويين و"الساكاي" إلى جزر سومطرة، وجاوة، وبورنيو الجنوبية، والسيليبيس، وجيعها أجزاء من مستعمرة الإنديز الشرقية المولندية الضخمة الجاورة. غير أنَّ هذه الأصول من خارج ولايات الملايو الفيدرالية لم تُحطُّ بأي اعتراف من القائمين على التعداد الذين عملوا، في بنائهم أبناء جلدتهم "المالاويين"، على إبقاء عيونهم منخفضة ومتواضعة لم تتعدُّ حدودهم الكولونيالية الخاصة. (ولا حاجة للقول، إنَّ القائمين على التعداد المولنديين، عبر البحار، كانوا يبنون تخيَّلاً مختلفاً لـ "المالاويين"، بوصفهم إثنية صغرى إلى جانب، وليس فوق، "الأشينيين"، "والجاويين"، وما شابه). ويشير "الجامبيين" و"الكرينشيين" إلى مكانين، وليس إلى أيّ شيء عكن تحديده ولو من بعيد كإثنية لفوية. ومن غير الحتمل إلى أبعد حدّ أن يكون أكثر من جزء بالغ الصفر من أولئك الذين صُنَّفوا في فئات أساسية أو فرعية قد نظروا إلى أنفسهم، في العام 1911، تحت مثل هذه التسميات. فهذه "الهويات"، الن تخيّلها عقل الدولة الكولونيالية التصنيفي، كانت لا تزال تنتظر تشييئاً سرعان ما سيجعله الاختراق الإداري الإمبراطوري مُكناً. وما يُلاحَظ، علاوةً على ذلك، هو شغف القائمين على التعداد بالكمال وعدم الالتباس. ومن هنا عدم إطاقتهم تلك التحديدات المتعددة، أو "المنقلبة" سياسياً، أو "المشوَّشة" أو المتبدلة. ومن هنا تلك الفئة الفرعية الغريبة الن نحدها تحت كل جماعة عرقية، ألا وهي فئة "الأخرين"، الن لا ينبغي على الإطلاق أن تخلط مع "الأخرين" الأخرين. ويكمن تخييل التعداد في أنَّ كلِّ أحدٍ موجود فيه، وأنّ لكلّ أحد مكان واحد -وواحد فقط- واضح أشدّ الوضوح. فما من كسور،

ولأنَّ أصول هذا النمط من التخيُّل الذي غارسه الدولة الكولونيالية أقدم من تعدادات سبعينيات القرن التاسع عشر، فإنّه من المفيد، لكي نفهم غاماً لماذا كانت تعدادات أواخر القرن التاسع عشر جديدة على نُو عميق على الرغم من ذلك، أن ننظر إلى الوراء إلى الأيام الأولى من الاختراق الأوروبي لجنوب شرق آسيا. ويكفي هنا أن نعرض لمثالين، نستمدّهما من الأرخبيلين الفيليبين والإندونيسي. فقد حاول وليم هنري سكوت، في كتاب هام صدر مؤخَّراً، أن يعيد على نحو بالغ التدقيق بناء البنية الطبقية للفيليبين قبل الهسبانية، وذلك على أساس أقدم السجلات الإسبانية 14. ويدرك سكوت غام الإدراك، بوصفه مؤرِّخاً ختصاً، أن الفيليبين تدين باسها إلى فيليب الثاني "الإسباني"، وأنَّ الارخبيل، لولا الحظوظ التَعِسة أو الطيبة، كان يمكن أن يقع بايدي المولنديين أو الإنغليز، ويُقُسَّم سياسياً، أو يُعاد تركيبه مع فتوحات أخرى 15 ولذلك فإنَّ من المغري أن نعرو اختياره اللافت للموضوع إلى إقامته الطويلة في الفيليبين وتعاطفه القوي مع قومية فيليبينية لا تزال، منذ قرن إلى الأن، تقتفي آثار جنَّة السكان وتعاطفه القوي مع قومية فيليبينية لا تزال، منذ قرن إلى الأن، تقتفي آثار جنَّة السكان الأصليين. غير أنَّ الحظوظ طيبة أنَّ الأساس العميق لتشكيل خياله كان المصادر الت أُجْبر وتعامد عليها. فالحقيقة أنه حيثما غامر رجال الدين والفانحون في الجزر كان بصرهم يقع، على الشواطئ، على principales (أمراء) و hidalgos (عامّة) و esclavos على الشواطئ، على principales (أمراء) و hidalgos (عامّة) و esclavos

(عبيد)؛ فيما يشبه العِزَب التي جرى استمدادها من التصنيفات الاجتماعية في إيبيريا أواخر القرون الوسطى. وتوفّر الوثائق التي خلّفوها وراءهم كمّا وافراً من الأدلّة المادية على أنَّ معظم "النبلاء" لم يكن واحدهم يعلم بوجود الأخر في الأرخبيل الضخم، المبُعثر، ومشتّت السكّان، وأنهم حين كانوا يعلمون بوجود بعضهم بعضاً، عادةً ما كان واحدهم ينظر إلى الأخر لا كنبيل، بل كعدو أو عبد مُختمَل. لكن قوة الشبكة كانت عظيمة جداً إلى درجة أنَّ مثل هذه الأدلة مُمّشت في خيال سكوت، ولذلك كان من الصعب عليه أن يرى أنَّ "البنية الطبقية" في المرحلة ما قبل الكولونيالية هي تخيّل "إحصائي" أبدع من مؤخّرات السفن الإسبانية. فحيثما ذهبوا، كان يلوح لهم النبلاء والعبيد، الذين ما كان لهم أن يُخمّلوا على هذا النحو، أي "بنيوياً"، إلا من قبّل دولة كولونيالية في أطوارها الأولى.

أما بالنسبة لإندونيسيا، فإنَّ لدينا، بفضل البحث الذي أجراه ماسون هودلي، وصفاً مفصَّلاً لقضية هامة صدر الحكم النهائل فيها في سيريبون، وهي مرفأ ساحلي في جاوة، في نهاية القرن السابع عشر 1<u>61</u>. ومن حسن الحظّ أنَّ السجلات المولندية (سجلات شركة الهند الشرقية المتحدة) والسيريبونية الحلية لا تزال متاحة. فلو بقيت الرواية السيريبونية وحدها لكُنَّا عرفنا الْمُتَّهِم بالقتل على أنَّه موظَّف كبير في البلاط السيريبوني، وبلقبه وحسب كي أريا مارتا نينغارت، وليس باسمه الشخصي. أما سجلات شركة الهند الشرقية المتحدة فتحدد هويته غاضبةً على أنه صين؛ والحال أنَّ هذه هي المعلومة الهامة الوحيدة الت تنقلها عنه هذه السجلات. ومن الواضح إذاً أنَّ البلاط السيريبوني كان يصنَّف البشر بحسب المرتبة والمكانة، بينما كانت الشركة تصنفهم بحسب شيء يشبه "العرق". وما من سبب مهما يكن لأن نعتقد أنّ المُتّهم بالقتل - الذي تثبت مكانته العالية انتماءه وانتماء أسلافه القديم إلى الحتمع السيريبوني، بصرف النظر عن أصولهم -كان ينظر إلى نفسه على أنَّه صين. فكيف توصَّلت شركة الهند الشرقية المتحدة إذاً إلى هذا التصنيف؟ من أيّ مؤخّرة سفينة كان من الممكن تخيّل أنّه صين؟ لا شكّ أنّ ذلك لم يكن مُكناً إلا من مؤخّرات تلك السفن التجارية الضارية الن كانت تجوب البحار بلا توقّف، وبأمر مركزي، من ميناء إلى آخر بين خليج مبرغوي [بورما] وفم نهر يانفتسى-كيانغ [الصين]. ولقد تخيّلت الشركة، بعينها العابرة للمحيطات، سلسلةً لا تنتهي من الـ Chinezen (الصينيين)، مثلما كان الفاتحون قد رأوا سلسلة لا تنتهي من النبلاء، ناسيةً سكَّان الملكة الوسطى التغايرين؛ وعدم الفهم المتبادل بين كثير من لغاتهم المنطوقة؛ والأصول الاجتماعية والجغرافية الحدّدة لجالياتهم الموجودة في سواحل جنوب شرق آسيا. وعلى أساس هذا التعداد المُخْتَرع بدأت الشركة الإلحاح على أنَّ أولئك الذين تحت سيطرتها وقامت بتصنيفهم على أنهم Chinezen ينبغي أن يلبسوا، ويقيموا، ويتزوجوا، ويُدْفَنوا، ويرثوا تبعاً لذلك التعداد. ومن اللافت أنَّ الإيبيرين في الفيليبين بتفكيرهم الأضيق والأبعد عن التجارة كانوا قد تخيلوا صنفاً تعدادياً مختلفاً عَاماً: هو ما دعوه باسم Sangley (سانغلي). وكلمة Sangley كانت قد أَدْخِلَت إلى اللغة الإسبانية من كلمة sengli (سينغلي) الموكّينية، وتعن "تاجر" 171. وعكن للمرء أن يتخيّل إسبان ما قبل هذا التعداد

وهم يسألون التجار الذين جلبتهم السفن التجارية إلى مانيلا: "من أنتم؟" فيُجاب عليهم بصورة واضحة: "غن تُحَرِّ الْكَالِي وَلَان الإيبيريين لم يجوبوا البحار الأسيوية السبعة، فقد ظلوا طوال قرنين من الزمان في حالة من التشوش وضيق التفكير المريح. ولم تتحول Sangley إلى "Chinese" (صين) إلا ببطء، إلى أن اختفت في أوائل القرن التاسع عشر مفسحة الجال أمام كلمة chino على طريقة شركة الهند الشرقية المتحدة.

ولذلك، فقد عَثَّل التجديد الفعلي الذي جاء به من قاموا بتعداد سبعينيات القرن التاسع عشر ليس في بناء تصنيفات عرقية-إثنية، بل في تكميمهم المنهجي. ولقد حاول الحكّام ما قبل الكولونياليين في العالم الجاوي-المالاوي إجراء عمليات عدِّ للسكان الواقعين تحت سيطرتهم، لكن هذه العمليات أخذت شكل سجل الضرائب أو قوائم التجنيد. فأغراضها كانت ملموسة ومحدة: التتبع المستمرّ لأولئك الذين عكن أن تُفرّض عليهم الضرائب والخدمة العسكرية؛ ذلك أنّ هؤلاء الحكام لم يكونوا مهتمين سوى بالفائض الاقتصادي والقوة البشرية التي يمكن تسليحها. ولم تختلف أنظمة الحكم الأوروبية الأول في هذه المنطقة عن سابقتها ذلك الاختلاف الكبير على هذا الصعيد. إلا أن السلطات الكولونيالية بعد العام 1850 راحت تستخدم وسائل إدارية متزايدة التعقيد في عدّها السكّان، عن فيهم النساء والأطفال (الذين كان الحكام السابقون يتجاهلونهم باستمرار)، انطلاقاً من متاهة من الخانات الن ليس لما غرض مالي أو عسكري مباشر. وفي سالف الأيام، عادةً ما كان أولئك الرعايا الذين يتوجّب عليهم دفع الضرائب أو الالتحاق بالخدمة العسكرية يدركون جيداً قابليّتهم للعدّ؛ فالحاكم والحكوم كانا يفهمان واحدهم الآخر أحسن الفهم على هذا الصعيد، وإنْ يكن فهماً عدائياً. أما كلول العام 1870، فكان عقدور المرأة "الصينية-الكوشينية" اليّ لا تدفع الضرائب، ولا تُعَنَّد، أن عَضى حياتها، سعيدة أو تعيسةً، في مستوطنات المضائق، دون أن تدرك أيّا إدراك أنَّ هذا ما كان قد خُطَط لما من الأعلى. وهنا تغدو خصوصية التعداد الجديد واضحةً. فقد حاولتْ بكلِّ عناية أن تعدُّ موضوعات تخيّلها الحموم. ونظراً لما يتّسم به نظام التصنيف من طبيعة حصرية، ونظراً لمنطق التكميم ذاته، كان لا بدّ لـ "الصين-الكوشين" أن يُفْهَم على أنّه رقم واحد في سلسلة قابلة للجمع من "الصينيين-الكوشينيين" الذين عكن استبدال واحدهم بالآخر، داخل نطاق الدولة بالطبع. ولقد ضرَبَت هذه الطوبوغرافيا الديموغرافية بجذور اجتماعية ومؤسساتية عميقة مع تضاعف حجم الدولة الكولونيالية ووظيفتها. وعملت بهدى من خريطتها المُتخيَّلة على تنظيم بيروقراطياتها في محالات التعليم، والقضاء، والصحة العامَّة، والشرطة، والمجرة، تلك البيروقراطيات الن كانت تبنيها على أساس تراتبيات عرقية-إثنية مع أنّها عادةً ما كانت تُفهَم على أنها سلاسل متوازية. ولقد خلق انسياب السكّان الخاضعين عبر شبكة المدارس، والحاكم، والعيادات، ومراكز الشرطة، ومكاتب المجرة المتفاوتة "عاداتٍ مروريةً" منَحَتْ تهويمات الدولة الباكرة حياةً اجتماعية فعلية.

ولا حاجة للقول إنَّ الأمر لم يكن سهلاً على الدوام، وإنَّ الدولة كثيرًا ما اصطدمت بمقائق

مزعجة. وأهمّ هذه الحقائق على الإطلاق كان الانتماء الدين، الذي شكّل أساساً لجماعات مُتخبِّلة بالغة القِدَم، وشديدة الاستقرار لا تتماشى مع الخارطة-الشبكة السلطوية الخاصة بالدولة العلمانية. فقد كان الحكّام مضطرين بدرجاتٍ مختلفة، وفي شتّى مستعمرات جنوب شرق أسيا، لأن بجروا تسويات قذرة، خاصةً مع الإسلام والبوذية. وعلى الأخص، فقد واصلت ازدهارها تلك المزارات، والمدارس، والحاكم الدينية الى كان كدّد دخولها الخيار الذاتي الشعبي الفردي، وليس التعداد. ونادراً ما كان مقدور الدولة أن تفعل ما يزيد على محاولة تنظيم هذه المؤسسات، وتحديدها، وعدّها، وتوحيد معاييرها، وإخضاعها لمؤسساتها الخاصة[19]، ولأنَّ المعابد، والمساجد، والمدارس، والحاكم كانت خارجةً على القياس من الناحية الطوبوغر افية فقد فُهمَت على أنها مناطق عرّرة، بل وقلاعاً -في بعض الأحيان- عكن للمناهضين للكولونيالية المتدينين، ولاحقاً القوميين، أن يخرجوا منها إلى القتال. ولقد جرت، في الوقت ذاته، محاولات متكررة لفرض نوع من الاتساق بين التعداد والطوائف الدينية من خلال فرض الطابع الإثن على هذه الأخيرة سيّاسياً وقانونياً، بقدر ما كان ذلك عكناً. وكانت هذه المهمة سهلةً نسبياً في ولايات الملايو الفيدرالية الكولونيالية. فأولئك الذين اعتبرهم نظام الحكم من سلسلة "المالاويين" دُفِع بهم إلى عاكم "سلاطينهم" المُخصيين، الن كانت تُدار في جزئها الأكبر بحسب الشريعة الإسلامية <del>[110]</del>. وهكذا عوملت كلمة "مسلم" على أنها مجرد اسم أخر لـ "المالاوي". (ولقد ظلَّ الأمر كذلك إلى ما بعد الاستقلال في العام 1957 حين بذلت جماعات سياسية معينة جهوداً لعكس هذا النطق باعتبار كلمة "مالاوي" اتمأ آخر لـ "المسلم"). أمّا في الإنديز الهولندية الشاسعة، المتغايرة، حيث قامت مجموعة من المنظمات التبشيرية المتصارعة في نهاية الحقبة الكولونيالية بعمليات تنصير كبيرة في مناطق متفرقة واسعة، فقد واجه دافع ماثلٌ عقبات كبيرة. غير أنَّ عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته شهدت، حتى هناك، تنامى المسيحيات "الإثنية" (الكنيسة الباتاكية، الكنيسة الكاروية، ولاحقاً الكنيسة الداياكية، وما إلى ذلك) الت يعود جزء من ظهورها إلى تخصيص الدولة الجماعات التبشيرية المختلفة بمناطق للمتنصرين الجدد تبعأ لطوبوغرافيا وتعداد كلُّ جماعة. ولم تحقِّق باتافيا مع الإسلام نجاحاً عاثلاً. فلم تجرُؤ على منع الحجِّ إلى مكة، مع أنها حاولت أن تحول دون غو أعداد الحجيج، وخفَرَت أسفارهم، وتجسست عليهم من نقطة أمامية في جدّة وُضِعَت لهذا الغرض. ولم يكن أيّ من هذه الإجراءات كافياً للحيلولة دون اشتداد صلات المسلمين الإنديز مع العالم الإسلامي الشاسع، خاصةً تلك التيارات الفكرية الجديدة الت كانت تنبعث من القاهر والللاً.

#### 2/20) الخارطة

بيد أنَّ القاهرة ومكَّة راح يُنظَر إليهما، في هذه الأثناء، بطريقة جديدة غريبة، فلم تعودا بحرّد موقعين في جغرافيا إسلامية مقدّسة، بل باتتا أيضًا نقطتين على صفحات ورقية اشتملت على نقاطٍ لباريس وموسكو ومانيلا وكاراكاس؛ ولم تعد العلاقة المستوية بين هذه النقاط سواء

كانت مدنّسة أم مقدّسة تتحدّد بما يريد على الطيران بخطِّ مستقيم محسوب رياضياً. فالخارطة المِركاتورية السلام، التي جاء بها المستعمرون الأوروبيون، كانت قد بدأت، عبر الطباعة، بتشكيل خيال البشر في جنوب شرق أسيا.

ولقد تتبع المؤرّخ التايلندي ثونغشاي وينيشاكول، في أطروحة المعية حديثة، تلك السيرورات التي ظهرت من خلالها "سيام" بحدودها المرسومة إلى حيّر الوجود بين 1850 و1910 [121]. وتأتي أهمية الرواية التي يقدّمها هذا المؤرّخ من أنّ سيام لم تُستعمّر، على الرغم من أنّ ما صار حدودها، في النهاية، قد رسمه الاستعمار. ولذلك يمكن للمرء، في حالة تايلاند، أن يرى بذلك الوضوح غير المعتاد ظهور عقلية دولةٍ جديدة ضمن بنية سلطةٍ سياسيةٍ "تقليدية".

لم تعرف سيام، حتى تتويج راما الرابع الذكي (المونفكوت في فيلم الملك وأنا) عام 1851، سوى نوعين من الخرائط، كان كلاهما يدوياً: فعصر الاستنساخ الميكانيكي لم يكن قد بزغ هناك بعد. وأول هذين النوعين هو ما يمكن أن ندعوه باسم "الكورموغراف" [صورة الكون]، وهو عُثيلٌ شكليٌّ، رمزى للعوالم الثلاثة الت يتألف منها الكون البوذي التقليدي. ولم يكن الكورموغراف مُنظِّماً أفقياً، كما هي خرائطنا؛ بل كان سلسلةً من السماوات فوق الأرضية وضروب الجحيم تحت الأرضية حُشِرت في العالم المرئي على طول محور شاقولي واحد. ولم يكن مفيداً لأيّ رحلة سوى تلك الن تُرحَل بَكثاً عن الجدارة والخلاص. أمّا النوع الثاني، المُدنّس عاماً، فكان عبارة عن رسوم بيانية لإرشاد الحملات العسكرية والسفن. ولأنَّ هذه الرسوم الإرشادية كانت منظّمة بصورة تقريبية باستخدام الربعيّة <del>لها</del>، فقد كان من الضروري كتابة خصائصها الأساسية كملحوظات في أوقات المسير والإبحار لأنَّ واضعي الخرائط لم يكن لديهم أي تصور تقي لمسألة القياس أو التدريج. ونظراً لكونها لا تغطى سوى الحيّر الأرضى، المُنْس، فإنَّ هذه الرسوم الإرشادية عادةً ما كانت تُرسَم عنظور مائل غريب أو بخليط من المنظورات، كما لو أنّ عيون الرسامين، الت عوَّدتها الحياة اليومية أن ترى المنظر أفقياً، على مستوى العين، كانت قد تأثرت دون أن تشعر بشاقولية الكوزموغراف. ويشير ثونغشاي إلى أنَّ هذه الخرائط الإرشادية، الحلية على الدوام، لم توضع في سياق جغرافي مستقر، أكبر، وأنَّ نظرة عين الطائر التي غدت عُرْفاً في الخرائط الحديثة كانت غريبة عنها كلِّ الغرابة.

ولم يكن ثمة حدود واضحة في أيّ من هذين النوعين من الخرائط. وما كان واضعوها ليفهموا الصياغة الأنيقة التالية الت صاغها ريتشارد موير:

إنّ للحدود الدولية، الموافقة لخطوط التقاء أراضي الدول المتجاورة، أهمية خاصة في تقرير حدود السلطة ذات السيادة وتحديد الحيّز المكاني الذي تحلّه المناطق التابعة سياسياً لكلّ دولة . . . الحدود . . تقع حيث تقطع خطوط الالتقاء الشاقولية بين الدول ذات السيادة سطح الأرض . . وبوصفها خطوط التقاء شاقولية، فإنه ليس للحدود مدى أفقي . . [11]

ولقد كانت أحجار الحدود ونقاط العلام الماثلة موجودة، بل وتضاعفت على طول الأطراف

الفريبة للمملكة حيث راح البريطانيون يدفعون هذه الحدود من بورها السفلي. لكن هذه الاحجار لم تكن توضع على نحو متواصل عند المرات الجبلية والمخاضات النهرية الإستراتيجية، وغالباً ما كانت تقع على مسأفات كبيرة عن الأحجار المماثلة الت يضعها العدو. وكانت تُقْرَأ أفقياً، على مستوى العين، على أنَّها نقاط امتداد للسلطة الملكية؛ و "ليس من الجوِّ". ولم يبدأ زعماء تايلاندا إلا في سبعينيات القرن التاسع عشر بالنظر إلى الحدود على أنها أجزاء من خطّ خرائطيّ متواصل لا يتوافق مع أي شيء مرئي على الأرض، بل يرسمُ حدود سيادةِ حصريةِ محشورة بين سيادات أخرى. وفي العام 1874 ظهر أول كتاب مدرسي جفرافي، وضعه المِشّر الأميركي ج. و. فإن دايك، وكان نتاجاً باكراً لرأسالية الطباعة الن كانت تكتسح سيام في ذلك الوقت. وفي العام 1882، أسس راما الخامس في بانكوك مدرسة خاصة لوضع الخرائط. وفي العام 1892، عمد وزير التربية الأمير دامرونغ راجانوفاب، إلى جعل الجغرافيا مادة إجبارية للمستوى الثانوي الأدني، وذلك في إطار تدشينه نظام المدارس الحديثة على مستوى البلاد. وفي العام 1900، أو حواليه، نُشر كتاب فوميسات سايام [جغرافيا سيام] لمؤلَّفه و. غ. جونسون، الذي بات غوذجاً لجميع جفر افيات البلد المطبوعة منذ ذلك الحين فصاعداً <del>[114]</del>. ويلاحظ ثونفشاي أنَّ التقارب الموجّه بين رأسمالية الطباعة وما قدّمته هذه الخرائط من تصوّر جديدٍ للواقع المكاني قد كان له تأثيره المباشر على معجم مفردات السياسة التايلاندية. فبين 1900 و1915، اختفت الكلمتان التقليديتان كرونغ وموانغ إلى حدِّ بعيد، لأنهما كانتا تصوّران منطقة السيادة كعواصم مقدّسة، ومراكز سكانية واضحة، غير متمادية 115]. وحلّت مكانهما كلمة بار ثيت، "بلد"، الت صوّرت منطقة السيادة كمكان إقليمي ذي حدود ليست مرئية [16].

ومثل التعدادات، فإن الخرائط على النمط الأوروبي وضعت الأساس لتصنيف شامل، وساقت منتجيها ومستخدميها البيروقراطيين صوب سياسات ذات نتائج ثورية. فمنذ اختراع جون هاريسون للكرونومتر عام 1761، تلك الأداة التي مكّنت من حساب خطوط الطول ذلك الحساب الدقيق، بات سطح الكوكب المنحي برمّته واقعاً في إسار شبكة هندسية وضعت البحار الفارغة في مربعات والمناطق غير المُستكشفة في خانات مُقاسة 1711. وكان ينبغي على المستكشفين، والمسّاحين، والقوات العسكرية أن تنجز مهمة "ملء" الخانات، إذا جاز التعبير. وقد كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في جنوب شرق أسيا، عصر المسّاحين العسكريين الذهبي، سواء كانوا كولونياليين أم تايلانديين، بعد ذلك بقليل. وكان هؤلاء في طريقهم إلى إخضاع المكان للرقابة ذاتها التي كان القيّمون على التعداد يسعون لفرضها على الأشخاص. ولقد تواصل تحالف الخارطة والسلطة، قياساً إثر قياس، وحرباً بعد حرب، ومعاهدة خلف معاهدة. وكما يقول ثونغشاي بحق:

ما تراه معظم نظريات الاتصال فضلاً عن الفهم الشائع، هو أنَّ الخارطة بُريد علميّ للواقع. فالخارطة تقتصر على تمثيل شيء موجود مسبقاً وبصورة موضوعية. وهذه العلاقة كانت معكوسةً، في التاريخ الذي وَصَفْتُهُ. فالخارطة كانت سابقة على الواقع المكاني، وليس العكس. وبعبارةٍ أخرى، فقد كانت الخارطة نموذجاً لما قصدتُ أن تمثّله ولم تكن نموذجاً منه . . . لقد غدت أداةً فعلية لِلْمَسَةِ إسقاطاتٍ تُسقَط على سطح الأرض. وباتت الخارطة الأن ضرورية لأليات الإدارة الجديدة وللجيوش كي تؤكّد ما تدّعيه من حقوق . . . والخطاب الذي ينطوي عليه وَضْعُ الخرائط بات الإطار المفهومي الذي يحري ضمنه وتخدمه العمليات الإدارية والعسكرية على حدّ سواء [18].

وعند مُنْقَلَب القرن، ومع الإصلاحات الت أجراها الأمير دامرونغ في وزارة الداخلية (وهذا اسمٌ خرائطيّ دقيق)، وُضِعَت إدارة المملكة في النهاية على أساس خرائطيّ -إقليميّ عاماً، على غرار ما سبق فِعله في المستعمرات الجاورة.

وليس من الحكمة أن نُفْفِل التداخل الحاسم بين الخارطة والتعداد. ذلك أنَّ الخارطة الجديدة عملت بقوة على قَطْع تلك السلاسل اللانهائية من "الهاكييّن"، و"السريلانكيين من غير التاميل"، و"الجاويين" الي كان جهاز التعداد الرسمي يستحضرها سحرياً، لأغراض سياسية، وذلك بتحديدها المناطق الي تنتهي عندها. وبالمقابل، فقد عَمِلَ التعداد، من خلال نوع من محديد المواقع الدعوغرافية، على ملء طوبوغرافيا الخارطة الرسمية سياسياً.

ومن هذه التغيرات برغ تحسيدان للخارطة (كلاهما أنشأته الدولة الكولونيالية في مرحلتها الاخيرة) كانا عثابة تصوّر مسبق لقوميات جنوب شرق آسيا الرسمية في القرن العشرين. فكثيرًا ما حاول الأوروبيون أن يضفوا الشرعية على نشر سلطتهم بطرائق شبه قانونية، نظراً لإدراكهم التام أنهم يشغلون في هذه المناطق المدارية المكانة التي يشغلها المتطفّل، وإدراكهم أيضًا أنهم جاؤوا من حضارة كانت قد ترسّخت فيها الوراثة القانونية وإمكانية نقل ملكية المكان المبخرافي بصورة قانونية منذ وقتٍ طويل 191 وكان من بين الطرائق الأكثر شيوعاً "وراثتهم" تلك السيادات التي كان يدّعيها الحكام الحليون الذين أطاح بهم الأوروبيون أو أخضعوهم. ففي كلا الحالين، انكب مغتصبو السلطة، في مواجهة الأوروبيين الأخرين خاصّة، على إعادة بناء تاريخ ملكية ما بات لديهم من عملكات جديدة. ومن هنا ظهور "الخرائط التاريخية"، في أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، والتي قُصِدَ منها أن تبيّن، عبر خطاب خرائطيً جديد، وقدم وحداتٍ إقليمية معينة، وعددة بشدّة. هكذا كان لسلاسل مُرَتَّبة زمنياً من هذه الخرائط، أن تُبْرِزَ إلى الوجود نوعاً من الرواية السّيريّة السياسية عن الملكة، كانت تتصف في بعض الأحيان بعمق تاريخي هائل 102 وبدورها، فقد عمدت الدول الأمم، التي غدت في القرن العشرين الدول الكولونيالية، إلى تبن هذه الرواية، وإن تكن قد عدّلتها في أغلب الحالات [21].

وعَثّل التجسيد الثاني في الخارطة-بوصفها-لوغو (شعاراً أو رمزاً). وهذا التجسيد هو ذو أصول قد يكون من المنطقي القول إنها بريئة: ما كانت عارسه الدول الإمبراطورية من تلوين مستعمراتها على الخرائط بصباغ إمبراطوري. ففي خرائط لندن الإمبراطورية، عادةً ما كانت المستعمرات البريطانية تُلوَّنَ بالأحر-الزهري، والفرنسية بالأزرق-الارجوان، والهولندية بالبيّ - الاصفر، وهلمجرا. وبتلوينها على هذا النحو، كانت كلّ مستعمرة تبدو مثل قطعة

قابلةٍ لأن تُفْصَل وحدها من لعبة الصور المُقطَّعة. وحين غدا مفعول "الصور المُقطَّعة" هذا معتاداً وهائعاً، صار من الممكن فصل كلّ "قطعة" عن سياقها فصلاً كاملاً. وبات من الممكن، في الشكل النهائي، إزالة جميع الشروح التفسيرية: خطوط الطول والعرض، أسماء الأماكن، علامات الأنهار والبحار والجبال، والجيران. وبذلك بُثناً إزاء علامةٍ صِرْف، لم تَعد مقيدةً إلى العالم. وبهذا الشكل، دخلت الخارطة سلسلةً قابلةً للاستنساخ إلى ما لا نهاية، وبات من الممكن تحويلها إلى ملصقات، وأختام رسية، وترويسات، وأغلفة بحلات وكتب مدرسية، وأغطية مناضد، وجدران فنادق. ولأن الخارطة – اللوغو بمكن تمييزها على الفور، وتُرى في كلِّ مكان، فقد اخترقت عميقاً الخيال الشعي، وباتت رمزاً قوياً للقومية الوليدة المناهضة للكولونيالية [22].

وتشكّل إندونيسيا الحديثة مثالاً جيداً ومؤلاً على هذه السيرورة. ففي العام 1828 أقيمت أول مستوطنة هولندية مصابة بالحمى على جزيرة غينيا الجديدة. ومع أنَّ هذه المستوطنة توجّب إخلاؤها عام 1836، فإنَّ التاج الهولندي أعلن سيادته على ذلك الجزء من الجزيرة الواقع غربي خط الطول 141 درجة (وهو خط غير مرئي ولا يوافق شيئاً على الأرض، لكنه موجود في الخانة التي تشتمل على فضاءات كونراد الفارغة أقا التي راحت تتضاءل شيئاً فشيئاً)، باستثناء بعض المناطق الساحلية المتمادية التي اعتبرت تحت سيادة سلطان تيدور. ولم تَشْتِر لاهاي حصة السلطان إلا في العام 1901، لتضمّ غينيا الجديدة الغربية إلى الإنديز الهولندية في الوقت المناسب لتحويل الخارطة إلى لوغو. وبقيت أجزاء واسعة من المنطقة بين فضاءات كونراد الفارغة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ وكان معظم تلك الحفنة من الهولنديين الموجودين هناك من المبشرين، والمنقبين عن المعادن، وحرّاس سجون اعتُقِل فيها القوميون الإندونيسيون الراديكاليون العنيدون. ولقد اختيرت المستنقعات إلى الشمال من ميروك، عند الطرف الجنوبي الشرقي الأقصى من غينيا الجديدة المولندية، كموقع لمذه المرافق، وذلك على وجه الدقة الشرقي الأقصى من غينيا الجديدة المولندية، كموقع لمذه المرافق، وذلك على وجه الدقة المرتفي المنطقة كانت تُعَدّ نائية عَاماً عن بقية المستعمرة، ولأنَّ سكانها الحلين "من العصر الحجري" كانوا يُعدّون مُطَهْرين عَاماً من التفكير القومي 1231.

ولقد عمل اعتقال القوميين في غينيا الجديدة الغربية، ودفنهم هناك في أغلب الأحيان، على إعطاء هذه المنطقة مكانة مركزية في فولكلور الكفاح ضد الكولونيالية، وجَعَلَها موقعاً مقدّساً في الخيال القومي: إندونيسيا حرّة، من سابانغ (عند الطرف الشمالي الغربي من سومطرة) إلى الغيال القومي: إندونيسيا حرّة، من سابانغ (عند الطرف الشمالي الغربي من سومطرة) إلى من المعتقلين، كان قد رأى غينيا الجديدة بأمّ عينيه قبل ستينيات القرن العشرين. لكن ضروب الخارطة - اللوغو الكولونيالية المولندية انتشرت عبر المستعمرة مُظْهِرَةً غينيا الجديدة الغربية دون أيّ شيء إلى الشرق منها، وعملت دون قصد على تعزير الروابط المُتخيَّلة المتنامية. وحين اضطر المولنديون، في أعقاب الحروب المريرة المناهضة للكولونيالية 1945 - 1949، إلى التخلي لولايات إندونيسيا المتحدة عن السيادة على الأرخبيل، حاولوا (لاسباب لا حاجة لأن نتوقف عندها هنا) أن يفصلوا غينيا الجديدة الغربية مرّة اخرى، بإبقائها مؤقتاً تحت الحكم الكولونيالي،

وإعدادها لتكون ذات انتماء قومي مستقل. ولم يأتِ العام 1963 حتى كان قد مَّ التخلّي عن هذا المشروع، نتيجة الضغط الدبلوماسي الأميركي الكثيف والغارات العسكرية الإندونيسية. وعندها فقط قام الرئيس سوكارنو لأوّل مرّة، وفي الثانية والستين من عمره، بزيارة منطقة ظلّ يخطب من أجلها دون كلل طيلة أربعة عقود. وعكن أن نعزو العلاقات المؤلة اللاحقة بين سكّان غينيا الجديدة الغربية ومبعوثي الدولة الإندونيسية المستقلة إلى حقيقة أنَّ الإندونيسيين كانوا صادقين إلى هذا الحدّ أو ذاك في اعتبار هؤلاء السكّان "أخوة وأخوات"، في حين أنَّ هؤلاء اللاخيرين، في معظمهم، كانوا يرون الأمور على نمو مختلف أشدّ الاختلاف 1241.

ويدين هذا الاختلاف بالكثير إلى التعداد والخارطة. فقد خلق نأيُ غينيا الجديدة ووعورة أرضها عبر آلاف السنين صَرْباً من التشرذم اللغوي الاستثنائي، وحين ترك الهولنديون المنطقة في العام 1963 قدّروا أنَّ هنالك ما يزيد على 200 لغة معظمها مستغلقٌ بعضه على بعضه الأخر بين السكان الذين لا يزيد تعدادهم على 700000 [25]. بل إنَّ كثيرًا من الجماعات "القبلية" الأبعد كانت تجهل واحدتها وجود الأخرى. غير أنَّ المبشّرين الهولنديين والموظفين الهولنديين، خاصة بعد العام 1950، راحوا يبذلون جهوداً جدية من أجل "توحيدهم" عبر إجراء التعدادات، ومد شبكات الاتصال، وفتح المدارس، وإقامة البنى الحكومية فوق القبلية. وقد أَطْلَقَت هذه الجهود دولةٌ كولونياليةٌ كانت، كما لاحظنا من قبل، فريدةً في أنها حكمت الإنديز، ليس عن طريق لغة أوروبية في المقام الأول، بل من خلال "المالاوية الإدارية" [26]. ومن هنا أنَّ غينيا الجديدة الفربية كانت قد "ترعرعت" على اللغة ذاتها الي نشأت عليها إندونيسيا (والي غدت اللغة القومية لاحقاً). والمفارقة الساخرة أنَّ الباهاسا إندونيسيا قد غدت بذلك اللغة المشركة لقومية بابوانية غربية، وغينية غربية جديدة بازغة الآكا.

غير أنَّ ما جمع معاً قوميي بابوا الغربية الشباب المتنازعين في الغالب كان الخريطة، خاصة بعد العام 1963. فعلى الرغم من أنَّ الدولة الإندونيسية غيرت اسم المنطقة من غينيا الجديدة الغربية، إلى إيريان الغربية أولاً ثم إلى إيريان جايا، إلا أنها تقرأ واقعها الحلي انطلاقاً من أطلس الخقبة الكولونيالية الذي ينظر بعين الطائر. وقد يعرف بعض الأنثروبولوجيين والمبشرين والموظفين الحليين شيئاً عن الندانيين، والأشات، والباوديين ويفكّرون بأمرهم. لكن الدولة ذاتها، وعبرها الشعب الإندونيسي ككل، لا ترى سوى شبح "إيرياني" (أورانغ إيريان) ثمّي على اسم الخارطة؛ ولأنّه شبح، فلابد من تميّله في شكل أشبه باللوغو: ملامح "زغية"، قضيب ذو أغمدة، وما إلى ذلك. هكذا يبرز جنين جماعة قومية "إيريانية"، عدّها خط الطول 141 والمقاطعات الحاورة من شمال مولوكاس وجنوبها، وذلك بطريقة تذكّرنا بالكيفية الن جرى بها في البداية تحيّل إندونيسيا ضمن بنى الإنديز الشرقية المولندية في أوائل القرن العشرين، تلك البنى العنصرية، وعندما قَتَلَت الدولة عام 1984 أرنولد آب، أبرز الناطقين باسم هذه الجماعة وأشدّهم جاذبية، كان أميناً لمتحف بَنَتُه الدولة عام 1984 أرنولد آب، أبرز الناطقين باسم هذه الجماعة وأشدّهم جاذبية، كان أميناً لمتحف بَنَتُه الدولة عام 1984 أرنولد آب، أبرز الناطقين باسم هذه الجماعة وأشدّهم جاذبية، كان أميناً لمتحف بَنَتُه الدولة عام 1984 أرنولد آب، أبرز الناطقين باسم هذه الجماعة وأشدّهم جاذبية، كان أميناً لمتحف بَنَتُه الدولة مُكَرَّس للثقافة "الإيريانية" (الحابة).

### 3/10) المتحف

ليست الصلة بين مهنة أرنولد أب واغتياله بالصلة العفوية العارضة على الإطلاق. ذلك أنَّ المتحف والخيال المتحفي سياسيان كلاهما على نحو عميق. وكون جاكرتا البعيدة هي التي أقامت المتحف الذي كان أرنولد أب أمينه إنما يُشْهر لنا كم تعلمت إندونيسيا الدولة الأمة الجديدة من سلفها المباشر، الإنديز الشرقية المولندية الكولونيالية. ويشير انتشار المتاحف الراهن في أرجاء جنوب شرق أسيا إلى سيرورة عامة من الوراثة السياسية تفعل فعلها. ولا بد لفهم هذه السيرورة من أن ننظر إلى علم الاثار الكولونيائي الجديد في القرن التاسع عشر والذي جعل مثل المده المراحف أمراً ممكناً.

حتى أوائل القرن التاسع عشر، لم يُبُد حكّام جنوب شرق آسيا الكولونياليون سوى اهتمام بالغ الضالة بأثار الحضارات الت أخضعوها. وكان توماس ستامفورد رافليس، المبعوث المشؤوم من كالكوتا وليم جونز اهما أوّل موظّف كولونيالي بارز لا يكتفي بتكديس مجموعة شخصية ضخمة من الـ objets dart (الأعمال الفنية) الحلية وحسب، بل يدرس تاريخها أيضًا على نحو منهجي أ281. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، راحت عظمة بوروبودور، وأنغكور، وباغان، ومواقع قديمة أخرى تُنْبَس، بسرعة متزايدة، وتُزاح عنها الاشجار، وتُقاس، وتُصوَّر، ويُعاد بناؤها، وتُستَيْج، وغُلَّل، وتُعرَض [29]. وغدت مديريات الآثار الكولونيالية مؤسسات قوية ومهيبة، عشد خدمات بعض الموظّفين—الباحثين من ذوى المقدرة الاستثنائية المؤلى.

ولكي نستكشف عاماً لماذا حدث هذا، حين حدث، فإنَّ ذلك سوف يشرد بنا بعيداً. ولعلّه يكفي أن نشير هنا إلى أنَّ التغير كان مترافقاً مع أفول نظامي الحكم الكولونياليين-التجاريين لشركت الهند الشرقية العظيمتين، ونشوء مستعمرة حديثة حقاً مرتبطة بالمتروبول مباشرةً 1311. وعلى هذا الأساس باتت هيبة الدولة الكولونيالية الأن مرتبطة ذلك الارتباط الوثيق بهيبة الوطن الأم فوقها، ومن الملحوظ أنَّ الجهود الأثارية كانت متركزة بقوة على ترميم الأثار المهيبة (وأنَّ هذه الأثار صارت توضّع على الخرائط بقصد نشرها العام والتثقيف بها؛ كان غة المهيبة (وأنَّ هذه الأثار صارت توضّع على الخرائط بقصد نشرها العام والتثقيف بها؛ كان غة نوع من تعداد الموتى يجري الأن)، ولا شكَّ أنَّ هذا الإلحاح كان يعكس نزعات استشراقية عامة. لكن ضروب التمويل الموظَّفة تتيح لنا أن نشتبه بأنَّ الدولة كانت لديها أسبابها الخاصة، غير العلمية، وغة ثلاثة من هذه الأسباب تشير إلى ذاتها مباشرة، والأخير من بينها هو الأشدّ أهمية بلا جدال.

فما يلاحظ، في المقام الأول، هو الترامن في التوقيت بين الاندفاع الآثاري وأول صراع سياسي على حدًّ على سياسات الدولة التعليمية [32]. فقد حثُّ "التقدميون" - كولونياليين وعليين على حدً سواء - على توظيف أكبر الاستثمارات في التدريس الحديث. ووقف في وجههم صفٌّ من الحافظين الذين كانوا يخشون العواقب طويلة الأمد اليّ يمكن أن تترتب على مثل هذا التدريس، ويفضلون أن يبقى الحليون محليين. ويمكن، في هذا الضوء، أن نرى إلى عمليات ترميم الأثار -اليّ سرعان ما

تلاها طبعاتٌ رعتها الدولة من النصوص الأدبية التراثية – كنوع من البرنامج التعليمي الحافظ، الذي عَمِلَ أيضًا كذريعة لمقاومة ضغط التقدميين. أمّا السبب الثاني فيتمثّل في أنَّ برامج إعادة البناء الرسية الإيديولوجية عادةً ما تضع بُناة الأثار والحليين الكولونياليين في تراتبية معينة. ففي بعض الحالات، كما في الإنديز الشرقية المولندية حتى ثلاثينيات القرن العشرين، كانت الفكرة الرائجة أنَّ هؤلاء البناة لا ينتمون فعلياً إلى "العرق" ذاته الذي ينتمي إليه الحليون أهل البلد (فهم مهاجرون هنود "في الحقيقة") [33]. وفي حالات أخرى، كما في بورما، كان المُتَخَيِّل هو انحطاط دنيوي، جعل الحليين المعاصرين عاجزين عن إنجاز تلك الماثر التي أنجزها "أسلافهم" المرعومون، وإذ يُنْظَر في هذا الضوء إلى الآثار التي أعُيد بناؤها، وتُقارن عا كيط بها من بؤس ريفي، فإنها تقول للمحليين: إنَّ بحرّد وجودنا لهو دليلً على أنكم كنتم على الدوام، أو غدومَ منذ رمن بعيد، عاجزين عن تحقيق العظمة وعن حكم أنفسكم على حدِّ سواء.

أمّا السبب الثالث فيمضي بنا أعمق، وأقرب من الخارطة. فقد سبق أن رأينا، لدى مناقشة "الخارطة التاركية"، كيف راحت أنظمة الحكم الكولونيالية تربط نفسها بالقديم بقدر ما تربطها بالفتح، وذلك في الأصل لأسباب شرعية-ميكافيللية مباشرة تماماً. غير أنّه، مع مرور الوقت، راح الكلام القاسي العلي عن الحقّ بالفتح يقلّ شيئاً فشيئاً، وترداد شيئاً فشيئاً تلك الجهود الرامية إلى إنجاد شرعيات بديلة. كان مزيد من الأوروبيين يولدون في جنوب شرق أسيا، ويحري إغراؤهم لكي يتخذوه وطناً لهم. وأتاح علم الأثار، الذي تزايد ارتباطه بالسياحة، للدولة أن تظهر كحارس لتراث عام، لكنه محلي أيضًا. وكان من المتوجّب إدخال المواقع المقدسة القديمة إلى خارطة المستعمرة، وقد خيّمت هيبتها العريقة فوق واضعي هذه الخارطة (تلك الهيبة الي إذا ما كانت قد اختفت، كما هو الحال في الغالب، كان على الدولة أن تجيبها). وعا يوضح هذا الوضع المتناقض بدقة حقيقة أنّ الأثار الي أعيد بناؤها غالباً ما كانت تحاط عروج خضراء حسنة التنسيق، وتوضع لما لوحات شارحة هنا وهناك، مشفوعة بالتواريخ. بل إنها كان ينبغي أن تبقى خالية من البشر، ما عدا السيّاح الذين يطوفون على مهل (فلا احتفالات دينية أو رحلات حجّ، قدر الإمكان). وبتحويلها إلى متحف على هذا النحو، فإنّ هذه الأثار كان يُعادُ تحديد موقعها بوصفها عدّة دولةٍ كولونيالية علمانية وزينتها.

غير أنَّ القابلية اللانهائية للاستنساخ كانت، كما سبق القول، عمَّة عيرة لأدوات هذه الدولة المدنسة، حيث غدت محكنة تقنياً من خلال الطباعة والتصوير الضوئي، أمَّا سياسياً وثقافياً فمن خلال عدم إلان الحكّام أنفسهم بقدسية هذه المواقع الحلية. وعكن أن نتبين نوعاً من المتوالية في كلَّ مكان: (1) تقارير أثرية كثيفة ومتقنة، مشفوعة بعشرات الصور، توثّق عملية إعادة بناء أطلال محدة بعينها، (2) كتب للاستهلاك العام تعجّ بالصور التوضيحية، وتشتمل على لوحات عثيلية لجميع المواقع الكبرى التي أعيد بناؤها ضمن المستعمرة (ويكون من على الأفضل بكثير، كما في الإنديز المولندية، إذا ما أمكن وضع المزارات المندوسية-البوذية قرب المساجد الإسلامية المرَّعة)

لميراث الدولة متاحاً أمام رعاياها، مهما تكن كلفته باهظة، (3) إضفاء عام لطابع اللوغو، الأمر الذي بات عكناً من خلال سيرورات التدنيس التي أشرنا إلى خطوطها العامة أعلاه. وتُعَدِّ الطوابع البريدية، بسلاسلها الميزة –طيور، فواكه، حيوانات مدارية، وآثار أيضًا لم لا؟ - مثال دال على هذه المرحلة. لكنَّ البطاقات البريدية والكتب المدرسية تتبع المنطق ذاته. ومن هناك لا يبقى سوى خطوة واحدة إلى السوق: فندق باغان، فروح بوروبودور المقلّي، وهلمجرا.

ولقد كان هذا النوع من علم الأثار، الذي نضج في عصر الاستنساخ المكانيكية، سياسياً على نحو عميق، إلى درجة أنّ الجميع تقريباً، بما في ذلك موظّفو الدولة الكولونيالية (الذين بات الحليون يشكلون 90% منهم في معظم جنوب شرق أسيا ثلاثينيات القرن العشرين)، لم يكونوا واعين لحذه الحقيقة. فقد صار الامر كلّه عادياً ويومياً. وقابلية الاستنساخ العادية واليومية اللانهائية الي تتسم بها عدّة الدولة وزينتها هي على وجه الدّقة ما كشف القوة الفعلية الي تتميّر بها هذه الدولة.

ولعله من غير المدهش كثيرًا أنَّ تكون دول ما بعد الاستقلال، التي أَبْدَتْ ضروباً لافتة من التواصل مع أسلافها الكولونياليين، قد ورثت هذه الشكل من المتحفية السياسية. وعلى سبيل المثال، فقد عَرَض نور دوم سيهانوك في الإستاد الرياضي الوطن في فنوم بنه، في 9 تشرين الثاني 1968، وكجزء من الاحتفالات بالذكرى الخامسة عشرة لاستقلال كمبوديا، غوذجاً ضخماً من الخشب والورق المقوّى لمعبد بايون العظيم في أنفكور أحقاً. وكان هذا النموذج فظاً وخشناً على نحو خاص، لكنه حقق الفرض الذي أقيم من أجله: التعرّف الفوري عليه من خلال ذلك ألتاريخ من إضفاء طابع اللوغو الذي شهدته الحقبة الكولونيالية. "أه، بايوننا"، إناً مع إقصاء ذكرى المرّغين الكولونياليين الفرنسيين ذلك الإقصاء التام. وبذلك يغدو معبد أنفكور وات الذي أعاد الفرنسيون بناءه، على هيئة "الصورة المُقطّعة" مرة أخرى، الرمز المركزي لرايات نظام سيهانوك الملكي، ونظام لون نول العسكري، ونظام بول بوت اليعقوبي على التوالي، كما سبق أن لاحظنا في الفصل التاسع.

واللافت أكثر هو تلك الأدلة على الوراثة التي نحدها على المستوى الشعي، ومن الأمثلة الموحية بهذا الشأن تلك السلسلة من الرسوم التي تصور أحداثاً في التاريخ القومي والتي أَمَرَ بها وزير التربية في إندونيسيا في خسينيات القرن العشرين، وكان من الواجب أن تُنتَج تلك الرسوم إنتاجاً جاهيرياً كثيفاً وتُوزَّع على المدارس الابتدائية كلّها، نجيث يتمكن الإندونيسيون الصفار من أن يعلقوا على جدران صفوفهم -وفي كلّ مكان - تمثيلات بصرية لماضي بلادهم، أما الخلفيات فقد وُبِّعَت في معظمها بالأسلوب الطبيعي -العاطفي المتوقع الذي ميَّز الفن التجاري في أوائل القرن العشرين، في حين أُخِذَت الشخصيات البشرية إما من الحسمات المتحفية الخاصة أوائل القرن العشرين، في حين أُخِذَت الشخصيات البشرية وايانغ أورائغ. بيد أن أشد ما بالحقبة الكولونيالية أو من الدراما الشعبية شبه التاريخية وايانغ أورائغ. بيد أن أشد ما يسترعي الانتباه في تلك السلسلة هو تمثيل البوروبودور الذي يُقَدَّم للأطفال. فهذا الأثر الضخم، الذي يحوي 450 صورة لبوذا، و1460 صورة حجرية و1212 صورة تزيينية، هو مخزن هائل

للنحت الجاوي القديم. غير أنَّ الفنان الجيد يتخيل المعجزة أيام عزَّها في القرن التاسع الميلادي بنوع من العناد الدالّ. فالبوروبودور مدهون بالأبيض كلّه. دون أي أثر ظاهر للنحت. وهو عاطً عروج مشنّبة جيداً وشوارع تحفّ بها الأشجار المتراصة من كلّ جانب، فلا يبدو للعين أي كائن بسري واحداً وقد يرى بمضهم أنّ هذا الخلو يعكس قلق رسام مسلم معاصر في مواجهة واقع بوذي قديم. غير أني أتوقّع أنّ ما نراه هو سليل مباشر وغير واع للأثار الكولونيالية: البوروبودور بوصفه من عدّة الدولة وزينتها، وبوصفه لوغو. وما من بوروبودور إلا ويتمتّع بقوة أكبر بوصفه علامة على الهوية القومية نظراً لإدراك الجميع موقعه في سلسلة لا نهائية من البوروبودورات المتماثلة.

هكذا يوضح التعداد والخارطة والمتحف، بارتباطهم معاً، كيف كانت الدولة الكولونيالية في مراحلها الأخيرة تنظر إلى منطقة نفوذها. كانت "سداة" هذا التفكير تلك الشبكة التصنيفية الشاملة التي أمكن تطبيقها عرونة لا تنتهي على كلِّ ما يقع تحت سيطرة الدولة الفعلية أو الشخيّلة: البشر، المناطق، الأديان، اللغات، المنتجات، الأثار، وهلمجرا. ويتمثّل أثر الشبكة على الدوام في القدرة على القول عن أي شيء إنه هذا، وليس ذاك؛ وإنه ينتمي إلى هنا، وليس إلى هناك. فهو مُقيَّد، تحدّ، وقابلٌ – من حيث المبدأ – للعدّ إذاً. (كانت خانات التعداد المضحكة الحاوية على صنف "الأخرين" بوصفه صنفاً أساسياً أو فرعياً تغطي كل ضروب الشواذ أو الخروج على القياس الواقعية عن طريق trompe l'oeil [سراب] بيروقراطي مذهل). أمّا "حمة" هذا التفكير فكانت ما يمكن للمرء أن يدعوه التسلسل: افتراض أنَّ العالم مؤلّف من حموع قابلة للمضاعفة والتكرار. وأنَّ الشيء الحديد يقف على الدوام كممثّل مؤقت لسلسلة ما، وينبغي أن يُعامَل على هذا النحو. وهذا هو السبب في أنَّ الدولة الكولونيائية تخيلت سلسلةً صيني، وسلسلة قومية قبل ظهور أيّ قوميين.

وما من أحد جاء باستعارة تعبّر عن هذا الإطار العقلي أفضل من تلك التي جاء بها الروائي الإندونيسي العظيم برامويديا أنانتا توير، الذي عَنْوَن الجزء الأخير من ثلاثيته حول المرحلة الكولونيالية روماه كاكا، أو البيت الزجاجي. وهو صورة للمراقبة الشاملة قوية مثل بان أوبتيكون بنتام لها. ذلك أن طموح الدولة الكولونيالية لا يقتصر على أن تخلق، تحت سيطرتها، منظراً بشرياً واضحاً عاماً؛ فشرط هذا "الوضوح" أن يكون لكل امري، وكل شيء، رقماً متسلسلاً 131 وهذا النمط من التخيّل لم يأتٍ من فراغ. فهو نتاج تكنولوجيات الإعار، والفلك، وقياس الزمن، والمراقبة، والتصوير، والطباعة، فما بالك بالقوة الدافعة العميقة التي هي قوة الراقبة.

هكذا شكّل التعداد والخارطة القواعد التي ستمكّن في النهاية من قيام "بورما" و "البورميين"، و"إندونيسيا" و"الإندونيسيين". لكنَّ مَلْمَسَة هذه الإمكانيات، تلك المَلْمَسَة التي تتسم اليوم بحياة يومية فاعلة، بعد انقضاء فترة طويلة على زوال الدولة الكولونيالية- تدين بالكثير إلى تحيّل الدولة الكولونيالية الخاص كلاً من التاريخ والسلطة. فعلم الآثار كان مشروعاً

لا يمكن تخيّله في جنوب شرق أسيا ما قبل الكولونيالي؛ وقد تمّ تبنّيه في سيام التي لم تُستَعمَر في مرحلة لاحقة من اللعبة، وعلى طريقة الدولة الكولونيالية. وقد خلق سلسلة من "الاثار القديمة"، موزّعة ضمن الخانة الجغرافية—الديوغرافية التصنيفية "الإنديز الهولندية"، و"بورما البريطانية". وإذ بجري تصوّر الأطلال في إطار هذه السلسلة المُدنّسة، فإنَّ كلّ طَلَل يغدو متاحاً للمراقبة والتكرار الذي لا نهاية له. ولما كانت مديريات الأثار التي أقامتها الدولة الكولونيالية قد مكّنت تقنياً من جع السلاسل في شكل خرائطي ومصوّر، فقد أمكن لهذه الدولة ذاتها أن تعدّ السلاسل، وصولاً إلى الازمنة التاريخية، بمثابة ألبوم لأسلافها. والشيء الأساسي ليس قطّ البوروبودور عينه، ولا الباغان ذاته، اللذين ليس للدولة أيّ اهتمام جوهري بهما ولا تربطها بهما سوى الصلات الأثرية. أمّا السلاسل القابلة للنسخ والتكرار فقد خلقت عمقاً تاريخياً للحقل الذي ورثه بسهولة خليفة الدولة ما بعد الكولونيالي. وكانت الثمرة المنطقية الأخيرة هي اللوغو -لوغو "باغان" أو "الفيليبين"، لا يهمّ كثيرًا- الذي عَمِلَ بسبب من فراغه، وعدم سياقيته، وانطباعه في الذاكرة البصرية، وقابليته للاستنساخ اللانهائي في كل اتجاه على جمع التعداد والخارطة، السداة واللحمة، في عناق لا سبيل إلى خوه.

# 11) الذاكرة والنسيان

### 1/11) المكــان حديثاً وقديماً

نيويورك، نوفا ليون، نوفيل أورليانز، نوفا ليسبوا، نوي أمستردام. لقد بدأ الأوروبيون منذ القرن السادس عشر تلك العادة الغريبة المتمثّلة بتسمية الأماكن النائية، في الأمريكيتين وإفريقية أولاً، ثم في آسيا وأستراليا وأوقيانيا، على نحو يشير إلى أنها طبعات "جديدة" من أسماء أماكن "قديمة" (إذاً) في بلدانهم الأصلية. بل إنهم كانوا كافظون على هذا التقليد حتى حين كانت مثل هذه الأمكنة تنتقل إلى أسياد إمبراطوريين مختلفين، هكذا تحولت نوفيل أورليانز بهدوء إلى نيو أورليانز، ونوي زيلاند إلى نيو زيلاند.

وبوجه عام، فإنَّ تسمية المواقع السياسية والدينية على أنّها "جديدة" لم تكن بحدّ ذاتها جديدة كثيرًا. ففي جنوب شرق أسيا، على سبيل المثال، يجد المرء مدناً قديمة إلى حدَّ معقول تشتمل أتناؤها على تعبير يدلُ على الجدّة: شيانغماي (المدينة الجديدة)، كوتا بَهْرو (البلدة الجديدة)، بيكانبارو (السوق الجديد). لكن كلمة "الجديد" في هذه الاتناء لها على الدوام معنى "الخَلف"، أو "الوارث" لشيء ما مضى. و"الجديد" و"القديم" يرتبطان تعاقبياً، ويظهر أولهما على الدوام كما لو أنه يستلهم بركةً من ثانيهما الذي انقضى، والمدهش في التسميات الأميركية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر هو أنَّ "الجديد" و"القديم" كانا يُفْهَمان ترامنياً، أي

على أنهما موجودان معاً ضمن زمن فارغ، متجانس. وبذلك كانت فيزكايا توجد إلى جانب نوفا فيزكايا، ونيو لندن إلى جانب لندن: تعبيرٌ عن تنافس أخويّ وليس عن وراثة.

وما كان لمثل هذه الجدّة الترامنية أن تظهر تاريخياً قبل أن تغدو جماعات كبيرة من البشر في موقع يتيح لها أن تنظر إلى نفسها على أنها تعيش حيوات موازية لحيوات جماعات كبيرة أخرى من البشر: فحتى لو لم يلتق هؤلاء على الإطلاق، إلا أنهم يتقدّمون على المسار ذاته. وبين 1500 و 1800 كان تراكم الاختراعات التكنولوجية في ميادين بناء السفن والإكار، وقياس الزمن ورسم الخرائط، وبتوسّط من رأسالية الطباعة، يحل هذا النمط من التخيّل ممكناً الله وغدا من الممكن أن نتصور أننا نقطن الألتيبلانو البيروفية، أو البامباس في الارجنتين، أو قرب موانئ "نيو" إنجلند، ونشعر مع ذلك أننا مرتبطون مناطق أو جماعات معينة، على بعد آلاف الأميال، في إنغلترا أو شبه الجزيرة الإيبيرية. فقد صار مقدور المرء أن يعي عاماً أنه يشارك في لغة وعقيدة دينية (بدرجات مختلفة)، وعادات، وتقاليد، دون أي أمل كبير بأن يلتقي شركاءه في أي يوم من الأيام [12].

ولقد كان من الضروري، لا لكي ينشأ هذا الإحساس بالتوازي أو التزامن وحسب، بل لكي تكون له عواقب سياسية هائلة أيضًا، أن تكون المسافة بين الجماعات المتوازية واسمة، وأن تكون الأُجْدَد من بينها كبيرةً في الحجم ودائمة الاستقرار، فضلاً عن كونها خاضعة بقوة للأقدم. ولقد تحققت هذه الشروط في البلدان الأميركية كما لم تتحقق من قبل قطّ. ففي المقام الأول، لقد جعل اتساع الأطلسي والشروط الجغرافية المختلفة عاماً على ضفتيه، من المستحيل قيام ذلك النوع من استيعاب السكان التدركي في وحدات سياسية-ثقافية أكبر كتلك الت حوّلت لاس إسباناس إلى إسبانيا وأدخلت اسكتلنده في المملكة المتحدة. ثانياً، إنَّ حجم المجرة الأوربية إلى البلدان الأميركية كان حجماً مدهشاً، كما لاحظنا في الفصل الرابع. ففي نهاية القرن الثامن عشر كان هناك ما لا يقلّ عن 3200000 "أبيض" (لا يزيد عدد القادمين من شبه الجزيرة بينهم على 150000) وذلك من أصل 16900000 هم سكان إمبراطورية البوربون الإسبان الغربية [3]. ولقد عَمِلَ حجم هذا الجتمع المهاجر بحدّ ذاته، بقدر ما عمل تفوقه العسكري والاقتصادي والتكنولوجي الكاسح في مواجهة السكان الأصليين، على ضمان حفاظه على عَاسكه الثقافي وصعوده السياسي الحلي <del>[4]</del>. أما ثالثاً، فقد كان المتروبول الإمبراطوري متوفّراً على أجهزة بيروقراطية وإيديولوجية هائلة، أتاحت لهم طوال قرون كثيرة أن يفرضوا إرادتهم على الكريول. (يكفي المرء أن يفكّر بالمشكلات اللوجستية وحدها، لكي يجد أن قدرة لندن ومدريد على خوض حروب طويلة مضادة للثورة في وجه المعمّرين الكولونياليين الأميركيين المتمردين هي قدرة مدهشة عاماً).

وما يشير إلى جِدَّة هذه الشروط حميعاً هو ما تُظْهِره من تباين مع الهجرات الصينية والعربية الكبرى (والمعاصرة تقريباً) إلى جنوب غربي آسيا وشرقي إفريقية. فهذه الهجرات نادراً ما "خَطَّطَ لها" أيِّ متروبول، بل ونادراً ما أدّت إلى علاقات خضوع مستقرة. ففي الحالة

الصينية، كان التوازي الطفيف الوحيد هو تلك السلسلة الاستثنائية من الرحلات الت كانت تضرب بعيدا عبر الحيط الهندي وقادها، في أوائل القرن الخامس عشر، الادميرال الخصَّ الألمَّ اللَّهُ عَبْ شينغ-خه. وكان المقصود بهذه المبادرات الجريئة، الت جرت بأوامر من الإمبراطور يونغ-لو، أن تعزز احتكار البلاط للتجارة الخارجية مع جنوب شرق أسيا والمناطق الأبعد إلى الغرب، والوقوف في وجه عمليات السلب والنهب الي كان يقوم بها التجار الصينيون أصحاب التجارات الخاصة لَكَلْ. غير أنَّ إخفاق هذه السياسة كان جليّاً في منتصف القرن، ولذلك فقد تُخلَّى المينغ عن مغامراتهم وراء البحار وفعلوا ما بوسعهم للحيلولة دون المجرة من المملكة الوسطى. ولقد أدّى سقوط جنوب الصين في أيدى المانشو في العام 1645 إلى موجة كبيرة من اللاجئين إلى جنوب شرق أسيا ما كان يمكن أن يخطر في بالهم أي نوع من الروابط السياسية مع السلالة الحاكمة الجديدة. أمّا سياسة التشينغ التالية فلم تختلف جوهرياً عن سياسة المينغ في أواخر حكمهم. ففي العام 1712، على سبيل المثال، أصدر الإمبراطور كانغ-شي مرسوماً يحظّر كلّ نجارة مع جنوب شرق أسيا ويعلن أنَّ حكومته سوف "تطلب من الحكومات الأجنبية أن تعيد جميع الصينيين في الخارج إلى وطنهم لكي يُعْدَموا" <u>[61</u>. وكانت آخر موجة كبيرة من المجرة عبر البحار في القرن التاسع عشر عندما تفككت السلالة الحاكمة وازداد الطلب على العمالة الصينية غير الماهرة في جنوب شرق أسيا الكولونيالي وفي سيام. ولأنَّ جميع المهاجرين تقريباً كانوا منقطعين سياسياً عن بكين، وكانوا أميّين يتكلمون لغاتٍ غير مفهومة واحدتها للأخرى، فقد امتُّصوا إلى هذا الحد أو ذاك في ثقافاتٍ عليةٍ أو خضعوا ذلك الخضوع الحاسم للأوروبيين المتقدمين 171.

امّا العرب، فقد انطلقت هجراتهم في معظمها من حضرموت، اليّ لم تكن متروبولاً فعلياً قطّ أيام الإمبراطوريتين العثمانية والمغولية. ولملّ أفراداً مغامرين قد وجدوا سبلاً لإقامة إمارات محلية، كالتاجر الذي أسس مملكة بونتيانك غربي بورنيو في 1771، لكنه تزوج امرأة محلية من هناك، وسرعان ما فقد "عروبته" إن لم يكن قد فقد إسلامه أيضًا، وبقيّ خاضعاً للإمبراطوريتين المولندية والإنغليزية الصاعدتين في جنوب شرقي آسيا، وليس لأي قوة في الشرق الادنى. وفي العام 1832 أسس السيّد سعيد، حاكم مسقط قاعدة قوية على الساحل الإفريقي الشرقي واستقرّ في جزيرة رنجبار، التي جعلها مركزاً اقتصادياً مردهراً لزراعة القرنفل. غير الشرقي واستقرّ في جزيرة رنجبار، التي جعلها مركزاً اقتصادياً مردهراً لزراعة القرنفل. غير أنّ البريطانيين استخدموا الوسائل العسكرية لإجباره على قطع صلاته بمسقط 1818. وهكذا، لم يفلح العرب ولا الصينيون، مع أنهم غامروا عبر البحار بأعداد كبيرة جداً وخلال القرون ذاتها، وتخضع لمركز متزوبوليّ كبير. ولذلك فإنّ العالم لم يشهد قط نشوء بَصْراتٍ جديدة أو ووهانات جديدة.

يساعدنا ازدواج البلدان الأميركية هذا وما يقف وراءه من أسباب، رسمنا خطوطها العريضة أنفاً، على أن نفسّر لماذا بزغت القومية في العالم الجديد أولاً، وليس في القديم 191 كما أنّه يلقي الضوء على ملمحين محدّدين من ملامح الحروب الثورية الن نشبت في العالم الجديد بين 1776

و 1825. فمن جهة أولى، لم كِلم أيّ من الثوريين الكريول بالإبقاء على الإمبراطورية سالمة لا غُسَّ والاكتفاء بإعادة ترتيب تقاسم السلطة الداخلي، وعَكس علاقة الخضوع السابقة بنقل المتروبول من موقع أوروبي إلى موقع أميركي 110 . وبعبارة أخرى، فإنَّ المدف لم يكن امتلاك لندن جديدة تخلف لندن القديمة، أو تطيح بها، أو تدمرها، بل ضمان توازيهما المتواصل. (وعكن استنتاج مدى جدّة هذا التفكير من تاريخ الإمبراطوريات السابقة الأفلة، الن غالباً ما كانت تنطوى على حلم تغيير الركز القديم). ومن جهة أخرى، فعلى الرغم من أنّ هذه الحروب سببت قَدْراً كبيراً من المعاناة وكانت موسومةً بكثير من البربرية، إلا أنَّ مخاطرها كانت منخفضة على نحو غريب. فلا في أميركا الشمالية ولا الجنوبية كان الكريول يخشون الإبادة الجسدية أو إعادتهم إلى السخرة، كما خشي كثير من الشعوب الأخرى الت صادف أن كانت في طريق الإمبريالية الأوروبية بقوتها العارمة الت تبيد كلُّ من يعترضها. فقد كانوا في النهاية "بيضاً"، و"مسيحيين"، وناطقين بالإسبانية أو الإنفليزية، كما كانوا الوسطاء الضروريين للمتروبولات إذا ما أريد لثروة الإمبراطوريات الفربية الاقتصادية أن تبقى تحت سيطرة أوروبا. ولذلك فقد كانوا تلك الجماعة خارج الأوروبية المهمّة اليّ لا حاجة بها لأن تخشى من أوروبا تلك الخشية المُوئِسَة، على الرغم من خضوعها لها. وبذلك فقد طلَّت تلك الحروب الثورية منطوية على شيء من الاطمئنان، على الرغم من شراستها، إذ كانت حروباً بين أقارب لللله. وهذه الرابطة العائلية هي الن ضمنت، بعد فترة من الحدّة والعنف، إمكانية إعادة وصل ما انقطع من الروابط الثقافية، وأحيانًا السياسية والاقتصادية، الوثيقة بين المتروبولات السابقة والأمم الجديدة.

### 2/11) الزمن حديثاً وقديماً

إذا كانت أسماء الأماكن الغريبة التي ناقشناها أعلاه قد مثلت لكريول العالم الجديد ذلك التمثيل الحازي قدرتهم البازغة على تخيّل أنفسهم كجماعات توازي وتضاهي تلك التي في أوروبا، فإنّه كان لأحداث استثنائية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر أن تضفي على هذه الجدّة معنى جديداً ومفاجئاً تماماً. ولا شكّ أنَّ أول هذه الأحداث كان إعلان (المستعمرات الثلاث عشرة) الاستقلال عام 1776، والدفاع العسكري الناجح عن ذلك الإعلان في السنوات التي تلت. فقد شُعِرَ بهذا الاستقلال، وبكونه استقلال جهوري، على أنّه شيء غير مسبوق على الإطلاق، مع أنه شعرَ به أيضًا، ما إنْ قام على الأرض، أنّه معقول ومنطقي تماماً. ولذلك، عندما مكّن التاريخ الثوريين الفنزويليين، في العام 1811، من أن يضعوا دستوراً لأول جمهورية فنزويلية، لم يحدوا أيّ صفار في أي يستعيروا حرفياً من دستور الولايات المتحدة الأميركية أكالياً، بل شيء له صحّته وقيمته كتبه أهل فيلادلفيا لم يكن في عيون الفنزويليين شيئاً أميركياً شالياً، بل شيء له صحّته وقيمته الكونيتين. وما هي إلاّ فترة وجيزة بعد إعلان الاستقلال حتى كان انفجار الثورة الفرنسية البركاني في العالم القديم، عام 1789، يُقارَن بانفجار العالم الجديد الثال.

ومن الصعب اليوم أن نعيد في الخيال خَلْق شرط حياتي كان يُشْعَر فيه أنَّ الأمّة شيء جديد عَاماً. غير أنَّ الأمر كان كذلك في تلك الحقبة. فإعلان الاستقلال عام 1776 لم يُشِرْ مطلقاً إلى كريستوفر كولومبس، أو رونوك أللًا، أو الأباء الحجّاج، ولم يضع الاسس لتبرير الاستقلال بأية طريقة "تاريخية"، بعنى تسليط الضوء على قِدَم الشعب الأميركي. والأعجب من ذلك بعد أنَّ الأمة الأميركية لم يَرِد ذكرها. كان عُه حَدْس عميق بأنَّ هنالك قطيعة جذرية مع الماضي – "نَسْفٌ لمُتَّصل التاريخ"؟ – تحصل وتنتشر وبسرعة. وما من شيء عِثل لمذا الحَدْس أفضل من القرار الذي اتخذته الجمعية الوطنية في تشرين الأول 1793، بإلغاء التقويم المسيحي الذي دام قروناً وإطلاق حقبة عالمية جديدة تبدأ بـ السنة رقم واحد، الت تبدأ بإلغاء النظام القديم وإعلان الجمهورية في 22 سبتمبر 1792 الفراسية كان لديها مثل هذه الثقة الرفيعة بالجدّة، خاصةً أنَّ الثورة الفرنسية كانت تُرى على الدوام على أنّها السلف).

ومن هذا الإحساس العميق بالجدّة جاءت أيضًا عبارة nuestra santa revolución [ثورتنا المقدّسة]، تلك العبارة المستحدثة الجميلة اليّ أبدعها خوسيه ماريا موريلوس إي بافون (مُعْلِن جمهورية المكسيك عام 1813)، قبل وقت قصير من إعدامه على يد الإسبان 151 ومنه أيضًا جاء مرسوم سان مارتن عام 1821 الذي يقضي بأنّ "السكّان الأصليين لن يُطْلَق عليهم في المستقبل اسم الهنود أو الحليين؛ فهم أبناء البيرو ومواطنوها وسوف يُدعَون بالبيروفيين "161 وقد فعلت هذه الجملة بـ "الهنود" و/أو "الحليين" ما فعلته الجمعية الوطنية في باريس بالتقويم المسيحي: حيث الغت التسمية القديمة وأطلقت حقبة جديدة عاماً. هكذا يسم "البيروفيون" و"السنة رقم واحد" على نحو بليغ قطيعة عميقة مع العالم القائم.

غير أنَّ الأمور لم يسعها أن تبقى على هذا النحو طويلاً؛ وذلك للأسباب ذاتها التي كانت قد عجّلت بإحساس القطيعة في القام الأول. ففي الربع الأخير من القرن الثامن عشر، كانت بريطانيا وحدها تصنّع بين 150000 و200000 ساعة كلّ عام، كثيرٌ منها للتصدير. وربما كان إجمالي التصنيع الأوروبي قريباً انئذ من 500000 ساعة كلّ عام 1711. وكانت الصحف بأعدادها المتلاحقة كالسلسلة جزءاً مألوفاً من الحضارة المدينية. وكذلك كانت الرواية، بما تملكه من إمكانيات بارزة في تمثيل أفعال مترامنة في زمن فارغ متجانس 1811. وكان ثمة شعور متزايد بأن التوقيت الكوني الذي جعل ضروب اقتراننا المتزامنة عبر الحيطات أمراً مفهوماً يقتضي نظرة إلى السببية الاجتماعية هي نظرة دنيوية، متسلسلة؛ وكان هذا الإحساس بالعالم يسارع الأن إلى إحكام قبضته على الخيال الغربي. وبذلك يغدو مفهوماً أنّه لم يمر عقدان على إعلان السنة رقم واحد حتى تأسس أول كرسيين أكاديمين لمادة التاريخ، في 1810 في جامعة برلين، وفي رقم واحد حتى تأسس أول كرسيين أكاديمين لمادة التاريخ، في 1810 في جامعة برلين، وفي المصنّه الطويل والرصين من الجلات المتخصصة 1812. وبسرعة كبيرة أفسحت السنة رقم واحد الجال لعام 1772 ميلادية 1812، وصارت القطيعتان الثوريتان لعامي 1776 و1789 تصوّران على أنهما مطمورتان في سلسلة تاريخية وبذلك على أنهما سابقتان تاريخيتان أو محوّدان على أنهما مطمورتان في سلسلة تاريخية وبذلك على أنهما سابقتان تاريخيتان أو محوّدان

#### تاريخيان.

ولذلك، لم يعد عقدور أعضاء ما عكن أن ندعوه حركات "الجيل الثاني" القومية، تلك الحركات التي تطورت في أوروبا بين 1815 و1850، وكذلك الجيل الذي ورث الدول القومية المستقلة في البلدان الأميركية، أن "يلتقطوا من جديد/ تلك القطيعة الرائعة الأولى الشجاعة" التي اجترحها أسلافهم الثوريون. هكذا راحت الجموعتان، لأسباب مختلفة وبعواقب مختلفة، تقرأن القومية جينالوجياً، أي في سلسلة نسبها وشجرة عائلتها: كتعبيرٍ عن تقليدٍ تاريخي من الاستمرارية المتسلسلة.

ففي أوروبا، لم تلبث القوميات الجديدة أن تخيّلت ذاتها على أنّها "يقظةٌ من سُبات"، وهو بحاز غريب تماماً على البلدان الأميركية. ومنذ العام 1803 (كما رأينا في الفصل الخامس) كان القومي اليوناني الشاب أدامانتيوس كورايس يقول لجمهور باريسي متعاطف: " لأول مرّة تتفحّص الأمّة [اليونانية] منظر جهلها الشنيع وترتعد إذ ترى بأمّ العين تلك المسافة الي تفصلها عن اللامّة [اليونانية] مثال دقيق تماماً على الانتقال من الزمن الجديد إلى القديم. ذلك أنّ "لأول مرّة" لا تزال تردد أصداء قطيعي 1776 و1789، لكنّ عين كورايس الجميلتين تلتفتان، ليس أماماً إلى مستقبل سان مارتن، بل وراءً، مرتعدتين، إلى أبحاد الأسلاف، ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يخبو هذا الاقتران المتهلل، وتحلّ محلّه يقظة "متواصلة"، غطية، من كبوة بعد ميلادية الطراز، ثقاس ضمن إطار زمنً متسلسل: عودة مضمونة إلى جوهر أصليّ.

ولا شكَّ أنَّ كثيرًا من العناصر المختلفة قد أسهمت في شعبية هذا الِّخاز المدهشة<sup>[211]</sup>. وسوف أقتصر، لأغراضنا الراهنة، على ذكر اثنين من هذه العناصر. ففي المقام الأول، لقد أخذ هذا الحار في الحسبان إحساس التوازي والمقارنة الذي ولدت منه القوميات الأميركية والذي عمل نجاح الثورات القومية الأميركية على تعزيزه في أوروبا أشدّ التعزيز، وبدا على أنَّه يفسّر لماذا ظهرت الحركات القومية بفتة وعلى نحو غريب في العالم القديم المتحضّر متأخّرةً على نحو واضح عنها في العالم الجديد الهمجي [22]. وبقراءته على أنّه يقظة متأخّرة، وإنْ كانت يقطّةُ مُثارَةً من بعيد، فقد فتح ماضياً هائلاً يقبع خلف حقبة السبات الطويلة. أمّا في المقام الثاني، فقد وفّر هذا الجار صلةً استعاريّةً حاسمةً بين القوميات الأوروبية الجديدة واللغة. فكما سبق أن لاحظنا، كانت الدول الكبرى في أوروبا القرن التاسع عشر كيانات سياسية متعددة اللغات إلى أبعد حدّ، ولم تكد حدودها تتماشي قطّ مع الجماعات اللغوية. وكان معظم أفرادها المتعلمين قد ورثوا من العصور الوسطى عادة النظر إلى لغات معينة - إن لم تكن بعد الأن اللاتينية، فالفرنسية، أو الإنفليرية، أو الإسبانية، أو الألمانية - على أنها لغات حضارة. فالأغنياء المولنديون في القرن الثامن عشر كانوا يفخرون بأنهم لا يتحدثون سوى الفرنسية في وطنهم؛ وكانت الألمانية لغة التثقيف في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية القيصرية الغربية، خاصة في بوهيميا "التشيكية". ولم ينظر أحد قبل أواخر القرن الثامن عشر إلى هذه اللغات على أنها تنتمي إلى أيّ جماعة محددة إقليميا. أمّا بعد ذلك بقليل، ولأسباب رسمنا خطوطها العريضة في الفصل الثالث، فقد بدأت

اللغات الحلية "غير المتحضّرة" تعمل سياسياً بالطريقة ذاتها الي سبق للمحيط الأطلسي أن غمِلَ بها: أي "فَصْل" الجماعات القومية الخاضعة عن الممالك السلالية القديمة. ولأنّه كان في طليعة معظم الحركات القومية الشعبية الأوروبية أناسٌ متعلمون غير معتادين في الغالب على استخدام هذه اللغات الحلية، فإن هذا الشنوذ الغريب كان بحاجة إلى تفسير. ولم يَبْدُ أنَّ مُة تفسير أفضل من "السبات"، لأنه يتيح لأولئك الانتلجنسيين والبرجوازيين الذين راحوا يعون أنفسهم بوصفهم تشيك، أو هنغار، أو فنلنديين أن يصوّروا دراستهم اللغة، أو الفولكلور، أو المناندية على أنها "إعادة اكتشاف" شيء لطالما كان أو الموسيقا التشيكية، أو الماجيارية، أو الفنلندية على أنها "إعادة اكتشاف" شيء لطالما كان معروفاً في قرارته العميقة. (بل إنّه، ما إن يبدأ المرء بالتفكير بقوميته من حيث الاستمرار، فإنّ قلّة من الأشياء وحسب هي الى تبدو ضاربة بحذورها العميقة في التاريخ بقدر اللغات، الي لا يمكن قطّ أن غُدَّد تواريخ ولادتها)

أمًا في البلدان الأميركية فكانت المشكلة مطروحةً على نحو مختلف. فمن جهة أولى، لقد جرى الاعتراف الدولي بالاستقلال القومي في كلُّ مكان تقريباً بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وبذلك فقد غدا إرثاً، واضطر، **بوصفه** إرثاً، أن يدخل سلسلةً من النَّسَب أو الجينالوجيا. غير أنَّ الأدوات الأوروبية المتطورة لم تكن متاحة. فاللغة لم تكن قضيةً قطٌّ في الحركات القومية الأميركية. وكما رأينا، فإنَّ مُقَاتَعَة المروبول لغةَ مشرِّكةً (وديانة مشرَّكة وثقافة مشرِّكة) هو تحديداً ما جعل التخيّلات القومية الأولى عكنةً. ولا شكّ أنّ هنالك حالات لافتة يكتشف فيها المرء نوعاً من التفكير "الأوروبي" وهو يعمل عمله الباكر، وعلى سبيل المثال، فإنَّ ‹معجم اللغة ـ الإنفليرية الأميركي، الذي وضعه نوح وبستر عام 1828 (أي في "الجيل الثاني") كان القصد منه إعطاء تصريح رسمي للغةِ أميركية ذات نسب غيّر عن نسب الإنغليرية. وفي الباراغوي، مَكن التقليد اليسوعي في استخدام لغة الغواراني في القرن الثامن عشر من أن تصبح لغة "محلية" ليست إسبانية قطُّ لغةً قوميةً، في ظلُّ دكتاتورية خوسيه غاسبار رودريغير دو فرانسيا الطويلة المصابة برهاب الأجانب (1814 - 1840). أمّا على وجه العموم، فإنّ ما من عاولة لإعطاء قوميةٍ ما عمقاً تاريخياً عن طريق الوسائل اللغوية إلا وواجهت عقبات كأداء. ويكاد الكريول جيعاً أن يكونوا ملتزمين مؤسساتياً (عن طريق المدارس، والإعلام المطبوع، والعادات الإدارية، وما إلى ذلك) بالسنةِ أوروبية وليس أميركية علية. وكلُّ إلحاح مفرط على ضروب النسب اللغوي إغا يهدّد بأن يشوّش على وجه التحديد "ذكرى الاستقلال" الت كان الحفاظ عليها أمرا أساسيا.

ولقد وُجِد الحلّ، الذي أمكن تطبيقه في النهاية في كلّ من العالمين القديم والجديد، في التاريخ، أو الأحرى في التاريخ، الحين العبوك بطرائق محدّدة. فقد لاحظنا السرعة التي خلف بها كرسيّا التاريخ السنة رقم واحد. وكما يلاحظ هايدن وايت، فإنه ليس أقلّ لفتاً للانتباه أنّ عباقرة التاريخ الأوروبي الخمسة الأبرز قد وُلِدوا جميعاً في ربع القرن الذي تلا القطيعة التي اجترحتها الجمعية الوطنية في الزمن: رانكه في عام 1795، ميشليه في عام 1798، توكفيل في عام 1805،

وماركس وبوركهارت في عام 1818 <mark>1241</mark>، ومن بين الخمسة، ربما كان طبيعياً أن يكون ميشليه الذي عيّن نفسه مؤرّخاً للثورة، أوضح مثال على التخيّل القومي الوليد، لأنّه كان أول من كتب بوعي بالنيابة عن الموتى<sup>1251</sup>. وإليكم هذا المقطع الميّز أ1<u>261</u>:

أجل، ما من ميّت إلا ويترك إرثاً، وذكريات، ويطالبنا بأن نهتم بها. أمّا مَنْ لا صديق لم، فينبغي أن ينوب عنه القضاء. فالقانون والعدالة أشدّ ثقةً من حناننا النسّاء، ومن دموعنا التي سرعان ما نَحفّ. وهذا القضاء هو التاريخ. والموتى، كما يقول التشريع الروماني، هم أولئك الأشخاص المساكين الذين ينبغي أن يهتم بهم القضاء. ولم أَنْسَ قطّ في مسيرتي المهنية أن أُعنى بواجب المؤرّخ هذا. فلقد منَحْتُ الموتى المنسيين ذلك الحضور الذي سأحتاجه أنا نفسي في يوم من الأيام. لقد نبشتهم من قبورهم ودفعتهم إلى حياةٍ ثانية . . إنّهم يعيشون بيننا الأن ونشعر أننا أهلهم، وأصدقاؤهم. وبذلك تقوم عائلة، ومدينة مشتركة بين الأحياء والأموات.

لقد أوضَحَ ميشليه هنا وفي مواضع أخرى أنَّ أولئك الذين نبشهم من القبور لم يكونوا بأيّ حالٍ من الأحوال جَمْعاً عشوائياً من الموتى الغُفْل، المنسيين، بل كانوا أولئك الذين مكّنت تضحياتهم، عبر التاريخ، من قيام قطيعة العام 1789 وظهور الأمّة الفرنسية اليّ تعي ذاتها، حتى حين لم يفهم الضحايا هذه التضحيات على أنها تضحيات. وفي العام 1842، قال عن هؤلاء الموتى: "يلزمهم أوديب لكي كِلِّ أحجيتهم اليّ لم كِسّوا بها، ويعلّمهم معنى كلماتهم، وأفعالهم، النّ لم يفهموها "1271.

رما كانت هذه الصياغة غير مسبوقة. فميشليه لم يزعم أنه يتكلم بالنيابة عن أعداد كبيرة من البشر المؤتى الغُفْل، بل أكّد، بسلطة تثير الحزن، أنَّ مقدوره أن يُفْصِح عمّا عَنوه "حقّاً" وأرادوه "حقّاً"، لأنّهم "لم يفهموه" هم أنفسهم. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، لم يَعُد صمت الأموات عقبة تحول دون نبش أعمق رغباتهم.

بهذه الروح، راح المزيد والمزيد من قوميي "الجيل الثاني"، في البلدان الأميركية وسواها، يتعلمون الكلام "نيابة" عن الموتى النين كان من المستحيل أو من غير الرغوب فيه إقامة صلة لفوية معهم. وقد ساعد مثل هذا الكلام على فتح الطريق أمام نوع من الـ indigenismo الأصالة] الي تعي ذاتها، خاصةً في بلدان أميركا الجنوبية. شيء يكاد يبدو جنونياً: مكسيكيون يتكلمون بالإسبانية "نيابة" عن حضارات "هندية" سابقة على كولومبس لا يفهمون لغاتها الما مدى الثورية التي تميز بها هذا النوع من النبش فيظهر عزيد من الوضوح حين نقارنه بصيغة فيرمين دو فارغاس، الي أوردناها في الفصل الثاني. ففي حين كان فيرمين يفكّر مسروراً بابادة" الهنود الأحياء، بات كثير من أحفاده السياسيين مسكوناً بـ "تذكّرهم"، بل "التكلم بالنيابة عنهم"، ورعا كان ذلك على وجه التحديد لأنّهم، في ذلك الحين، كثيرًا ما أبيدوا.

### 3/11) طمأنينـةُ قتْل الأخ

من اللافت أنَّ الاهتمام في صياغات "الجيل الثاني" الذي ينتمي إليه ميشليه كان متركّراً دوماً على نَبْشِ البشر والأحداث الي تواجه خطر النسيان [29]. وهو لا يرى حاجةً لان يفكّر في "النسيان". أما حين نشر رينان عمله ‹ما الأمة›؟ في العام 1882 - بعد أكثر من قرن على إعلان الاستقلال في فيلادلفيا، وثانية أعوام على وفاة ميشليه نفسه - فقد كانت الحاجة إلى النسيان على وجه التحديد هي الي شغلته. انظروا، مثلاً، إلى هذه الصياغة الي سبق أن أوردناها في الفصل الأول:

والحال أنّ جوهر الأمّة يتمثّل في امتلاك جميع الأفراد أشياء مشتركة وفي أنّ لديهم أشياء ينسونها . . . فلا بدّ لكلّ مواطن فرنسي من أن يكون قد نسي سان بارتليمي، ومذابح مبدى في القرن الثالث عشر 1061.

للوهلة الأولى قد تبدو هاتان الجملتان بسيطتين مباشرتين [131]. غير أنّ بضع دقائق من التامّل كفيلة بأن تكشف مدى الغرابة التي تتسمان بها في الحقيقة. فمما يلاحظه المرء، على سبيل المثال، أنّ رينان لا يجد سبباً لان يشرح لقرّائه معنى "سان بارتليمي" أو "مذابح ميدي في القرن الثالث عشر". ولكن من سوى "الفرنسي"، إذا جاز القول، يفهم في الحال أنَّ "سان بارتليمي" إشارة إلى المنبحة الوحشية التي ارتكبها في 24 أب 1572 الملك شارل التاسع من أسرة فالوا وأمّه الفلورنسية بحق الهوغنوت؛ وأنَّ "مذابح ميدي" إلماع إلى إبادة الألبيين في منطقة واسعة بين البيرينيه وجنوب الألب، بتحريض من إنّوسنت الثالث [البريء، ث د]، وهو بين صفّ طويل من البابوات الأغين أشدّهم إغاً؟ كما أنّ رينان لا يحد غضاضةً في افتراض "ذكريات" في عقول قرّائه مع أنَّ الأحداث ذاتها وقعت قبل 300 و600 عام. وما يلفت الانتباه أيضًا هو التركيب القاطع doit oublié [لا بدّ أن ينسي] (وليس doit oubliér [يكن أن يكون قد نسي])، القاطع عالما الماسي القديمة هو واجبٌ مدني معاصر رئيس. والحال، أنّ قرّاء رينان يُقال لهم أنهم الضروري للماسي القديمة هو واجبٌ مدني معاصر رئيس. والحال، أنّ قرّاء رينان يُقال لهم أنهم "لا بدّ أن يكونوا قد نسوا" ما تفترض كلمات رينان أنّهم يتذكّرونه بصورة طبيعية!

كيف لنا أن نفهم هذا التناقض؟ لعلنا نبدأ بملاحظة أنّ الاسم الفرنسي المفرد "سان بارتليمي" ينطوي على القتلة والقتلى؛ أي أولئك الكاثوليك والبروتستانت الذين لعبوا دوراً علياً في الحرب المقدّسة غير المقدّسة الشاسعة الي اندلعت وسط أوروبا وعملها في القرن السادس عشر، والذين من المؤكّد أنهم ما كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنّهم جميعاً "فرنسيون". وبالمثل، فإنَّ "مذابح ميدي في القرن الثالث عشر" تحجب الضحايا والقتلة الذين لا أسماء لمم خلف فرنسيّة "ميدي" القحّة. ولا حاجة برينان لأن يذكّر قرَّاءه بأنَّ معظم الألبيين القتلى كانوا يتكلمون البروفنسالية أو الكاتالانية، وأنّ قتلتهم أتوا من أنحاء مختلفة من أوروبا الغربية. ويتمثّل أثر هذا الجاز في تصوير فصول من الصراعات الدينية الضخمة الي وقعت في أوروبا ويتمثّل أثر هذا الجاز في تصوير فصول من الصراعات الدينية الضخمة الي وقعت في أوروبا

العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث على أنّها حروب قَتْل الأخوة المُطَمَّئِنَة بين الفرنسيين أبناء الأمة الواحدة، ومَنْ سواهم؟ ولأننا نستطيع أن نكون على ثقة بأنّ الغالبية الساحقة من معاصري رينان الفرنسيين ما كانوا ليسمعوا قطّ، لو تُركوا وشأنهم، بـ "سان بارتليمي" أو "مذابح ميدي"، فإننا ندرك أننا إزاء حملة تأريخية منهجية، تقوم بها الدولة عبر نظامها المدرسي بصورة أساسية، لكي "تذكّر" كل شابة فرنسية وشاب فرنسي بسلسلة من المذابح القدعة التي باتت الأن مدوّنة بوصفها "تاريخ العائلة". وتلك الـ "لابدّ أن يكونوا قد نسوا" الماسي التي يحتاج المرء على الدوام لأن "يُذكّر" بها تتكشّف على أنّها وسيلة عيّرة في البناء اللاحق للأنساب أو الجينالوجيات القومية. (وإنه لمن الدال أنّ رينان لم يَقُلُ إنّ على كلّ فرنسي أن "يكون قد نسي" كومونة باريس. ففي 1882 كانت ذكرى الكومونة لا تزال واقعية وليست أسطورية، ومؤلة عا يكفي لأن بجعل من الصعب قراءتها تحت عنوان "قَتْلُ الأخوة المُطَمّئن").

ولا حاجة للقول، إنّه ليس في كلّ هذا، ولم يكن، غُة أيّ شيء فرنسي على نحو خاص. وهنالك صناعة تعليمية هائلة تعمل دون توقّف على قَسْر الشباب الأميركي على تذكّر / نسيان عداوات الأعوام 1861 1865 بوصفها حرباً "أهلية" عظيمة بين "أخوة" وليس بين دولتين أمتين سيدتين، كما كانت لفترة وجيرة. (غير أنَّ بمقدورنا أن نكون على ثقة بأنه لو نحت الكونفدرالية في الحفاظ على استقلالها، لكان شيءٌ بعيدٌ كلّ البعد عن الأخوّة حلَّ في الذاكرة علّ هذه "الحرب الأهلية"). وتقدّم كتب التاريخ المدرسية الإنغليزية مشهداً مسلياً، هو مشهدُ أب مؤسّس عظيم يُعلَّم كلّ طفل في المدرسة أن يدعوه وليم الفاتح. لكن هذا الطفل نفسه لا يُعلَّم أن وليم لم يكن يتكلم الإنغليزية، بل وما كان بمقدوره أن يتكلمها، لأن اللغة الإنغليزية لم تكن موجودة في يكن يتكلم الإنغليزية، بل وما كان بمقدوره أن يتكلمها، لأن اللغة الإنغليزية لم تكن موجودة في رمنه؛ كما لا يُقال لهذا الطفل ما الذي فتحه هذا الفاتح. ذلك أنَّ الجواب المنطقي الحديث الوحيد لا بدّ أن يكون أنّه فتح إنغلترا، الأمر الذي يحوّل الضاري النورماندي القديم إلى سَلَف لنابليون وهتلر أشدّ نجاحاً. ولذلك، فإنَّ كلمة "الفاتح" تنجز ذلك النوع من الحذف الذي تنجره "سان بارتليمي"، فتذكّر المرء بشيء لا بدّ من نسيانه في الحال. هكذا يلتقي وليم النورماندي وهارولد السكسوني في ميدان معركة هاستنفر، كأخوين على الأقل، إن لم يكن كشريكين في رقصة.

من اليسير بلا شكّ أن نعزو هذه الحالات القديمة من قَتْل الأخوة المُطَمِّئِن إلى حسابات موظّفي الدولة الباردة. لكنها تعكس على مستوى آخر إعادة تشكيل عميقة للخيال لم تكد تعيها الدولة، ولم يكن لها، وليس لها الأن، سوى سيطرة بسيطة عليها. وفي ثلاثينيات القرن العشرين مضى بشرٌ من قوميات كثيرة ليقاتلوا في شبه الجزيرة الإيبيرية لانهم نظروا إليها على أنها الحال الذي كانت فيه القوى والقضايا التاريخية العالمية موضع رهان. وحين بنى نظام فرانكو الذي عاش طويلاً وادي صرعى الحرب، قصر عضوية مدينة الموتى المكفهرة هذه على أولئك الذين ماتوا، كما يرى، في النضال العالمي ضد البلشفية والإلحاد. غير أنه، على هوامش الدولة، كانت "ذكرى" حربٌ أهلية "إسبانية" قد برغت. غير أنّ هذه "الذكرى" لم تَغدُ رسية إلا بعد وفاة الطاغية الماكر، وما تلاه من انتقال سلس بصورةٍ مدهشة إلى الديقراطية

البرجوازية، وهو انتقال لعبت فيه هذه "الذكرى" دوراً حاماً. وبالطريقة ذاتها إلى حدِّ بعيد، جرى في الأفلام والقصص السوفيتية تذكّر/ نسيان الحرب الطبقية الضخمة التي اندلعت، من 1918 إلى 1920، بين جبال البامير ونهر الفيستولا بوصفها حرب"نا" الأهلية، مع أنَّ الدولة السوفيتية، عموماً، تتمسّك بقراءةٍ ماركسيةٍ أرثوذكسيةٍ للصراع.

وتُغدّ القوميات الكريولية في البلدان الأميركية ذات دلالة على هذا الصعيد. ذلك أنّ الدول الأميركية، من جهة أولى، ظلت ضعيفة على مدى عقود، بل وبعيدة عن المركزية، ومتواضعة كثيرًا في طموحاتها التعليمية. ومن جهة أخرى، كانت الجتمعات الأميركية، حيث يقف المستوطنون "البيض" إزاء العبيد "السود" و "الحليين" نصف المبادين متصدّعة داخلياً إلى درجةٍ لم تبلغها أوروبا قطّ. ومع ذلك فإنَّ تخيّل الأُخوّة، الذي لا يمكن من دونه أن تولد طمأنينة قتل الأخوة، يتجلّى بصورة باكرةٍ على نحو لافت، وليس من دون شعبية صادقة ومدهشة. وتشكّل الولايات المتحدة الأميركية مثالاً جيداً جداً على هذا التناقض.

ففي العام 1840، في خضم حرب قاسية دامت غاني سنوات ضدّ السيمينول في فلوريدا (وكما كان ميشليه يستدعي أوديبه)، نشر جيمس فينيمور كوبر حكايته ‹دليل الطريق›، وهي الرابعة من بين خس حكايات في سلسلة ذو الجوارب الجلدية التي حظيت بشعبية هائلة. ومن الأساس في هذه الرواية (وفي زميلاتها جيعاً ما عدا الأولى) ما يدعوه ليزلي فيدلر "الحبّ القاسي، الذي يكاد لا يُفْصَح عنه، لكنه أكيد" الذي يجمع بين حارس الغابة "الأبيض" ناتي بمبو ودلوار النبيل زعيم الشينغاشوك ("شيكاغو"!) [132]. غير أنّ الخلفية الرينانية لأخوة الدم الت تحمع بينهما ليست ثلاثينيات القرن التاسع عشر القاتلة بل السنوات المنسيّة المُتذكّرة الأخيرة من الحكم الإمبراطوري البريطاني. فكلا الرجلين يُصوّران على أنهما "أميركيان" يقاتلان من أجل البقاء: ضدّ الفرنسيين، وحلفائهم "الحليين" ("المِنْفو الأشرار")، وعملاء جورج الثالث الخونة.

وحين صوّر هرمان ملفل، في العام 1851، إسماعيل وكويكوج في السرير معاً في حانة النفّاث ("كذلك استلقيت أنا وكويكوج في عرس قلبين، قرينين مطمئنين متحابين")، فإنه أضفى على الممجى البولينيزي النبيل طابعاً أميركياً ساخراً على النحو التالي:

. . . لكن على يقين من أنَّ رأسه كان رأساً عتازاً إذا نظرت إليه من راوية علم فراسة الدماغ؛ قد يبدو مضحكاً، غير أنّه ذكّرني برأس الجنرال واشنطن كما نراه في عائيله المعروضة للناس؛ ففيه ما في رأس واشنطن من انحدار مُقعنس متدرّج بانتظام فوق الحاجبين، وهما لديه حاجبان شديدا البروز كأكمتين طويلتين يتكاثف الشجر في قمتيهما. كان كويكوج هو جورج واشنطن وقد تطور في أنجاه بدائي [31].

وبقي على مارك توين أن يبدع في العام 1881، بعد أن مضت فترة معقولة على "الحرب الأهلية" وعلى إعلان لنكولن تحرير العبيد، أول صورة باقية لأسود وأبيض بوصفهما "أخوين" أميركيين: جِمْ وهَكْ اللذان يشردان مع التيار في اليسيسيي الواسع [34]. غير أنَّ الخلفية هي الـ

antebellum [فترة ما قبل الحرب] المنسيّة/ المُتَذكَّرة اليّ لا يزال فيها الأسود عبداً.

وما تبينه بوضوح تخيّلات الأخوّة اللافتة الت شهدها القرن التاسع عشر هذه، والت برغت "بصورة طبيعية" في محتمع مرّقته العداوات العرقية، والطبقية، والمناطقية العنيفة، هو أنَّ القومية في عصر ميشليه ورينان كانت تمثّل شكلاً جديداً من الوعي الذي نشأ حين لم يَعُدُ مُكناً عَيْشُ الأمّة أو اختبارها على أنها جديدة، في لحظة الذروة من التمرّق والقطيعة.

### 4/11) سيرة الأمم

ما من تغيّر عميق في الوعي إلا وكلب معه، ككم طبيعته ذاتها، ضروباً غيّرة من النسيان. ومن ضروب النسيان هذه تنبع، في ظروف تاريخية معينة، روايات وسرديات. فبعد اختبار التغيرات الفيزيولوجية والانفعالية الي يُحدِثها النضج، يغدو من المستحيل "تذكّر" وعي الطفولة. فيا للله الألاف من الأيام الي مرّت بين الطفولة الأولى وأوائل البلوغ كيف تختفي أبعد عا يطاله التذكّر المباشر! ويا لغرابة أن تحتاج عوناً من شخص آخر لكي يُعْلِمَكَ أنَّ هذا الصغير العاري في الصورة المصفرة المناسوة ألمن المناسوة عاماً بعد عام.

وهذه السرديات تتوضّع في زمن فارغ متجانس، شأنها شأن الروايات والصحف التي عرضنا له في الفصل الثاني. وهذا ما يحعل إطارها تاريخياً وخلفيتها اجتماعية. وهذا هو السبب في أنَّ كثيرًا من السَّير الذاتية تبدأ بظروف الأبوين والأجداد، التي لا يمكن أن يملك عنها من يمتب سيرته الذاتية سوى أدلة ظرفية، نصيّة؛ وفي أنَّ كاتب السيرة يبذل غاية الجهد لكي يسجّل التاريخين الروزناميين، الـ ب. م لحدثين سيريين لا يمكن للشخص الذي تُكْتَب سيرته أن يتذكّرهما قطّ: تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة. وما من شيء يذكّرنا بحداثة هذا السرد بتلك الحدّة التي يذكّرنا بها مفتتح إنجيل متى. فهذا الإنجيلي يقدّم لنا قائمة بسيطة بثلاثين ذكراً أنجب واحدهم الأخر على التوالي، من أبراهام وصولاً إلى يسوع المسيح. (ولا تُذكّر امرأة إلا مرّة واحدة، لا لائنها والدة، بل لائنها مؤابيّة وليست يهودية). ولا نجد أيّة تواريخ خاصة بايّ من أسلاف يسوع، دَعْ عنكَ المعلومات الاجتماعية، أو الثقافية، أو الفيزيولوجية، أو السياسية. وهذا النمط من السرد (الذي يعكس أيضًا تلك القطيعة في بيت لحم الي غدت ذكرى) كان معقولاً عاماً لدى النسّابة القديس لانّه لم يكن يتصور المسيح "شخصية" تاريخية، بل ابن الله الفعلي.

وكما هو الحال مع الأشخاص الخَّدَثين، كذلك هو الحال مع الأمم. فإدراكُ الانفراس في زمن علماني، متسلسل، مع كلّ ما ينطوي عليه ذلك من تواصل واستمرار، وكذلك من "نسيان لتجربة الاستمرار هذه - نتاج ضروب القطيعة الى شهدتها أواخر القرن الثامن عشر - إُمَّا يولُّد الحاجة إلى سَرْدِ "الموية". وهي مهمة موكولة إلى قاضي ميشليه. غير أنَّ هنالك فارقاً أساسياً في رسم الحبكة بين سرد الشخص وسرد الأمة. ففي قصة "الشخص" العلمانية غة بداية ونهاية. فهو يبرغ من جينات أبيه وأمّه وظروفهما الاجتماعية إلى مرحلة تاريخية قصيرة، ليلعب دوراً هناك حتى عاته. فلا يكون عَّة شيء بعد ذلك سوى أثار الصِّيت أو النفوذ الباقية. (تصوّروا كم سبيدو غريباً، اليوم، أن تُنْهَى قصة حياة هتلر بالإشارة إلى أنه في 30 نيسان 1945 مضى إلى الجحيم مباشرةً). أمّا الأمم فليس لما تلك الولادات الى يمكن تحديدها بصورة واضحة، وميتاتها، إنْ كانت تحدث على الإطلاق، ليست طبيعية قطّ <sup>[35]</sup>. ولأنّه ما من مُنْشِئ، فإنَّ سيرة الأمة لا يمكن كتابتها على النحو الإنجيلي، "نزولاً في الرمن"، عبر سلسلة توالدية طويلة. والبديل الوحيد هو صياغتها "صعوداً في الزمن" – باتجاه إنسان بكين، وإنسان جاوه، والملك أرثر، أينما ألقى مصباح عالم الأثار بصيصه المتقطّع. غير أنَّ هذه الصياغة موسومة بميتاتٍ تبدأ، في عكس مثير للجينالوجيا أو الأنساب التقليدية، من حاضر هو الأصل والمنشأ. فالحرب العالمية الثانيَّة تنجُّب الحرب العالمية الأولى؛ ومن [معركة] سيدان [1870] تأتي [معركة] أوسخ ليتز [1805]؛ وسَلَّفُ انتفاضةِ وارسو [1943] هو دولة إسرائيل.

بيد أنّ الميتات التي تبي سيرة الأمة هي من نوع خاص. ففي الصفحات الـ 1200 من كتابه المهيب «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني» لم يذكر فيرنان بروديل "سان بارتليمي" رينان إلا مروراً، مع أنّها حدثت على وجه الضبط في منتصف حكم هذا الملك من آل هابسبورغ. يقول المعلّم [بروديل] (الجملد 2، ص 223):

ما الحوادث إلا هباء منثوراً، فهي تعبر التاريخ عبور ومضات قصيرة، وما تكاد تنشأ حتى تعود إلى الظلمة وغالباً ما يلفها النسيان.

فالميتات المهمّة، عند بروديل، هي تلك الأحداث الغُفل التي لا عدّ لها، التي تتيح له، وقد جُمِعَت وأُخذَت معدلاتها الوسطية العلمانية، أن يرسم صورة الشروط الحياتية بطيئة التغيّر التي يعيشها ملايين البشر الغفل الذين لا تحتلّ قوميتهم بين الأسئلة التي تُطْرَح بشأنهم سوى موقع السؤال الأخير.

بيد أنَّ سيرة الأمة تُنْتَزَع من مقابر بروديل المتراكمة بلا رحمة، قبالة معدّل الوفيات المعتاد، والانتحارات الرهيبة، والشهادات الحُرِنة، والاغتيالات، والإعدامات، والحروب، والحارق. غير أنَّ هذه الميتات العنيفة، وخدمةً لأغراض السرد، لا بدّ أن يجري تذكّرها/ نسيانها على أنّها "ميتاتنا الخاصة".

# ترحال وتهريب: في السيرة الجغرافية لكتاب الجماعات المتخبّلة<sup>ظ</sup>

يبدو من المكن الآن، وقد مرَّ ما يقارب ربع القرن على نشر الجماعات المتخيّلة أول مرّة، أن نرسم الخطوط العريضة لتاريخ ترحاله اللاحق في ضوء بعض موضوعاته الرئيسة: رأسمالية الطباعة، القَرْصَنَة بمعناها الاستعاري الإيجابي، إضفاء الطابع اللغوي الحلّي، واقتران القومية بالاعمية ذلك الاقتران الذي لا طلاق فيه.

وبوجه عام، فإنَّ الدراسات التي تتناول انتشار الكتب عبر الأمم لا تزال نادرة عاماً، ما عدا دراسة هذا الانتشار في حقل التاريخ الأدبي حيث يشكّل فرانكو موريت ذلك المثال الاستثنائي. غير أنَّ المَادة تبقى متاحةً لإجراء بعض التأملات المقارنة الأولية. فمع نهاية العام 2007، سيكون كتاب ‹الجماعات المتخيّلة› (الذي سيشار إليه منذ الأن فصاعداً بالاختصار ج م) قد نُشِر في ثلاثة وثلاثين بلداً وفي تسع وعشرين لغة الله الإنتشار لا يعود إلى خصائص هذا الكتاب بقدر ما يعود إلى نُشْره الأصلي في لندن، باللغة الإنغليزية، التي تعمل الان كنوع من اللاتينية ما

بعد الإكليركية، ذات الهيمنة العالمية. (و لو أنَّ ج م ظهر أصلاً في تيرانا، في ألبانيا، أو في مدينة هوشي منه، في فيتنام، أو حتى في ملبورن، في أستراليا، لما كان من الحتمل أن يَرْحَل بعيداً). ومن جهة أخرى، فإنَّ هذه الكثرة من الترحمات تشير إلى أنّ إضفاء الطابع اللغوي الحلّي، الذي كان له في النهاية، وبالتحالف مع رأ عالية الطباعة، أن يدمّر هيمنة اللاتينية الكنسيّة ويلعب في ولادة القومية دور القابلة، لا يزال قوياً بعد مرور نصفِ ألفيةٍ من السنين.

ما أقترح القيام به هو أن أسرد ما كنت قد عَكَنت من اكتشافه، بفضل العون الكريم الذي قدّمه كثير من الزملاء، والرفاق، والأصدقاء، بشأن هذه الترجمات: ما عُيِّ به الناشرون، وبأيّة بواعث واستراتيجيات، وفي أيّة سياقات سياسية، محلية ودولية على السواء. وذلك لكي أحاول في النهائية أن أستخلص بضعاً من النتائج المترددة وغير النهائية.

غير أنّه من الضروري أن أبدأ بقول بضعة أشياء عن مقاصدي الأصلية، السجالية بلا شكّ، ذلك أنها قد أثّرت، بطرائق غير متوقّعة في الغالب، على استقبال الكتاب وترجماته. فأولاً، ولأسباب أعقد من أن أعرضها هنا، كانت المملكة المتحدة البلد الوحيد في العالم الذي جرى فيه، خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، وعبر أقنية منفصلة، ذلك العمل ذو المستوى الرفيع حول طبيعة القومية وأصولها بالمعنى العام، وعلى أيدي أربعة من المفكّرين اليهود النافذين —هم المؤرّخ الحافظ إيلي كيدوري، والفيلسوف وعالم الاجتماع اللبرالي المتنوّر إرنست غلنر، والمؤرّخ الماركسي آنئذ إريك هوبسباوم، والمؤرّخ التقليدي أنطوني سميث. غير أنّه لم غَرِ قلل عام حقيقي قبل العام 1977، حين نشر القومي والماركسي توم نايرن كتابه الذي شكّل خرْقاً تفكّك بريطانيا 121. وقد وصف هذا القومي الاسكتلندي المملكة المتحدة — التي يرتبط بها بقوة كلَّ من غلنر، وهوبسباوم، وسميث – بأنّها ذلك الأثر المتداعي المتبقي من عصر ماقبل قومي، ما قبل جمهوري والمُقدَّر له تالياً أن يشاطر هنغاريا النمساوية مصيرها. وقد وَجُه هذا الماركسية التقليدية ما للمومية بمعناها الواسع من أهمية تاريخية—سياسية. ولقد كانت عواطفي في الجدال الذي تلا ذلك في صفّ نايرن إلى حدّ بعيد.

هكذا عَثُلَ واحدٌ من مقاصد ج م السجالية المامة في تأييد موقف نايرن ("نقدياً"، بالطبع). وآثار ذلك واضحة بما فيه الكفاية في الحيّر الكبير الذي خصصت به المملكة المتحدة، والإمبراطورية البريطانية، وحتى اسكتلندا (ربما لأنن أعيش وأعمل في الولايات المتحدة منذ العام 1958): الامر الذي يتجلّى في وَفْرَةٍ من المقبوسات من الادب "الإنغليزي" والإلماعات اليه يمكن أن تكون كتيمة بالنسبة لكثير من القرّاء الذين لم يتعلموا في المملكة المتحدة؛ وفي الستفزازات إقليمية الطابع جمهورية الروح (من قبيل أنَّ جميع حكّام المملكة المتحدة قد شُوا كما لو أنهم جيران قريبون [أن ستيوارت]، في حين لُقّبَ الحكّام الأجانب على الطريقة التقليدية [لويس الرابع عشر])؛ وفي بعض الإشارات الخالية من الجاملة والمؤسفة إلى خصم نايرن في الجدال إريك هوبسباوم.

وعَثَّلَ مقصدٌ ثانٍ في توسيع مدى انتقادات نايرن النظرية، التي استهدفت الماركسية التقليدية على نحو يكاد أن يكون حصرياً. فقد بدا لي أنَّ "إخفاق" الماركسية في أن تُسك بتلابيب القومية ذلك الأمساك العميق ليس مقتصراً على الماركسية بأيّ حال من الأحوال. وعكن، بل ينبغي، توجيه النقد ذاته إلى اللِبرالية التقليدية، وعلى الهامش إلى النزعة الحافظة التقليدية. (وهذا هو السبب في أنَّ ج م يسخر من عدم معقولية وجود ضريح للماركسي الجهول أو نُصبِ تذكاري للِبراليين الذين لقوا مصرعهم). ولا بدَّ من وجود سبب مشترك لهذا القصور العام، مع فارق يتمثّل في أنَّ الماركسية تبدو قياساً باللِبرالية مكاناً أفضل للبحث عن ذاك السبب. ولأنَّ هذا هو الإطار الذي أحاط بالكتاب، فقد أمكن له أن يثير اهتمام كلِّ من الماركسيين النقديين واللِبراليين النقديين، بإشارته إلى كلا هذين الفريقين أنَّ غة حاجة إلى قدْر كبير من التفكير والبحث الجديدين حقاً. ولذلك لم أحزن مطلقاً حين عَمَد أحد المراجعين المؤيدين عموماً إلى وصف الكتاب بأنَّه ماركسي كثيرًا بالنسبة للبرالي، ولبرالي كثيرًا بالنسبة لماركسي.

وعَثَّل المقصد السجاليّ الثالث في نَزْع أوروبيّة الدراسة النظرية الى تتناول القومية. وهذا الدافع لا علاقة له بنايرن، بل هو مستمدّ من انغماس طويل في مجتمعات، وثقافات، ولغات إندونيسيا وتايلاند/ سيام اللتين كانتا أنئذٍ بعيدتين عَاماً. فعلى الرغم من المدى الواسع المثير للإعجاب الذي ميِّر العمل متعدِّد اللغات الذي قام به كلُّ من غلنر وهوبسباوم وسميت، إلا أنهم بدوا، من وجهة نظر جاكرتا وبانكوك، أصحاب نزعة أوروبية مركزية على نحو لا علاج له. بل إنَّ غلنر كان قد أجرى بحثاً حول المغرب، لكنّ إدوارد سعيد ربا كان على حقٌّ في مهاجمته الجهله بالعربية، مع أنَّ حدّة حوارهما العامة لم تكن بالسموّ اللازم [3]. وكانت المشكلة كيف الإكار بين سكيلا وشاريبديس الله، سكيلا ما عرفته أوروبا القرن التاسع عشر من تهويات رومانسية حول الأمم الصينية، واليابانية، والفيتنامية، الخ، بأعمارها الت تبلغ آلاف كثيرة من السنين، وشاريبديس الاتهام الساخط الذي وجّهه بارتا تشاترجي إلى حميع القوميات المناهضة للكولونيالية خارج أوروبا بأنَّها "خطابات مُشتَقَّة". ولقد هبّت إلى نجدتي في هذا المأرق تلك الدول القومية المتعددة الت خُلفَت في أميركا الجنوبية والوسطى خلال المرحلة 1810 - 1838 (مع أنَّه لم يكن عقدوري، في العام 1983، قراءة الإسبانية أو البرتغالية). فالتعدد هنا كان حاهاً شأنه شأن الأسبقية التاركية في الحدوث. في "الثورتان" في الولايات المتحدة وهايين سبقتا الحركات القومية في بلدان أميركا الإسبانية، في حين برزت البرازيل القومية بعد ذلك بكثير، ولكلُّ بُحرِبة من هذه التجارب شواذّاتها الخاصة التي تميّزها عن سواها. (منذ بضعة أيام مضت، أشارت صحيفت الحلية في بانكوك بسخرية إلى الولايات المتحدة على أنَّها أرض [الأنانية] الحرّة). غير أنَّ ذلك لا بحول مطلقاً دون إمكانية المقارنة الواضحة بين هذه البلدان وبلدان أميركا الإسبانية الت خاضت، مثلها، سنوات دموية كثيرة من أجل بناء جهوريات مستقلة عديدة، على الرغم من أنها تشاطر إسبانيا الإمبراطورية اللغة ذاتها والدين ذاته، وذلك قبل وقت طويل من قيام الماجيار، والتشيك، والنروكيين، والاسكتلنديين، والطليان بالشيء ذاته.

لقد وفّرت أميركا الإسبانية حججاً مُثلى ضدٌ كلٌ من الفرادة القومية والمركزية الأوروبية. واتاحت لي أن أنظر إلى الولايات المتحدة الأميركية الباكرة، في السياق الأميركي الجامع، بوصفها مجرد دولة ثورية كريولية أخرى، لكنها أكثر رجعية من أخواتها الجنوبيات من بعض النواحي. (كلاف جورج واشنطن، الحرّر الذي لم يضع حدّاً للرقّ إلا بصورة تدركية، وكلاف توماس جفرسُن، فإنّ سان مارتن لم يتكلّم على سكّان بلده الأصليين كهمجيّين، بل دعاهم لأن يصبحوا مواطنين بيروفيين)، وانطباعي أنَّ ما ينطوي عليه كتابي من نزع للطابع الأوروبي لم يترك كبير أثر في أوروبا ذاتها، لكنه جعل ج م أشدّ جاذبية للقرّاء في الجنوب العالمي.

وعَثّل المدف السجالي الأخير بالولايات المتحدة. ولم يكن ذلك بحرد عداء للتدخلات الإمبريالية الأميركية الدموية في أميركا اللاتينية وأسيا وإفريقية، ولا بحرّد ردّة فعل على الحقيقة الغريبة التي مفادها أنّه حين كان كتاب ‹الجماعات المتخيّلة› على وشك أن يُنْشَر لم يكن في الجامعات الأميركية أية مناهج دراسية حول القومية، فما بالك بالقومية الأميركية، الي كانت تُعتَبَر بمثابة ضلال من ضلالات "القدر الواضح "أبا الذي ساد في أواخر القرن التاسع عشر. والأحرى أنّه كان عداء وردّة فعل على الأنانية اللافتة، الي لا تزال مرئية اليوم حتى في «النيويورك تايمر» للإبرالية، وعلى تحيّر "البلد الكبير" الواضح لقرّاء «النيويورك ريفيو أوف بوكس». (لاحقاً، وجدتُ الإقليمية ذاتها لدى "البلدان الكبيرة" الأخرى، مثل المند والصين وروسيا وإندونيسيا والبرازيل). وكان قول كارل دويتش الساخر المتشكك "ليس على القوة أن تصغي"، يرنّ وأدني. ومن هنا تلك الاستراتيجية السجالية الي اتبعها ج م في إبراز "البلدان الصغيرة" وإعطائها مكان الصدارة: هنغاريا، تايلاند، سويسرا، فيتنام، اسكتلندا، والفيليبين.

لهذه الاسباب، وسواها، كان للطبعة الأصلية، الت نُشِرَت في كلَّ من لندن ونيويورك في أن معاً، استقبالان مختلفان تماماً في هذين البلدين. ففي تلك الأيام البعيدة، كان لا يزال لدى المملكة المتحدة "صحافة نوعية"، وسرعان ما قام بمراجعة ج م كلَّ من إدموند ليتش، وكونور كروز أوبر اين، ونيل أسكيرسون، والماركسي الجامايكي ونستون جيمس. أما في الولايات المتحدة، الت لم تملك قط "صحافة نوعية"، فقلما لوحظ الكتاب. ولم تكن الجلات الأكاديية مختلفة على هذا الصعيد. ولم يتغيّر هذا الوضع إلا في أوائل تسعينيات القرن العشرين، بعد انهيار الاتحاد السوفيي، وتفكك يوغسلافيا المنيف، والتصاعد السريع في سياسات الموية على الجبهة الداخلية.

ظهرت أول طبعة أجنبية من ج م في طوكيو، عام 1987، بعنوان ﴿سورُو نو كيودوتيا›. وكانت الترجمة من عمل طالبين سابقين موهوبين من طلابي، هما تاكاشي وسايا شيراشي، اللذان اعتقدا أنه يمكن أن يلعب دوراً على الصعيد التعليمي في ذلك الصراع الدائم ضد العرلة اليابانية، وضد الرأي الحافظ الذي مفاده أنَّ من غير المكن أو من غير الضروري مقارنة تاريخ البلد وثقافته مع تواريخ البلدان الأخرى وثقافاتها. وكانت الترجمة ذاتها مبتكرة وغير عادية، حيث حافظت على ما في الطبعة اللندنية من تعطّش للسّجال دون أن تتمسّك بحرفيّتها. فقد برع المترجان في إحلال "مقابلات" يابانية علّ كثير من إحالات الأصل إلى الأدبيات الإنغليزية،

أو مقبوساته منها. وعلى سبيل المثال، فإنّ الاقتباس الطويل من توماس براون [في الفصل الثامن] حلّ علّه اقتباس من «حكاية هيكي» اليابانية. أمّا بالنسبة لدار النشر في طوكيو، ليبروبورت، واليّ هي من يسار الوسط نوعاً ما، فقد كتب لي تاكاشي مؤخّراً: "مالك الشركة، تسوتسومي، هو ابن ملك من ملوك المال، عرّد على والده، واختار أن يكون شاعراً وكاتباً، لكنه سرعان ما نفسه وريثاً لجزء من أعمال أبيه عندما مات هذا الأخير. ولذلك قال للمحررين لديه أن ينشروا كتباً جيدة دون اهتمام لأمر الربح . . وهذا هو السبب في إفلاس الدار في تسعينيات القرن العشرين". لكنها بقيت ما يكفي لأن ترى «الجماعات المتخيّلة» يغدو كتاباً أساسياً في القرن العشرين". لكنها بقيت ما يكفي لأن ترى «الجماعات المتخيّلة» يغدو كتاباً أساسياً في القررات المتقدمة حول القومية في أفضل جامعات اليابان.

وخلال السنوات الأربع الفاصلة بين طبعة فيرسو الأولى وطبعتها الثانية المنقحة والموسّعة كثيرًا، ظهرت طبعات من الكتاب بالألمانية، والبرتغالية، والصربية-الكرواتية. ولقد صدرت الطبعة الألمانية المتازة (Die Erfindung der Nation) في فرانكفورت عام 1988، مع غلاف لافت عليه صورة عثال هيرمان الضخم في الغابة السوداء، ذلك النَّصب الذي أقيم في القرن التاسع عشر احتفاء بأرمينيوس، "الجرماني" الذي هزم الإمبراطورين الرومانيين أغسطس وتابيبيريوس لحمل أمّا دار النشر المستقلة الي نشرت الكتاب، Campus Verlag، فقد تأسّست عام 1975، وسرعان ما حظيت بسمعة حسنة بسبب كتبها الجادّة في التاريخ والسياسة. ولعلّ أحد الأسباب وراء ظهور ترجمة ألمانية على هذا النحو الباكر أنّ صحيفة «الفرانكفورت زيتونغ» "النوعية" كانت قد رصدت عن كثب مراجعات الكتاب في "الصحافة النوعية" في الملكة التحدة <sup>[4]</sup>. أمّا الترجمة البرتفالية عام 1989 (Naçao y Consiência nacional)، فلم تُنشَر في لشبونة، بل في ساو باولو، لدى Ática. ولمذه الدار تاريخ مثير للاهتمام على نحو غير عادي. وكسب موقعها الإلكتروني الحالي، فإن أصولها تعود إلى 1956، عندما بادرت مجموعةً من المثقفين والباحثين التقدميين، من بينهم أندرسن فيرنانديز دياز، وفاسكو فيرنانديز دياز فيلهو، وأنطونيو نار فايس فيلهو إلى إقامة مؤسسة Curso de Madureza Santa Inês، وهي مؤسسة لتعليم الكبار. كان ذلك زمن التفاؤل العظيم والإبداع في الحياة الثقافية، والسياسية البرازيلية: زمن موسيقا الـ bossa nova [الاتجاه الجديدة]، والـ Cinema Nova [السينما الجديدة]، وبينالي برازيليا الأول. وفي العام 1962، أدّت الزيادة الكثيفة في عدد المسجّلين في هذه المؤسسة وما يتمتّع به أساتنتها من نفوذ فكري واسع، إلى إقامة الـ Sociedade Editora do Santo Inês. وبعد سنتين من ذلك، وقريباً من زمن الانقلاب العسكري ضدّ الرئيس غولار، تقرّر بمبادرة من أندرسن فيرنانديز دياز، إقامة دار للنشر نقدية يديرها محرّفون، وتُسمَّى على اسم أتيكا [Ática]، مهد الحضارة الإغريقية القدعة. وفي العام 1965، نشرت أتيكا كتبها الأولى، وتدبّرت على غو ما أن تواصل وجودها طوال عقدين من الدكتاتورية العسكرية القمعية. وفي العام 1999، ثمُّ شراؤها من قِبَل تكتّل إديتورا أبريل البرازيلي وتكتّل فيفيندي الفرنسي المتّحدين معاً؛ وبعد خسة أعوام، وصراع طويل، غدا تكتّل أبريل - المستورد الأصلي لرسوم ديزني،

وناشر الطبعات البرازيلية من «التايم» و«البلاي بوي» – مالكاً لأغلبية الأسهم. لكن أتيكا لا تزال تبدو وكانَ لما استقلالية معينة.

وفي صيف 1989 دعاني إيفو باناك من جامعة ييل لكي أقوم بدور الملق "المُقارِن" في مؤتمر في دوبروفنيك حول موضوع القومية في البلقان وأوروبا الشرقية. وهناك التقيت سيلفا ميزناريتش وخضتُ نقاشات حيوية معها، وهي التي تعملت لاحقاً مسؤولية الترجمة الصربية ميزناريتش وخضتُ نقاشات حيوية معها، وهي التي تعملت لاحقاً مسؤولية الترجمة الصربية. وكانت الكرواتية (Nacija: Zamišljena zajednica) عام 1990، والتي كتبت لها مقدمة خاصة. وكانت سيلفا قد تلقت تعليمها في كلية الحقوق في جامعة زغرب، وفي جامعة شيكاغو، وحصلت على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع عام 1984 من جامعة لجوبلجانا؛ كما كانت في تلك السنة ذاتها درجة الدكتوراه في علم الاجتماع عام 1984 من جامعة لجوبلجانا؛ كما كانت في تلك السنة ذاتها مؤخّراً أنها كانت تحسب انثذ أنَّ ترجمةً للكتاب قد تساعد في الوقوف في وجه ذلك المدّ المتصاعد من التعصب القومي والجنون الاسطوري الكرواتي والصربي؛ مما يساعد على إبقاء يوغسلافيا موحّدة. غير أنَّ هذا الامل قد خاب، للأسف، في ربيع العام التالي. وكانت دار النشر Školska أنثذ داراً ضخمةً علكها الدولة. وبعد انهيار يوغسلافيا، جرت خَصْخَصتها وعمدت مؤخّراً إلى شراء أكبر دار صربية لنشر الكتب المرسية الكا.

ومع أنَّ طبعةً موسَّعةً من ج م كانت قد صدرت في العام 1991، إلا أنَّ دار النشر الكورية نامان أصدرت في السنة التالية ترجة مُقَرْصَنةً (سانغ سانغ أوي كونغدونغ شي) تستند إلى النصّ الأصلي المنشور عام 1983. وكانت نامان قد تأسست عام 1979 على يد شو سانغهو، الذي تعود أصوله إلى مقاطعة كوانغجو "المنشقة"، التي خرج منها كثير من المثقفين اليساريين المناضلين، مع أنَّ سانغهو نفسه لم يكن مناضلاً. وفي ثمانينيات القرن العشرين وأوائل تسعينياته، اردهرت نامان كناشر للنصوص الاجتماعية "الشعبية" ذات الميل اليساري؛ ثم انزاحت بعد ذلك، متَّبعة أخاهات السوق، صوب الكتب اللبرالية الجديدة والحافيظة. ويبدو أنَّ ج م قد نجا من المدّ الجديد، حيث أصدرت الشركة في العام 2002 (أي بعد عشر سنين) طبعة غير مُقَرْصَنة، تقوم على طبعة العام 1991 الموسّعة. (ولعلّه من الميّز أنَّ غلاف هذه الطبعة هو صورة ملونة لجمهور غفير من الشباب الذين يلوحون بالأعلام، لعلّهم من مشجّعي منتخب كرة القدم الكوري الذي غفير من الشباب الذين يلوحون بالأعلام، لعلّهم من مشجّعي منتخب كرة القدم الكوري الذي حقق نجاحاً باهراً في مباريات كأس العالم التي جرت في حزيران 2002). وتحظى نامان لدى كثير من الكتّاب والناشرين الجادّين بصيت واسع بسبب من إنتاجها الضخم والسريع، الذي يتميّز في بعض الأحيان بتحريره البائس وترجماته الخرقاء. كما أنها تستمدّ شهرتها من عدم دفعها حقوق كثير من المؤلّفين أفاً.

ولعلَّ من المكن تفسير إصدار نامان الت باتت الآن عافظةً طبعةً جديدة من الكتاب بإدراكها النجاح التجاري الذي حققته ترجمة تاكاشي وسايا شيراشي اليابانية. ولقد كان لي خلال زيارة قصيرة إلى سيئول عام 2005، حظَّ أن ألتقي البروفسورة الساحرة والمتواضعة يون هيونغ سوك التي قامت بالترجمة. وقد أسرفت في الاعتذار عن نوعية الطبعة المُقرَّصَنَة، وقالت إنَّ موعداً نهائياً قاسياً كان قد فُرض عليها كي تنجز العمل.

وإذا ما كانت الرّجمات حتى العام 1992 تبدو عشوائيةً من الناحية الجغرافية -طوكيو، فرانكفورت، ساو باولو، زغرب، وسيئول- فإنَّ الحال لم يكن كذلك على الإطلاق خلال بقية العقد. فمن بين الخمس عشرة ترجمة المعنيَّة، عُت إحدى عشرة في أوروبا بين 1995 و 1999. غير أنَّ ذلك سبقه صدور طبعة في مكسيكو (Comunidades imaginadas) عن دار النشر غير أنَّ ذلك سبقه صدور طبعة في استانبول (Hayali Cemaatler) عام 1993.

كان الاقتصادي والدبلوماسي دانييل سوسيو فيليفاس قد أسّس في العام 1934 الكلية الإسبانية لكلية المسبانية لكلية الوطنية المؤسسة حديثاً، لكنه سرعان ما توسّع ليفطي التاريخ والثقافة والأدب وما الاقتصاد الوطنية المؤسسة حديثاً، لكنه سرعان ما توسّع ليفطي التاريخ والثقافة والأدب وما إلى ذلك. ولأنّ الدولة كانت تديره منذ البداية، فقد بقي جزءاً من البيروقراطية الثقافية الرحية (في تسعينيات القرن العشرين كان يرأسه الرئيس السابق ميفيل دي لا مَدْريد). وبعد الحرب العالمية الثانية، وسّع "إمبراطوريته" إلى الأرجنتين وكولومبيا والولايات المتحدة (سان دييفو) وغواتيمالا والبيرو وفنزويلا. وفي تسعينيات القرن العشرين كان إنتاجه هائلاً: 2300 عنوان جديد و5000 من إعادة الطبع. ولعلّ الحافر وراء هذه الترجة قد أتى من ذلك العدد الكبير من الباحثين والمثقفين المكسيكيين النين درسوا أو درَّسوا في الجامعات الأميركية، الي كان ج يُستخدَم فيها على نطاق واسع كمقرَّر في أقسام التاريخ والانثروبولوجيا والادب المقارن. وفي العام 1986، دُعِيتُ إلى مؤتر ضخم حول القومية المكسيكية في زامورا، وأذهلي أنَّ الاجني الأخر الوحيد المشارك في المؤتم كان ديفيد برادنغ، مؤرّخ المكسيك والبيرو المتبحّر، ثم مؤرّخ أميركا الإسبانية بشكل عام. ومع أنَّه أربكي أن أكون المشارك الوحيد الذي لا يعرف الإسبانية أميركا الإسبانية بشكل عام. ومع أنَّه أربكي أن أكون المشارك الوحيد الذي لا يعرف الإسبانية مطلقاً، إلا أنَّ إنريكي كراوزي، الساعد الأمن الشاب لأوكتافيو باث، الذي يجيد أكثر من لغة ولطالما كان له نفوذه الفكري الكبير في الـ Fondo، تلطَّفه وأخذني تحت جناحه.

أمّا دار النشر التركية Metis Yayinlari في استانبول فأمرٌ ختلفٌ عاماً. وكانت قد اسّستها في الأصل موغي غرسوي سوكمين، "وكيلة" فيرسو في تركيا، مع قلّة من الأصدقاء اليساريين. وبغية تفادي خطر اعتقال الفريق بأكمله، سُجِّلت Metis قانونياً باسم فرد واحد، يمكنه ان يقضي أية مدّة اعتقال يفرضها النظام. ومن هذه البداية المزعزعة، حققت الدار نجاحاً كبيراً في تسعينيات القرن العشرين الأكثر انفتاحاً، فنشرت أعمالاً قصصية تركية ومُترْجَمة (من [جون رونالد] تولكين إلى [جورج] بيريك)، وفلسفة (أدورنو، بنيامين، لوكاش)، ونظرية سياسية ونسوية (باديو، أريغي، ماكينون)، وقضايا راهنة (أوليفر روي)، ومؤخّراً نصوصاً في مناهضة العولمة والحركات المناهضة لحرب العراق. ويبدو نجاح Metis مستمدًّا من ثلاثة عوامل مستقلة: العولمة والحركات المناهضة لحرب العراق. ويبدو نجاح Metis مترايد، وكثير منهم من أنصار النظمام أنقرة إلى الأنجاد الأوروبي؛ علاقات الدار الودية طويلة الأمد مع الإسلاميين؛ والسياسات النقافية للبنوك الكبرى، التي تحكم على أداء الناشرين الذين تدعمهم من خلال المراجعات التاقافية للبنوك الكبرى، التي تحكم على أداء الناشرين الذين تدعمهم من خلال المراجعات الت

تُكْتَب عن كتبهم وليس من خلال هوامش ربحها، وتقنع إذا ما كانت كلفة تسيير هذه الدور أقلّ ما تتطلبه الدعاية [77]. ولعلّه يحدر بي أن أضيف أنّه خلال أواخر تسعينيات القرن العشرين تعرّفت بالمصادفة على طلاب من جمهوريات الآتحاد السوفياتي السابق الناطقة بالتركية، قالوا إنهم قرأوا ج م أولاً في ترجمة Metis.

ونأتي إلى أوروبا على وجه التحديد. السويد (1993)؛ هولندا (1995)؛ النروج وفرنسا وإيطاليا (1996)؛ اليونان وبولندا (1997)؛ بلغاريا وسلوفينيا ومقدونيا وصربيا (1998). فقد نُشِرَت الترجمة السويدية (Den Föreställda gemen-skapen) في غوتيبورغ لدى دار النشر Daidalos ، التي تأسست عام 1982، وهي دار نشر يسارية مستقلة صغيرة، لكنها محترمة، نشأت في الأصل عن الحركة الطلابية، وتتميّز بجديتها، وبنشرها الرسائل العلمية (بتمويل من الحكومة)، فضلاً عن سيرتها الفلسفية القوية: من الكلاسيكيات إلى أرندت، غادامير، هابرماز، هيدغر، راولز، وتايلور. أمّا في التاريخ والتحليل الاجتماعي فقد نشرت ماركس، بورديو، كاستيلس، وغيدنز 181.

أمّا الترجمة المولندية (Verbeelde gemeenschappen) فهي تلفت الانتباه لسببين مختلفين أشد الاختلاف. فحتى العام 1995، كانت أغلفة الترجات بسيطة عموماً، كي لا نقول مفتقرةً لأية خصائص عيّرها. (وحدها الترجمة اليابانية استخدمت الصورة الإندونيسية لللفّقة الن تعود إلى العهد الكولونيالي وكنت قد فرضتُها على طبعة فيرسو). والاستثناء الوحيد كان غلاف الترجمة الألمانية الت صدرت عن Campus Verlag وعليه صورة عُثال هيرمان، الت لاشكُّ أنه كانت مقصودة على نحو فيه مفارقة ساخرة. لكن الأنجاه راح ينحو بعد ذلك نحو تصميم أغلفة "قومية"؛ فالغلاف المولّندي، مثلاً، كان استنساخاً حميلاً لرسم مطبوع من حفر على الخشب يُظُهر داخل مطبعة هولندية قديمة. والشيء اللافت الثاني هو الطريقة الت مَّت بها الترجمة. ففي فترة من سبعينيات القرن العشرين بدأتُ مراسلةً منتظمة مع سويرجونو، وهو شيوعي إندونيسى قديم، صلب وطريف وغريب الأطوار كان يقيم آنئذ في موسكو. وكان سويرجونو من الناشطين أثناء ثورة بلاده (1945–1949)، وبعد تحقيق الاستقلال، عمل في صحيفة الحرب، هاريان راكجات (يومية الشعب). غير أنَّه راح يُزاح جانباً شيئاً فشيئاً، رعا بسبب فردانيته الزائدة، وربا بسبب هفوة جنسية ما. لكنه كان محظوظاً بما يكفي لأن يكون في زيارة للصين عندما جرت "محاولة انقلاب" 1 تشرين الأول عام 1965، والن دُمِرّ الحزب بعدها، حيث ذُبح مئات آلاف الأعضاء أو سجنوا لسنوات طويلة دون محاكمة. وإذ نَفَر سويرجونو عا راه من ثورة ماو الثقافية، وأزعجه الصراع الداخلي بين زمر المنفيين الشيوعيين الإندونيسيين، وجد طريقة للانتقال إلى موسكو، حيث عمل مترجاً لسنوات. لكنه وقع ضحية زمرة من المنفيين ترعاهم وتديرهم الـ KGB، وتلقى ضربة شديدة لم يشف منها على الإطلاق، وأمضى فترات طويلة في مشاف قديمة كئيبة خارج موسكو. وفي النهاية، جرى إنقاذه من قبل جماعة صغيرة من اليساريين المولنديين لهم صلاتهم بالعاصمة السوفياتية، وأتوا به إلى أمستردام. وقد استقر في

بيتٍ للمسنين قديم على أطراف المدينة، حيث زرته في عدد من المناسبات. و هناك قابلت الناشر المستقل جان ميتس، الذي كان صديقاً وزائراً منتظماً لذاك العاجز الذي تحمّل المصاعب بروح لم تنكسر حتى عاته. غير أنَّ قرار ترجمة ج م لم يكن التفافة عاطفية. وكان ميتس يدرك عاماً ما حققه الكتاب في لندن من نجاح تجاري نسي. وكانت الترجمة الهولندية أول تجربة لي في التورط المباشر في عملية الترجمة. فنظراً لكوني أقرأ الهولندية جيداً جداً، المحت على أن أعاين الترجمة قبل الطباعة. ووافق الناشر على مضض، ونبهن إلى أنَّ إنغليزية المترجم أفضل بكثير من هولنديت. لكن وجدت، في الصفحة الأولى، أنَّ كلمة "train" (عمنى "fuse" [فتيل]) في الجملة هولنديت. لكن وجدت، في الصفحة الأولى، أنَّ كلمة "train" (عمنى "fuse" أفتيل]) في الجملة المرابعة والمعامول المعامول المعامول

ولعل الترجمة النروعية (Forestilte fellesskap) أن تكون قد نحمت عن صداقي مع البروفسور هارولد بوكمان، عالم الصينيات المتميز المتخصص بأقليات جمهورية الصين الشعبية على طول الحدود مع جنوب شرق آسيا، والذي قضى سنتين كزميل زائر في جامعة كورنيل. وهو رجل يتمتع بحس فكاهة عظيم، وهدوء مثير للإعجاب، وموقف غير عاطفي بحاه النظام الماوي وخلفائه. وعلى أيّة حال، فقد صدر الكتاب عن Spartacus Vorlag، وهي دار نشر صغيرة (تصدر 20-30 كتاباً في العام) تأسست عام 1989، ولبوكمان علاقات شخصية طيبة معها. وقد نتميم الغلاف على اتجاه جديد: صورة جميلة ملونة للعرض في العيد الوطي للنرويج حيث يظهر أطفال صغار لطيفون بالأزياء الوطنية. وحين سألت بوكمان عمّا يقف وراء الحاجة إلى طبعة نرويجية - في بلد عدد سكانه قليل، ولا يحد معظمهم مشكلة في قراءة الترجمة السويدية – ضحك وقال: "أنت تعلم كيف نشعر تجاه السويديين والسويدية. من الأفضل أن نقرأ الأصل الإنغليري وليس الطبعة السويدية. لكن الأفضل بكثير هو طبعة بلغتنا القومية".

أمَّا الترجمة الإيطالية (Comunità immaginate)، فلعلها قد نجمت عن فرصة لقائي مع ماركو ديرامو في شيكاغو، حيث دُعيت لإلقاء سلسة من الخاضرات. وكان ماركو ديرامو، ذلك المثقف الميز من روما والصحفي الذي يعمل مع المنيفستو، الصحيفة اليسارية الراديكالية النوعية في إيطاليا (الأخيرة في أوروبا؟)، والذي كان يمضي فترة في جامعة شيكاغو لكي يضع كتاباً عن تاريخ المدينة، وهو الكتاب الذي نشرته فيرسو في العام 2002. ولقد بتنا صديقين حميمين خلال وقت قصير جداً. وهكذا نُشرت ترجمة ج م الإيطالية في روما لدى Manifestolibri، الي تأسست عام 1991 بالارتباط مع صحيفة «المانيفستو»، وهي دار لا تصدر أكثر من 40 عنواناً في العام، لكن إلحاحها على النوعية ودعمها الكتاب الشباب الموهوبين هما ممثابة ضمان لاستخدام كتبها على نطاق واسع في التعليم الجامعي. ويبدو الغلاف البهيج لهذه الطبعة كما لو أنه أُخِذَ

من أحد أفلام فيللين الأخيرة. حيث عِكن اعتباره "قومياً"، لكني أفضل اعتباره منطوياً على مفارقة ساخرة بالروح ذاتها الي للغلاف الألماني بتمثال هيرمان.

ولقد صدرت الترجمة الفرنسية (La Découverte) عن دار النشر La Découverte، الن يديرها فرانسوا جير، وهي دار نشر "يسارية مستقلة" متوسطة الحجم (80-100عنوان في السنة) تبدى اهتماماً جديّاً بالترجمات. وكانت La Découverte قد خرجت من دار النشر الشهيرة Éditions François Maspero، التي تأسست عام 1959. وحين سلم ماسبيرو زمام الأمور إلى جيز عام 1983، طلب منه أن يغيّر اسم المشروع أيضًا. وفي العام 1996، مع ظهور الترجمة الفرنسية من ج م، اندبحت الشركة مع Éditions Syros، الت تأسست عام 1974 وكانت لاعباً نشطاً في النضال من أجل تحديد اليسار الفرنسي سياسياً واجتماعياً. أما غلاف الكتاب فهو صورة بسيطة اجزء من مبنى باريسي من الطراز الكلاسيكي الجديد، يبدو كما لو أنَّ [أندريه] مالرو قد نظَّفه للتو. مفارقة ساخرة؟ ربما، لكنها مفارقة ساخرة فرنسية ناعمة. وللمرة الأولى والوحيدة، تورطت مباشرةً، وبرغبة كاملة، في عميلة الترجمة أثناء إلحازها. ولم يقتصر ما قدمه ببير-إيانويل دورا، وهو واحد من أفضل المترجين الفرنسيين، على إنجاز نصّ هو في أماكن كثيرة تحسين للنصّ الإنفليزي الأصلي، بل تعدّى ذلك إلى تفحّص جميع المراجع الفرنسية، ولَفْتِ انتباهي إلى عدد من الأخطاء. وبفضله، قمتُ باكتشافِ لافت. فحين عبرّت عن تُفقظاتي على العنوان Limginaire national، ردَّ عليَّ أنَّ اللغة الفرنسية ليس لديها مكافئ للكلمة الإنفليزية "community" [جاعة]، ما تنطوى عليه من نبرات الدفء الاجتماعي والتضامن. فكلمة "Communauté" (كما في Communauté Européenne) تثير شعوراً بارداً، بيروقراطياً لا مفرّ منه. (كتب إليَّ ماركو ديرامو مازحاً أنَّ "comunità" الإيطالية تعي بالعامية مكاناً لاجتماع المدمنين السابقين على المخدرات).

ولقد ظهرت الترجمتان البولندية (Wspólotny wyobrażone) واليونانية (Wspólotny wyobrażone) في العام 1997. حيث نشرت الطبعة البولندية في كراكو (وليس في وارسو) لدى (Koinótites) في العام 1997. ولا أعلم عن هذه المؤسسة ما يتعدَّى أنّها دار نشر مُعْتَبَرَة فيما يتعلَّى المُعالِية والأدب القصصي على حدّ سواء.

أما الترجمة اليونانية فمسألة أخرى. فدار النشر Nepheli أقامها الراحل يانيس دوفيتساس، وهو مثقف من اليسار اللبرالي، بعد بضع سنوات من سقوط نظام بابادوبولوس-إيوانيديس العسكري، أي بعد 1974. وهذه الدار الصغيرة إنما الميزة تخصصت أساساً في الأدب القصصي وفي الترجمات المدروسة جيداً في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهي تنشر، إلى جانب الكتب، ثلاث محلات هي Poiesis [شعر]، و Cogito [فلسفة] و Historein [التاريخ، وهي تُطْبَع بالإنغليزية]. والروح الموجّهة لـ Historein هو البروفسور أنطونيس لياكوس من جامعة أثينا، وكان قد درس في سالونيكا، ثم في روما (حيث قام ببحث عن إعادة توحيد إيطاليا) وأخيراً في برمنغهام حوالي العام 1989، حيث انضم إلى جاعة المادية التاريخية. وفي ذلك الوقت، كانت دراسة القومية حوالي العام 1989، حيث انضم إلى جاعة المادية التاريخية. وفي ذلك الوقت، كانت دراسة القومية

على جدول أعمال هذه الجماعة بسبب النجاح الذي أحرزته التاتشرية. وقد نشرت Nepheli أيضًا أعمالاً لكارلو غينزبرغ، وناتالي زعون ديفيز، وآخرين. وكان الهدف الأساسي لتلك الكتب الطلاب والباحثين الشباب في العلوم الإنسانية والاجتماعية. لكن Historein، وكما يشير عنوانها الطلاب والباحثين الشباب في العلوم الإنسانية والاجتماعية. لكن History, A Review of the Past and Other Stories! [التاريخ: مراجعة المنص وقصص أخرى!])، كانت لها أهداف سياسية واضحة أيضًا، أن "تبذر الاضطراب في الإيديولوجيا الراسخة للأمة اليونانية التي يبلغ عمرها 3000 سنة "121.

وتبعاً للمترجمة، بوثيق هانتزارولا العالمان في فكرة ترجمة جم طرأت زمن المسيرات القومية في أوائل تسعينيات القرن العشرين، تلك المسيرات الق طالبت بأن يطلق اسم مقدونيا على اليونان. فكان القصد من نشر الكتاب إطلاق صوت معارض وأسلوب بديل في التفكير حول الطريقة التقامت بها الأمة. وفي حين أرضى الكتاب أذواق الرأي العام، إلا أنّه كان يستهدف بصورة أساسية طلاب الجامعات حيث كانت دراسة التاريخ لا تزال شديدة التأثر برومانسية القرن التاسع عشر الللا.

وعا له دلالته أنَّ ما كانت Historein تضعه نصب أعينها لم يكن اليمين اليوناني التقليدي، بل أحزاب اليسار الأساسية، الت تزايد إعلانها عن نفسها، منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين على الأقل، أنّها المدافعة عن أمّة يونانية عمرها 3000 سنة، بل وعن الأرثوذكسية أيضًا. ويلاحظ البروفسور لياكوس أنّه في الحالة الخاصة لكتاب ج م، جرى اتهام Historein بترويج، ونشر، وتدريس كتاب مُثرَع بالمعلومات الخاطئة عن التاريخ اليوناني، وبالأتحاهات المثالية التي لا تفسح مجالاً كافياً للتحولات الاقتصادية التي أنتجت الأمة الحديثة الحياً.

وبمكن القول إنَّ "حقبةً" قد انتهت مع هذه الترجمة اليونانية وبدأت أخرى. ففي أواسط تسعينيات القرن العشرين. جمع جورج سوروس بجموعة من الباحثين وأمناء المكتبات، وطلب منهم أن يضعوا قائمة بعناوين أهم 100 كتاب (صادر مؤخَّراً) في العلوم الإنسانية والاجتماعية [13]. (ومن حسن الحظ أو سوئه، أن ج م كان بين الاختيارات النهائية). وكانت خطة سوروس أن يقدّم معونة جزئية لناشرين في دول أوروبا الشرقية الشيوعية السابقة، والجمهوريات الي ظهرت إلى حيز الوجود مع انهيار الأتحاد السوفياتي لكي يتولّوا أمر ترجمة هذه الأعمال.

ومن هذا الجهد العابر للقوميات والممول جيداً اتت ترجمات ج م إلى السلوفينية (Zamisleni zayednisti)، والصربية (Zamišlene skupnosti)، والمحدونية (Vobrazenije obshchnosti)، والبلغارية (Vobrazenije obshchnosti) في العام 1998، والرومانية (Voobrazhayemie Soobshchestva)، والروسية (Uyavleni spilnoti) في العام 2001، والليتوانية (Uyavleni spilnoti) في العام 2002.

ولقد بلغ هذا الإجراء في مداه حدَّ أنه شكَّل قطيعةً مع التراتب الزمي الذي كان سائداً

حتى ذلك الحين.

وشاء الحظّ أن تكون يانا غينوفا، التي سبق لما أن قامت بترجمة ج م إلى البلغارية، منسق مشروع الترجمات لدى معهد الجتمع المفتوح التابع لسوروس، وقد بلغ بها اللطف حدّ أنّها روت لى مؤخراً أنّ:

مشروع الترجمة في معهد الجتمع المفتوح . . بدأ حوالي العام 1994 بهدف توفير الحد الأدنى على الأقل من النصوص الأساس في العلوم الاجتماعية الضرورية لتجديد التعليم العالى وتوفير الأساس لنقاش عام مثقَّف حول القضايا الاجتماعية والسياسية وذلك باللغات الحلية. وقد جرت أولى المنافسات على المنح عام 1995 في رومانيا وبلغاريا، لتتلوها البلدان الأخرى بسرعة في السنوات الن تلت. وقد انفق معهد الجتمع المنتوح ما يقارب 5000000 دولار أميركي مقابل ما يقارب 2000 طبعة. وقائمة العناوين المركَّاة . . قُصد منها أن تكون نقطة مرجعية للناشرين، لكنهم كان عقدورهم أيضًا أن يقدّموا عناوين أخرى في العلوم الإنسانية . . ولقد غطّت المنح 30-80% من تكاليف النشر الإجمالية بحسب البلد. وتنّوع تأثير المشروع من بلد إلى آخر حيث تنّوع عدد العناوين المنشورة كثيرًا ولم يُدَر جيداً في كلُّ مكان. غير أنه مقدوري القول بثقة كاملة إنَّ المشروع كان له أثر هائل على الطريقة الى دُرِّسَت بها العلوم الإنسانية والاجتماعية وتُدَرَّس الأن في المنطقة. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الترجات المدعومة من قبل المشروع تشكّل 40% من مجموع العناوين الموجودة على قوائم القراءة في أحد عشر فرعاً في الجامعات الكبرى في بلغاريا وأوكرانيا . . جميع الدور (التي نشرت كتابك) كانت قد تأسست في أوائل تسعينيات القرن العشرين كمؤسسات مستقلّة، صغيرة (2-10 مُسْتَخْدمين). وهم ينشرون الكتب الأكاديمية ويعيشون إلى حدَّ بعيد على المنح التي يقدَّمها الواهبون الخاصون مثل سوروس، والوكالات الحكومية الأجنبية مثل المركز الثقافي الفرنسي ومؤخَّراً برامج الاتحاد الأوروبي الثقافية.

وليس لديًّ عن جميع هذه الطبعات سوى معلومات قليلة زيادة على ما قدّمته يانا غينوفا بكرمها وسخائها: فالناشر السلوفيي هو Studia Humanitatis، والقدوني Kultura، والصربي المنافري Kritika i Humanizm، والروماني Biblioteka Epistem Plato، والروسي Kritika i Humanizm، والإوكراني Kanon-Press، والليتواني Baltos Lankos، وليس لديًّ حول هؤلاء الناشرين سوى معلومات قليلة. فقد تأسّست Kritika I Humanizm في صوفيا عام والاجتماعية، وغدت دار النشر البلغارية الوحيدة المتخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهدفها الأساسي هو نشر كثير من الترجمات (لمؤلفين فرنسيين في المقام الأول كما يبدو) بغية دعم "المناخ التعددي في هذه العلوم". ولأنَّ الطبعة الصربية هي توسعة واضحة، بالكتابة الكيريلية، للترجمة الصربية-الكرواتية المنشورة في زغرب عام 1990، يبدو أنَّ هناك صلة مالية أو سواها بين الناشرَين. أمّا الترجمة الروسية فلها تاريخ مثير للانتباه. ففي العام

1998، صدرت ترجمة رديئة جداً، ربما مُقَرْصَنَة، كجزء من سلسلة تُدْعى Conditio Humana أطلقها مركز علم الاجتماع الأساس في موسكو، الذي نشر أيضًا نصوصاً لمونتسكيو، وبورك، وماركس، وفيبر، وبرغسون، وشيت. غير أنّه تُرْجِمَ كاملاً بعد ذلك، وعلى نجو احترافي، ونُشِرَ بصورة قانونية عام 2001 لدى Kanon (بدعم من معهد الجتمع المفتوح في إطار مشروع "مكتبة بوشكين").

وكِدر بنا أن نضيف أنَّ أغلفة جميع ترجات "سوروس" هذه هي أغلفة بسيطة واضحة، دون أيَّة تنازلات للتسويق التجاري أو المخيَّلة القومية الصريحة.

ولقد جاءت أوائل القرن العشرين، في أوروبا الغربية، ببعض التنويعات اللافتة. ففي 2001، ظهرت ترجمة دغاركية (Forestillede fællesskaber) نشرتها Roskilde Universitetsforlog، مع غلاف "ما بعد حداثي" غامض ذلك الغموض اللافت. وكانت هذه أول ترجمة لـ ج م تنشرها مطبعة جامعية. وحين سألت المترجم، البروفسور الشاب النشيط لارس ينسن، عن السبب الذي يدعو إلى وجود طبعة دغاركية، نظراً لتوفّر كلّ من الطبعتين النرويجية والسويدية، كان ردّه عاثلاً إلى هذا الحد أو ذاك لردّ هار الد بوكمان من قبل: "أجل، مقدورنا أن نقر أ هاتين الترجتين، غير أنه ينبغي أن تكون لدينا ترجمتنا القومية الخاصة". وفي عام 2003، عمد ميروسلاف روش إلى تضمين كتابه التدريسي التجميعي المعنون Pohledy na narod a nacionalismus (آراء في الأمة والقومية)، الذي نُشِر في براغ لدى دار Plon "السوسيولوجية" ترجمتين تشيكيتين لأول فصلين من ج.م. وفي العام 2005، ظهرت طبعة كاتالانية (Comunitats imaginades)، نشرتها دار Editorial Afers بالتعاون مع جامعة فالينسيا. وفي السنة ذاتها، نشرت دار Edições 70، في لشبونة، ترجمة عتازة، بعد ستة عشر عاماً من الترجمة البرتغالية الأولى الن ظهرت في ساو باولو ولم تكن جيدة مُاماً. غير أنَّ السياسة الجمركية البرازيلية فاقدة العقل المفروضة على الكتب "الاجنبية" جعلت هذه الطبعة الجديدة غير متوفرة للبرازيليين إلا مقابل سعر هائل. ومؤخّراً جداً، في عام 2007، صدرت ترجمة جويل كوتي الفنلندية، (Kuvitellut Yhteisöt)،لدى دار النشر الفكرية الستقلة Vastapaino.

ولا يبقى سوى أن نعرض بإنجاز لقصة سبعة ترجات نُشرت إلى الشرق من أوروبا بعد العام 1998. ففي 1999، ظهرت طبعات في تايبيه، وتل أبيب، والقاهرة. ومترجم طبعة تايبيه (هسيانغ-هسيانغ تي كونغ-تونغ تي) هو وو روي-رين، بطلٌ شاب من أبطال النضال ضد دكتاتورية الكومنتانغ، وقومي تايواني صلب لكنه ذو عقل منفتح، وصاحب أطروحة في جامعة شيكاغو حول أصول القومية التايوانية المعقدة وتطورها هي أطروحة ألمعية وتنطوي على خرق. وهو يسير على خطا تاكاشي وسايا شيراشي في تحويل "السجال البريطاني" الأصلي على خرق. وهو يسير على خطا تاكاشي وسايا شيراشي في تحويل "السجال البريطاني" الأصلي إلى شيء يهم الشباب التايواني اليوم، عبر إضافة عديد من الموامش الشارحة ومقدمة أكاديمية مسهبة. أمّا الناشر، ولو ذرّة من الترام روى-رين أو نزاهته.

وظهرت الترجمة العبرية (كيهيلوت مادوماينوت) برعاية من جامعة إسرائيل المفتوحة، وقُصِدَ منها أن تكون تدخلاً نقدياً ضدًّ الارثوذكسية الصهيونية-الليكودية. وقد اشتملت على تقديم لعزمي بشارة، السياسي الفلسطيي الإسرائيلي الأبرز، والباحث في ماركس وهيغل الذي نال شهادة الدكتوراه من جامعة ينا حين كانت جهورية ألمانية الديمقراطية لا تزال قائمة. ومن اللافت بما يكفي، أنَّ تصميم الغلاف يبدو أشبه بمنظر في فيرمونت المثلجة في عيد الميلاد. أمّا الترجمة العربية (الجماعات المتخيلة) فلها أصل وقصد مختلفين عاماً. ففي العام 1995، ربا استجابة لتقارير الأمم المتحدة الي ترى أنَّ "العالم العربي" يترجم أقلَّ بكثير عا تترجمه أيّة منطقة كبرى على ظهر هذا الكوكب، قام الجلس الأعلى للثقافة، التابع لوزارة الثقافة المصرية، بإطلاق مشروع ضخم للترجمة بإدارة الدكتور جابر عصفور. وخلال العقد التالي المسرية، بإطلاق مشروع ضخم للترجمة (عادةً في ألف نسخة لكلًّ منها)، من بينها أعمال لرعن نيرودا، روسو، تروتسكي، بيسوا، كافكا، إيليوت، هيغل، سارتر، وولف، فوكو، كافافي، شومسكي، وفرويد. وكانت معظم العناوين الأولى مُقرَّصَنة، بما في ذلك ج م (رقمه 81). وهذه الكتب تباع بأسعار منخفضة، مدعومة، وتوزع بصورة تكاد تكون كاملة في مصر. وقد كان هذا المشروع ناجحاً عا يكفى لأن يغدو قريباً مركزاً مستقلاً.

بعد انهيار نظام سوهارتو الذي دام طويلاً في إندونيسيا (في أيار 1998)، ألغيت الرقابة إلى حدً بعيد. وتكاثرت كالفطر عشرات دور النشر الجدية والرديئة، تفرّغ كثير منها لنشر الكتب التي مُنِعَت طويلاً أو أتيح لها أن تنفد بصورة مقصودة. وما إن شِحَ لي بالعودة إلى إندونيسيا لأول مرّة خلال سبعة وعشرين عاماً، حتى اكتشفت أنَّ عُة ترجمة مُقَرْصَنة ومتسرّعة لـ ح صادرة عن بستاكا بيلاجار، وهي دار نشر في جوقجاكرتا مشهورة بصيتها السيء وخلوها من الضمير تقتات على الفضول، والجهل، لدى طلاب هذه المدينة الجامعية. وقد عُكنت من أن أفرض سحب الكتاب، ليس لأسباب مالية، بل بسبب النوعية الرهيبة حقاً للرّجمة. كما تأكنت، بمساعدة عدد من طلابي السابقين، وبعونة من مكتب مؤسسة فورد في جاكرتا، من أنشر أخيراً في العام 2001 طبعة جديدة عاماً (Komunitas Terbayang)، حيث أضفت، بإشارة من وو روي-رين، كثيرًا من الهوامش بالعامية الإندونيسية لمساعدة الطلاب على فهم كثير من إشارات الكتاب وإحالاته الي يحدها قراء الإنغليزية سهلة يسيرة. وكان الناشر هذه المرَّة هو TINSIST، وهو منظمة غير حكومية تقدمية متخصصة بحرية العلومات، وهي هذه المرَّة هو TINSIST، وهو منظمة غير حكومية تقدمية متخصصة بحرية العلومات، وهي اليوم، للأسف، مشر فة على الموت بسبب الصراعات الداخلية بين فئاتها.

وإنّه لذو دلالة أني حين عرضتُ أن أقوم بالشيء ذاته بالنسبة للطبعة الإنغليزية الرخيصة المنشورة في الفيليبين عام 2003 لدى Anvil، أفضل ناشر شعي في مانيلا، رُفِضَ العرض باستياء وسخط. طبعًا، فالطلاب الفيليبينيين، الذين يتلقون تعليمهم بالإنغليزية، لديهم جميع المراجع!

أخيراً، هنالك طبعتان شاذتان أشدّ الشذوذ، نُشرت أولاهما في شنغهاي عام 2003، والأخرى

في بانكوك أواخر العام 2006. وكان الناشر في جهورية الصين الشعبية هو دار الشعب للنشر في شنفهاي، وهي مؤسسة ضخمة تملكها الدولة. وقد تبينً أنَّ هذه الطبعة من ج م كانت نتيجة صفقة سرية مع China Times في تايبيه، التي لم تتواطأ وحسب مع ما كان في جوهره قرصنة سلبية، بل أتاحت أيضًا لشريكها في شنغهاي أن يراقب نصّ وو روي-رين كما كلو له. وعثلت إحدى النتائج البارزة في حذف الفصل التاسع بأكمله، ذلك الفصل الذي اشتمل على بعض التعليقات الساخرة على هيلمزمان العظيم وما قام به الحزب مؤخّراً من استثمار القومية الرسمية الماكيافيللية. وقد قال صديق صين بابتسامة شقية: "ينبغي أن تعتبر ذلك بعثابة الثناء فهم لم يسبق لهم قط أن حذفوا فصولاً كاملة من كتاب ينوون نشره. انظر إلى كتاب هيلاري كلينتون، مثلاً، الحذوفات هي جُمَلُ هنا وهناك ليس غير!" كما حُنِفَت مقدمة روي-رين أيضًا دون معرفته أو رضاه، مع أنها كانت وصفاً محرساً وعلمياً لخلفيي الشخصية، والسياق السياسي والفكري الذي كُتِبَ فيه ج م، وملامحه الأساسية بالمقارنة مع كتب غلنر وسيت، والانتقادات الي وجهها عالم الصينيات براسنجيت دوارا وبارتا شاترجي. ولعل خاتمة هذه المقدمة، الي تبتهل لتايوان بوصفها الجزيرة " الجميلة إنما المبتذلة، الشغوفة إنما المعادية للفكر " والتي يبقى مستقبلها أبعد ما يكون عن اليقين، هي الي قررت مصيرها لدى رقباء بكين 1141.

وتقارب الطبعة التايلندية الأن على الانتهاء بصورة مخطوط أعده فريق من الأساتذة التقدميين النقديين، كان عدد منهم بين طلابي في السابق. ولدى تقليي فصول المسودة كان غة ما أدهشي أشد الإدهاش. فهالة الملكية التايلندية هي إلى الحدّ الذي جعلي أتوقع أن يستخدم المترجون معجماً "إقطاعياً" خاصاً يقتضيه وصف أي نشاط يقوم به الملوك التايلنديون الأن أو في الماضي. وما لم أتوقعه هو أنَّ المعجم الخاص ذاته قد طُبِقَ على جميع الملوك الأجانب أيضًا، عا في ذلك شخصيات غير ودودة مثل وليم الفاتح في لندن، وفرانسوا الأول في باريس وفرانز الثاني في برلين، وهلمجراً. وعندما اعترضت أنَّ روح ج م بأكملها هي الاعتراض جانباً. "أنت لا تفهم تقاليدنا ووضعنا". وعزيج من الضحك والخشية تطلعت إلى ما قد يُعْتَبَر أول ترجمة "ملكية" لـ ج م!

ما الاستنتاجات الأولية الى تبدو مبرَّرةً، على أساس هذه الأدلّة المتشظية؟

التوزّع الجغرافي: باستثناء برامج الترجمة التي نسّقها معهد الجتمع المفتوح لأوروبا الشرقية والتَّاد السوفيي السابق، والتِ أُطْلِقَت في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، غة أدلّة قليلة على تراتبية زمنية متدّرجة تبدأ في "الغرب"، وتنتهي، بعد ذلك، في العالم الذي كان ci-devant [من قبل] عالماً ثالثاً. ففي العقد الأول بعد صدور ج م في طبعته الأصلية، يحد المرير طبعتين أوروبيتين غربيتين (الألمانية والسويدية)، وطبعة أوربية شرقية (اليوغسلافية)، وطبعتين أميركيتين لاتينيتين (البرازيلية والمكسيكية)، وطبعتين أسيويتين (اليابانية والكورية)، وطبعة في الشرق الأدنى (التركية). ولم تبدأ فورة الترجمات باللغات الأوروبية إلا في

النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين. وبقدر ما أعلم، فإنَّ جميع الترجمات قد قامت على الأصل الإنغليزي، وليس على ترجمات سابقة إلى لغات إقليمية أو إلى لغة المستعمر السابق، عا يُظْهر الصعود العالي الاستثنائي الذي تصعده الإنغليزية.

وفي الوقت ذاته، فإن غة ضروباً لافتة من الغياب، حين يفكّر المرء بتلك اللغات ذات العدد الكبير من الناطقين، ومن القراء بدرجة أقلّ تتفاوت من لغة إلى أخرى. والمثال الأوضح هو "شبه القارة"، التي تشتمل على ملايين البشر النين يقرأون بالأوردية، والمندية، والبنغالية، والتاميلية، وما إلى ذلك. والسبب وراء هذه الفجوة لا بدّ أن يكون الإرث الكولونيالي البريطاني، الذي عمل، بصورة ربما تكون مدهشة، على جعل الإنغليزية حتى اليوم لغة التعليم المسيطرة "على المستوى القومي" ولغة الخطاب الفكري. والمثال الثاني هو إفريقية (إذا ما وضع المرع المسر في الشرق الأدنى). فما من ترجمات إلى اللغة السواحلية مثلاً، أو الأمهرية، أو الولوفية، أو الموسا. وقد كاول المرء أن يفسّر هذا بالإشارة إلى مكانة اللغات الكولونيالية السابقة (الفرنسية والإنغليزية والبرتغالية) باعتبارها لغات الدولة والتعليم العالي في شطر كبير من إفريقية. غبر أنَّ هذه السيطرة تحتاج إلى تفسير في الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المضطربة للقارة بعد تحقيق استقلالاتها الوطنية. وقد يكون غياب طبعة فيتنامية مسألة وقت، حيث يبرز بلد يتطور بسرعة من العزلة الفكرية النسبية الي فرضتها ثلاثة عقود من الحرب الرهيبة. والحالة الأغرب هي إسبانيا الأم، الي لا يزال عليها أن تترسّم خطا قرار البرتغال في أن تلحق المستعمراتها الأميركية العملاقة بعد انتظار خسة عشر عاماً. ومن جهة أخرى، فإن إسبانيا هي البلد الوحيد الي ظهرت فيها ترجمة إلى لغة "قومية فرعية" (هي الكاتالانية).

الناشرون والقرّاء: تكشف المعطيات غير المكتملة المتاحة لي بعض النماذج اللافتة جداً. ففي المقام الأول، ليس غة سوى دار نشر واحدة (هي الـ Fondo المكسيكية) غلك تاريخاً يعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، والغالبية العظمى كانت قد تأسست خلال العقود الثلاثة السابقة أو بعبارة أفضل، في أعقاب "ستينيات القرن العشرين الطويلة" المضطربة عالمياً. وفي المقام الثاني، فإنَّ غالبية واضحة من دور النشر هذه هي دور صغيرة إلى متوسطة في حجمها، ومستقلة في طابعها بدرجات متفاوتة. وهذا الاستقلال ينبغي النظر إليه من زوايا ثلاث. فقد كان الناشرون مؤسسات تابعة للدولة في أربع حالات فقط هي المكسيك ويوغوسلافيا ومصر وجهورية الصين الشعبية (وجميعها دول سلطوية بحكمها حزب واحد زمن نشر ج م). ومن جهة أخرى، لم يكن غة ناشر تجاري خاص ضخم سوى في حالة تايوان، وليس هناك أي حالة تتخل من قبل تكتلات عابرة للقوميات عملاقة. ولعل المهم أكثر، نظراً لطبيعة قراء ج م (الذي نحد المريد عنهم أدناه)، هو ذاك الغياب النسي للمطابع الجامعية: حيث تقتصر الحالات أي خدها فيها على جامعة إسرائيل المفتوحة، وجامعة روسكيلد، وجامعة فالينسيا، وربا الن نجدها فيها على جامعة إسرائيل المفتوحة، وجامعة روسكيلد، وجامعة فالينسيا، وربا تقد بالدرجة الأولى من اليسار اللبرالي (بالمني السياسي) إلى أغاط شتى من اليسار المستقل.

وعكن القول نظراً لموقف فيرسو السياسي وميولي السياسية الخاصة، أنَّ هذا النموذج ليس مدهشاً.

وكما سبقت الإشارة، فإنّ ج م، في شكله الأصلي، كان قد استهدف جمهوراً عاماً، حسن التعليم، في المملكة المتحدة بالدرجة الأولى، وفي الولايات المتحدة بالدرجة الثانية. فلم يُكْتَب انطلاقاً من فرعي الأكادي الخاص ("العلوم السياسية"، كما يُفْتَرَض بي القول)، أو لأجل هذا الفرع، أو أي فرع آخر. ولقد بذلت ما بوسعي أيضًا لكي أتأكد من خلوه من الرطانة الأكاديية. وأخر شيء كان يمكن أن يخطر لي أنئذ هو أن يغدو كتاباً مدرسياً للمستوى الجامعي. لكن ذلك كان قدره، بوجه عام، سواء في نصه الإنغليزي ام في ترجته. بيد أنَّ هذا المصير لا ينبغي أن يُفهم بطريقة أنغلوسكسونية زائدة. ففي أجزاء كثيرة من العالم، يلعب الطلاب وأساتنتهم دوراً سياسياً واجتماعياً أكثر أهمية من الدور الذي يلعبه نظراؤهم في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وهو إلى حدً ما دور معارض عميز. لكن هذا الدور هو من أصل حديث تماماً (أوائل القرن العشرين)، وهذا أحد الأسباب التي تجعل "الطلاب" لا يظهرون إلا لماماً في ج م ذاته.

أمًا الأسباب الى تقف وراء انتهاء ج م على هذا النطاق الواسع، وبهذه السرعة الزائدة، لأن يُرَّجُم على شكل "كتاب مدرسيّ"، فربما تعود، في المقام الأول، إلى ما تكشَّفت عنه دوافعه السجالية من جاذبية واسعة غير متوقعة. ففي ثانينيات القرن العشرين كان الدراسة المقارنة الوحيدة في تاريخ القومية الت قُصِدَ منها أن تقارع المركزية الأوروبية، وأن تفيد من المصادر اللغوية غير الأوروبية. كما كان الدراسة الوحيدة الت تبدى انجيازاً واضحاً إلى "البلدان الصغيرة" (من حيث الجغرافيا أو السكان، أو النفوذ السياسي العالمي). يضاف إلى ذلك أنَّه إذا ما كان ثمَّة التزامات سياسية لدى أعضاء الهيئة التعليمية والطلاب، فغالباً ما يكونون يساريين في ميولمم، أو يساريين لبراليين تطاولهم أجندة ج م. وربما كان من بين العوامل أيضًا أنَّ الكتاب، مع أنَّه مكتوب بالإنغليرية، كان قد استهدف الإمبريالية البريطانية والأميركية أيضًا وعلى نحو ما. غير أنَّ تلك الأسباب تعود، في المقام الثاني، إلى ما يقوم به ج م، بطرحه مفهوم "الجماعة المُتخيلة"، 🕙 من تقريب فيه مفارقة بين نوع من الـ gemeinschaft [الجماعة] بجنب جميع القوميين وشيء غير محدد غَاماً، شيءِ ليس "خيالياً" كما هو "الحصان الخرافي وحيد القرن"، ولا "واقعياً" عَاماً مثل "جهاز تلفزيون"، بل شيء أشبه عدام بوفاري وكويكوج، هاتين الشخصيتين اللتين لم تبرزا إلى الوجود إلا منذ اللحظة اليّ تخيلهما بها فلوبير وميلفل. ومثل هذه الصياغة تفتح الباب واسعاً أمام التقويم النقدي لذلك النوع من القومية "القديمة" التي تكاثرت في معظم الدول المعاصرة عبر وسائل الاتصال الجماهيري ومؤسسات التعليم الت تسيطر عليها الدولة. ولقد كان ج م، بالطريقة المتناقضة ذاتها، متعاطفاً ذلك التعاطف الواضح مع كثير من أشكال القومية متعمّداً في الوقت ذاته أن يبدى اهتماماً بالأساطير القومية الخاصة العزيزة على قلوب القوميين أقلُّ من الاهتمام الذي يبديه بالشكل العام للوعي القومي. وأخيراً، فقد حاول الكتاب أن يجمع نوعاً من المادية التاريخية إلى ما دُعِي لاحقاً باسم تحليل الخطاب؛ أي أن يقرن حداثةً

ماركسيةً إلى ما بعدِ حداثةٍ avant la letter [لم تكن قد وُلدت]، واعتقادي أن ذلك يساعد على تفسير الإيقونات القومية على أغلفة شتى ترجمات ج م بعد العام 1995، والت يمكن قراءتها في العادة على أنها إمّا ساذجة أو ساخرة (النرويج مقابل إيطاليا؟)

ومن المزايا التعليمية الأخرى في ج م ما قد يجده الأساتذة التوّاقون إلى تطوير وعي طلابهم المدني بطريقة تقدمية ونقدية، من أسلوب غير عادي تتميّز به المقارنات الت يعقدها: مثل التقريب بين الولايات المتحدة وفنزويلا بدلاً من بريطانيا، وضع اليابان في مواجهة روسيا الميصرية وأوكرانيا الإمبراطورية وليس ضد جيرانها الأسيويين الكونفوشيين، مضاهاة إندونيسيا مع سويسرا وليس مع ماليزيا. فمثل هذه المقارنات تهمّ الأساتذة المعنيين بتفكيك الاستثنائية القومية الساذجة، والصيغ "الثقافية-الإقليمية" المبتذلة مثل "القيم الأسيوية" سبئة الصبت.

الدوافع: لم يكن من اليسير، في عدد من الحالات، تتبّع الدوافع الأصلية التي وقفت وراء الترجمة. والواضح أنَّ فيرسو لم تقم بأي جهد لتشجيع الترجمات، وأنَّ تلك التي قام بها طلابي القدامي (اليابانية، الإندونيسية، التايلندية) قد عُت بمبادرة منهم، وليس من. ويبدو هذا النموذج، على نحو ضيَّق، كما لو أنَّه تصديق على استخدام ج م الاستعاري لـ"القَرْصَنَة"، ملحًا على المبادرة الحلية، وليس على القسر الخارجي أو الحاكاة العبودية، في وصفه سيرورات انتشار القومية السريع بأشكال ختلفة في أرجاء الكوكب. أمّا في الحالات اليّ عكن فيها تبينّ دوافع واضحة، فإنَّ حملة معهد الجتمع المفتوح الواسعة لتغيير الثقافات السياسية في أوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفييّ السابق باتجاه لِبرالي وتعددي، هي الأوضح والأبرز. ومن المؤكد أنَّ الأساتذة والطلاب الذين أمضوا فترة في الولايات المتحدة أو الملكة المتحدة حيث جرى تجنيس ج م ككتاب مدرسي منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين، قد لعبوا دوراً. غير أنَّ الحالات الأشد دلالة هي تلك الن كان فيها لدى المرجين والناشرين دوافع تتعدى الدوافع التعليمية المباشرة. فالطبعة الصربية-الكرواتية عام 1990 أتت من أمل سيلفا ميزناريتش ومساعديها أن يساعد الكتاب في الكفاح لإنقاذ "يوغسلافبا" من دمار ذاتي دموي. وطبعة وو روي-رين قُصِدَ منها أن تهدّئ أعصاب القومية التايوانية بأن تفسّر على نحو مقارن ظهورها المتأخر، وتقوّض مطالبة بكين بالجريرة على أساس، ليس القومية الصينية فحسب، بل أيضًا "التقليد السلالي" المورث من ملوك المانشو. أمّا الترجمة اليونانية، كما رأينا، فكانت جزءاً من إجراء للحدّ من شوفينية علية فاقدة للعقل راحت تنادي بـ "مقدونيا"، ولانتقاد أحزاب اليسار على تبنيها الجبان أو غير المدقِّق لمواقف قومية عينية في جوهرها. وبالمثل، فإنّ الترجمة العبرية التي صدرت عن جامعة إسرائيل المفتوحة، مع مقدمة لفلسطين إسرائيلي معروف، كانت جزءاً من عاولة لمقاومة انزلاق قديم نحو الفصل العنصري في الدولة التي بحكمها الليكود. ولا شك أنَّ الطبعة الكاتالانية قد قصِد منها أيضًا أن تساعد كاتالونيا على بلوغ أقصى استقلال عكن فيما دُعِيَ مرّة على نحو لطيف Las Españas. **التحول:** من الأقوال المأثورة أنَّ الكاتب يفقد كتابه لحظة نشره ودخوله الجال العام. غير أنَّك لكي تشعر بكلِّ القوة الحرنة الى ينطوي عليها هذا القول المأثور، لا شيء يضاهي مواجهتك ترجمةً لكتابك إلى لغةٍ لا تفهمها، فلا عِكن أن تكون لديك أدني فكرة عما حدث لهذا الكتاب: أسواء فهم، تشويهات، ضروب من الحرفية، إضافات، حذوفات، أو: تعديلات إبداعية، إعادات قراءة مغرية، تبديل في ضروب الإلحاح، ونَثْرٌ أجمل من الأصل. لذلك فقد أزعجي بعض الشيء أنَّ المترجين الألماني والمكسيكي لم يتصلا بي على الإطلاق، وأن الترجمة الهولندية لم تُرْسَل إليّ إلا في اللحظة الأخيرة. ولقد اعتقدت أنَّ الكتاب كان لا يزال "كتابي"، ونسيت القول المأثور الساخر traduttori traditori: الترجمة هي بالضرورة خيانة نافعة. وقد تعلمت درساً في سياق مراسلة طويلة ودافئة مع بيير -إيمانويل دورا. فعلى الرغم من حقيقة أنَّ إنغلترا وفرنسا جارتان قريبتان جداً، إلا أنَّ مصاعب تحويل الفرنسية إلى إنفليزية وبالعكس هي تلك المصاعب الشهيرة. فقد احتوت الطبعة الفرنسية على ضروب من الأناقة لم أحلم بها مع ضروب من إعادة الترتيب أتاحت لى أن أرى ما قصدتُه "حقًّا"، لكنن لم أستطع أن أعبر عنه على النحو الملائم. وهذه الراسلة كانت كّد ذاتها نوعاً من التعليم، يرمز له اكتشاف أنَّ لاتينية كلمة "community" قد أخفت على نحو يسهل اكتشافه قرابةً مع كلمة gemeinschaft الألمانية، وأنَّ كلمة imaginé لا يمكنها أن تنقِّل المعاني الحافَّة الت تنطوي عليها كلمة "imagined". ولقد أتي الدرس الأخير مع الترجمة الإندونيسية الأولى المسروقة، حيث تُعَدّ الإندونيسية اللغة الوحيدة غير الإنفليزية اليّ أتقنها عَاماً. وسرعان ما وجدت أن هناك مقاطع كثيرة مستغلقة عَاماً، فاستفرقتُ في عمل كثيف طوال شهرين أو ثلاثة لـ"تصويبها" سطراً بعد سطر. وكانت النتيجة طبعةً يسهلُ على الطلاب الإندونيسيين أن يفهموها، لكنها تبقى خالية من الحياة، لأني لم أخُن الأصل عا فيه الكفاية. فنظام الأفعال المتقن والدقيق في الإنفليزية، وإلحاحه النمطي على الصوت الفاعل، "الإمبراطوري"، غريب على الإندونيسية اللبقة، الت تفصَّل المبن للمجهول، والت وُهِبَت السابقة ter الى تدخل على الفعل، فيختفي الفاعل في غيمةٍ دلالية ضمنية تشكُّل المصادفة بطانتها الفضية. والنثر الإندونيسي الجميل لا يزال عبواً بشفاهية اختفت من الإنفليرية الرسمية منذ رمن بعيد؛ وهذا هو السبب في أنَّ الكتابة الأكاديمية الإندونيسية إنغليرية الطابع هي أكثر بشاعة، إذا جاز القول من مقابلاتها البريطانية أو الأميركية. ومن هنا، ما شعر تُ به في البداية من لذَّة في إضافة هوامش شارحة جديدة بلغة عادية يومية تورَّط القرّاء، ولا تزعجهم، أو تربكهم، أو ترهبهم. لكني أدركت، في النهاية، أنن كنت أقلَّد شخصاً إندونيسيا، وأقارع "قَرْصَنَةً" كبرى بقرصنة ذاتية صفرى، دون كبير جدوى. وقلت لنفسي: "ما كان ينبف أن أفعل ذلك، هذه محرد غمغمة سياسية، ودفاع غير تجاري عن الإلحاح الأميركي السخيف على حقوق الملكية "الفكرية"!". وهذا هو السبب في أنن قررت، وأنا أتفحص ترجمة ج م التايلندية "اللكية"، أن أكون خائناً ترجمياً. لم يَفُدْ ج م كتابي البتّة.

## الهوامش

### هوامش تصدير الطبعة الثانية (ص 19-22)

أ) يشير الكاتب هنا إلى قول فالتر بنيامين، الذي سيردُ في الفصل التاسع المُفنُون «ملاك التاريخ»: وجههُ ملتفتٌ صوب الماضي. وحيث نتصور سلسلةً من الأحداث، يرى كارثةً واحدةً لا تي تكوم الانقاض فوق الانقاض وتلقيها عند قدميه. والملاك يود أن يبقى، وأن يجيى الموتى، ويجمع ما تحطّم. لكن ثمة عاصفةً تهبّ من الفردوس؛ وقد أمسكت بجناحيه بذاك العنف حتى لم يعد بوسعه أن يضمّهما. وهي تدفعه بصورة لا تُقاوم نحو المستقبل الذي أدار له ظهره، في حين يعلو الحطام أمامه حتى يبلغ عنان السماء. هذه العاصفة هي ما ندعوه التقدم (ث د).

- 1) كانت لدى هوبسباوم الشجاعة لأن يستنتج من هذا الانفجار البحثيّ أنَّ عصر القومية يدنو من نهايته؛ فبومة منيرفا تطير عند الفسق.
- 2) أصل الملحق الأول ورقة بحثية أَعِدَّت لمؤتر عُقِدَ في كراتشي في كانون الثاني 1989، ورعاه المعهد العالمي لأبحاث اقتصاديات التنمية في جامعة الأمم المتحدة. أما الثاني فقد نُشِرَت تخطيطاته الأولية في ملحق التاعز الأدبي في 13 حزيران 1986، تحت عنوان "سرد الأمّة".

### هوامش مقدمة الترجمة العربية (ص 23-48)

1) انظر، عزمي بشارة، المحتمع المدني دراسة نقدية - مع إشارة للجتمع المدني العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998) ص 257-211. الفصل تحت عنوان: الأمة والقومية والمحتمع المدني. 2. Isaiah Berlin, Two Concepts of Nationalism, An Interview with Fardels, New York review of Book: Nov. 21, 1991; Isaiah Berlin, Against the current: Essays on the History of Ideas, (Harmondsworth, Middelsex, NY: Penguin, 1979), p.249-250.

3) يرى إيلي كيدوري أن الوطنية الإنغليزية صفة وطنية طبيعية، ولكنه ينفي القومية بشكل عام. Elie Kedouri, Nationlaism, 3rd ed. (London: Hutchinson Univ. Library, 1966) p. 73-75." (Ernest Gellner, Nations and Nationalism, (Ithaca, NY: Cornell Univ. Press, 1983). والأخير رغم نزعته الاستشراقية إلا أنه الأقرب لروح كتابنا هذا بتأكيده دور التصنيع في نشوء القوميات. 4. Eric Hobsbawm, On Empire, (NY: Pantheon Books, 2008), p. 67.

### 1) مدخل (ص 49-53)

1) لقد اخترت هذه الصياغة فقط لكي أشدًّد على اتساع نطاق هذا الصراع والطريقة التي خيض بها، وليس لكي أنحو باللائمة على جهة معينة. ولكي نتفادى سوء الفهم المكن، فإنه ينبغي القول إنَّ غرو العام 1978 قد تطوّر عن صدامات مسلحة بين مقاتلي الحركتين الثوريتين رما تعود إلى العام 1971. وبعد نيسان 1977، فإنَّ تلك الغارات الحدودية، التي بدأها الكمبوديون ولم يلبث أن تبعهم فيها الفيتناميون، ترايدت في حجمها ونطاقها إلى أن بلغت ذروتها في الغارة الفيتنامية الكبرى في كانون الأول 1977. غير أنَّ أياً من هذه الغارات لم يكن يهدف إلى الإطاحة بنظام العدو أو احتلال مناطق واسعة، كما أنَّ أعداد الفرق المغيرة لا تمكن مقارنتها بتلك التي خُشِدَت في كانون الأول 1978. ويمكن للقارئ أن Stephen P. Heder, 'The Kampuchean - Vietnamese' يتابع الجدل المميق حول أسباب هذه الحرب في "Stephen P. Heder, 'The Kampuchean - Vietnamese' يتابع الجدل المميق حول أسباب هذه الحرب في "Stephen P. Hoder, 'The Kampuchean - Vietnamese' يتابع الجدل المميق حول أسباب هذه الحرب في "Stephen P. Hoder, 'The Kampuchean - Vietnamese' يتابع الجدل المميق حول أسباب هذه الحرب في "Anthony Barnett, 'Inter - Communist Conflicts and Vietnam,' Bulletin of Concerned Asian Scholars, 11: 4 (October - December 1979); and Laura Summers, 'In Matters of War and Socialism ."Anthony Barnett would Shame and Honour Kampuchea Too Much,' ibid., pp. 10-18

2) على كلَّ من يشكَ في مزاعم الملكة المتحدة أنها تماثل الأتحاد السوفييّ على هذا الصعيد أن يسأل نفسه ... عن الجنسية أو الهوية القومية الي يشير إليها اسم المملكة المتحدة: البريطانية - الإيرلندية العظمى؟. 3. Eric Hobsbawm, 'Some Reflections on "The Break-up of Britain", New Left Review, (September - October 1977), pp. 13.

- 4. See Hugh Seton Watson, Nations and States, p. 5.
- 5. See his 'The Modern Janus', New Left Review, 94 (November December 1975), p. 3. This essay is included unchanged in The Break-up of Britain as chapter 9 (pp. 329-63).
- 6. Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, in the Selected Works, I, p.
- .(ولابدُّ لكلمة "بالطبع"، في أيّ تأويلٍ نظري، أن تومض بأضواء حراء أمام القارئ المنتشي).
- أ) في الأصل، يشير هذا التعبير، "إنقاذ الظواهر" وبالإنفليزية "save the phenomen" إلى ما ارتبط بتاريخ الفلك منذ القرن الرابع ق م وحتى كوبرنيكوس في القرن السادس عشر م من وجود الخاهين رئيسين: الأول، رياضي. والثاني، طبيعي (فيزيائي). وقد بدأ الأبحاه الأول بفيثاغورث وتزعّمه

أفلاطون، الذي أطلق الدعوة الشهيرة "إنقاذ الظواهر"، إلى أن وصل ذروته مع بطليموس. وتتلخص مقولة هذا الآئجاه بتمثيل الكون عثيلاً رياضياً، بوضع فرضيات رياضية وهندسية تفضي إلى الفهم والتنبؤ بالأحداث الظاهرة في الكون. وقد فرض هذا الآئجاه هيئة للسماء رياضية بحتة، ولم يعترف بواقعية الوجود الحسوس إلا من جهة كونه وجوداً ناقصاً.وباختصار، كان إنقاذ الظواهر، بمعنى التنظير على نحو ينصف جميع أوجه الموضوع المدروس الظاهرية ولا يفرط في التبسيط، هو هدف البحث لدى هذا الآئجاه الذي يقول بإمكانية التعبير عن الحقيقة أو الوصول إليها انطلاقاً من فرضيات كثيرة نختلفة، ولا يبحث بالعلل أو الأسباب ولا بالماهية، فالموجودات من الأجرام السماوية هي جميعها نقاط رياضية. أما الأنجاه الثاني فقد تزعمه أرسطو وبلغ ذروته مع كوبرنيكوس، وهو يقوم على إعطاء التمثيل الرياضي معنى فيريائياً (طبيعياً)، ولا يعترف بشيء خارج الواقع الحسوس، فهو تجريي للغاية، ويبحث في العلل والأسباب الكامنة وراء وجود الموجودات وماهية الموجودات، و لا يقبل فكرة الحقيقة اللازمة عن فروض كثيرة مختلفة (ث د).

7) تلاحظ آيراً كيميلينين أنَّ هانز كوهن وكارلتون هايس، "الأبوان المؤسّسان" التوأمان للبحث الأكادي حول القومية، قد دافعا عن هذا التحديد التاريخي دفاعاً مقنعاً. واعتقادي أنَّ النتائج التي توصلا إليها لم تكن علّ خلاف جدّي إلا لدى إيديولوجيين قوميين في بلدان محدة. وتلاحظ كيميلينين أيضًا أنَّ كلمة "القومية" لم تُستَخْدَم على نطاق واسع وعام قبل نهاية القرن التاسع عشر. فهي لا ترد، مثلاً، في كثير من معاجم القرن التاسع عشر المُعتَمَدة. وإذا ما كان آدم "عيث قد استحضرها مع ثروة "الأمم"، فإنه لم يُعْنِ بهذا المصطلح سوى "المحتمعات" أو "الدول". انظر ",10 Aira Kemiläinen, Nationalism, pp. 10.

ب) عاشت الكاتبة الأميركية غرترود شتاين قسطاً من طفولتها في أوكلاند، في كاليفورنيا، وحين مات أبويها، تركتها لتميش في مكان آخر عند أهل أمها، ثم في فرنسا كما هو معروف. وحين زارت أوكلاند بعد فترة طويلة قالت جملتها الشهيرة: "مشكلة أوكلاند أنك حين تذهب إلى هناك لا تجد أي هناك هناك". 8. The Break-up of Britain, p. 359.

9) "Cf. Seton - Watson, Nations and States ,p. 5" حيث يقول: "كلُّ ما عِكن أن أتوفّر على قوله هو أنَّ الأمة توجد حين يعتبر عدد كبير من البشر في جماعةٍ ما أنهم يشكّلون أمّة، أو يسلكون كما لو أنهم قد شكّلوها". وعكن أن نضع كلمة "يتخيّل" بدلاً من كلمة "يعتبر".

10. "Ernst Renan, 'Qu'est - ce qu'une nation?' in Oeuvres Complètes, I, p. 892. He adds: 'tout citoyen français doit avoir oublié la Sant - Barthélemy, les massacres du Midi an XIII - e siècle. Il n'y a pas en France dix Familles qui pussent fournir la prevue d' une origine Franque ...'." لابد لكلّ مواطن فرنسي من أن يكون قد نسي سانت بارتليمي، ومذابح ميدي في القرن ". لافراخي "الثالث عشر. لا يوجد في فرنسا عشر عائلات تستطيع أن تقدّم حجّة دامغة على أصلها الإفراخي ". الثالث عشر. لا يوجد في فرنسا عشر عائلات تستطيع أن تقدّم حجّة دامغة على أصلها الإفراخي 11. Ernest Geliner, Thought and Change, p. 169.

12) على سبيل المثال، فإنَّ هوبسباوم "يعاقبها" بالقول إن تعدادها في العام 1789 كان حوالي 400000 من أصل إحمالي السكان البالغ 23000000. انظر كتابه "The Age of Revolution, p. 78". ولكن هل كان من المكن تخيّل هذه اللوحة الإحصائية للنبالة في ظلَّ النظام القديم؟.

### 2) جِذُورِ ثَقَافِيةُ (ص55-72)

- 1) كان لدى اليونانيين القدماء أضرحة للجنود، لكنها كانت أضرحة أفراد محددين ومعروفين حال هذا السبب أو ذاك دون استعادة جثثهم ودفنها على النحو المعتاد. وأنا أدين بهذه المعلومة إلى زميليّ جوديت هيرين، المختصّة بالبيرنطيات.
- 2) خذوا، مثلاً، هذه التعابير الجازية اللافتة: 1- "لم يخذلنا الخطّ الرمادي الطويل قطّ. ولو خذلنا، لنهض مليون من الاشباح الذين يرتدون الزيتونيّ المُعبر، والخاكي البي، والأزرق والرمادي، عن صلبانهم البيض، وهم يهدرون بتلك الكلمات السحرية: الواجب، الشرف، الوطن". 2- "لقد تشكّل تقديري [للجندي الأميركي] في ساح الوغى منذ سنوات كثيرةٍ، كثيرةٍ مضت، ولم يتغيّر قطّ. وقد اعتبرته أنذاك، كما أعتبره الأن، واحداً من أنبل الاشخاص في هذا العالم؛ فهو ليس من أرقى الشخصيات العسكرية وحسب، بل من أنظفها معة [كذا] . إنه ينتمي إلى التاريخ بضَرْبِه أعظم أمثلة الوطنية الظافرة [كذا]. وينتمي إلى الأجيال المقبلة بتعليمها على مبادئ الحرية والانعتاق. وينتمي إلى الحاضر، إلينا، بفضائله ومنجراته". دوغلاس ماك أرثر، "الواجب، الشرف، الوطن"، خطاب أمام الأكاديمية العسكرية الاميركية، ويست دوغلاس ماك آرثر، "الواجب، الشرف، الوطن"، خطاب أمام الأكاديمية العسكرية الاميركية، ويست بوينت، 12 أيار 1962، وقد نُشِرَ في كتابه "A Soldier Speaks, pp. 354 and 357".
- Régis Debray, 'Marxism and the National Question,' New Left Review, 105" انظر (3 القرن (3 القرن (3 القرن (3 العرب العمل المينانية القرن (4 العمرين لفت انتباهي ذلك الرفض الهادئ الذي أبداه كثير من المسلمين حيال أفكار داروين. وقد فسَرتُ العشرين لفت انتباهي ذلك الرفض الهادئ الذي أبداه كثير من المسلمين حيال أفكار داروين. وقد فسَرتُ هذا الرفض في البداية على أنّه عقلانية ظلامية متحجّرة. لكني رأيت في ذلك لاحقاً عاولةً صادقةً للاتساق: فمذهب التطور لا يتوافق مع تعاليم الإسلام. وما الذي نفعله عاديةٍ علميةٍ تتقبّل شكلياً مكتشفات الفيزياء المتعلقة بالمادة، لكنها لا تبذل سوى أقل الجهد في الربط بين هذه المكتشفات والصراع الطبقي، أو الثورة، أو سوى ذلك. ألا تحفي الهوة بين البروتونات والبروليتاريا تصوراً ميتافيزيقياً عن الطبقي، أو الثورة، أو سوى ذلك. ألا تحفي الهوة بين البروتونات والبروليتاريا تصوراً ميتافيزيقياً عن (العبر الفيد الفيد الفيد) ولكن انظر تلك النصوص المنعشة الت وضعها سيباستينو تيمبانارو، في (العدر العبر الفيد) ولكن انظر تلك النصوص المنعشة الت وضعها سيباستينو تيمبانارو، في (المودن الاعتراف بذلك) ولكن انظر تلك النصوم (1978) ولكن انظر الله (1978) (May June 1978), pp. 3-17
- أ) كان الفيلسوف اليوناني هير اقليطس يرى أنَّ ما من واقع مستمر ودائم سوى واقع التغيّر، فالاستمرار وهم أو خداع حواس (ث د).
- 4) لطالما تحدّث الرئيس الراحل سوكارنو بمنتهى الصدق عن الـ 350 عاماً من الاستعمار الذي رزحت تحته "إندونيسيا"، مع أنَّ مفهوم "إندونيسيا" ذاته هو من ابتداع القرن العشرين، ومعظم إندونيسيا القائمة اليوم لم يفتحه الهولنديون إلا بين 1850 و1910، ومن أبطال إندونيسيا القوميين البارزين العائمة اليوم لم يفتحه الهولنديون إلا بين 1850 و1910، مع أنَّ مذكّراته تبيّن أنّه كان ينوي أن الأمير الجاوي ديبونيفورو الذي عاش أوائل القرن التاسع عشر، مع أنَّ مذكّراته تبيّن أنّه كان ينوي أن "يفتح جاوة"، لا أن يحرّرها ويطرد "المولنديين". ومن الواضح عاماً أنه ليس لدى هذا الأمير أي مفهوم عن "المولنديين" كجماعة. انظر " Benda and John A. Larkin, eds., The World of عن "المولنديين" كجماعة. انظر " Southeast Asia, p. 158; and Ann Kumar, 'Diponegoro (1778?-1855),' Indonesia, 13 (April على أحد مصارف دولته اسم البنك الحتي وعلى الحر اسم البنك الحقي وعلى الحر اسم البنك السومري. انظر "Hugh Seton Watson, Nations and States, p. 259".

المصرفان لا يزالان مزدهران إلى اليوم، وما من داع للشكّ في أنَّ كثيرًا من الاتراك، لعلّ من بينهم أتاتورك نفسه، قد رأوا، ويرون، في الحثيين والسومريين أسلافاً لمم. وقبل أن نقهقه، علينا أن نتذكّر الملك أرثر والملكة بوديكا، وأن نمعن النظر في النجاح التجاري الذي حققته الأساطير التي كتبها تولكين [ومنها ثلاثية "سيد الخوام". (ث د)].

5) من هنا تلك السكينة التي قَبِلَ بها أن يكون المغول والمانشو المتصينين أبناء السماء. 6. John Lynch, The Spanish - American Revolutions, 1808-1826, p. 206.

7) يبدو أنَّ يونانية الكنيسة لم تَرْق إلى المكانة التي تحتلها لغة الحقّ. وأسباب هذا "الإخفاق" متعددة، لكن واحداً من العوامل الأساسية كان بلا شكّ حقيقةً أنَّ اليونانية بقيت كلاماً شعبياً حياً (بخلاف اللاتينية) في قَدْر كبير من الإمبراطورية الشرقية. وأنا أدين بهذا التبصّر إلى جوديت هيرين.

ب) من العروف أنَّ هاتين اللغتين هما لغتان عالميتان مصطنعتان حيث تُشتَقَ جميع كلمات الإسبرانتو من جذور مشتركة بين اللغات الأوروبية، تُكْتَب كما تُلفَظ، وتتميز بقواعدها البسيطة النظامية؛ أمّا الفولائك فتقوم على الإنغليزية (ث د).

8) شغل نيكولاس بريكسبير منصب الحبر الأعظم بين 1154 و1159 وكان لقبه أدريان الرابع.

9) ينكّرنا مارك بلوخ بأنّ "غالبية اللوردات وكثيرًا من البارونات الكبار [في العصور الوسطى] كانوا إداريين عاجزين شخصياً عن قراءة تقرير أو فاتورة". انظر "Mark Bloch, Feudal Society, I, p. 81".

10) لا يعن هذا أنَّ الأميين لم يكونوا يقرأون. لكن ما كانوا يقرأونه لم يكن الكلمات بل العالم المرئيّ. "نادراً ما كان العالم المادي في أعين جميع أولئك القادرين على التأمّل أكثر من قناع، تجري خلفه الحوادث الهامة جميعاً؛ فلقد بدا لهم هو أيضًا لغةً قُصِدَ بها أن تعبّر من خلال العلامات عن واقع أعمق". المصدر السابق، ص 83.

11. Erich Auerbach, Mimesis, p.282.

- 12. Marco Polo, The Travels Of Marco Polo, pp.158-59. (كان يُقْرَأ، وإن).
- 13. Marco Polo, The Travels Of Marco Polo, p.152.
- 14. Henri de Montesquieu, Persian Letters, p.81. (ظهرت الرسائل الفارسية أول مرّة عام) 1721).
- 15. Mark Bloch, Feudal Society, I, p. 77.
- 16. Lucien Febvre and Henri Jean Martin, The Coming of the Book, pp. 248-49.
- 17. Ibid., p. 321.
- 18. Ibid., p. 330.
- 19. Ibid., pp. 331-32.

20. Ibid., pp. 332-33. The original French is more modest and historically exact: 'Tandis qua l'on édite de moins en moins d'ouvrages en latin, et une proportion toujours plus grand de textes en langue nationale, le commers du livre se morcell en Europe.' L'Apparition du Livre, p. 356.

21) لاحظ الانزياح في تسمية الحكّام التي تتوافق مع هذا التحوّل. فأولاد المدارس يتذكرون الملوك بأسائهم الأولى (ما هي كنية وليم الفاتح؟)، والرؤساء بكناهم (ما هو الاسم الأولى لإيبرت؟). ففي عالم من المواطنين، الذين يتمتّع كلُّ واحدٍ منهم نظرياً بأهليّة الرئاسة، يعمل مجموع الاساء الأولى الحدود على جعلها غير كافية كمحدّدات عيّزة. أمّا في أنظمة الحكم الملكية، حيث يكون الاسم وقفاً على كنية واحدة، فإنّ الاسم الأول بالضرورة، مع أرقام، أو ألقاب، هو الذي يوفّر ضروب التمييز المطلوبة.

22) عكن أن نشير هنا بسرعة إلى أنَّ نايرن عق عَاماً في وصفه مرسوم الأعاد بين إنغلترا واسكتلندا 1707 The Break-up بأنه "صفقة أشراف"، معنى أن مهندسي الأعاد كانوا سياسيين أرستقراطيين. انظر "of Britain, pp. 136f". غير أنه من الصعب أن نتخيّل مثل هذه الصفقة تُبْرم بين أرستقراطيين جهوريتين. فمن المؤكد أن تصوّر علكة متحدة كان العنصر الوسيط الحاسم الذي جعل الصفقة عكنة. 23. Oscar Jászi, The Dissolution of the Habsburg Monarchy, p. 34.

24) هذا واضح أشد الوضوح في أسيا ما قبل الحديثة. لكن المبدأ ذاته كان فاعلاً في أوروبا المسيحية أحادية الزواج. وفي العام 1910، نشر شخصٌ يُدعى أوتو فورست ما أسماه لوحة سلالة صاحب السمو السيد النبيل فرنتس فردنند، وضمّنه قائمة مؤلفة من 2047 من أسلاف الأرشيدوق الذين ينبغي اغتيالهم في الحال. وكان من بين هؤلاء 1486 ألماني، 124 فرنسي، 196 إيطالي، 89 إسباني، 52 بولندي، 47 داغاركي، 20 إنغليزي/إنغليزية، فضلاً عن أربع جنسيات أخرى. وهذه "الوثيقة العجيبة" أوردها للصدر السابق، ص 136. ولا يسعن إلا أن أورد ردّة فعل فرانز جوزيف المدهشة على أنباء مقتل ولي عهده غريب الأطوار: "على هذا النحو استعادت قوةً عظمى ذلك النظام الذي لم أتمكن لسوء الحظ من الحفاظ عليه" (المصدر السابق، ص 125).

25) يؤكّد غلنر على ما اتسمت به السلالات من صفة أجنبية غطية، لكنه يفسّر هذه الظاهرة تفسيراً بالغ الضيق: تفضيل الأرستقراطيين الخليين للملك الغريب لأنه لن ينحار لطرف في نزاعاتهم الداخلية. Thought and Change, p. 136".

26. Marc Bloch, Les Rois Thaumaturges, pp. 390 and 398-99.

ج) "تينو" لفظة يابانية تشير إلى الإمبراطور هناك، و"ابن السماء" إمبراطور الصين (ث د). 27. Noel A. Battye, 'The Military, Government and Society in Siam, 1868-1910,' Ph.D thesis, Cornell 1974, p. 270.

28. Stephen Greene, 'Thai Government and Administration in the Reign of Rama VI (1910-1925),' Ph.D thesis, University of London 1971, p. 92.

29) كان أكثر من 1000 من ضباط الجيش البروسي البالغ تعدادهم 7000-8000 ضابط في عام 1806 من الأجانب. "لقد فاق عدد البروسيين من الطبقة الوسطى في جيشهم ذاته؛ وهذا ما يضفي مسحة من الصدق على القول إنَّ بروسيا لم تكن دولة لما جيش، بل جيش له دولة". وفي العام 1798، طالب الإصلاحيون البروسيون بـ "تخفيض عدد الأجانب إلى النصف، وكان هؤلاء لا يزالون يشكلون 50% من العساكر الانفار....". انظر " Alfred Vagts, A History of Militarism, pp. 64 and 85".

د) اللباس الحديث (modern dress) في هذا السياق، مصطلح يُستخدم في المسرح والسينما ليشير إلى تقديم مسرحيات من الماضي على نحو يتم فيه تحديث الخلفيّة اليّ بحري فيها الاحداث كما لو أنها الوقت الراهن أو وقت قريب على الأقل، مع تُرك النص من دون تغيير إلى هذا الحد أو ذاك (ث د).

30) بالنسبة لنا، فكرة "اللباس الحديث"، الت تكافئ الماضي استعارياً مع الحاضر، هي إقرار مُبَطَّن بانفصالهما القاتل.

31. Mark Bloch, Feudal Society, I, pp. 84-86.

Erich Auerbach, Mimesis, p.64" (32 "Erich Auerbach, Mimesis, p.64" المستقبل"، عنى أنَّ المستقبل يلقيه خلفه، "Cited in Mark Bloch, Feudal Society, I, p. 90" المستقبل المستقبل يلقيه خلفه، "33. Walter Benjamin, Illuminations, p. 265.

- 34) المصدر السابق، ص 263. هذه الفكرة عميقة التوضّع إلى أبعد حدّ، وعكن القول إنّ ما من تصوّر حديث أساسي إلا ويقوم على تصوّر لـلـ "في الوقت ذاته".
- 35) مع أنَّ "princesse de Cleves" [أميرة كليف، لمدام دو لافايت] كانت قد ظهرت عام 1678، إلا أنَّ حقبة ريتشاردسون وديفو وفيلدنغ هي أوائل القرن الثامن عشر. وتعود الصحيفة الحديثة في أصولها إلى الجرائد الرسمية المولندية في أواخر القرن السابع عشر؛ لكن الصحيفة لم تَغْدُ صنفاً عاماً من المادة للطبوعة إلا بعد العام 1700. انظر " Lucien Febvre and Henri Jean Martin, The Coming of ".
- 36) بل إنَّ قدرة الحبكة على إثارة الاهتمام قد تتوقَّف في الازمنة 1، و11، و 111 على أنَّ (أ)، و(ب)، و(ج)، و(د) لا يعلم واحدهم ما يوشك الآخرون على فعله.
- 37) تعددد الأصوات هذا هو ما يفرق الرواية الحديثة ذلك التفريق الحاسم حتى عن أعمال جدُّ لامعة كانت مثابة طليعة لها مثل عمل بترونيوس ساتيركون. فسرد هذا العمل الأخير يتتابع مثلما يتتابع الجنود في صفِّ أو طابور. فإذا ما كان إنكولبيوس يندب خيانة حبيبته الفتيّة، لا يرينا الكاتب غيتو في الفراش مع أسكيلتوس في الوقت ذاته.
- 38) من المفيد في هذا السياق، أن نقارن أيّ رواية تاركِية مع وثائق أو سرديات تعود إلى الفترة التي تتناولها الرواية.
- 39) لا شيء يُظْهِرُ انغماس الرواية في زمن متجانس، فارغ بأفضل عا يظهره غياب سلاسل الأنساب التمهيدية، التي غالباً ما تصعد إلى أصل الإنسان، والتي هي "عةٌ عيزة في كتب التاريخ القدعة، والسّير البطولية، والكتب للقدسة.
- 40) كتب ريرال هذه الرواية بلغة المُسْتَغْمِر (الإسبانية)، التي كانت آننذِ اللغة المشتركة لنُخَبِ أوراسية وعلية متعددة الإثنيات. وإلى جانب الرواية ظهرت أيضًا لأول مرة صحافة "قومية"، ليس بالإسبانية Leopoldo Y. Yabes, 'The Modern " وحسب بل بلغات "إثنية" أيضًا مثل التاغالوغ والإلوكانو. انظر "Literature of the Philippines,' pp. 287-302, in Pierre Bernard Lafont and Denys Lombard (eds), Littératures Contemporaines de l'Asie du Sud Est
- José Rizal, Noli Me Tangere (Manila: Instituto Nacional de Historia, 1978), p. 1. My" (41 مرة), p. 1. My" (41 ". وعندما نُشرَ كتاب الجماعات التُتَخَيَّلَة أول مرّة، لم أكن أعرف الإسبانية، فكنت مضطراً للاعتماد على ترجة ليون ماريا غوريرو الفاسدة.
- 42) لاحظوا، مثلاً، تحوّل ريزال الحاذق، في الجملة ذاتها، من الماضي في "خَلَقَهُم" (crió) إلى المضارع الذي يضمّنا معاً كلّنا في "يتضاعفون" (multiplica).
- 43) كانت شهرة الكاتب الأنية، ولاتزال، الوجه الأخر لففلية القرّاء وخول ذكرهم. وسوف نرى أنَّ لثنائية خول الذكر/ الشهرة كلِّ العلاقة بانتشار رأسمالية الطباعة. ومنذ العام 1593 قام دومينيكانيون نشطاء بنشر الـ Doctrina Christiana في مانيلا. غير أنَّ الطباعة بقيت قروناً بعد ذلك تحت السيطرة الدينية القديمة. ولم تبدأ بالتحرر من هذه السيطرة إلا في ستينيات القرن التسع عشر. انظر " Bienvenido للدينية للدينية المستورة الدينية المستورة الدينية المستورة ا
  - هـ) نسبةً إلى ميشيل فوكو (ث د).

44. Ibid., p. 115.

45. Ibid., p. 120.

46) هذه التقنية تشبه تقنية هوميروس، التي سبق لأوَرباخ أن ناقشها باستفاضة في كتابه "Mimesis" الحاكاة، الفصل الأول، ("ندبة أوديسيوس").

47. 'Paalam Albaniang pinamamayanan ng casama, t, lupit, bangiscaliuhan acong tangulan mo, I, cusa mang pinatay sa iyo, i, malaqui ang panghihinayang"

"وداعاً يا ألبانيا، يا مُلكة الشرّ، والقسوة، والوحشية، والخداع،

أنا حاميك الذي تقتلينه

لكنه لا ين يندب القدر الذي حلَّ بك".

48. Jean Franco, An Introduction to Spanish - American Literature, p. 34. 49. Ibid., pp. 35-36.

د) البيكاريسك، picaresque، أعمال سردية عن مغامرات وجولات الشحاذين والعيّارين.

50) حركة البطل المتوحّد هذه عبر لوحة اجتماعية صلبة هي أمر غطي في كثير من الروايات الباكرة الكولونيالية والمناهضة للكولونيالية (ث د).

51) بعد فترة وجيزة وخاطفة من عمله في الصحافة الراديكالية، اعتقلت السلطات الكولونيالية المولندية ماركو في بوفن ديغول، وهو واحد من أوائل معسكرات التجميع في العالم، أقيم في عمق منطقة المستنقعات غربيّ غينيا الجديدة. وهنالك توفي عام 1932، بعد ستّة أعوام من الاحتجار، انظر " Henri المستنقعات غربيّ غينيا الجديدة. وهنالك توفي عام 1932، بعد ستّة أعوام من الاحتجار، انظر " Chambert - Loir, 'Mas Marco Kartodikromo (c. 1890-1932) ou L'Eucation Politique,' p. ويكن أن يحد عرضاً لامعاً ومسهباً لسيرة ماركو في " , 208, in Littératures contemporaines de l'Asie du Sud - Est Takashi Shiraishi, An Age in Motion: Popular Radicalism in Java, 1912-1926, "chapters 2-5 and 8"

52. Paul Tickell (trans), Three Early Indonesian Short Stories by Mas Marco Kartodikromo (c. 1890-1932), p. 7.

53) في العام 1924، نشر صديق مُقرَّب من ماركو وحليف سياسي له رواية بعنوان 1924 في الإحساس بالحرية/إحساس الحرية]. ويكتب شامبر الواعن بطل هذه الرواية (الت تُنْسَب إلى ماركو خطأ) أنّه "ليس لديه ادنى فكرة عن معنى كلمة "اشتراكية": لكنه على الرغم من ذلك عُسّ بضيق شديد من النظام الاجتماعي الذي عُيط به ويشعر بحاجةٍ لتوسيع أفاقه عبر وسيلتين اثنتين: السفر والقراءة". انظر، والتشديد من عندي "Henri Chambert - Loir, 'Mas Marco,' p. 208". لقد انتقل البياء المتشوّق إلى جاوة والقرن العشرين.

54) قراءة الصحيفة أشبه بقراءة رواية كفُّ كاتبها عن أيّ تفكير بحبكة متماسكة.

55) انظر "Lucien Febvre and Henri - Jean Martin, The Coming of the Book p. 186". وقد كان ذلك فيما لا يقل عن 35000 طبعة أُنْتِجَت فيما لا يقلُ عن 236 بلدة. ومنذ 1480، تواجدت المطابع في أكثر من 110 بلدات، كان من بينها 50 فيما يسمى اليوم إيطاليا، و30 في ألمانيا، و9 في فرنسا، و8 في

- كلَّ من هولندا وإسبانيا، و5 في كلِّ من بلجيكا وسويسرا، و4 في إنغلترا، و2 في بوهيميا، و1 في بولندا. "يكن القول إنَّ الكتاب المطبوع كان محل فائدة عامة في أوروبا منذ ذلك التاريخ".
- 56) للصدر السابق، ص 262. ويعلّق الكاتبان بالقول إنّ الكتب كانت متوفّرة بحلول القرن السادس عشر لكل من يستطيع القراءة.
- 57) في أوائل القرن السادس عشر، كانت دار بلانتين الضخمة للنشر في أنتويرب تدير 24 مطبعة ويعمل في كلّ ورشة من ورشاتها أكثر من 100 عامل. المصدر السابق، ص 125.
- 58) هذا الأمر يبدو واضحاً وراسخاً وسط غرائب كتاب مارشال ماكلوهان محرّة غوتنبرغ. انظر " Marshal (ما الأمر يبدو واضحاً وراسخاً وسط غرائب كتاب مارشال ماكلوهان محرّة غوتنبرغ. انظر " McLuhan, Gutenberg Galaxy, p. 125". ومكن أن نضيف أنه إذا ما كان سوق الكتاب قزماً بالقياس إلى أسواق السلع الأخرى، إلا أنَّ دوره الاستراتيجي في نشر الأفكار جعله ذا أهمية أساسية في تطور أوروبا الحديثة.
- 59) المبدأ هنا أكثر أهمية من المقدار. فحتى القرن التاسع عشر، كانت الطبعات لا تزال صغيرة نسبياً. فلم تتجاوز الطبعة الأولى من ترجمة لوثر للكتاب المقدّس 4000 نسخة، مع أنّه راج ذلك الرواج الاستثنائي. أما الطبعة الأولى الضخمة وغير المألوفة من موسوعة ديدرو فلم تتجاوز 4250 نسخة. وكان المعدل في المقرن الثامن عشر أقل من 2000. انظر " Lucien Febvre and Henri Jean Martin, The Coming". لكن الكتاب كان محيراً على الدوام عن السلع المعمرة الأخرى بسوقه المحدود. فكل من يملك المال يمكنه أن يشتري سيارات تشيكية؛ لكن القرّاء التشيكيين وحدهم من يشترون كتباً باللغة التشيكية. وسف نعرض أدناه لاهمية هذا التمييز.
- 60) بل إنَّ الناشر الدوس من البندقية كان رائد "طبعة الجيب" التي يسهل حملها ونقلها منذ أواخر القرن الخامس عشر.
- 61) كما يبيّن مثال "Semarang Hitam"، فإنّ هذين النوعين الأكثر رواجاً اعتادا أن يكونا أوثق صلة عا هما عليه الآن. ولقد نشر ديكنر أيضًا رواياته الشعبية مسلسلةً في صحف شعبية.
- 62) "شجّعت المواد المطبوعة على الالتزام الصامت بقضايا لا يمكن قصر موقع دعاتها على أيّ موضع Elizabeth L. Eisenstien, "Some Conjectures" انظر غير مرئيّ". انظر about the Impact of Printing on Western Society and Thought, Journal of Modern History, "40: 1 (march 1968), p. 42
- 63) يلاحظ نايرن، وهو يكتب عن العلاقة بين الفوضى المادية في مجتمع الطبقة الوسطى ونظام الدولة السياسي الجرّد، أنَّ آلية التمثيل حوّلت التفاوت الطبقي الفعلي إلى مذهب المساواة الجرّد بين مواطنين، وحوّلت الانانية الفردية إلى إرادة جعيّة مُنزَّهة عمّا هو شخصي، وحوّلت ما كان يمكن أن يكون من دونها حالةً من الفوضى إلى شرعية جديدة للدولة". انظر "The Break-up of Britain, p.24". وهذا لاشكّ فيه. لكن آلية التمثيل (الانتخابات؟) هي عثابة عيد نادر ومتنقّل، واعتقادي أن أفضل مكان نلتمس فيه ولادة الإرادة المنزَّهة عمّا هو شخصى هو تلك الضروب المنتظمة اليومية من تخيّل الحياة.

# 3) أصول الوعب القومي (ص 73-80)

1) كان عدد سكان أوروبا حيث كانت الطباعة معروفةً حوالي 100000000. انظر " Febvre and

- ."Martin, The Coming of the Book, pp. 248-49
- 2) من الأمور ذات الدلالة أنَّ رحلات ماركو بولو بقيت مجهولة عموماً حتى طباعتها أول مرّة عام 1559. انظر "Polo, Travels, p. xiii".
- 3. Quoted in Eisenstein, 'Some Conjectures,' p. 56.
- 4) "Febvre and Martin, The Coming of the Book, p. 122 .4". غير أنَّ النص الفرنسي الأصلي ."L' Apparition, p. 184". يكتفى بالكلام على "Par-dessus les frontièrs" [تخطّى الحدود]، انظر "L' Apparition, p. 184".
- 5) المصدر السابق، ص 187. النص الأصلي يتحدث عن رأ عاليين "puissants" [قادرين أو فاعلين] وليس أثرياء. انظر: L' Apparition, p. 281.
- 6) "ولذلك كان إدخال الطباعة من هذه الناحية مرحلة على الطريق الموصل إلى مجتمعنا الحالي، عجمع الاستهلاك الجماهيري والتنميط"، المصدر السابق، ص 259–260. (النص الاصلي يقول: "الحضارة "الحضارة "الحضارة "الحضارة "لكماهيرية، النمطية". 24 Lapparition, 394.

7. Ibid., p. 195.

8. Ibid., p. 289-90.

9. Ibid., p. 291-05.

- 10) لم يكن يفصل هذا سوى خطوة واحدة عما عرفته فرنسا القرن السابع عشر، حين كان مقدور كورني وموليير ولا فونتين أن يبيعوا غطوطات تراجيدياتهم وكوميدياتهم مباشرة للناشرين، الذين كانوا يشترونها بوصفها استثماراً عتازاً نظراً لسمعة مؤلفيها في السوق. المصدر السابق، ص 161.
- 11. Ibid., p. 310-15.
- 12. Seton Watson, Nations and States, pp. 28-29; Bloch, Feudal Society, I, p. 75.
- 13) لا ينبغي أن نتصوّر أنَّ توحيد اللغة الحلية الإدارية قد تُعقق مباشرة أو بصورةٍ كاملة. فمن غير الحتمل أن تكون منطقة غوين [الواقعة جنوب غرب فرنسا] التِ حُكِمَت من قبل لندن قد أديرت قطّ بالإنغليزية الباكرة في الدرجة الأولى.
- 14. Bloch, Feudal Society, I, p. 98.
- 15. Seton Watson, Nations and States, p. 48.

16. Ibid., p. 83.

- 17) عُنّة إثبات لهذا الأمر مُتَفَّق عليه قدّمه فرانسوا الأول، الذي حظّر، كما رأينا، طباعة أيّ كتاب في العام 1535 وجعل الفرنسية لغة بلاطه بعد ذلك بأربعة أعوام!.
- 18) ليس هذا بـ "الحدث" الأول من نوعه. ويلاحظ فيفر ومارتن أنه على الرغم من وجود برجوازية واضحة للعيان في أوروبا أواخر القرن الثالث عشر، فإنَّ الورق لم يكن موضع استخدام عام قبل نهاية القرن الرابع عشر. ووحده سطح الورق المستوي والصقيل ما جعل الاستنساخ الآلي للنصوص و الصور عكناً، الأمر الذي لم يحصل إلا بعد خس وسبعين سنة أخرى. لكن الورق لم يكن اختراعاً أوروبياً. بل جاء من تاريخ آخر هو تاريخ الصين عبر العالم الإسلامي، انظر " Febvre and Martin, The Coming of ".
  - 19) لا نزال نفتقد إلى الشركات متعددة الجنسية العملاقة في عالم النشر.
- 20) مكن للقارئ أن يحد تناولاً مفيداً لهذا الأمر في "S. H. Steinberg, Five Hundred Years of Printing," عكن للقارئ أن يحد تناولاً مفيداً لهذا الأمر في الكلمات ough، وhough، وhough، وhough، وhough، والكلمات ough، والخاصية وhiccough، يبيّن كلاً من تنوّع اللهجات الذي انبثقت منه تهجئة الإنغليزية السائدة الآن، والخاصية

الرمزية أو الصّوَرية للناتج النهائي.

21) أقول "ما من شيء عَمِل . . بالقدر الذي عملته الرأسالية" بناءً على مشورة ونُصْح. فكلًّ من ستينبرغ وإيزنشتين يكادان يؤلّفان "الطباعة" كطباعة بوصفها عبقريّ التاريخ الحديث. أمّا فيفر ومارتن فلا ينسيان قطّ أنّ خلف الطباعة يقف من يطبعون وشركات النشر. ومن الجدير ذكره في هذا السياق أنه على الرغم من اختراع الطباعة في الصين أولاً، ربما قبل 500 عام من ظهورها في أوروبا، لم يكن لها هناك أي تأثير كبير، ناهيك عن الثوري، وذلك على وجه الدقّة بسبب غياب الرأسالية.

22. Febvre and Martin, The Coming of the Book, p. 319. Cf. L'Apparition, p. 477: 'Au XVIIe

siècle, les langues nationales apparaissent un peu partout cristallisées'.

23) انظر "Hans Kohn, The Age of Nationalism, p. 108". لعلَ من الإنصاف أن نضيف أنَّ أتاتورك (23 Hans Kohn, The Age of Nationalism, p. 108". لعلَ من الإنصاف أن يربط القومية التركية بحضارة أوروبا الغربية الحديثة، الت تكتب بالحروف اللاتينية. كان يأمل أيضًا أن يربط القومية التركية بحضارة أوروبا الغربية الحديثة، الت تكتب بالحروف اللاتينية. 24. 24. Seton - Watson, Nations and States, p. 317.

# 4) روّاد کرپولیون (ص 81-92)

- 1) الكريول (criollo) هو شخص من أصل أوروبي نقي (نظرياً على الأقل) لكنه مولود في البلدان الأميركية (وبتوسيع لاحق، في أيّ مكان خارج أوروبا).
- 2. The Break-up of Britain, p. 41. 3. Gerhard Masure, Simón Bolívar, p. 17.
- 4) انظر "Lynch, The Spanish American Revolution, pp. 14-17 and passim". كان هذا ناجأ عن أنَّ الوظائف التجارية والإدارية الأشدُ أهمية كانت إلى حدِّ بعيد حكراً على الإسبانيين المولودين في إسبانيا، في حين كانت ملكية الأرض متاحة عَاماً للكريول.
  - 5) ثمة تشابه واضح على هذا الصعيد مع قومية البوير بعد ذلك بقرن.
- 6) لعلّه من اللافت أن توباك أمارو لم يتنصّل عاماً من التحالف مع ملك إسبانيا. فثورته وأتباعه (المنود في معظمهم، إغا مع بعض البيض والمهجنين) كانت على النظام في ليما. انظر "Gerhard Masure, Simón".
  Bolívar, p. 24".
- 7. Seton Watson, Nations and States, p. 201.
- 8. Lynch, The Spanish American Revolution, p. 192. 9. Ibid., p. 224.
- 10. Edward s. Morgan, 'The Heart of Jefferson,' The New York Review of Books, August 17, 1978, p. 2.
- 11. Gerhard Masure, Simón Bolívar, p. 207; Lynch, The Spanish American Revolution, p. 237.
- 12) ليس من دون بعض الالتواء والالتفاف. فقد حرّر عبيده بعد فترة وجيرة من إعلان استقلال فنرويلا عام 1810. وحين فرّ إلى هايين في العام 1816، حصل على دعم عسكري من الرئيس ألكسندر بتيون لقاء وعد بوضع حدّ للعبودية في كلّ المناطق الحرّرة. وقد تمّ الوفاء بهذا الوعد في كاراكاس عام 1818، غير أنه ينبغي أن نتذكّر أنّ النجاحات التي حققتها إسبانيا في فنزويلا بين 1814و 1816 كانت تعود جزئياً إلى تحريرها العبيد الموالين لها. وحين أصبح بوليفار رئيس غران كولومبيا (فنزويلا ونيوغرانادا والإكوادور) في العام 1821، طلب من الكونفرس إصدار قانون يحرر أبناء العبيد وحصل على ذلك. "لم يطلب من الكونفرس إلغاء العبودية لأنه لم يكن يريد إثارة استياء كبار الملاّك". انظر " Gerhard Masure, Simón الكونفرس إلغاء العبودية لأنه لم يكن يريد إثارة استياء كبار الملاّك". انظر " Gerhard Masure, Simón

."Bolívar, p. 125, 206-207, 329, and 388

14. Lynch, The Spanish - American Revolution, p, 276.

- 14) ثمة مفارقة تاريخية هنا. ففي القرن الثامن عشر كان المصطلح المتعارف عليه لا يزال Españas Las". [الإسبان]، وليس Españas Las". [الإسبان]، وليس Españas [[سباني]]. انظر "Seton Watson, Nations and States, p, 53".
- 15) كانت عدوانية المتروبول الجديدة هذه نتاجاً لمذاهب التنوير من ناحية، والمشاكل المالية المزمنة من ناحية أخرى، والحرب مع إنفلترا، بعد العام 1779، من ناحية ثالثة. انظر "American Revolution, p, 4-17".
- 16) المصدر السابق، ص 301. خُصَّصَت أربعة ملايين للإنفاق على الإدارة في أجزاء أخرى من أميركا الإسبانية، في حين كانت ستة ملايين عبارة عن ربحٍ صافٍ. 17. Ibid., p. 17.
- 18) استعار دستور الجمهورية الفنزويلية الأولى (1811) في مواضع كثيرة تلك الاستعارة الحرفية من دستور الولايات المتحدة الأميركية. انظر "Gerhard Masure, Simón Bolívar, p, 131".
- 19 عكن أن نحد تحليلاً عتازاً ومُفصًلاً للأسباب البنيوية الي تقف وراء الاستثنائية البرازيلية في " Muurilo de Carvalho, 'Political Elites and State Building: The Case of Nineteenth Century "Brazil,' Comparative Studies in Society and History, 24:3 (1982), pp. 378-99 "ومن بين "Brazil,' Comparative Studies in Society and History, 24:3 (1982), pp. 378-99 العوامل الأكثر أهمية كان ثمة عاملان: (1) الفوارق على صعيد التعليم. ففي حين كان هناك "ثلاث وعشرون جامعة منتشرة فيما سيغدو لاحقاً ثلاثة عشر بلداً غتلفاً" في البلدان الاميركية الإسبانية، "كانت البرتغال ترفض ذلك الرفض المنهجي إقامة أيّ مؤسسة للتعليم العالي في مستعمراتها، ما عدا كليات اللاهوت". ولم يكن من المكن تحصيل التعليم العالي إلا في جامعة كويبرا، وليس في البلد الأم، وإلى عناك، في البلد الأم، كان أبناء الصفوة الكريولية يذهبون، لتدرس غالبيتهم الساحقة في كلية الحقوق. (2) الفوارق على صعيد الفرص الوظيفية المتاحة أمام الكريول. حيث يلاحظ دي كارفافو أنَّ "إقصاء الإسبان المولودين في أميركا عن المناصب العليا في الجانب الإسباني [كذا] كان أكبر بكثير". وانظر أيضًا " Stuart B. Schwartz, 'The Formation of a Colonial Identity in Brazil,' chapter 2 in Nicholas "Canny and Anthony Pagden, eds, Colonial Identity in, the Atlantic World, 1500-1800 حيث يلاحظ بصورة عابرة (ص38) أنّه "لم تَدُر في البرازيل أية مطبعة خلال القرون الثلاثة الأولى من الحقبة الكولونيالية".
- 20) وهذا ما يصحّ إلى حدّ بعيد على موقف لندن من المستعمرات الثلاث عشرة، وعلى إيديولوجيا ثورة العام 1776.
- 21. Lynch, The Spanish American Revolution, p. 208; Cf. Masure, Bolívar, pp. 98-99.
- 22. Masure, Bolívar, p. 678.
- 32. Lynch, The Spanish American Revolution, pp. 25-26.
- 24) انظر "Masure, Bolívar, p. 19". لم تكن هذه الإجراءات مفروضة إلا جزئياً بالطبع، وكان قَدْرٌ كبير من التهريب جارياً على الدوام.
- أ) عبارة لاتينية معناها الحرفي "كما تملك"، ويقضي هذا المبدأ الذي هو أحد مبادئ القانون الدولي بان تبقى منطقة ما أو سواها من الممتلكات بيد مالكها في نهاية النزاع، ما لم يُنَصّ على غير ذلك في معاهدة (ث د).
   25. Ibid., p. 546.

26. See his The Forest of Symbols, Aspects of Ndembu Ritual, especially the chapter 'Betwixt and Between: The Liminal Period in Rites de Passage.' For a later, more complex elaboration, see his Dramas, Fields, and Metaphors, Symbolic Action in Human Society, chapter 5 ('Pilgrimages as Social Processes') and 6 ('Passages, Margins, and Poverty: Religious Symbols of Communitas').

27. Bloch, Feudal Society, I, p. 64.

28) ثمة تشابهات واضحة هنا مع الأدوار الموازية التي تلعبها الأنتلجنسيا ثنائية اللغة والعمال والفلاحون الأميون عموماً في تكوين حركات قومية معينة، قبل اختراع المذياع، فهذا الأخير، الذي لم يُخْتَرَع قبل العام 1895، مكّن من تجاوز الطباعة ومن إنجاد تمثيل سمعي للجماعة المتخيّلة محتّرةا مناطق نادراً ما تستطيع الورقة المطبوعة أن تحترقها. لكن الدور الذي لعبه المنياع في الثورة الفيتنامية والثورة الإندونيسية، وفي قوميات منتصف القرن العشرين عموماً، لم يُقدَّر حقّ قَدْرهِ ولم يُدْرَس على النحو الوافي.

29) لا ينبغي أن يُؤخذ "الحج العلماني" على أنّه مجاز وهميّ وحسب. فقد كان كونراد ساخراً، لكنه كان دقيقاً أيضًا، حين وصف عملاء ليوبولد الثاني الأشباح بأنهم "حجّاج" في قلب الظلام.

ب) "homines novi" تعبير لاتين معناه الحرفي "الرجال الجدد"، وكان يشير في روما القديمة إلى حديثي العهد في خدمة بحلس الشيوخ وبحلس القناصل، فإذا ما دخل هؤلاء الحياة العامة وصعدوا في المناصب الرفيعة صار يُشار إليهم بتعبير آخر هو "cives novi" (المواطنون الجدد). والفكرة الأساسية هنا هي إمكانية ارتفاع شخص من أصل متواضع إلى موقع بارز في الجتمع (ثد).

(30) خاصةً حيث كان: (أ) الزواج الأحادي مفروضاً دينياً وقانونياً؛ (ب) حق البكورة هو القاعدة؛ (ج) الألقاب غير السلالية موروثة وعيّرة في التصورات عن المرتبة الوظيفية والقوانين الخاصة بها: أي حيث كانت الأرستقراطيات الإقليمية ذات سلطة مستقلة هامة. كما هو الحال في إنفلترا، كلاف سيام. 31. See Bloch, Feudal Society, II, p 422.

32) من الواضح أنه لا ينبغي المبالغة بشأن هذه العقلانية. فمثال الولايات المتحدة، حيث مُنِعَ الكاثوليك من تسلّم المناصب حتى العام 1829، ليس بالمثال الفريد. هل يسعنا أن نشتبه في أنَّ مثل هذا الإقصاء المديد قد لعب دوراً هاماً في تعزيز القومية الإير لندية؟.

33) انظر "Lynch, The Spanish - American Revolution, pp. 18-19, 298". ومن بين سكان شبه المظر "1500 يومن بين سكان شبه المجزيرة البالغ تعدادهم 15000 تقريباً، كان نصفهم من الجنود.

40) في العقد الأول من القرن التاسع عشر يبدو أنه كان هناك حوالي 400 أميركي جنوبي مقيم في إسبانيا. ومن بين هؤلاء كان "الأرجنتين" سان مارتن، الذي أُخِذَ إلى إسبانيا وهو بعد صي صغير، وقضى السنوات 12 تالية هناك، ودخل الأكاديمية الملكية الخاصة بالنبلاء الشباب ولعب دوراً عيزاً في الكفاح المسلح ضد نابليون قبل أن يعود إلى وطنه لدى سماعه بإعلان استقلاله؛ وكذلك بوليفار، الذي أقام في مدريد لفترة مع مانويل ميلو، عشيق الملكة ماري لويز "الأميركي". ويصفه مازور بأنه ينتمي (حوالي العام 1805) إلى "سماعة من الأميركيين الجنوبيين الشباب" الذين كانوا، مثله، "أغنياء، متبطلين دون أن يجدوا حظوة لدى البلاط. ولقد تطورت لديهم الكراهية وإحساس الدونية اللذان شعر بهما كثير من الكريول أغاه البلد الام إلى دوافع ثورية". انظر (Bolívar, pp. 41-47, and 469-70 San Martín)".

35) عرور الزمن، بات الحجّ العسكري هاماً كالحج المدني. "لم يكن لدى إسبانيا المال ولا القدرة البشرية على إبقاء حاميات كبيرة من الجنود النظاميين في أميركا، واعتمدت بشكل رئيس على الميليشيات

الكولونيالية، التي توسّعت وأعيد تنظيمها منذ أواسط القرن الثامن عشر". (المصدر السابق، ص 10). وهذه الميليشيات كانت علية عاماً، ولم تكن أجراء قابلة للتبديل من جهاز أميّ قاريّ. ومنذ ستينيات القرن الثامن عشر فصاعداً، راحت تلعب دوراً حاماً مطّرداً مع تزايد الاعتداءات البريطانية. ولقد كان والد بوليفار قائداً بارزاً في هذه الميليشيات، ودافع عن الموانئ الفنزويلية ضدّ المعتدين. أمّا بوليفار نفسه فقد خدم في يفاعته في وحدة والده القديمة. انظر " Masure, Bolívar, p. 30 and 38". وقد كان حاله على هذا الصعيد كحال كثيرين من قادة الجيل الأول القوميين في الأرجنتين، وفنزويلا، وتشيلي. انظر " Robert L. Gilmore, Caudillism and Militarism in Venezuela 1810-1910, chapter 6] 'The Militaryl".

36) لاحظوا التحولات التي أحدثها الاستقلال في البلدان الأميركية: لقد غدا مهاجرو الجيل الأول "أدنى" وليس "أعلى"، فهم الأكثر تلوّتاً بحكم مكان ميلادهم. كما حدثت انقلابات في الأوضاع فيما يتعلق بالعنصرية. ذلك أنّ "الدم الأسود" -لطخة فرشاة القَطْران - كان يُنْظَر إليه، في ظلّ الاستعمار، على أنه يلوّث أيّ "أبيض" ذلك التلويث الميثوس منه. أما بعد الاستقلال، وفي الولايات المتحدة على الأقل، فقد دخل الـ "المولّد من أب أبيض وأم رنجية" المتحف. وبات أدنى أثر من آثار "الدم الاسود" بجعل المرء أسود جميلاً. قارن ذلك ببرنامج فيرمين المتفائل فيما يتعلق بتزاوج الأجناس، وغياب أيّ اهتمام لديه بلون الذرية المُنتَظرة.

37) نظراً لاهتمام مدريد العميق بأن تكون إدارة المستعمرات في أيدٍ جديرة بالثقة، "كان من البدهيّ أن "Masure, Bolívar, p. 10". يشغل المناصب العليا إسبان وُلِدوا في إسبانيا على وجه الحصر". انظر "Masure, Boxer, The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825, p. 266.

 ج) أنواع من المولدين من أوروبيين وهنود أميركيين، وتنطوي هذه التسميات على ضروب من الإهانة والحطّ من الشأن (ث د).

39. Ibid., p. 252. 40. Ibid., p. 253.

- 41. Rona Fields, The Portuguese Revolution and the Armed Forces Movement, p. 15.
- 42. Boxer, The Portuguese Seaborne Empire, pp. 257-58.
- 43. Kemiläinen, Nationalism, pp. 72-73.

44) شدّدت هنا على ضروب التمييز العنصري بين أبناء شبه الجزيرة والكريول لأن موضوع النقاش الاساس هو إنشاء القومية الكريولية. ولا ينبغي لذلك أن يُفْهَم على أنّه تقليل من شأن النمو الموازي الذي غته العنصرية الكريولية تجاه الـ mestizos، والزنوج، والمنود؛ أو من شأن إرادة المتروبول غير المهدّد أن يحمى (إلى حدّ معين) هؤلاء التعساء.

45. Febvre and Martin, The Coming of the Book, pp. 208-11.

46. Ibid., p. 211.

47. Jean Franco, An Introduction to Spanish - American Literature, Cambridge: Cambridge University Press, p. 28.

48. Lynch, The Spanish - American Revolution, p. 33.

49) "جاء عامل مياوم إلى سان مارتن يشتكي من أنَّ ناظراً إسبانيا في المزرعة التي يعمل بها ضربه. وغضب سان مارتن، لكنها كانت غضبة قومية وليس اشتراكية. "ما هذا؟ بعد ثلاث سنوات على الثورة، يتجرّأ ماتورانجو [لفظة سوقية تعن إسباني من شبه الجزيرة] أن يرفع يده على أميركي!" ". المصدر السابق، ص 87.

- 50) تلك اللوحة التي يرسمها ماركيز لماكوندو الخرافية في روايته منة عام من العزلة هي عثابة استحضار ساحر لنأي الشعوب الأميركية-الإسبانية وعزلتها.
- 51) كانت مساحة المستعمرات الثلاث عشرة الإجمالية 322497 ميلاً مُرَبَّعاً. وكانت مساحة فنزويلا 352143 وكانت مساحة فنزويلا 352143 وأميركا الجنوبية الإسبانية 3417625 ميلاً مربّعاً.
- 52) تشكّل الباراغواي حالةً ذات أهمية استثنائية. فبفضل الدكتاتورية الخيّرة نسبياً الت أقامها الجزويت هناك في القرن السابع عشر، كان السكان الاصليون يلقون معاملةً أفضل من الت كانت سائدة في غير مكان من أميركا الإسبانية، حتى إنَّ اللغة الغوارانية بلغت مكانة لغة الطباعة. وقد غمِل طرد التاج للجزويت من أميركا الإسبانية عام 1767 على جلب تلك البلاد إلى الريو دي لابلاتا، ولكن متأخرة جداً، ولدّة لا تتعدّى الجيل الواحد. انظر "Seton Watson, Nations and States, pp. 200-201".
- 53) عا له دلالته أنَّ إعلان الاستقلال في العام 1776 لا يتحدث إلا عن "الشعب"، أما كلمة "الأمّة" فلا تظهر أول مرّة إلا في دستور العام 1789، انظر "Kemiläinen, Nationalism, p. 105".

### 5) لغات قديمة نماذج جديدة (ص 93-103)

- 1. Kemiläinen, Nationalism, p. 42.
- 2. Mimesis, p. 282.
- 3) بدأت هذه المعركة عام 1689 عندما نشر شارل بيرو البالغ من العمر 59 عاماً قصيدته "عصر لويس العظيم"، اليّ ترى أنَّ الفنون والعلوم قد حققت أعظم ازدهار لما في زمانه ومكانه هو.
- 4) انظر " Mimesis, p. 343". لاحظ أنَّ أوَرِباخ يقول "ثقافة"، وليس "لغة". وينبغي أن نحذر أيضًا من أن نفهم من الـ "هم" الواردة في "ثقافتهم" على أنها تشير إلى "أمة".
- 5) ثمّة تعارض مُثقن، بالمثل، بين الشخصيتين المغوليتين الشهيرتين في الدراما الإنغليزية. فمسرحية تيمورلنك العظيم (1578-1588) لمارلو تصف ملكاً شهيراً مات منذ العام 1407. في حين تصور مسرحية أورانحزب (1676) لدرايدن إمبراطوراً معاصراً لا يزال في سدّة الحكم (1658-1707).
- 6) وكذلك، وجدت الحضارات الاخرى نفسها في مواجهة تعدديات عقت أصواه وفصواه المقدسة، بسبب ما قامت به الإمبريالية الأوروبية من تحطيم لطرائقها اللامبالية في أرجاء العالم المختلفة. ومن الأمثلة على ذلك تهميش المملكة الوسطى إلى الشرق الأقصى.
- 7. Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 337. 8. Edward Said, Orientalism, p. 136.
- 9. Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 337.
- 10) "ولأنّ تاريخ اللغة عادةً ما يُفْصَل في أيامنا ذلك الفصل الصارم عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي العادي، فقد بدا لي أنَّ من الخير جعه مع هذا التاريخ الاخير، حتى اتُهِمْتُ بنقص الخبرة والاطلاع". انظر "Nations and States, p. 11". يشكّل اهتمام سيتون –واطسون بتاريخ اللغة واحداً من أهمّ جوانب نصه وأكثرها قيمة، على الرغم من إمكانية الاختلاف معه على طريقة استخدامه ذلك التاريخ.
- 11) انظر "The Age of revolution, p. 166". لم تكن المؤسسات الاكاديمية ذات أهمية بالنسبة للقوميات الأميركية. ويلاحظ هوبسباوم نفسه أنه على الرغم من وجود 6000 طالب في باريس زمن الثورة الفرنسية، إلا أنهم لم يلعبوا أيّ دور في تلك الثورة عملياً (ص 167). كما يذكّرنا هوبسباوم على نحو مفيد

بأنَّ عدد المراهقين في المدارس كان لا يزال صغيراً جداً في النصف الأول من القرن التاسع عشر بالقارنة مع المقاييس الحديثة على الرغم من انتشار التعليم السريع في تلك الفترة: 1900 ألف طالب ثانوي في فرنسا عام 1824؛ 2000 طالب تعليم عالي بين عدد سكان روسيا القيصرية البالغ 48000000 عام 1850؛ حوالي 48000 طالب جامعي في أوروبا كلها عام 1848، غير أنَّ هذه الجموعة الصغيرة، إنَّا الاستراتيجية، لعبت دوراً عورياً في ثورة ذلك العام. (ص 166-167).

12) ظهرت أولى الصحف اليونانية عام 1784 في فيينا. وكانت الـ Philike Hetairia، الجمعية السريّة المسؤولة إلى حدّ بعيد عن قيام انتفاضة العام 1821 ضد العثمانيين، قد تأسست عام 1814 في "ميناء الحبوب الروسي الجديد في أوديسا".

13. See Elie Kedourie's introduction to Nationalism in Asia and Africa, p. 40.

14) المصدر السابق، ص 43-44. التشديد لي. يرد كامل نصّ كورايس "وضع الحضارة الراهن في اليونان" في الصفحات 157-182. وهو يشتمل على تحليل مذهل للأسس الاجتماعية الي تقوم عليها القومية اليونانية.

15) لا أزعم أنن أمتلك أيّ معرفة خبيرة باوروبا الوسطى والشرقية، ولذلك فقد اتكأت بقوة على «15. Nations and States, p. 177". سيتون-واطسون في تحليل ما سيلي، وحول اللغة الرومانية، انظر «177 كليل ما سيلي، وحول اللغة الرومانية، انظر «150-53.

17) انظر "Paul Ignotus, Hungary. p. 44". "وقد أثبت ذلك، لكن دافعه السجالي كان أكثر إقناعاً من القيمة الجمالية في الأمثلة الن قدّمها". ولعلّه يجدر بنا أن نلاحظ أنَّ هذا المقطع يرد في قسم فرعي عنوانه "اختراع الأمّة المنفارية"، يبدأ بالعبارة التالية الحافلة بالمعاني: "تولد الأمّة حين تقرّر قلّة من البشر أنّها يجب أن تُولد".

18) انظر "Seton - Watson, Nations and States, pp. 158-61". كانت ردّة الفعل هذه من العنف على انظر "Seton - Watson, Nations and States, pp. 158-61")، خليفة جوزيف الثاني، بإعادة اللاتينية إلى مواقعها. انظر ايضًا الفصل السادس ادناه. ومن اللافت أنّ كازينسكي وقف في صفّ جوزيف الثاني في هذه القضية. انظر "Ignotus, Hungary, p. 48".

i) الحركة الإليرية، Illyrian Movement، تعن بوجه عام الإحياء القومي الكرواتي، وهي حملة ثقافية سياسية قام بها مجموعة من المثقفين الكروات الشباب حوالي 1835-1849 وهدفت إلى ترسيخ وجود قومي كرواتي في ظلّ الحكم المنفاري النمساوي عبر الوحدة اللغوية والإثنية بين سلاف الجنوب. وتشير الإلبرية إلى مجموعة واسعة غير محددة جيداً من الشعوب المندوأوروبية التي سكنت غرب البلقان (ث د).

19) انظر "Nations and States. p. 187". ولا حاجة إلى القول، إنَّ القيصرية لم تغفر لهذا الشعب طويلاً. فقد تحطّم شيفشينكو في سيبيريا. لكن آل هابسبورغ شجعوا القوميين الأوكرانيين في غاليسيا بعض التشجيع، بفية أن يكونوا ثقلاً مقابلاً للبولنديين.

20. Kemiläinen, Nationalism, pp. 208-215.

21. Seton - Watson, Nations and States, p. 72.

 ب) الإفريقاني، Africaner، هو الشخص الجنوب الإفريقي الذي تعود عائلته إلى الشعب المولندي الذي استوطن هناك في القرن السابع عشر (ث د).

22. Ibid., pp. 232, 261.

23) انظر "7-105 العثمانية" التي هي "Kohn, The Age of Nationalism, pp. 105". وقد عنى ذلك نبذ "العثمانية" التي هي نوع من الرطانة الحكومية المتوارثة تضم عناصر من التركية، والفارسية، والعربية. ومن اللافت انّ ابراهيم شيناسي، مؤسس أول صحيفة من هذا النوع، كان قد عاد للتوّ من دراسة امتدت خس سنوات في فرنسا. وسرعان ما تبعه أخرون. وفي العام 1876، كان في استانبول سبع يوميات باللغة التركية. 24. Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 229.

25. Peter J. Katzenstein, Disjoined Partners, Austria and Germany since 1815, pp. 74,112. وقد حالة الملكة الحلية الحلية الحلية الحليقين الملكتين منذ فترة باكرة عاماً، كما رأينا. وفي حالة الملكة المتحدة، كان أخضاع المناطق الناطقة بالفيلية عسكرياً في أوائل القرن الثامن عشر وبحاعة أربعينيات القرن الثامن عشر عاملين مؤثرين أسهما في هذا التحويل.

27. Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 165. For an Excellent detailed discussion,, see Ignotus, Hungary, pp. 44-56; also Jászi, The Dissolution, pp. 224-25.

28) "Kedourie, Nationalism in Asia and Africa, p. 170, Emphasis added". كلَّ شيء هنا غوذجي. وإذا ما كان كورايس يتطلّع إلى "أوروبا"، فلأن ذلك لا يزال مهمةً ملقاةً على عاتقه؛ فهو يواجه القسطنطينية. والعثمانية لم تغدُ بَعْدُ لغةً أجنبية. وزوجات المستقبل غير العاملات يدخلن سوق الطباعة.

29) انظر، على سبيل المثال "Seton - Watson, Nations and States"، حيث يشير في ص 72 إلى فنلندا، وفي ص 12 إلى الفلادا، وفي ص 143 إلى بلغاريا، وفي ص 145 إلى بلغاريا، وفي ص 145 إلى بلغاريا، وفي ص 183 إلى مصر، و 103 إلى فارس. "Nationalism" حيث يشير في ص 83 إلى مصر، و 103 إلى فارس.

30. The Age of Revolution, p. 169.

31. The Break-up of Britain, p. 340.

32. The Age of Revolution, p. 80.

33) قارن: "إنَّ اسم الثورة الصناعية ذاته يعكس ما كان لها من تأثير بطيء نسبيا على أوروبا. فقد وُجِدَ الشيء [كذا] في بريطانيا قبل الاسم، ولم تأتِ عشرينيات القرن التاسع عشر حتى كان الاشتراكيون الإنغلين والفرنسيون –وهم أنفسهم جماعة غير مسبوقة – قد اخترعوا الاسم، ربما بالقياس على الثورة السياسية في فرنسا". المصدر السابق، ص 45.

34) لعلّ من الأدقّ القول إنَّ النموذج كان مزيجاً معقداً من عناصر فرنسية وأميركية، لكن "الواقع القابل للملاحظة" في فرنسا إلى ما بعد العام 1870 كان الملكيات المستعادة والحكم السلالي البديل الذي أقامه ابن أخي نابليون العظيم.

35) لا يعي هذا أنّ الأمر كان محسوماً عاماً بهذا الأنجاه. فنصف رعايا علكة هنغاريا لم يكونوا من الماجيار. وثلث الاقنان فقط كانوا يتكلمون الماجيارية. وفي أوائل القرن التاسع عشر، كانت الأرستقراطية الماجيارية العليا تتكلم الفرنسية والألمانية؛ والنبالة الوسطى والدنيا "كانت تتكلم لاتينية رديئة تشيع فيها التعابير الماجيارية، بل والسلوفاكية، والصربية، والرومانية فضلاً عن الألمانية الحلية . . انظر " lgnotus, Hungary, pp. 44-56, 8

# 6) القومية الرسمية والإمبريالية (ص105-123)

1) من ظرائف الأمور أنَّ ما غدا في نهاية المطاف الإمبر اطورية الإنغليزية المتأخِّرة لم يكن محكوماً من قبل

أسرة "إنغليزية" منذ أوائل القرن الحادي عشر: فمنذ ذلك الحين، جَثَم على العرش موكب متنافر من النورماند (البلانتاجنتيين)، والويلزيين (التيودوريين)، والإسكتلنديين (الستيوارتيين)، والمولنديين (آل أورائج)، والألمان (المانوفريين). ولم يكترث أحد بذلك كثيرًا إلى أن كانت الثورة اللغوية واشتداد القومية الإنغليزية في الحرب العالمية الأولى. فآل قصر وندسور مثل آل قصر شونبرون أو آل قصر فرساي، جيعهم آل قصور.

2) انظر "Jászi, The Dissolution, p. 71". من اللافت أنَّ جوزيف كان قد رفض أن يقسم يمين التتويج كملكِ المنفاريا لان ذلك كان يلزمه احترام امتيازات النبلاء الماجيار "الدستورية". انظر ",Hungary, p. 47".

3. Ibid., p. 137.

4) ممكن القول إنَّ حقبة طويلة انتهت في العام 1844، حين استبدل الماجيار اللاتينية في النهاية كلغة دولة في علكة هنغاريا. غير أن اللاتينية الرديئة، كما رأينا، كانت في الحقيقة اللغة الحلية للنبالة الماجيارية الوسطى والدنيا حتى فترة متقدّمة من القرن التاسع عشر.

5) علمت من البروفسور شهابي في جامعة هارفرد أنَّ الشاه كان في المقام الأول يقلَّد أباه، رضا بهلوي، الذي
 وضع بعض التراب الإيراني في حقائبة حين نفته لندن إلى موريشيوس عام 1941.

6) انظر "Siton - Watson, Nations and States, p. 148". من المؤسف أنَّ سخرية سيتون - واطسون اللاذعة لا تمضي أبعد من أوروبا الشرقية. فهو محقٍّ في سخريته من نظام آل رومانوف والنظام السوفيي، لكنه يغفل أن سياسات مشابهة قد اتَّبِعَتْ في لندن، وباريس، وبرلين، ومدريد، وواشنطن.

7) غة مواز دال لكل هذا في الإصلاحات السياسية -العسكرية الت أجراها كل من شارنهورست، وكلاوسفيتر وغنيسينو الذين تبنّوا بروح واعية كثيرًا من إبداعات العفوية الت جاءت بها الثورة الفرنسية لبناء جيش إلرامت ضخم، ودائم، بضباط محترفين غطيين أو قياسيين في القرن التاسع عشر.

8. Ibid., pp. 83-87. 9. Ibid., p. 87.

10) ولقد حان أوان تفكك هذا الالتحام بالتقدّم من الإمبر اطورية البريطانية إلى الكومنولث البريطاني، إلى الكومنولث، إلى...؟.

11. The Break-up of Britain, pp. 106ff.

12. 'Some Reflections', p. 5.

Inventing America:" إن كتاب عمل عنواناً دالاً هو اختراع أميركا: إعلان جِفرسُن الاستقلال "Inventing America:" في كتاب عمل عنواناً دالاً هو اختراع أميركا: إعلان جِفرسُن كان "Jefferson's Declaration of Independence"، يرى غاري ويلز أنَّ التفكير القومي لدى جِفرسُن كان قد تشكّل بصورة أساسية، ليس من قراءة لوك، بل من قراءة هيوم، وهَتْشِسون، وآدم سميث، وسواهم من الاشخاص البارزين في التنوير الاسكتلندي.

أ)نورغبريا، Northumbria علكة أنغلوسكسونية قدعة في الجزء الشمالي من إنكلترا (حوالي 600 - حوالي 900 م). ترامت رقعتها من البحر الإيرلندي إلى بحر الشمال. بلغت أوج قوتها العسكرية في القرن السابع للميلاد، وعَيِّرت نورغبريا بأنها كانت مركزاً للعلم. وألكوين، (Alcuin, 735-804)، هو عالم شهير، ورجل دين، وشاعر ومعلم من يورك في نورغبريا. أما بيديه، (735-672)، فهو راهب بندكي في نورغبريا، وكان عالمًا وكاتباً مشهوراً، منحته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لقباً بالغ الأهمية هو طبيب الكنيسة، كما جلب له كتابه الشهير التاريخ الكنسي للشعب الإنغليزي "" لقب أبي التاريخ

الإنغليزي (ث د).

14. Feudal Society, I, p. 42.

15. Nations and States, pp. 30-31.

16. The Break-up of Britain, p. 123.

17) عِكن أن نؤكّد بثقة أنَّ هذا الاوفاروف الإنغليزي الشاب المنتفخ من الطبقة الوسطى لا يعرف أيّ شيء عن كلا هذين "الادبين الحليين".

18. See Donald Eugene Smith, India as a secular State, pp. 337-38; and Spear, India, Pakistan and the West, p. 163.

19. Smith, India, p. 339.

20) انظر، مثلاً، الوصف الشبيه بوجه لاعب البوكر الذي يقدّمه روف لإقامة كلية كوالاكانفسار مالاي عام 1905، والتي سرعان ما غدت تُعْرَف، دون أيّ سخرية، باسم "إيتون مالاي". وقد كان طلابها، تبعأ للوصفة التي أطلقها ماكولي، من أبناء "الطبقات الحرّمة" أي من الأرستقراطية المالاوية. وكان نصف التلاميذ الداخليين من النريّة المباشرة لعدد من السلاطين المالاويين. انظر "William R. Roff, The".

21) كان للشعوب عبر الأورال قصة أخرى.

22. See his Memories of My Life and Times, pp. 331-32.

ب) الراج: Raj، الحكم البريطاني في المند (ث د).

23) صحيحٌ أنَّ الموظّفين المنود كانوا يُستَخْدَمون في بورما؛ لكن بورما كانت، إدارياً، جرءاً من المند البريطانية حتى العام 1937. كما خَدَم المنود أيضًا في وظائف دنيا -خاصةً الشرطة - في الملايو وسنغافورة البريطانيتين، لكنهم كانوا محمون هناك بوصفهم "عليين" و"مهاجرين"، أي أنهم لم يكونوا "يُعادون" إلى قوات الشرطة في المند. لاحظوا أنّ التشديد هنا هو على الموظّفين: حيث كان العمال، والتجار، بل والحرفيون المنود ينتقلون بأعداد كبيرة إلى المستعمرات البريطانية في جنوب شرق آسيا، وفي جنوب إفريقية وشرقها، بل وفي الكاربي.

24) من المؤكّد أنّ عدداً ضئيلاً من "الكولونياليين البيض" قد هاجروا إلى لندن وأصبحوا أعضاء في البرلمان أو من لوردات الصحافة البارزين في أواخر العهد الإداورديّ.

25) كانت الشخصية الاساسية هنا هي أومورا ماسوجيرو (1824-1869)، الذي كان يُلقَّب بـ "أبي الجيش الياباني". وكان من الشوشو ساموراي ذوي المرتبة الدنيا، وبدأ مسيرته بدراسة الطب الغربي من خلال كتيّبات باللغة المولندية. (ولنتذكّر أنّ المولنديين هم الغربيون الوحيدون الذين كان يُسْمَح لهم بدخول اليابان حتى العام 1854، وأنَّ هذا الدخول كان مقتصراً على جزيرة ديشيما قبالة ميناء ناغازاكي الواقع تحت سيطرة الباكوفو). وبعد تحرّجه من تيكيجيوكو في أوساكا، الذي كان آننذ أفضل مركز لتعليم اللغة المولندية في البلاد، عاد إلى موطنه لمارسة الطب، لكن دون نجاح كبير. وفي 1853، حصل على وظيفة في أواجيما كمدرّس للمعارف الغربية، مع غزوة إلى ناغازاكي لدراسة العلوم البحرية. (وقد صمّم وأشرف على بناء أول سفينة بخارية يابانية بالعودة إلى مراجع مكتوبة). وجاءت فرصته بعد وصول بيري؛ حيث انتقل إلى ايدو عام 1856 ليعمل مدرّساً فيما سيُدعى لاحقاً الأكاديمية العسكرية الوطنية وفي مكتب البحث الأعلى التابع للباكوفو لدراسة النصوص الغربية. وقد جلبت له ترجاته الأعمال العسكرية الأوروبية، خاصةً تلك الي تتناول تحديات نابليون في الاستراتيجية والتكتيك، الشهرة واستُدُعي في العام الأوروبية، خاصةً تلك الي تتناول تحديات نابليون في الاستراتيجية والتكتيك، الشهرة واستُدُعي في العام 1860 إلى شوشو ليعمل مستشاراً عسكرياً. وفي 1864-1865، أثبت أهمية كتابته كقائد ناجح في حرب

#### الحماعات المتخبّلة . . .

الشوشو الأهلية. وقد أصبح بعد ذلك أول وزير حربية في عهد الميجي، ووضع خطط النظام الثورية الشوشو الأهلية. وقد أصبح بعد ذلك أول وزير حربية في عهد الميجي، ووضع خطط النظام الثورية انظر الخاصة بالتجنيد العام وإلغاء الساموراي كفئة قانونية. والمؤسف أنه اغتيل بيدي ساموراي حانق. الخاصة "Albert M. Graig, Chōshū in the Meji Restoration, Especially pp. 202-204, 267-280" 26. A contemporary Japanese observer, quoted in E. Herbert Norman, Soldier and Peasant in Japan, p. 31.

- 27) لقد غلِموا ذلك من خلال تجربة شخصية مريرة. ففي العام 1862، سوَّى أسطولٌ بريطاني بالارض نصف ميناء كاغوشيما التابع للساموراي؛ وفي 1864، قامت وحدة بحرية أميركية وهولندية وإنغليرية بتدمير تحصينات الشوشو الساحلية في شيمونوسيكي. ".John M. Maki, Japanese Militarism, pp.".
- 28) يذكّرنا كلُّ هذا بتلك الإصلاحات اليّ جرت في بروسيا بعد 1810 استجابةٌ للالتماس العاطفي الحماسي الذي قدّمه بلوخر إلى برلين: "أعطونا جيشاً قومياً!". انظر ".R Vagts, A History of Militarism. p.". 130; Gordon A. Graig, The Politics of the Prussian Army, ch. 2
- 29) غير أنَّ باحثين يابانيين أعلموني أنَ حفريات الأضرحة الملكية الباكرة تشير بقوة إلى أنَّ العائلة رما كانت -يا للرعب! ذات أصول كورية. وقد شجعت الحكومة اليابانية بقوة على القيام عزيد من الحفريات في هذه المواقع.
- 30. Maruyama Massao, Thought and Behaviour in Modern Japanese Politics, p. 138. 31. Ibid., pp. 139-40.
- 32) من سوء الحظُ أنَّ البديل الوحيد للدول الملكية السلالية القومية الرحمية في ذلك الوقت -هنغاريا النمساوية لم يكن من بين القوى ذات الحضور الهام في الشرق الاقصى. 33. As translated and cited in Richard Storry, The Double Patriots, p. 38.
- 34) يشكّل القسم التالي نسخةٌ مكثّفةٌ من مقاليّ "Studies of the Thai State: the State of Thai'". "Studies', in Eliezer B. Ayal (ed), The State of Thai Studies
- 35) يبيّن باتّي بدقّة أنَّ الغرض من زيارات الملك الشاب إلى باتافيا وسنغافورة في 1870 وإلى الهند في 1827 كان، كما تقول كلمات شولالونكورن اللطيفة، "اختيار نماذج آمنة". انظر "'The Military, Government". and Society in Siam, 1868-1910,' p. 118".
- 36) "كانت بريطانيا العظمى، أولاً وأخيراً، مصدر إلهام برنامج فاجيرا فود [واشيروت] القومي، فهي الأمّة الغربية التي يعرفها على النحو الأفضل، والتي كانت في تلك الفترة واقعة في إسار حماس إمبريالي Walter F. Vella, Chaiyo! King Vajiravudh and the Development of Thai مشبوب". انظر "Nationalism, p. xiv, 6, and 67-68".
- 37) كان سبب الإضراب قرار الحكومة أن تفرض على الصينيين ضريبة الرأس ذاتها الت فرضتها على Bevars" التايلنديين الحليين. والتي كانت حتى ذلك الحين منخفضة، بغية التشجيع على الهجرة. انظر "D. Mabry, The Development of labor Institution in Thailand, p. 38". (كان استغلال الصينيين متركّزاً في مزارع الأفيون بصورة أساسية).
- 38) مِكن للقارئ أن يجد مزيداً من التفاصيل المتعلقة بالنَّسب في مقالي: "Studies of the Thai State," , محكن للقارئ أن يجد مزيداً من التفاصيل المتعلقة بالنَّسب في مقالي: "p. 214
- 39) ولقد سكَّ أيضًا شعار الأمَّة، الدين، الملك الذي كان شعار الانظمة اليمينية في سيام طيلة الربع الأخير

من القرن. وهنا تظهر أوتوقراطية أوفاروف، وأرثوذكسيته، وقوميته في ترتيب تايلندي مقلوب. (40 النظر "19 Ignotus, Hungary, pp. 47-48". هكذا أعطى النمر في ثياب النوم، الإمبراطور جوزيف الثاني، في العام 1820 انطباعاً حسناً في خطابه الذي ألقاه باللاتينية أمام الأعيان المنفاريين الجتمعين في بست. غير أن السيد العظيم الراديكالي الرومانسي الكونت اشتفان سيتشين "أذهل زملاءه الأعيان في الدايت" عام 1825، حين خاطبهم بالماجيارية! انظر ",185 and Ignotus, و51 و61. حين خاطبهم بالماجيارية! انظر ",Hungary, p.51 وهناسا".

41) اقتباس مُترُّجَم من كتابه (The Old Hungary 1910) ورد في "مَّرُجَم من كتابه (عليه المعافرة) ورد في "مار". كان غرينفالد شخصية لافتة وتراجيدية، وُلِدَ لعائلة نبيلة من أصل ساكسوني لكنها غَجْيَرَت، وغدا مديراً بارزاً وواحداً من أوائل علماء الاجتماع في هنغاريا. ويبيِّن نشر أكاثه أنّ "المقاطعات" الشهيرة التي كان يسيطر عليها الأشراف الماجيار كانت عبارة عن طفيليات تعتاش على جسد الأمة وتثير حملة شرسة من سوء الصيت العام. وقد فرّ إلى باريس وهناك انتحر غرقاً في نهر السين انظر "روي ويوسيت. "p. 299".

42. Jászi, The Dissolution, p. 299.

43) سنّ نظام كوسوث حقّ الاقتراع للبالغين الذكور، ولكن شريطة أن يكون لديهم تلك المؤهلات الرفيعة من حيث الملكية فلم يكن هناك سوى عدد ضئيل نسبياً من الأشخاص الذين يمكنهم الاقتراع. 44. Ignotus Hungary, p. 56.

45. Ibid., p. 59.

46) يلاحظ إغنوطيوس أنّ باخ ونفّر للنبلاء شيئاً من التعويض المالي عن خسارة امتيازاتهم، "رعا بالقدر الذي كان يمكن أن يحصلوا عليه في ظلّ كوسوث لا أكثر ولا أقل" (ص 64-65).

47. Ibid., p. 74.

48) كانت النتيجة أنَّ عدد الضياع الموقوفة على ورثة معينين قد تضاعف ثلاث مرّات بين 1867 و1918. وإذا ما حسبنا أملاك الكنيسة، فإن ثلث الأرض في هنفاريا كان موقوفاً على ورثة معينين عند نهاية الملكة الثنائية. وكذلك كان وضع الرأسماليين الألمان واليهود ذلك الوضع الحسن في ظلّ تيسا.

49. Ibid., pp. 81 and 82.

50) كانت البلطجية بصورة أساسية عمل "الباندور" ذوي الصيت السيء، وهم جزء من الجيش وُضِعَ نحت إمرة مدراء المقاطعات واستُخْدِمَ كشرطةِ ريفية عنيفة.

51. The Dissolution, p. 328.

52) تبعاً لحسابات لايوش موتشاري (Some Words on the Nationality problemBudapest, 1886)، والتي أوردها المصدر السابق ص 331-332. كان موتشاري (1826-1916) قد أسّس عام 1874 حرباً صغيراً مستقلاً في البرلمان المنفاري لكي يقاتل دفاعاً عن أفكار كوشوت، خاصةً حول مسألة الاقليات. وقد أدّت خطبه التي تنتقد خروقات تيسا السافرة لقانون القوميات الصادر عام 1868 إلى طرده من البرلمان أولاً ثم إلى طرده من حربه هو نفسه. وفي العام 1888، عاد إلى البرلمان نائباً عن دائرة انتخابية رومانية بالكامل وأصبح منبوداً سياسياً إلى حدّ بعيد. انظر "1808، Hungary, p. 334".

53. Jászi, The Dissolution, p. 334.

54) المصدر السابق، ص 362. كان غُمَّة خاصيَّة زائفة ميّزت هذه "الأوليفارشية القومية" وصولاً إلى

القرن العشرين. ويشير ياسي إلى قصة مسليّة وقعت لأحد مراسلي يومية هنغارية شهيرة أجرى مقابلة خلال الحرب العللية الأولى مع الضابط الجريح الذي سيغدو دكتاتور هنغاريا الرجعيّ في الفترة بين الحربين. وقد غضب هورثي من وَصْف المقال لأفكاره بأنّها "تطير عائدةً إلى أرض الأباء المنغارية، وطن الاجداد". وقال: "لتعلموا أنّه إذا ما كان قائدي الحربي في بادن، فإن أرض آبائي أيضًا تكون هناك!". انظر " p. 142. The Dissolution".

55) المصدر السابق، ص 165. "وفي تلك الأيام الخوالي السعيدة حين كان لايزال هناك مكان مثل النمسا الإمبراطورية، كان كقدور المرء أن يترك قطار الأحداث، ويستقل قطاراً عادياً على سكّة حديد عادية، ويرحل عائداً إلى أرض الوطن. . . وبالطبع، فإنَّ السيارات أيضًا كانت تسير على تلك الدروب، لكنها لم تكن كثيرة! بل إنَّ غزو الأجواء كان قد بدأ هنا أيضًا؛ لكن ذلك لم يكن بكثافة كبيرة. وبين الحين والأخر كانت تُرْسَل سفينة إلى أميركا الجنوبية أو الشرق الأقصى؛ لكن ذلك لم يكن كدت كثيرًا. لم يكن هناك أيّ طموح لإقامة أسواق عالمية أو امتلاك سلطة عالمية. هنا كان المرء في مركز أوروبا، في بؤرة عاور العالم القديمة؛ وكان لكلمي "مستعمرة" و"ما وراء البحار" رنين شيء لم كُنْتَبَر بعد على الإطلاق وكان لا يزال نائياً. كان غمّة بعض مظاهر الرفاهية، لكنها لم تكن مفرطة الإتقان كالرفاهية الفرنسية. وكان المريقة الأغلوساكسونية الجنونة. وكانت تُنْفَق مبالغ هائلة على المريش؛ لكنها لم تكن كافية لاكثر من ضمان بقاء واحدة من بين اثنين من أضعف القوى العظمى". الخيش؛ لكنها لم تكن كافية لاكثر من ضمان بقاء واحدة من بين اثنين من أضعف القوى العظمى". انظر "31-32 الكتاب هو الرواية المزلية المزلية الأعظم في قرننا.

56) "Jászi, The Dissolution, p. 135". وعندما طُرِدَ متزنيخ بعد عُردات 1848 واضطر للفرار، "لم يسأله أحد في البلاط أين يذهب وكيف سيعيش".

57. Ibid., p. 181.

58) انظر "Otto Bauer, Die Nationalitätenfrage und die Sozialdeemmocratie (1907)". كما نحد ذلك أيضًا في كتابه "Werkausgabe, I, p. 482. Italics in the original". مقارنة هذه الترجمة بترجمة ياسى، الت نحدها في الطبعة الأصلية من هذا الكتاب، تقدم مادةً للتفكير.

59) لا شكّ أنها تعكس أيضًا الجهاز العقلي الميّز لنمط شهير من أغاط المثقف الأوروبي اليساري، الذي يفخر بتضلّعه من اللغات الحضارية، وبإرثه التنويري، وبفهمه الثاقب لمشكلات أيّ أحد أخر. ففي هذا المغار تختلط المكوّنات الأعية والأرستقراطية مقادير متساوية.

60. Jászi, The Dissolution, p. 3.

61) كان ياسي قد توقّع الكثير منذ نصف قرن مضى: "قد يتساءل المرء ما إذا كانت التطورات الإمبريالية الأخيرة التي اعترت القومية قد نبعت من مصادر الفكرة القومية الحقّة وليس من المصالح الاحتكارية لدى جاعات معينة غريبة عن مفهوم الأهداف القومية الأصلي". المصدر السابق، ص 286. التشديد لي.

62) تؤكّد حالة الإنديز المولندية هذه النقطة بدقّة وعلى نحو معكوس، حيث كانت في أيامها الأخيرة لا تزال محكومة إلى حدَّ بعيد عبر لغةٍ نعرفها اليوم على أنها "إندونيسية". وهذا باعتقادي هو المثال الوحيد لمُسْتَعْمَرَةٍ كبيرة بقيت فيها لغةٌ غير أوروبية لغةً للدولة حتى النهاية. وعكن تفسير هذا الشذوذ في المقام الأول بقدَم هذه المستعمَرة ليس غير، حيث قامت في أوائل القرن السابع عشر من خلال شركة الهند

الشرقية المتحدة، قبل عصر القومية الرسمية بزمن طويل. ولا شكَّ أنه كان هناك أيضًا فقدان ثقة معين لدى المولنديين في العصور الحديثة بأنَّ للغتهم وثقلفتهم ذلك الطابع الاوروبي الذي تمكن مقارنته بطابع اللغة الإنغليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو الإسبانية، أو الإيطالية. (البلجيك في الكونغو كانوا يستخدمون الفرنسية وليس الفلمنكية). وأخيراً، فإنّ السياسة التعليمية الكولونيالية كانت سياسة عافظة إلى أبعد الحدود: ففي العام 1940، حين كان تعداد السكان الأصليين يفوق السبعين مليوناً بكثير، لم يكن في الجامعة من "الحليين" سوى 637 شخصاً، لم يتخرّج منهم بشهادة البكالوريوس سوى 37. انظر "George McT. Kahin, Nationalism and Revolution in Indonesia. p. 32". ومن أجل مزيد من المعلومات عن إندونيسيا، انظر أدناه، الفصل السابع.

أ) إله روماني قديم كرس بوابة السماء؛ ومن هنا تسميته حارس البوابات والمداخل. وكان كُمثّل بوجهين،
 واحد في الامام وآخر في الخلف، وأبواب معبده في روما كانت تُترّك مفتوحة زمن الحرب وتُغلّق زمن السلم.
 ويُستخدَم اسم جانوس في الإشارة إلى كلّ من ازدواجية الأوجه والحرب (ث د).

### 7) الموجة الأخيرة (ص125-142)

1) لم يقتصر ذلك بالطبع على الموظفين، مع أنهم كانوا الجماعة الأساسية. خذوا مثلاً رواية ([لا تلمسين]/ Noli Mi Tangere) (وكثير غيرها من الروايات القومية). فمع أن بعض الشخصيات الأكثر أهمية في نصّ ريزال هم من الإسبان، وبعض الشخصيات الفيليبينية كان عليها أن تسافر إلى إسبانيا (بعيداً عن مسرح الرواية)؛ إلا أنَّ حدود الرحلة التي كانت تقوم بها أية شخصية كانت مقتصرةً على ما سيفدو، بعد أحد عشر عاماً من نشر الرواية وعامين من إعدام كاتبها، جمهورية الفيليبين.

2) لكي نضرب مثلاً واحداً وحسب: في العام 1928، كان هناك حوالي 25000 من أبناء البلد الخليين على جدول رواتب الإنديز الشرقية المولندية، وقد شكّل هؤلاء 90% من إحمالي موظّفيّ الدولة. (وما له دلالته، أنّ الرواتب والمعاشات المتفاوتة كثيرًا بين الموظفين المولنديين وانحليين، حين يجتمعون، كانت تلتهم حتى 50% من إنفاقات الدولة!). انظر "31-171 Amry Vandenbosch, The Dutch East Indies, pp. 171-31. غير أنّ المولنديين كانوا أكثر بتسع مرّات على المستوى البيروقراطي شأنهم شأن الإنغليز في المند البريطانية (الن لم تكن "دولة علية").

3) حتى في الإنديز الهولندية الحافظة إلى أبعد الحدود، ارتفع عدد الحليين النين يتلقون تعليماً ابتدائياً على الطريقة الغربية من معدل يبلغ 2987 في السنوات 1900-1904 إلى 74698 في العام 1928؛ أما أولئك الذين يتلقون تعليماً ثانوياً على الطريقة الغربية فقد ازداد في الفترة ذاتها من 25 إلى 6468. انظر "Kahin, Nationalism, p. 31".

4) وإذا ما استعرنا من أنطوني بارنيت، فإنّ ثنائية اللغة قد أتاحت أيضًا للمثقفين "أن يقولوا لأبناء لغتهم [لغتهم الحلية] إنّ "نا" يمكن أن نكون مثل "هم"".

5) ظهرت هذه المقالة في الأصل في De Expres في 13 غوز 1913، لكنها سرعان ما تُرْجِمَت إلى الإندونيسية ونُشِرَت في الصحافة المحلية. كان سواردي آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره. ونظراً لكونه أرستقراطياً تقدمياً ومتعلماً جيداً بخلاف المعتاد، فقد انضم إلى واحد من عامة جاوة، هو الدكتور بجبت مانغوينكويسومو، وأحد الأوراسيين، هو إدوارد دويز ديكر، لكي يشكلوا الحزب الإنديزي، أول

حرب سياسي في المستعمرة. يمكن للقارئ أن يحد دراسةً عن سواردي موجزة، لكنها مفيدة، في "Scherer, "Harmony and Dissonance: Early Nationalist Thought in Java", Chapter 2.

وتضيف كاتبة المقالة ملحقاً أولاً هو ترجمة إنغليزية لهذا المقال الشهير، أخذتُ منها هذا المقبوس.

6) لاحظ الرابط التعليمي بين الجماعات "المُتخيّلة" والجماعات "الخيالية".

7) من المتفق عليه أن احتفالات العام 1913 كانت تعبر عن القومية الرسمية بمعنى آخر أيضًا. ذلك أن "التحرر القومي" الحُتَّفَل به كان في الحقيقة إعادة ال أورانج من قبل جيوش التحالف المقدّس الظافرة (وليس لإقامة الجمهورية الباتافية عام 1795)؛ وسرعان ما انفصل نصف الامة الحُرّرة ليشكّل عملكة بلجيكا عام 1830. لكن ما تشرّبه سواردي في غرفة صفه الكولونيالي هو بلا شك "التحرر القومي". 8. Marxism and the National Question, p. 41.

9) تركيزنا هنا هو على المدارس المنية. لكن نظائرها العسكرية غالباً ما كانت مهمة أيضًا. فالجيش العامل المشتمل على ضباط محترفين والذي كانت بروسيا رائدته في أوائل القرن التاسع عشر تطلُّب هرماً تعليميًّا أشدّ إحكاماً من شبيهه المدني من بمض النواحي، إن لم يكن أشدّ تُخصَّصاً. وغالباً ما لعب الضباط الشباب ("الترك") الذين تُخرجوا من الأكاديميات العسكرية الجديدة أدواراً مهمة في تطور القومية. ومن الأمثلة على ذلك الميجور شوكوما نزيوغو، الذي كان العقل المبرّر لانقلاب 15 كانون الثاني 1966 في نيجيريا. وهو مسيحي من الإيبو، كان بين الجموعة الأولى من النيجيريين الشباب الذين أرسلوا إلى ساندهورست للتدريب بغية تحويل قوة من المرتزقة الكولونيالية الت يقوم عليها ضباط بيض إلى جيش وطي، لدى إحراز نيجيريا استقلالها في العام 1960. (وإذا ما كان قد التحق بساندهور ست مع بريفادير المستقبل أفريفا، الذي أطاح بحكومته، في عام 1966 أيضًا، فإنّ كلُّ على كان مقدَّراً له أن يعود إلى موطنه الإمبراطوري الخاص). ومن الدلائل اللافتة على قوة النموذج البروسي أنَّ شوكوما كان قادراً على قيادة فرق من الهوسا المسلمين في اغتيال الساردونا في سوكوتو وغيرهم من أرستقراطيي الهوسا المسلمين، و تالياً تدمير حكومة أبو بكر تافاوا باليوا التي يسيطر عليها الموسا المسلمون، ولا يقلُّ عن ذلك لفْتَا للانتباه بين علامات القومية الناحمة عن المدارس الكولونيالية أنَّه أكَّد لمواطنيه عبر راديو كادونا "أنكم لن تخجلوا بعد الأن من القول إنكم نيجيريون". انظر "Anthony H. M. Kirk - Green, Crisis" and conflict in Nigeria: A Documentary Source Book, P.126". غير أنَّ انتشار القومية أنئذ في نيجيريا كان قليلا بما يكفي للمسارعة إلى تفسير انقلاب نزيوغو القومي بأنه مؤامرة حاكها الإيبو؛ ومن هنا التمردات العسكرية في غوز، والمذابح المبَّرة ضد الإيبو في أيلول وتشرين الأول، وانفصال بيافرا في أيار 1967. انظر "Robin Luckhon, The Nigerian Military, Passim".

- ب) الأرواحية، animism، ديانة يُعتَقَد فيها أنَّ للحيوانات والنباتات أرواحاً (ث د).
- 10) فكرة أنَّ طالباً "أكبر بكثير" من أن يكون في الصف س أو ع، وهي فكرة لم تكن واردة في المدرسة الإسلامية التقليدية، كانت مسلمة بدهية في المدرسة الكولونيالية من النمط الغربي.
- 11) في النهاية، بالطبع، كانت لاهاي، وأمستردام، وليدن هي القمم؛ لكن أولئك الذين كان بمقدورهم أن كلموا جديّاً بالدراسة هناك كانوا حفنةً صغيرةً.
- 12) كونها علمانية، كانت مدارس القرن العشرين غتلطة في العادة، مع أنَّ الذكور كانوا الغالبية الساحقة. ومن هنا علاقات الحب، وغالباً جداً الزيجات، "الناحمة عن مقعد الدراسة"، التي تتخطى كلَّ الحدود التقليدية.

13) لم يَرَ سوكارنو قطّ إيريان الغربية اليّ قاتل من أجلها بكل شراسة إلى أن تجاوز الستين من العمر، ذلك أنه في خرائط الصفّ الدراسي، نرى التخييل أو القصّ يتسرّب إلى الواقع. انظر "Noli Me Tangere". and El Periquillo Sarniento".

41) قارن، خلاف ذلك، 'half - breeds' أو 'niggers' ، الذين كان مقدورهم، ابتداءً من كاليه [أي ابتداءً من ضفة المائش الفرنسية (ث د)]، أن يظهروا فجاة في أيّ مكان على ظهر الكوكب خارج المملكة المتحدة. Abdou Moumouni, L'Education en Afrique, "انظر "Ruth Schachter Morgenthau, Political Parties in انظر "pp. 41-49. "pp. 41-49 وحول دلالتها السياسية، انظر "French -Speaking West Africa, pp. 12-14, 18-21 كان مقرّ المدرسة في الأصل في سان لويس ولم يكن لما اسم، ثم انتقلت إلى غوري، قرب داكار في عام 1913. ثم "عيت بعد ذلك باسم وليم ميرلو بوني، الخاكم العام الرابع لإفريقية الغربية الفرنسية (1908-1915). ولقد أخبرني سيرج ثيون أن الاسم وليم (لخلاف غليوم) كان رائجاً جداً في المنطقة حول بوردو، وهو محقّ بالتأكيد في نسبته هذه الشعبية إلى الروابط التاريخية مع إنغلترا الي أقامتها تجارة الخمور؛ غير أنه يبدو مكناً بالمثل أنه يعود إلى الحقبة الي كانت فيها بوردو لا تزال جزءاً مكيناً من الملكة الي تحكمها لندن.

16) لا يبدو أن ثمة شيئاً مشابهاً في إفريقية الغربية البريطانية، سواء لأنّ المستعمرات البريطانية لم تكن متمادية أو متلاصقة، أو لأنّ لندن كانت من الثروة والليرالية بما يكفي لأن تقيم المدارس الثانوية في الوقت ذاته تقريباً في المناطق الكبرى، أو بسبب الحلية التي كانت تتمتع بها المنظمات التبشيرية البروتستانتية المنافسة. فمدرسة أكيموتا، وهي مدرسة ثانوية أقامتها الدولة الكولونيالية في أكرا عام 1927، سرعان ما غدت قمة أساسية في هرم تعليمي نوعي في ساحل الذهب، وبعد الاستقلال كانت المكان الذي بدأ فيه أبناء الوزراء يتعلمون كيف بخلفون آباءهم. وكان لقمة منافسة، هي مدرسة مفانتسيبيم الثانوية، ميزة الشبق (حيث تأسست عام 1876)، وعيب المكان (ساحل الكاب) وشبه الاستقلال عن الدولة (فقد ظلت في أيدي طائفة معينة حتى فترة لا بأس بها بعد الاستقلال). وأنا أدين بهذه المعلومات إلى محمد خباس. (1930 فقد أدى هذا المعنى، من بين ما أدى إليه، إلى قيام حزب شيوعي هندوصين لجيل واحد (1930 1951) شارك فيه، لفترة، شباب لفاتهم الأم هي الفيتنامية، أو الخمير، أو اللاوسية. واليوم، يُنْظَر إلى تشكيل هذا الحرب في بعض الأحيان على أنه بجرد تعبير عن "نزعة توسعية فيتنامية قديمة". والواقع، تشكيل هذا الحرب في بعض الأحيان على أنه بجرد تعبير عن "نزعة توسعية فيتنامية قديمة". والواقع، أن الكومنترن هو الذي أنجه انطلاقاً من النظام التعليمي (وبدرجة أقل الإداري) في المند الصينية المند... ت

18) بحري مناقشة هذه السياسة على نحو كثيف وشامل في "Gail Paradise Kelly, 'Franco – Vietnamese". ومن سوء الحظ، أنّ هذه الدراسة تركّز بصورة حصرية على سكان الهند الصينية الذين يتكلمون الفيتنامية.

19) إني أستخدم هاتين التسميتين اللتين قد تكونان خرقاوين لكي ألح على الأصول الكولونيالية لهذين الكيانين. حيث مُعِمت "لاوس" من مجموعة من الإمارات المتنافسة، على نحو ترك أكثر من نصف السكان الناطقين باللاوسية في سيام. وحدود "كمبوديا" لا تتماشى مع أي امتداد تاريجي محدد للمملكة ما قبل الكولونيالية، ولا مع توزّع الشعوب الناطقة بالخميرية. وقد انتهى الأمر ببضع مئات الالاف من هؤلاء البشر إلى الحصار في "الصين الكوتشينية"، ليشكّلوا عرور الوقت تلك الجماعة الميزة الي تُعرف باسم

الخمير الحمر (خير أسفل النهر).

- 20) ولقد جرى السعي وراء هذا المدف عبر إقامة مدرسة دي بالي العليا في ثلاثينيات القرن العشرين في فنوم بنه، وهي مدرسة دينية التحق بها الرهبان الذين يتكلمون الخميرية واللاوسية على حدّ سواء. ويبدو أنّ الحاولة لتحويل الأنظار البوذية عن بانكوك لم تتجح عاماً. ففي العام 1942 (بعد فترة قصيرة من استعادة سيام سيطرتها على قسم كبير من "غال غرب "كمبودج" بمساعدة يابانية)، أوقف الفرنسيون أستاذاً جليلاً من أساتذة المدرسة لحيازته وتوزيعه مواد تعليمية تايلندية هدّامة". (الارجح أنّ هذه المواد كانت بعضاً من النصوص المدرسية القومية القوية الي أنتجها نظام الفيلد مارشال بليك فيبونسونخرام (1942-1944) المناهض للفرنسيين بشدة.
- 21) انظر "David G. Marr, Vietnamese Tradition on Trial, 1920-1945, p. 146"، ولم تكن أقلً إزعاجاً تلك الترجمات الصينية المُهرَّبة لكتاب فرنسيين مثيرين للقلاقل مثل روسو. انظر ",Kelly Franco -Vietnamese Schools" p. 19".
- 22) عادة ما تُعزى هذه الكتابة، في شكلها النهائي، إلى المعجميّ الموهوب الكسندر دو رودس، الذي نشر في العام 1651 معجمه اللافت Dictionarium annamiticum، lusitanum et latinum.
- 23) "كان معظم الموظفين الكولونياليين الفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر . . مقتنعين بأن تحقيق أواح ولونيالي دائم يقتضي تقليص ضروب النفوذ الصين أشد التقليص، ما في ذلك نظام الكتابة. وغالباً ما نظر المبشرون إلى الفئات الكونفوشية المتعلمة على أنها العقبة الاساسية في وجه تحول فيتنام إلى الكاثوليكية ذلك التحول العام. ولذلك كانوا يرون أنَّ التخلص من اللغة الصينية هو في الوقت ذاته عزل لفيتنام عن إرثها وتحييد للنخبة التقليدية". انظر "Marr, Vietnamese Tradition, p.145"." ويورد كيلي ما يقوله أحد الكتاب الكولونياليين على النحو التالي: "في الواقع، إنّ تعليم الـ كواك نغو وحدها الى وحدها . . سوف يؤدي إلى إيصال الكتابة الفرنسية، والأدب الفرنسي، والفلسفة الفرنسية وحدها إلى الفيتناميين، وهذا ما نود [أن يكونوا عرضة له]. فتلك هي [الأعمال] الي نرى أنها مفيدة لم ويسهل استيعابها: تلك النصوص الي نترجها إلى الـ كواك نغو ليس غير". انظر "Schools, p. 22".
- 24) انظر المصدر السابق، ص 14-15. أما الشريحة الدنيا، الواسعة من سكان المند الصينية فقد حثّهم الحاكم العام ألبرت ساروت (واضع قانون التعليم العام في 1917) على "تعليم بسيط، مقتصر على الاساسيات، يتيح للطفل أن يتعلم كل ما هو مفيد له أن يعرفه في عمله المتواضع كمزارع أو صانع لكي يحسن ظروف وجوده الطبيعية والاجتماعية". المصدر السابق، ص 17.
- 25) في العام 1937، كان إجمالي الطلاب المسجلين 631، وكان 580 منهم في كلين الحقوق والطب. المصدر السابق، ص 79؛ وانظر أيضًا الصفحات 69-79، الن تروي تاريخ هذه المؤسسة الغريب، حيث تأسست عام 1906، وأغلقت عام 1908، وأعيد فتحها عام 1918، ولم تكن قطّ، حتى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، أكثر من مدرسة مهنيّة يُرْغَم أنها جامعة.
- 26) كما أنن ساركّز أدناه على الخمير والفيتناميين، فقد يكون هذا هو المكان المناسب لكي أشير بإكاز إلى بعض اللاوسيين البارزين. فرئيس وزراء لاوس الحالي، كايسون فومفيان التحق بكلية الطب في جامعة هانوي في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين. ورئيس الدولة، الأمير سوفانوفونغ، تخرج من مدرسة

ألبير ساروت في هانوي قبل حصوله على درجة في المندسة من فرنسا. وأخوه الأكبر، الأمير فيتسارات راتانافونفسا، الذي رأس حكومة لاووس الحرّة التي لم تعش طويلاً فيفينتيان من تشرين الأول 1945 إلى نيسان 1946، كان قد تخرج في شبابه من ثانوية شاسيلوب-لوبا في سايفون. وقبل الحرب العالمية الثانية، كانت المؤسسة التعليمية الأرفع في "لاوس" هي كلية بافي الصغيرة في فينتيان [وهي مدرسة عليا للشباب. وانظر "Joseph J. Zasloff, Pathet Lao, pp. 104-105". وانظر أيضًا "Joseph J. Zasloff, Pathet Lao, pp. 104-105" وهذا الرقم "3349" هو الاسم الحركي لفيتسارات راتانافونفسا] وعا له دلالته، في اعتقادي، أن هذا الأخير في روايته أيام دراسته الأخيرة في باريس، لا ين يتكلم بصورة منتظمة وغير واعية عن رفاق صفه اللاوسيين، والخمير، والفيتناميين على أنهم "الطلاب المندوصينيين". المصدر السابق، ص 14-15.

27) هكذا جرى في 1917-1918 إقامة "قسمين عليين" في ثانويي شاسيلوب-لوبا وألبير ساروت اللتين كانتا "موحّدتين" في السابق. وهذان "القسمان الحليان" تحولا على التوالي في النهاية إلى ثانوية بتروكي وثانوية الحميّة (المصدر السابق، ص 60-63). ومع ذلك، فقد واصلت اقلية من الـ indigènes الحظوظين الالتحاق بالمدارس الفرنسية "الحقيقية" (مثل الأمير نوردوم سيهانوك الذي درس في مراهقته في شاسيلوب-لوبا)، في حين أنّ أقلية من "الفرنسيين" (بصورة أساسية أوراسيين وعليين ذوي مكانة قانونية كالفرنسيين) التحقت ببتروكي ومؤسستها الشقيقة في هانوي.

28) يلاحظ مار أنه في عشرينيات القرن العشرين "حتى العضو الأكثر تفاؤلاً بين أعضاء الإنتلجنسيا [التي تكتب بالـ كواك نفو] ما كان يمكن أن يحمّن أنّه بعد عقدين وحسب، سيكون مواطنو جهورية فيتنام الديمقراطية قادرين على القيام بجميع شؤونهم المامة –السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والعلمية، والاكاديمية، بالفيتنامية المنطوقة المرتبطة بنظام كواك نغو الكتابي". انظر كتابه (Tradition, p. 150). ولقد شكّل ذلك مفاجأة غير سارة للفرنسيين.

29) من المفيد أن نعلم أنَّ واحدة من أولى القضايا التي طرحها القوميون الخمير الأوائل في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين هي "التهديد" الذي عِثَله تجويل السلطات الكولونيالية الكتابة الخميرية إلى الـ كواك نغو.

30) لم غُر اتّباع هذا النموذج مباشرة في فينتيان. ويشير توي إلى أنه في سياق ثلاثينيات القرن العشرين لم يتخرج سوى 52 لاوسي من مدرسة بافي [التي يطلق عليها اسم Lycée، أو مدرسة ثانوية، خطأ]، بعكس الفيتناميين الذين تخرج منهم 96. انظر " Laos, p. 40".

31) ركما يكون هذا التدفق قد توازى مع تأسيس النظام المدرسي الفرانكو - فيتنامي، من حيث أنّه حاد بالفيتناميين عن منافسة الرعايا الفرنسيين في أجزاء المند الصينية الشرقية، الأكثر تقدماً. وفي العام 1937، كان هناك 39000 أوروبي يعيش في "الصين الكوشينية"، و "أنّام"، و "تونكين"، ولم يكن هناك سوى 3100 في "كمبودج" و "لاوس" معاً. انظر "Marr, Vietnamese Tradition, p. 23".

32) المواد المتعلّقة بسيرة هؤلاء الرجال تلطّف بتقديمها إليّ ستيف هيدر.

33) توفّي عام 1950، في هجوم بالقنابل على مقرّات الحزب الديمقراطي نظّمته يدُ مجهولة، لكنّها قد تكون يدُ أميرية.

34) نشرته مكتبة الأصدقاء الأحرار في فنوم بنه، وكلمة "مضلَّل" هنا تعود إلى أنّ النصّ برمّته بالخميرية.

أما تفاصيل سيرة إيو كويوس، المستمدة من الكتاب الصادر عام 1964 مناسبة ذكرى إحراق جثّته، فقد تكرّم بتمريرها إلى ستيف هيدر.

35. See Kahin, Nationalism, Chapter 12; Anthony Reid, The Indonesian National Revolution, 1945-50, chapter 6; and Henri Alers, Om een rode of groene Merdeka, passim.

36) عَثَلَ الاستثناء بممهورية مولوكاس الجنوبية الجهيضة. فالأمبونيين المتحولين إلى المسيحية لطالما كانوا يُختَدون في الجيش الكولونيالي القمعي ذلك التجنيد الكثيف. وكثير من هؤلاء قاتل تحت قيادة فان موك ضد الجمهورية الإندونيسيا في 1950، كان لدى هؤلاء ما يدفعهم لأن يتوقعوا مستقبلاً غير سار.

37) انظر ذلك الوصف القيّم في "A Foreign Investment: Indies Malaya to 1902'," في القيّم في القيّم (37). "Indonesia 27, (April 1979), pp. 65-92

38) شكّل الجيش "شيئاً أشبه بـ الطائفة اللاقومية، التي عاش أفرادها حتى في حيواتهم الخاصة، على غو عير عن بيئاتهم القومية وغالباً ما كنوا يتحدثون لغة خاصة، هي "الألمانية المالية"، التي تُعيّت بهذا الأسم بقصد السخرية من قبل أنصار الألمانية الأدبية، وعنوا بذلك خليطاً لغوياً غريباً لا يأخذ القواعد النحوية على محمل الجدّ. انظر "Jaszi, The Dissolution, p.144".

39) ليس بالمعنى الواضح وحسب. لأن هولندا، لمقاصد وأغراض شتى، لم يكن لديها سوى مستعمرة واحدة، وهي مستعمرة ضخمة ومربحة كثيرًا على هذا الصعيد، كان من العملي تماماً أن تدرّب موظفيها في المتوبول لكي تُعِدّ فوروبي. وبرور الزمن، ظهرت مدارس وكليات خاصة في المتروبول لكي تُعِدّ موظّفيّ المستقبل لغوياً. أمّا بالنسبة للإمبر اطوريات متعددة القارات كالإمبر اطورية البريطانية فما كان من المكن له diensttaal واحد محلي أن يكون كافياً.

(40) إنّ وصف مار للتطور اللغوي في المند الصينية الشرقية موح كثيرًا بهذا الصدد. فهو يلاحظ انّه في أواخر العام 1910 تقرياً "كان معظم الفيتناميين المتعلمين يفترضون أنّ الصينية أو الفرنسية، أو كليهما، هما طريقتان أساسيتان للاتصال "الرفيع". انظر "Vietnamese Tradition, p. 137". غير أنّ الأمور سرعان ما تغيرت بعد العام 1920، وكان أحد أسباب ذلك تشجيع الدولة كتابة الـ كواك نفو الصوتية. ففي ذلك الحين "تنامى الاعتقاد بأنّ الفيتنامية المنطوقة هي مكوّن هام ورما أساسي من مكوّنات الهوية القومية. بل إنّ المثقفين الذين يتقنون الفرنسية أكثر من لغتهم الأم راحوا يقدّرون أهمية الحقيقة اليّ مفادها أنَّ \$85 على الأقل من أبناء بلدهم يتحدثون اللغة ذاتها" (ص 138). ولقد أدركوا أنئذ أشد الإدراك دور التعليم الجماهيري في تقدّم الدول الأمم في أوروبا واليابان. غير أنَّ مار يبيّن أيضًا أنه لم يكن هنالك لفترة طويلة من الزمن أي تعالق واضح بين التفضيل اللغوي والموقف السياسي: "تأييد اللغة الفيتنامية الأم لم يكن أمراً وطنياً بحدّ ذاته، شأنه شأن تشجيع اللغة الفرنسية الذي لم يكن يدل بحدّ ذاته على تواطؤ مع المستعمر أو تعاون معه" (ص 150).

41) أقول "من المكن" لأن من الواضح أنَّ هنالك وَفَرَة من الحالات التي رُفِضَت فيها، وتُرْفَض، هذه الإمكانية. ومثل هذه الحالات، كباكستان القديمة مثلاً، فإنَّ التفسير ليس التعددية الثقافية-الإثنية، بل رحلات الحج المنوعة.

42) انظر "Christopher Hughes, Switzerland, p.107". وهذا النص المتاز، الذي يعبر سيتون - واطسون عن إعجابه به بحقّ، هو أساس النقاش الذي يلي.

- 43) المصدر السابق، ص 218. لقد قمت بإقحام التواريخ بنفسي.
  - 44) المصدر السابق، ص 85.
- 45) إضافةً إلى أراغوس، وسانت غالين وغريسونز. وهذه الأخيرة تحظى بأهمية خاصة اليوم لأنها الوطن الباقي للغة الرومانشية Romansch، وهي اللغة الأكثر سويسرية بين لغات البلاد القومية، غير أنها مكانة لم تحققها إلا في العام 1937! المصدر السابق، ص 59 و 85.
- 46) مكن أن نلاحظ بصورة عابرة أن مدام دوستايل لم تعش لكي ترى ولادتها. وإضافةً إلى ذلك، فإن عائلتها، مثل عائلة سيسموندي، هي من جنيف، التي كانت دويلة مستقلة خارج "سويسرا" حتى العام 1815. فلا عجب إذاً أنَّ القومية السويسرية قد اتَّكات كفة" على عاتق هؤلاء.
- 47) المصدر السابق، ص 173 و 274. كان لا بدّ لاية "طبقة وسطى مثقفة" في القرن التاسع عشر من أن تكون صغيرة جداً.
  - 48) المصدر السابق، ص 86. التشديد لي.
- 49) لقد وَسَم غياب الملكيات أيضًا الرابطة الهانزية، وهي حلف سياسي ضعيف من الإشكالي أن ننسب إليه صفات الدولة أو الأمة.
  - 50) المصدر السابق، ص 274.
  - 51) الصدر السابق، ص 59-60، التشديد لي.
  - 52) نادراً ما يُغفى رفع مكانة الرومانشية عام 1937 هذه الصورة الأصلية.
- 53) كانت بنية هنغاريا الاجتماعية متأخرة أيضًا، لكن الأرستقراطيين الماجيار كانوا وسط إمبراطورية سلالية ضخمة متعددة الإثنيات، لم تشكّل منها جماعتهم اللغوية المرعومة سوى أقلية، وإن تكن أقلية بالغة الأهمية. أما الأوليغارشية الارستقراطية في سويسرا الصغيرة، الجمهورية فلم تكن قطّ مهدّدة على هذا النحو.
- 54) انظر "Marx and Engles, The Communist Manifesto, p. 37". ومَن غير ماركس كان مِكن أن يصف هذه الطبقة الت غيرت العالم بأنها كانت "مُطاردة".

### 8) الوطنية والعنصرية (ص 143-152)

- 1) انظر القطع الموجود في "Nairn, Break-up of Britain, pp. 14-15"، وقول هوبسباوم المنطوي على انظر (Some) من التبسيط: "الحقيقة الأساسية [هي] أن الماركسيين كماركسيين ليسوا قوميين"، انظر (Reflections, p. 10).
- 2) هل مكن للقارئ أن يذكر مباشرة ولو ثلاث من ترنيمات الكراهية؟ إنّ للقطع الثاني من حفظ الله المكة/ لللكة/ لللك مكتوب على ذلك النحو الدال: "أيها الربّ إلهنا، انهض/ شتّت أعداءها/ أعداءها/ واجعلهم يخفقون؛/ أصب بالخزي سياساتهم،/ أحبط حيلهم الماكرة؛/ أمالنا معلقة عليك؛/ ليحفظنا الله جيعاً". لاحظوا أنَّ هؤلاء الأعداء لا هوية لهم ومكن أن يكونوا من الإنغليز كما يمكن أن يكونوا أي أحد أخر لأنهم أعداؤها/ أعداؤه وليسوا "أعداءنا". والنشيد برمّته تسبيحٌ محمد الملكيّة، وليس محمد الامّة/ أمّة ما، حيث لا تُذكر هذه الأخيرة قط.
- 3. See Jaime C. de Veyra, El "Último Adiós" de Rizal: studio critico Expositivo, pp. 29-

90, and 101-102 (the translation).

- 4) غير أنها سرعان ما تُرْجَمَت إلى لغة التاغالوغ من قِبَل الثوري الفيليبين العظيم أندريس بونيفاشيو.
   وتوجد هذه الترجة في المصدر السابق، ص 107-109.
- 5) لا ينبغي لهذه الصياغة بأي حال من الأحوال أن تؤخذ على أنَّ الحركات الثورية لا تسعى وراء أهداف مادية. لكن هذه الأهداف لا يُنْظَر إليها كمجموعة من المكتسبات الفردية، بل على أنها الشروط الضرورية لما يدعو إليه روسو من bonheur [سعادة] مشتركة.
  - أ) "النزاب للزاب، الرماد للرماد، الغبار للغبار"، من كتاب الصلوات (ث د).
- 6) قارن هذه الجوقة الكورالية الي تنشد بلا آلات موسيقية بلغة الحياة اليومية، الي عادةً ما كُتتر على أنها حوار وتبادل على طريقة الجوقة المنقسمة فريقين.
- ب) المارسيليز Marseillaise هو النشيد الوطن الفرنسي، وفالسنغ ماتيلدا Waltzing Matilda اغنية شعبية أسترالية بالغة الشهرة لدرجة أنه يُشار إليها على أنها النشيد الوطن غير الرسمي لاستراليا، أما إندونيسيا رايا Indonesia Raya فهو النشيد الوطن الإندونيسي (ث د).
- ج) عادةً ما يُطلَق اسم الآباء الحجّاج (Pilgrim Fathers) على مستوطي مستعمرة بليموث الأوائل الذين كانوا قد فرّوا من إنغلترا، لأسباب دينية، إلى هولندا أولاً ثم إلى أميركا الشمالية حيث أسسوا مستعمرتهم عام 1620 وعانوا الكثير لدرجة أنَّ قصتهم صارت موضوعاً أساسياً في تاريخ الولايات المتحدة وثقافتها (ث د).
- 7. "The Burial of Sir John Moore", in The Poems of Charles Wolf, pp.1-2.
- 8) انظر "the probable Meridian of time". وبشأن "found in Norfolk, pp. 72-73"، قارن مع الأسقف أوتو الفريسنفي.
- 9) لكن "إنغلترا" لا تُذْكر بين هذا الجَمْع. وهذا يذكّرنا بتلك الصحف الإقليمية اليّ جلبت العالم كلّه، عبر الإسبانية، إلى كاراكاس وبوغوتا.
- 10. Tjerita dari Blora, pp. 15-44, at p. 44.
- 11) أصغوا إلى هذه الكلمات! لقد عدّلت التهجئة الأصلية بحيث تتماشى مع العرف الحالي ولكي أجعل المقبوس برمّته مسألة صوتية.
- د) (gooks) كلمة مهينة أشد الإهانة كان يطلقها الأميركيون على أبناء الشرق الأقصى، خاصة الفيتناميين، وتعي الوسخ والقذارة، و(ratons) مثلها كان يطلقها الفرنسيون على أبناء شمال إفريقية، خاصة الجزائريين، وتعي فئران (ثد).
- 12) والمنطق الذي يقف خلف مثل هذه الرطانات هو على النحو التالي: 1- سوف أموت قبل أن يُتاح لي اختراق لغتهم. 2- إني أملك من القوة ما يجبرهم على أن يتعلموا لغيّ. 3- لكن ذلك يعي اختراق خصوصين. وتعتهم بأنهم "gooks" هو بجرد ثأر بسيط.
- 13. The Break-up of Britain, pp. 337 and 347.
- 14) لاحظوا أنه ما من مقابل واضح وواع لكلمة "مائل". فهل تشكّل كلمة "مدوّر" مثل هذا المقابل؟ أم أنها "مستقيم"؟ أم "بيضوي"؟.
- هـ) Charlie و V.C، لفظتان تنطويان على إهانة كان يُشار بهما إلى الفيتكونغ. و الـ Boches، فهي

لفظة مهينة يشير بها الفرنسيون إلى الألمان. والـ Huns، هي أيضًا لفظة تُستخدَم كإهانة للألمان، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وهي مستمدَّة من الهان، وهم شعب بدوي رعوي غزا أوروبا في القرنين الرابع والخامس. أما الـ Japs، فلفظة تُستخدَم كإهانة لليابانيين، في حين تُستخدَم الـ Frogs لإهانة الفرنسيين (ث د).

15) في الحقيقة، ليس في حقبة أسبق وحسب. فثمة نفحة من دكان الانتيكات تصدر عما يقوله رئيس دوبريه: "لا يسعي أن أتصوّر أيّ أمل لأوروبا إنْ لم يكن نحت هيمنة فرنسا الثورية، التي تحسك راية الاستقلال بقوة. وإني لاتساءل في بعض الأحيان إن لم تكن الاسطورة "المناهضة لـ Boche" وعداؤنا العلماني لالماني لالماني لالمانيا سيغدوان ذات يوم لا غنى عنهما لإنقاذ الثورة، أو حتى لإنقاذ إرثنا الديمقراطي -القومي". انظر "Marxism and National Question, p. 41".

16) تكمن أهمية ظهور الصهيونية وولادة إسرائيل في أنَّ الأول تَسِمُ إعادة تخيّل جماعة دينية قومية بوصفها أمّة، لها وجودها بين الأمم الأخرى، في حين تشير الثانية إلى تغيّر خيميائي من المؤمن التائه إلى الوطنّ المقيم.

17) "ومن طرف أرستقراطية الأرض جاءت تصورات التفوق الموروث لدى الطبقة الحاكمة، وحساسية المنزلة، وهي تعات ظلّت بارزة وصولاً إلى فترة متقدمة من القرن العشرين. وباغتذاء هذه التصورات من منابع جديدة، أمكن لها لاحقاً أن تغدو أشد سوقيّة [كذا] وأن تروق للشعب الألماني ككل في Barrington Moor, Jr., Social Origins of Dictatorship and "عقائد التفوق العرقي". انظر "Democracy, p. 436".

18) تواريخ غوبينو لهل دلالتها الكاملة. فقد وُلِدَ عام 1816، بعد عامين من عودة البوربون إلى عرش فرنسا. وبرز في مهنته الدبلوماسية، بين 1848-1877، في ظلّ إمبراطورية لوي نابليون الثانية ونظام ماري إدمي باتريس موريس، والكونت دو ماكماهون، القنصل الإمبريالي السابق في الجزائر، ذلك النظام الملكي المرجعي. أمّا كتابه مقالة في عدم تساوي الأعراق البشرية فقد ظهر عام 1854: هل يُفْتَرَض بنا أن نقول إن ذلك كان ردّاً على ثورات 1848 القومية الشعبية المناصرة للفّة الحلية؟

19) لم تقف عنصرية جنوب إفريقية، في عصر فورستر وبوتا، في طريق العلاقات الودية مع السياسيين السود البارزين في بعض الدول الإفريقية المستقلة (مهما يكن الحذر في تلك العلاقات). وإذا ما كان اليهود قد عانوا من التميير في الأنحاد السوفياتي، فإن ذلك لم كل دون قيام علاقات عمل محترمة بين بركينيف وكيسنجر.

د) اللوحة الحية، tableau vivant، تعبير يشير إلى مشهد يقدّمه على الخشبة عثلون يرتدون الأزياء
 المناسبة لكنهم يبقون صامتين وبلا حراك كما لو أنهم في لوحة أو صورة (ث د).

20) يُكن للقارئ أن يُحد مجموعةٌ مدهشةٌ من صور مثل هذه اللوحات الحيّة في الإنديز المولندية (مع نصّ ساخر تلك السخرية الانيقة) في ""E. Breton de Nijs", Tempo doeloe".

21. George Orwell, "Shooting an Elephant" in The Orwell Reader, p. 3. The words in square brackets are of course my interpolation.

22) كان (Koninklijk Leger, المنفصلاً عَاماً عن (Koninklijk Nederlandsch - Indisch Leger, KNIL) في هولندا. ومنذ البداية تقريباً، كان الـ Légion Étrangère عنوعاً قانونياً من القيام بعمليات على الأرض الفرنسية في قارة أوروبا.

23. Lettres du Tonken et de Madagascar (1894-1899), p. 84. letter of December 22, 1894, from Hanoi.

24) انظر "Bernard B. Fall, Hell is a Very Small Place: The Siege of Dien Bien Phu, p. 56" انظر عِكن للمرء أن يتخيّل شبح كلاوسفيتز وهو يرجّف. [السباهي كلمة عثمانية الاصل كانت تعي فرسان "الجيش الثاني" من المرتزقة غير النظاميين في الجزائر]. صحيحُ أنَّ فرنسا ليوتي ودولاتر كانت فرنسا جهورية. إلا أنَّ الـ Grande Muette ( الخرساء العظيمة) الثرثارة في الغالب كانت منذ بداية الجمهورية الثالثة مأوى للأرستقر اطيين النين كانوا يُقْصون عن السلطة على نحو متزايد في جيع مؤسسات الحيات العامة المهمة الأخرى. وفي العام 1898، كان ربع العمداء والألوية من الأرستقراطيين. بل إنَّ سلك الضباط هذا الذي سيطر عليه الارستقراطيون كان حاساً بالنسبة للإمبريالية الفرنسية في القرنين التاسع عشر والعشرين. "إنَّ السيطرة الحازمة المفروضة على الجيش في المتروبول لم تمتدّ قط ذلك الامتداد الكامل لتطال فرنسا ما وراء البحار. ويعود جزء من توسّع الإمبراطورية الفرنسية في القرن التاسع عشر إلى مبادرة منفلتة قام بها القادة العسكريون في المستعمرات. فغرب إفريقية الفرنسي هو إلى حدِّ بعيد من صنع الجنرال فيديرب، وتدين الكونفو الفرنسية بقسط كبير من امتدادها إلى الفزوات العسكرية المستقلة الي كانت تستهدف الداخل. وضباط الجيش هم المسؤولون أيضًا عن سياسات الأمر الواقع الت أدت إلى جعل تاهين محمية فرنسية في العام 1842، كما أدت بدرجة أقل، إلى احتلال فرنسا تونكين في المند الصينية في غانينيات القرن التاسع عشر . . وفي العام 1897 ألغي غاليين الملكية في مدغشقر دوغا إبطاء وقام بترحيل اللكة، كلّ ذلك دون أن يستشير الحكومة الفرنسية، اليّ قبلت لاحقاً هذا الأمر الواقع ...".. انظر politics, 1945-1962, pp." انظر ...".. انظر ."10-11 and 22

25) لم أسمع قط بأي كلمة بنينة تشير إلى "المولنديين" أو "البيض" سواء في الإندونيسية أو الجاوية، بخلاف ذلك الكنز من الكلمات الأنجلوساكسونية البنيئة: niggers [لإهانة الرنوج]، wops [لإهانة الإيطاليين]، ذلك الكنز من الكلمات الأنجلوساكسونية البنيئة: gooks, slants، fuzzywuzzies [لإهانة السودانيين، والرنوج عموماً]، ومئات غيرها. ولعلّ هذا الخلو من الرطانات العنصرية يصحّ بالدرجة الأولى على الشعوب المستعمرة. أما السود في أميركا – وفي غير مكان من دون شك – فقد طوروا معجماً مضاداً متنوعاً (honkies، ofays) [كلتاهما تستخدمان في إهانة البيض]، إلخ).

26) ورد هذا في العام (26 Philippines, 1840-1910, p. 218). دامت جهورية ساكاي الثورية حتى العام 1907، حين أسره الأميركيون وأعدموه. ولكي نفهم الجملة الأولى ينبغي أن نتذكّر أنّ ثلاثة قرون من الحكم الإسباني والهجرة الصينية كانت قد أنتجت شعباً مختلطاً ضخماً في تلك الجزر.

# 9) ملاك التاريخ (ص 153-158)

- 1) انظر الصفحتين 17-18. التشديد لي. والمقبوس داخل هذه الفقرة هو من كتاب "Charles". Frederick Strong, Modern Political Constitutions, p. 28.
- أ) إشارة إلى الهزائم المنكرة التي أنزلها القائد العسكري الألماني هندنبرج ورئيس أركانه لودندورف بالروس

في بداية الحرب العالمية الأولى في تاننبرغ ثم عند البحيرات المازورية. ومن المعروف أنَّ ثُمَّة علاقة وثيقة بين ثورة أكتوبر البلشفية والحرب العالمية الأولى (ث د).

2) تبعاً لحسابات إدون ويلز، على أساس الجدول 9 في النتائج النهائية لتعداد السكان لعام 1962 التي أصدرتها وزارة التخطيط والمعهد الوطن للإحصاء والأنجاث الاقتصادية في كمبوديا. ويقسم ويلز بقية السكان العاملين على النحو التالي: موظفون حكوميون وبرجوازية صغيرة جديدة 8% ؛ برجوازية صغيرة تقليدية (حرفيون، إلخ) 7.5%؛ بروليتاريا زراعية 1,8%؛ فلاحون 78,3%. ولم يكن هناك سوى أقل من 1300 رأتالي علكون مشاريع مانيفاكتورية فعلية.

3. Vietnam and the Chinese Model, pp. 120-21.

4) وهذا ليس بالدهش عاماً. ذلك أنَّ "البيروقراطي الفيتنامي كان يبدو صينياً؛ والفلاح الفيتنامي كان يبدو من جنوب شرق آسيا. وكان على البيروقراطي أن يكتب الصينية، ويرتدي الأرواب صينية الطراز، ويركب عَمْلاً صين الطراز، بل ويتبع الأمزجة والطرائق الصينية في الاستهلاك اللافت، كاحتفاظه ببركة للاساك الذهبية في حديقته الجنوب شرق آسيوية". المصدر السابق، ص 199.

5) بحسب إحصاء العام 1937، فإن 93-95% من السكان الفيتناميين كانوا لا يزالون يعيشون في مناطق ريفية. ولم تكن نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة بأية لغة تتجاور 10% من السكان. ولم يتجاوز عدد الذين أكملوا الابتدائية العليا (الدرجات من 7-10) يتجاوز 20000 بين 1920 و1938. وما دعاه الماركسيون الفيتناميون باسم "البرجوازية الحلية" -التي وصفها مار بأنها تتألف أساساً من ملاك الأرض الغائبين، إلى جانب بعض المقاولين وقلّة قليلة من الموظفين الذين يشغلون مناصب عليا - لم تكن تشكّل الانتناميون حوالي 10500 عائلة، أو حوالي 5.0% من السكان. انظر ",Victnamese Tradition ق ألهامش 2 أعلاه.

6) وكما هو الحال بالنسبة للبلاشفة، كان غة كوارث ميمونة: بالنسبة للصين، الغزو الياباني الكثيف عام 1937؛ بالنسبة لفيتنام، انهيار خط ماجينو واحتلالها القصير من قِبَل اليابان؛ بالنسبة لكمبوديا، التسرب الكثيف الذي راحت تتسرّبه الحرب الاميركية على فيتنام داخل مناطقها الشرقية بعد أذار 1970. ولقد تقوّض النظام القديم في كل حالة من هذه الحالات، سواء كان نظام الكومنتانغ أم نظاماً استعمارياً فرنسياً، أم نظاماً ملكياً إقطاعياً، بفعل قوى خارجية.

ب) أنكور مدينة تقع في أعماق الغابات في وسط كمبوديا، ومعابدها التي تعود إلى إمبراطورية الخمير القديمة من أشهر المواقع التاريخية في العالم، وأبرزها على الإطلاق معبد أنكور وات الذي بناه سريافرمان الثاني. وقد ازدهرت إمبراطورية الخمير لمدة 600 عام من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت حضارة متطورة للغاية، كما يتضح من أكثر من ألف معبد ونظام معقد للري في منطقة أنكور (ثد).

7) قد يشير المرء بـ "نعم" للتجنيد الجماعي (levée en masse) والإرهاب (Terror)، وبـ "لا" للترميدور والبونابرتية، بالنسبة لفرنسا؛ "نعم" لشيوعية الحرب، والتجميع، ومحاكمات موسكو، "لا" للنيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) ونزع الستالينية، بالنسبة للاتحاد السوفياتي؛ "نعم" لشيوعية حرب العصابات الفلاحية، والقفزة الكبرى إلى الأمام، والثورة الثقافية، "لا" لمؤتمر لوشان، بالنسبة للصين؛ "نعم" لثورة أب والتصفية الرحية للحزب الشيوعي في الهند الصينية عام 1945، "لا" للتنازلات المؤنية الممنوحة للاحزاب الشيوعية "الكبرة" والن شكّلت اتفاقيات جنيف مثالاً عليها، بالنسبة لفيتنام.

- 8) انظر الوصف الاستثنائي، وغير السجاليّ بأي حال من الأحوال، في "Milovan Djilas, Tito: the". Story from Inside, Chapter 4, especially pp. 133 ff
- ج) روريتانيا، Ruritania، بلد خيالي أبدعه أنطوني هوب، صاحب رواية سجين زندا، وشكّل الخلفية التي تجري عليها أحداث هذه الرواية وسواها من روايات هوب وعدد من الكتّاب الأخرين. بل إنَّ الصفة روريتاني صارت تُقْرَن إلى جنس قصصي يُعْرَف بالرومانسيات الروريتانية، فضلاً عن استخدامها في الإشارة إلى ما هو افتراض وخيال (ث د).
- د) لهذه الكلمة الروسية المعنى الذي لكلمة "قومية" أو "nationality"، إنَّا بارتباط أكبر مع الإثنية والعرق، ولذلك فهي أقرب إلى الجنسية والتجنيس (ثد).
- 9) من الواضح أنَّ النزعات التي رسمنا خطوطها العامة أعلاه لا تَيْرِ الانظمة الماركسية الثورية وحدها بأي حال من الاحوال. وما يدفع إلى التركير على مثل هذه الانظمة هنا هو الالتزام الماركسي التاريخي بالاعمية البروليتارية وبتدمير الدول الإقطاعية والرأسالية، ثم الحروب المندوصينية الجديدة. وعد القارئ تفسيراً لم يشتمل عليه نظام سوهارتو اليمين في إندونيسيا من أيقونات ورموز قدعة في كتابي "Language and".

  \*\*Power: Exploring Political Cultures in Indonesia, chapter 5
- 10) الفرق بين اختراعات "القومية الرسمية" واختراعات الأغاط الأخرى هو عادة كالفرق بين الأكاذيب والأساطير.
- 12) من جهة أخرى، لعلّه من الممكن للمؤرخين في نهاية هذا القرن أن ينسبوا جرءاً غير قليل من ضروب الإفراط "القومية الرسمية" التي ارتكبتها الأنظمة الاشتراكية ما بعد الثورية إلى التنافر بين النموذج الاشتراكي والواقع الزراعي.
- 12) انظر "Illuminations, p. 259". عين الملاك هي عين كاميرا متحركة قادرة على الالتفات إلى الوراء، وأمامها يتجمع مؤقتاً حطام فوق حطام على طريق سريع لا نهاية له قبل أن يُتفي عند الأفق.

# 10) التعداد، الخارطة، المتحف (ص 159-174)

1) انظر الفقرة الثانية من الفصل السابع.

أ)تشكّلت هذه المستوطنات عام 1826 يُجمع مستوطنات سنغافورة (ومعها مجموعة جزر كريسماس وكوكوس كيلينغ) وبنانغ (ومعها مقاطعة ولسيلي) وملقا. وفي 1912 غدت لوبوان المستوطنة الرابعة. كانت هذه المستوطنات تحت سيطرة شركة المند الشرقية البريطانية ثم أديرت مباشرة من قبل الإدارة البريطانية. وفي الحرب العالمية الثانية احتلتها اليابان. وفي 1946 تفككت ومضى كلٍّ في سبيله الخاص (ث د).

- 2. Charles Hirschman, 'The Meaning and Measurement of Ethnicity in Malaysia: An Analysis of Census Classifications', J. of Asian Studies, 46:3 (August 1987), pp. 552-82; and "The Making of Race in Colonial Malaya: Political Economy and Racial Ideology", Sociological Forum, 1:2 (spring 1986), pp. 330-62.
- 3) كان غة تشكيلة مدهشة من "الأوروبيين" الذي يحري تعدادهم طوال الحقبة الكولونيالية. غير أنهم في حين كانوا لا يزالون يُصَنَّفون في العام 1881 عَت عناوين مثل "مقيم"، و"عابر"، و"سجين"، باتوا في العام 1911 يُحمون معا بوصفهم أفراد "عرق (أبيض)". ومن المتفق عليه أنَّ القائمين على التعداد

كانوا في حيرة من أمرهم بشأن المكان الذي يضعون فيه أولئك الذين يَسِمونهم بـ "اليهود".

4. William Henry Scott, Cracks in the Parchment Curtain, chapter 7, "Filipino Class Structure in the Sixteenth Century".

5) في النصف الأول من القرن السابع عشر، تعرّضت المستوطئات الإسبانية في الأرخبيل لهجوم متكرر كانت تشنّه عليها قوات الـ Vereenigde Oost-Indische Compagnie [شركة المند الشرقية المتحدة]، أكبر شركة عظمى "عابرة للقوميات" في تلك الحقبة. ويدين المستوطنون الكاثوليك الاتقياء بقسط كبير من بقائهم على قيد الحياة إلى الحامي الكافر القديم، الذي أبقى ظهر أمستردام إلى الحائط خلال شطر كبير من حكمه. ولو أفلحت شركة المند الشرقية المتحدة، ربما لغدت مانيلا، وليس باتافيا [جاكرتا] هي مركز الإمبراطورية "الهولندية" في جنوب شرق أسيا. وفي العام 1762، أخذت لندن مانيلا من إسبانيا، واحتفظت بها ما يقارب السنتين. ومن اللافت أن نلاحظ أن مدريد لم تستعدها إلا مقابل فلوريدا، والمتلكات "الإسبانية" الأخرى شرق المسيسي، من بين الأماكن جيعاً. ولو سارت المفاوضات على عو ختلف، لأمكن للأرخبيل أن ير تبط سياسياً باللايو وسنغافورة خلال القرن التاسم عشر.

6. Mason C. Hoadly, "State vs. Ki Aria Marta Ningrat (1696) and Tian Siangko (1720-21) (unpublished ms., 1982).

7. See e.g., Edgar Wickberg, The Chinese in Philippine Life, 1850-1898, chapter 1 and 2.

 8) كانت السفن التجارية تبادل الحرير والبورسلين الصينيين بالفضة المكسيكية، وكانت مانيلا غزن هذه التجارة لاكثر من قرنين.

- 9) انظر الفصل السابع، حيث بحري الكلام على ما بذلته الكولونيائية الفرنسية من جهود لفصل البوذية
   ف كمبوديا عن روابطها القديمة مع سيام.
- 10. See William Roff, The Origins of Malay Nationalism, pp. 72-4.
- 11. See Harry J. Benda, The Crescent and Rising Sun, Chapter 1-2.
- ب) الخارطة المركاتورية، The Mercatoria map، هي خارطة تظهر فيها خطوط الطول والعرض على شكل خطوط مستقيمة وليست منحنية (ث د).
- 12. Thongchai Winichakul, "Siam Mapped: A History of the Geo-Body of Siam" (Ph.D. Thesis, University of Sydney, 1988).
  - ج)أداة لقياس الزوايا، كانت تُستخدّم في الإبحار أو رصد النجوم (ث د).
- 13. Richard Muir, Modern Political Geography, p. 119.
- 14. Thongchai, "Siam Mapped", pp. 105-10, 286.
- 15) عبد القارئ في الفصل الأول من كتابي Language and Power مناقشةً مفصّلة للتصوّرات القديمة عن السلطة في جاوة (والتي تتماشى، مع اختلافات بسيطة، مع التصورات التي وُجدت في سيام القديمة).

  16. Thongchai, "Siam Mapped", p. 110.
- . 17. David S. Landes, Revolution in Time: Clocks and Making of the Modern World, chapter 9.
  - 18. "Siam Mapped", p. 310.
  - 19) لا أعن وراثة الملكية الخاصة للأرض وبيعها بالمعنى المعتاد وحسب. فالأهم من ذلك ما كان عارسه الأوروبيون من نقل سياسي لملكية الأرض، مع سكّانها، عن طريق الزيات الملكية. فالأميرات، عند الزواج، كنّ يجلبن لازواجهنّ دوقيات وإمارات صغيرة، ومثل هذه الضروب من نقل الملكية كان يجري التفاوض

عليها و"تُوَقّع". وما كان لأية دولة في آسيا قبل الكولونيالية أن تتصوّر القول المأثور: ,Bella gerant alii tu, felix Austria, nube [فليشعل الأخرون الحروب، أما أنت أيتها النمسا الحظوظة، فتزوجي].

20) انظر "Thongchay, "Siam Mapped", p. 387." حيث يتناول استيعاب الطبقة الحاكمة هذا النمط من التخيّل. و "علاوة على ذلك، وتبعاً لهذه الخرائط التاريخية، لم يعد المتن الجغرافي خاصيّة حديثة بل دُفِعَ إلى الوراء اكثر من ألف عام. هكذا تساعد الخرائط التاريخية على رفض أي اقتراح يقول إنّ الانتماء إلى أمة لم يظهر إلا في الماضي القريب، وعلى استبعاد المنظور الذي يرى أنّ سيام الحالية كانت نتيجة لضروب من الشقاق. وكذلك أية فكرة مفادها أنّ سيام كانت غرة الاتصال بينها وبين القوى الاوروبية".

21) لم يكن هذا التبي خدعة ميكافيللية بأي حال من الأحوال. فقد كان لدى القوميين الأوائل في مستعمرات جنوب شرق أسيا جيعها وعيهم الذي شكلته بعمق "صيفة" الدولة الكولونيالية ومؤسساتها. انظر الفصل السابع.

22) عكن للمرء أن يرى في كتابات نِكْ يواكين، الأديب الفيليبيني البارز المعاصر والوطن بلا شكّ، كيف يؤثّر الشعار بقوة حتى على العقول الأشدّ صَقْلاً. يكتب يواكين عن الجنرال أنطونيو لونا، البطل التراجيدي الذي خاض الكفاح ضد الأميركيين 1898-1899، أنه هُرعَ لكي "يؤدي الدور الذي بات غريزياً في الكريول على مدى ثلاثة قرون: الدفاع عن شكل الفيليبين في وجه هرّب أجني". انظر (والتشديد لي) "A على مدى ثلاثة قرون: الدفاع عن شكل الفيليبين في وجه هرّب أجني". انظر (والتشديد لي) "A الفيليبينين ، من متنصّرين ومرتزقة، الذين أرسلوا ضد الثائر الفيليبين لعلّهم أبقوا الأرخبيل إسبانيا ومسيحياً، لكنهم حالوا أيضًا بينه وبين التفكك"؛ وأنّهم "كانوا يقاتلون (بصرف النظر عن نوايا الإسبان) للحفاظ على وحدة الفيليبين". المصدر السابق، ص 58.

 د) المقصود هنا هو الروائي الإنغليزي، البولوني الأصل، جوزيف كونراد وما يشير إليه في روايته قلب الظلام من فضاءات فارغة على الخارطة (ثد).

23. Robin Osborne, Indonesia's Secrete War, The Guerrilla Struggle in Irian Jaya, p. 8-9. (24) شهدت غينيا الجديدة الغربية (وقد صارت تدعى إيريان جايا؛ أي إيريان العظمى) كثيرًا من الحوادث (24) شهدت غينيا الجديدة الغربية (وقد صارت تدعى إيريان جايا؛ أي إيريان العظمى) كثيرًا من الحوادث الدموية منذ العام 1963، وفي جزء آخر إلى نشاطات حرب العصابات الفاعلة المتقطّعة التي تمارسها منظمة تحرير بابوا، غير انَّ هذه الضروب من القسوة تبهت بالمقارنة مع وحشية جاكرتا في تيمور الشرقية البرتغالية سابقاً، حيث يُقدِّر أنُّ ثلث السكان البالغ تعدادهم 600000 قد قتلوا في السنوات الثلاث الأولى من غرو العام 1976 بسبب الحرب والجاعة والمرض و "إعادة التوطين". ولا أحسب من الخطأ أن نشير إلى أنَّ الفارق يعود في جزء منه إلى غياب تيمور الشرقية عن ضروب اللوغو الخاصة بالإنديز الشرقية المولندية، وكذلك، حتى العام 1976، عن تلك الخاصة بإندونيسيا.

25. Osborne, Indonesia's Secret, p. 2.

26) انظر أعلاه، آخر الفصل السادس.

27) وأفضل علامة على هذا هي أنَّ اسم المنظمة القومية المناهضة لإندونيسيا واليّ تخوض حرب المصابات، أورغانيزاسي بابوا ميرديكا، مؤلِّف من كلمات إندونيسية.

هـ) السّر وليم جونز (1746-1794) لغوي ودارس لتاريخ الهند القديم، اشتُهر بطرحه وجود علاقة

بين اللغات المندوأوروبية وبتأسيسه الجمعية الأسيوية في كالكوتا. أمّا توماس ستامفورد رافليس (1781-1826) فهو من أشهر الذين أسهموا في توسّع الإمبراطورية البريطانية، ويُعَدّ المؤسس لمدينة سنفافورة (ث د).

28) في العام 1811، استولت قوات شركة الهند الشرقية على جميع الممتلكات في الإنديز (كان نابليون قد ضمَّ هولندا إلى فرنسا في العام السابق). وقد حكم رافليس في جاوة حتى العام 1815. وكتابه الضخم تاريخ جاوة ظهر في العام 1817، قبل عامين من تأسيسه سنفافورة.

29) يشكل تحويل بوروبودور إلى متحف، وهو أكبر معبد بوذي في العالم، مثالاً على هذه السيرورة. ففي العام 1814، "اكتشفه" نظام رافليس، وأزاح عنه الأشجار. وفي العام 1845، أقنع المنامر -الفنان الألماني العصامي شيفر السلطات المولندية في باتافيا بأن تموّله لكي يلتقط للمعبد أول صور شمية على ألواح فضية. وفي العام 1851، أرسلت باتافيا فريقاً من مُستخدَمي الدولة، بقيادة المهندس المدني ف. سي. ويلسن، لإجراء مسح منهجي للنقوش وتقديم بحموعة "علمية" كاملة من الصور المطبوعة على الحجر. وفي العام 1874، نشر د. سي. ليمانز، مدير متحف العاديات في ليدن، نزولاً عند رغبة وزير المستعمرات، أول بحث علمي ضخم؛ وقد اعتمد في ذلك اعتماداً كبيراً على صور ويلسن، كونه لم يزر الموقع بنفسه على الإطلاق. وفي ثانينيات القرن التاسع عشر، أجرى المصوّر الحرق كيفاس مسحاً الموقوغرافياً شاملاً من النمط الحديث. وفي العام 1901، أنشأ النظام الكولونيالي لجنة العاديات. وبين فوتوغرافياً شاملاً من النمط الحديث. وفي العام 1901، أنشأ النظام 1918، أشرفت هذه اللجنة على ترميم المعبد بأكمله، وهو ترميم أُجُري على نفقة الدولة من قبل فريق يقوده المهندس المدني فان إيرب. ولقد تعرّز وضع اللجنة في العام 1913، اعترافاً بهذا النجاح بلا شكّ، فارتقت لتخدو هيئة العاديات، الي حافظت على الأثار في غاية الترتيب والأناقة حتى نهاية المرحلة الكولونيالية. انظر "C. Leemans, Boro –Boudour, pp, ii – Iv, and N. J. Krom, Inleiding tot."

30) كان فايسروي كُررون (1899-1905) ذلك المهتم بالعاديات الذي "نشّط" المسح الأثاري للهند، كما يقول غروسلييه، ووضع الامور في نصابها، إذ قال: "إنّه . . لمن واجبنا بالمثل أن نحم ونكتشف، وأن نصنّف، ونعيد الإنتاج ونصف، وأن ننسخ ونفك الرموز، وأن نرعى ونحافظ" (ما كان فوكو ليقول ذلك على نحو ونعيد الإنتاج ونصف، وأن ننسخ ونفك الرموز، وأن نرعى ونحافظ" (ما كان فوكو ليقول ذلك على نحو افضل). وفي العام 1899، جرى تأسيس دائرة الأثار في بورما – التي كانت أننذ جزءاً من المند البريطانية وسرعان ما بدأت باستعادة باغان. وفي السنة التي سبقت ذلك، كان قد جرى تأسيس الـSecole Françaiseل وسرعان ما بدأت باستعادة باغان. وفي السنة التي سبقت ذلك، كان قد جرى تأسيس مديرية المتاحف والأثار التاريخية في الهند الصينية. وبعد استيلاء الفرنسيين مباشرة على سيمريب وباتامبانغ من سيام في العام 1907، تأسست هيئة للحفاظ على أنفكور لكي تضفي طابع كُرزون على أشد أثار جنوب شرق أسيا القديمة رهبة وروعة. انظر "7-75، 175-155 إلى المولندية كانت قد تأسست عام 1901. والانسجام بين هذه الأعوام – 1999، فإن لجنة العاديات الكولونيالية المولندية كانت قد تأسست عام 1901. والانسجام الكولونيالية المتنافسة تراقب بهما واحدتها الأخرى وحسب، بل ينم أيضًا على تلك التغيرات العميقة التي كانت تعتري الإمبريالية عند منقلب القرن. وكما كان من المتوقع، فقد واصلت سيام المستقلة السير على كانت تعتري الإمبريالية عند منقلب القرن. وكما كان من المتوقع، فقد واصلت سيام المستقلة السير على كانت تعتري الإمبريالية عند منقلب القرن. وكما كان من المتوقع، فقد واصلت سيام المستقلة السير على المنا الطريق ببطء أكبر. فلم تؤسّس هيئة الأثار إلا في العام 1924، والمتحف الوطن عام 1926. انظر

#### الحماعات المتخبيلة . . .

- ."Charles Higham, The Archaeology of Mainland Southeast Asia, p. 25"
- 31) عنت تصفية شركة المند الشرقية المتحدة، بسبب إفلاسها، في العام 1799. لكن مستعمرة الإندير المولندية تعود إلى العام 1815، حين استعاد الحلف المقدس استقلال هولندا، وأُجُلِس وليم الأول البرتقالي على العرش المولندي الذي اخترعه نابليون وأخوه اللطيف لوي لأول مرة عام 1806. أمّا شركة المند الشرقية البريطانية فبقيت قائمة حتى التمرد المندي الكبير عام 1857.
- 32) أُسّسَت لجنة العاديات من قبل الحكومة ذاتها التي أطلقت (في العام 1901) "السياسة الأخلاقية" الجديدة في الإنديز، وهي سياسة كانت تهدف للمرة الأولى إلى إقامة نظام تعليمي على النمط الغربي لاعداد كبيرة من المستعمّرين. ولقد أوجد الحاكم العام بول دومير (1897-1902) كلاً من مديرية المتاحف والآثار التاريخية في الهند الصينية والجهار التعليمي الحديث في المستعمرة. وفي بورما، بدأ التوسّع الضخم في التعليم العالي حديث تضاعف عدد طلبة المدارس الثانوية غانية أضعاف بين 1900 و1940، من 1941 إلى 233.543 من 115 إلى 27.401 انظرة الجامعيين عشرين ضعفاً، من 115 إلى 1365 مع الطلاق دائرة الآثار في بورما إلى العمل. انظر "Robert H. Taylor, The State in Burma, p. 114".
- 33) لا يرال المثقفون، والأثاريون، والموظفون التايلانديون الحافظون يصرّون إلى اليوم، وقد تأثّروا بهذا النوع من التفكير، على نسبة أنفكور إلى الخُمْ الغامضين، الذين اختفوا دون أثر، والذين من المؤكّد أنّه لا صلة لهم مع كمبوديي هذه الايام الحُتقّرين.
- 34) من الأمثلة الدالّة المتاخّرة على هذا كتاب الفن الإندونيسي القديم للباحث المولندي أ. ج. بيرنِت كيمبرز، الذي يصف نفسه بأنّه "مدير سابق للاثار في إندونيسيا [كذا]". ويجد المرء في الصفحتين 24-25 خارطتين تبيّنان مكان المواقع القديمة. وأولى هاتين الخارطتين دالّة على نجو خاص، لأن شكلها المستطيل (الذي يحدّه من الشرق خط الطول 141) يشتمل طوعاً أم كرهاً على مينداً ناو الفيليبين إضافة إلى بورنيو الشمالية البريطانية—الماليزية، وشبه جزيرة ملايو، وسنغافورة. وجميعها خالية من المواقع، بل ومن أيّة تسمية مهما تكن، ما عدا "كيداه" واحدة، لا يمكن تفسيرها. ويجري التحول من المندوسية—البوذية إلى الإسلام بعد اللوحة 340.
- 35) انظر «Kambuja, 45 (15 December 1968)» حيث يمكن للقارئ أن يجد بعض الصور اللافتة.
- 36) يعتمد التحليل هنا على مادة جرى تحليلها بصورة أكْمَل في الفصل الخامس من كتابي "Language". "and Power".
- و) البانوبتيكون، panopticon، سجن يتيح تصميمه الدائري حول برج مراقبة مركزي مراقبة جميع السجناء من قِبَل حارس واحد، لكن هذه الكلمة صارت تُطلق على كلّ تصميم يتيح الرؤية والمراقبة الشاملتين، وفكرة البانوبتيكون هي للفيلسوف والمنظّر الاجتماعي النفعيّ الإنغليزي جيريمي بنتام (ث د).
- 37) من الثمرات السياسية النموذجية التي تسفر عنها تخيلات البيت الزجاجي وهي غرة يدركها برامويديا السجين السابق على نحو مؤلم بطاقة الموية الشخصية التي ينبغي على كلّ إندونيسي راشد أن عملها معه الأن طوال الوقت. فهذه البطاقة الشخصية تناظر التعداد: فهي عُثَل نوعاً من التعداد السياسي، مع تثقيبات خاصة لأولئك الذين ينتمون إلى سلسلة "الهدّامين" أو "الخونة" الفرعية. ومن الملحوظ أنَّ هذا النمط من التعداد لم يكتمل إلا بعد تحقيق الاستقلال القومي.

# 11) الذاكرة والنسيان (ص175-187)

- 1) بلغ التراكم ذروته الجنونية في البحث "الدولي" (أي الأوروبي) عن قياس دقيق لخط الطول، وهذا ما يرويه لانديس بشكل مدهش في الفصل التاسع من كتابه "Revolution in time". وفي العام 1776، حين أعلنت المستعمرات الثلاث عشرة استقلالها، نشرت الـ Gentleman's Magazine هذا النعي المقتضب لجون هاريسون: "كان ميكانيكياً عبقرياً، ونال جائزة [من وستمنستر] قدرها 20000 باوند لقاء اكتشافه خط الطول [كذا]".
- 2) تشير الصفحات الأول من رواية برامويديا أنانتا توير التاريخية العظيمة بومي مانوريا [أرض البشر] إشارة بارعة إلى انتشار هذا الوعي لاحقاً إلى آسيا. فالبطل القومي الشاب يعجب من أنه ولد في التاريخ ذاته الذي وُلِدَت فيه فيليهلمينا الملكة المقبلة: 13 آب 1889. "غير أنه في حين كانت عتمة الليل تلف جزيرتي، كان بلدها يستحم بنور الشمس؛ فإذا ما عانق سواد الليل بلدها، كانت جزيرتي تلمع في الطهيرة الاستوائية"، ص 4.
- 3) لا حاجة للقول إنَّ "البياض" كان مقولةً قانونية ترتبط بعلاقات غير مباشرة بالوقائع الاجتماعية المعقدة. وكما يقول الحرّر نفسه: "نحن الذريّة الخسيسة للإسبان اللصوص الذين أتوا إلى أميركا لكي يسلبوها كلّ ما تملك ويتناسلوا مع ضحاياهم. ثمّ إنَّ أبناء الزنا الذين بُموا عن تلك الضروب من الجماع لي المحاون بذريّة العبيد الذين نُقِلوا من إفريقية". التشديد لي. انظر "American Revolutions, p. 249 من المرء أن يُخدر من الزعم أن ثمّة أيّ شيء "أوروبيّ أبديّ" في هذه الهورينزيين المؤمنين، وأولئك الدا سورات السنهال البوذيين المؤمنين، وأولئك الدا سيلفات الفلورينزيين الكاثوليك الاتتماعية وأولئك السوريانوز المانيلليين الكاثوليك المتمككين الذين يلعبون أدواراً اجتماعية واقتصادية وسياسية غير إشكالية في سيلان، وإندونيسيا، والفيليبين المعاصرة، فذلك يساعد المرء على أن يدرك أنّ الأوروبيين يمكن، في الظروف المناسبة، أن يجري امتصاصهم بهدوء في ثقافات ليست أوروبية.
- 4) قارن ذلك مع مصير السكان الإفريقيين المهاجرين بأعدادهم الضخمة. فأليات الاستعباد الوحشية هي التي ضمنت ليس تشتتهم الثقافي-السياسي فحسب، بل أيضًا ذلك الزوال السريع لإمكانية تُخيّل جماعات سوداء في فنزويلا وغرب إفريقية تتحرك على مسار متواز.
- 5. O.W. Wolters, The Fall of Srivijaya in Malay History, Appendix C.
- 6. G. William Skinner, Chinese Society in Thailand, pp. 15-16.
- 7) بدت الجماعات الصينية عبر البحار كبيرةً ما يكفي لأن تثير بارانويا أوروبية عميقة حتى منتصف القرن الثامن عشر، حين توقفت المذابح التي كان يرتكبها الغربيون ضد الصينيين. أما بعد ذلك، فقد تحوّل هذا التقليد المقيت صوب السكان الأصليين.
- 8. Marshal G. Hodgson, The Venture of Islam, Vol.3, pp. 233-5.
- 9) من العلامات المدهشة على عمق المركزية الأوروبية أنَّ الكثير الكثير من الباحثين الأوروبيين يصرّون، على الرغم من كلّ الأدلّة، على اعتبار القومية اختراعاً أوروبياً.
- 10) ولكن، لنلاحظ حالة البرازيل المنطوية على مفارقة. ففي العام 1808، فرّ الملك جواو السادس من البرتغال إلى ريو دي جانيرو هرباً من جيوش نابليون. ومع أنّ ويلنفتون طرد الفرنسيين عام 1811، فإنّ الملك المهاجر، والذي كان يُخشى القلاقل الجمهورية في بلاده، بقى في أميركا الجنوبية حتى العام 1822،

هيث كانت الريو بين 1808 و 1822 مركز إمبراطورية عالمية عَتد إلى انغولا، والموزمبيق، وماكاو، وتيمور الشرقية. لكن هذه الإمبراطورية كان يحكمها أوروبي، وليس أميركي.

11) لا شكّ أنّ هذا ما أتاح لـ الحرّر أن يقول في لحظةٍ إنّ ثورة رُجُية، أي ثورة عبيد، هي "أسوأ ألف مرة من غزو إسباني" (انظر أعلاه، الفصل الرابع). فثورة العبيد، إذا ما نحت، قد تعي الإبادة الجسدية للكريول.

12. Masure, Bolívar, p. 131.

13) وكانت الثورة الفرنسية بدورها تُقارن في العالم الجديد بانفجار تمرد توسان لوفرتور عام 1791، والذي أدّى عام 1806 إلى إقامة عبيد هايين ثاني جهورية مستقلّة في نصف الكرة الفربي.

أ) رونوك، Roanoke، أول مستعمرة إنغليزية في الأمريكيتين، وقد كانت مشروعاً موّله السّر وولتر رالي أواخر القرن السادس عشر الإقامة مستوطنة إنغليزية دائمة. وبين 1885 و 1887، حاولت بجموعات عديدة إقامة هذه المستوطنة، لكنهم إمّا كانوا يهجرونها أو يختفوا. وآخر بجموعة من المستعمرين اختفت بعد أن قضت ثلاث سنوات دون إمداد من إنغلترا، مما أدى إلى نشوء لغز متواصل عُرِف باسم "المستعمرة الضائعة"، والفرضية الأرجح أنَّ أولئك قد اندبجوا في إحدى قبائل السكان الأصليين (ث د).

14) كان وردسورث الشاب في فرنسا في 1791-1792، وكتب لاحقاً في التمهيد هذين البيتين التذكاريين الشهيرين (التشديد لي):

كانت نعمة أن تكون حيّاً في ذلك الفجر،

أمًا أن تكون شاباً فكان النعيم ذاته!

15. Lynch, The Spanish - American Revolutions, pp. 314-15.

16) كما وردت أعلاه في الفصل 4.

17. Landes, Revolution in Time, pp. 230-31, 442-43.

18) انظر أنفاً الفصل الثاني.

19) يحد القارئ تناولاً متقناً لهذا التحول في "in Nineteenth - Century Europe, pp. 135-43".

(20) لكنها كانت ميلادية مع فارق. فقبل القطيعة كان هذا التعبير، (Anno Domini) (ميلادية، أو بعد الميلاد) ، لا يزال محتفظاً بعبير لاهوتي يفوح من داخل لاتينيته القروسطية، مهما تكن هشّة في الانحاء المستنيرة. وكان يستحضر ما حدث في بيت لحم من اقتحام الأبدية الزمن الدنيوي. أمّا بعد القطيعة، واختصاره إلى (A.D) (ق م)، (Before Christ) (ق م)، (ق.ل المسيح) واختصاره إلى (A.D) (ب م)، فقد انضم إلى الاختصار (B.C) (ق م)، متسلسل (كان علم الجيولوجيا الذي كانت تستخدمه لغة محلية (هي الإنغليزية)، وكان يحيط بتاريخ كوني متسلسل (كان علم الجيولوجيا الجديد يسهم فيه إسهامات باهرة). ولعلنا محكم على عمق الهوة الفاغرة بين Anno Domini و B.C/ A.D و كلاحظة أنّ العالمين البوذي والإسلامي لا يتخيلان، إلى اليوم، أي حقبة موسومة بـ "قبل غوتاما بوذا" أو "قبل الهجرة". وكلاهما يرعجهما ذلك الاختصار الغريب B.C.

21) حتى أواخر العام 1951، كان لا يرال بمقدور الاشتراكي الإندونيسي الذكي لينتونغ موليا سيتوروس أواخر العام 1951، كان لا يرال بمقدور الاشتراكي الإندونيسي الذكي لينتونغ موليا سيتوروس أن عميق، في حين كان البيض منكبين على العمل في كلّ حقل من الحقول". انظر "History of the Indonesian National Movement], p. 5

- 22) ربما كان مقدور المرء القول إنَّ هذه الثورات كانت، في أعين الأوروبيين، الأحداث السياسية المامة الأولى الت جرت عبر الأطلسي.
- 23) بيد أنّ العمق التاريخي ليس لا نهائياً. وفي خطة عددة تختفي الإنفليرية فجأةٌ متحولةً إلى فرنسية نورماندية وأنحلو-سكسونية؛ والفرنسية إلى لاتينية وفرانكية "المانية"؛ وهلمجرا. وسوف نرى أدناه كيف تحقق لمذا الحقل مزيدٌ من العمق.
- 24) انظر "Metahistory, p.140". كان هيفل، المولود، عام 1770، في أواخر عشرينياته حين اندلعت الثورة، لكن محاضراته في فلسفة التاريخ لم تُنْشَر إلا في عام 1837، بعد وفاته بستّ سنوات. 25. White, Metahistory.
- 26) انظر "Jules Michelet, Oeuvre Complètes, XXI, p. 268" في تصدير الجلد الثاني (26 Histoire du XIXe Siècle). وأنا أدين لكتاب هايدن وايت (18e Brumaire). من كتابه الذي لم يكتمل Metahistory بهذه الإشارة، لكن ترجمة وايت ليست وافية.
- 27) ورد ذلك في "Roland Barthes, ed., Michelet par lui meme, p. 92"، والجلد الذي يحوي هذا المقبوس من بين الأعمال الكاملة لم يُنْشَر بعد.
- 28) بالمقابل، ليس في المكسيك حميماً سوى عثال واحد لهيرنان كورتيس. وهذا النُصب الذي أُدْخِلَ بُحْدِرٍ وحرص في كوّة خاصة في مكسيكو سين، لم يُقَمْ إلا في أواخر سبعينيات القرن العشرين، من قِبَل نظامٌ خوسيه لوبيز بورتيللو البغيض.
- 29) لا شكّ أن ذلك يعود إلى ما عاناه في شطر كبير من حياته في ظل الشرعيات المستعادة أو البديلة. والتزامه بالعام 1789 وبفرنسا واضح ذلك الوضوح المثير في رفضه في أن يقسم بالولاء للوي نابليون. ونظراً لطرده المفاجئ من وظيفته في الارشيف الوطي، عاش قريباً من الفقر حتى عاته في العام 1874. وهذا يعن أنه قد عاش عا يكفى ليشهد سقوط الدجّال واستعادة المؤسسات الجمهورية.
- 30) وُلِدَ رينان عام 1823، بعد ربع قرن على ولادة ميشليه، وقضى شطراً كبيراً من شبابه في ظلَّ النظام القومي-الرحي المتشكِّك الذي أقامه من اضطهدَ ميشليه.
  - 31) لقد فهمتهما على هذا النحو في العام 1983، للأسف.
- 32) انظر "Leslie Fiedler, Love and Death in the American Novel, p. 192". يقرأ فيدار هذه العلاقة قراءة نفسية، وتاريخية، بوصفها مثالاً على إخفاق القصّ الأميركي في التعامل مع الحب البالغ بين الجنسين وهوسه بالموت، وغشيان الحارم، والإيروسية المثلية البريئة. غير أنّ ما يفعل فعله هنا، باعتقادي، ليس إيروسية قومية بل قومية أضفي عليها الطابع الإيروسي. فالروابط بين ذكر وذكر في جمتمع بروتستانيّ يحرّم بكلّ صرامة ومنذ البداية اختلاط الاجناس توازيها ضروب "الحب للقدس" بين رجل وامرأة في قصّ أميركا اللاتينية القومي، حيث محت الكاثوليكية بنمو عدد ضخم من السكّان السكّان السعارت كلمة "mestizo" من الإسبانية).
- 33) انظر "Herman Melville, Moby Dick, p. 71". لا بدّ أنّ الكاتب قد استطاب العبارة الأخيرة الخيرة الخيرة الخيرة الخيرة كثيرًا.
- 34) يحسن بنا أن نلاحظ أن نشر هكلبري فِنْ لمارك توين قد سبق ببضع أشهر وحسب إثارة رينان أمر "سان بارتليمي".
  - 35) لقد سُكَّ المصطلح الجديد "genocide" [إبادة] مؤخّراً للتعبير عن مثل هذه القيامات.

#### ترحال وترهيب . . . (ص 189-207)

- اما كان يمكن كتابة هذا التذييل لولا المساعدة الكريمة التي قدّمها، قبل أي أحد آخر، أخي بيري،
   وكذلك تشوي سونغ-يون، ويانا جينوفا، وبوثيت هانزارولا، وجويل كورتي، وأنطونيس لياكوس، وسيلفا ميزناريك، وغوران ثيربورن، وتوني وود، الذين أود أن أعبّر لهم جميعاً عن أعمق الشكر.
- 1) علاوة على مزايا الاختصار، فإنَّ ج م يسد الطريق أمام زوج من الكلمات يكاد مصاصو الدماء المبتذلون أن يكونوا قد امتصوا منه كل الدم إلى الآن .
- 2) جاء كيدوري من بغداد، وغلنر من براغ، في حين جاءت والدة هوبسباوم من فيينا. وقد اهتم كيدوري، ركا بسبب أصله، بالشرق الأدنى، وأبعد منه. وكتابه حول القومية في آسيا وإفريقية صدر في 1970. ومقالة غلنر الأولى في قضايا القومية كانت جزئياً بمثابة ردّ على كيدوري. ولم يصدر كتاب هوبسباوم الكبير في القومية حتى العام 1990، لكنه كان قد هاجم أطروحة نايرن في مجلة الـ New Left Review في خريف العام 1977، ولعب دوراً كبيراً في تعريف العالم الأنجلوساكسوني بعمل ميروسلاف هورش المقارِن المتبحر حول الحركات القومية في وسط وشرق أوروبا.
- 3) لا شكَّ أن كيدوري كان على أُلفة بالعربية، لكن عمله لا يُظْهِر ذلك على نحو واضح. وكتابه في العام 1970 هو بصورة أساسية أنطولوجيا نصوص كتبها مفكرون قوميون في أسيًا وإفريقية، مع مقدّمة مُسْهَبَة ولاذعة قدَّم بها لهذه النصوص.
- ب) سكيلا وشاريبديس وحشان بحريان في الأساطير اليونانية يقفان متقابلين على جاني مضيق مسينا بين صقلية وإيطاليا. وكانا قريبين ما يكفي لأن بمثلًا للبخّارة ذلك الخطر الذي يصعب الفرار منه (ث د).
- ج) القدر الواضح، Manifest Destiny، هو الاعتقاد الذي ساد في أربعينيات القرن التاسع عشر بأنَّ من المُقدَّر على الولايات المتحدة أن تتوسّع من سواحل الاطلسي بالجّاه الحيط الهادي، بل وفُسّر في بعض الاحيان على انّه يعن استيعاب أميركا الشمالية كلّها: كندا، المكسيك، كوبا، أميركا الوسطى. وبحسب المدافعين عن هذا الاعتقاد، فإن التوسّع ليس أمراً حسناً وحسب، بل واضح ومؤكّد (مثل القّدَر). وفي تسعينيات القرن التاسع عشر جرى إحياء هذا الاعتقاد لكي برّر التوسّع أبعد من أميركا الشمالية. ومع أنّ صنّاع السياسة الأميركيين كفّوا في أوائل القرن العشرين عن استخدام هذا المفهوم، إلا أنّه ظلّ يظهر لدى بعض الكتّاب الذين يرون أنَّ بعض أوجه "القدر الواضح" لا تزال غارس تأثيرها على الإيديولوجية السياسية الأميركية، خاصة الاعتقاد بأنّ لأميركا "رسالة" في تعزيز الديمقراطية والدفاع عنها (ث د). د) نُقِشَ على سيف هذا التمثال الذي يبلغ طوله 7 أمتار: "الوحدة الألمانية هي قوتي، قوتي هي جبروت المانيا" (ث د).
- 4) في العام 1998، أصدرت Campus Verlag طبعة جديدة، استبدلت بتمثال هيرمان صورة صارخة لتمرد شعي: بيوت تحرق، بشر مذعورون، إضرام نيران. وفي العام 2005، قرر الناشر أن يعيد إصدار الكتاب في سلسلة "الكلاسيكيات" التي يصدرها، مع غلاف "عيك دون ملامح عيزة. وقد اشتملت هذه الطبعة على Nachwort [تذييل] مُسهب كتبه توماس ميرغل، وكرس جزء منه لتأملات حول استقبال ج م، فضلاً عن مادة مثيرة بعض الشيء حول حياته اللاحقة في فضاء إلكتروني.
- 5) تابعت ميزناريتش لتؤسس وتدير بين 1992 و 1996، مشروع جاعة الخبراء الإنسانيين حول المجرة المفروضة؛ واليوم هي في الميئة التعليمية في جامعة لجوبلجانا وتعمل مستشارة في معهد زغرب للبحث

- في قضايا المجرة والاثنية.
- 6) أشكر شوي سنغ يون على هذه الملومات. وقد كان لوالدها تجربة سيئة عَثَلت في إصدار نامان اثنين من كتبه.
  - 7) أشكر توني رود على هذه الملومات المتعلقة بتاريخ Metis.
    - 8) أشكر غوران ثربورن على هذه الملومات.
- هـ) غير أنن، وقد تتبّعتُ الانفجارات القومية التي دمّرت تلك المالك الشاسعة متعددة اللغات والإثنيات والإثنيات والتي كانت تُحكّمُ من فيينا، ولندن، والقسطنطينية، وباريس، ومدريد، لم استطع أن أرى أنَّ الفتيل بمكن أن يصل موسكو ذاتها (ث د).
  - 9) أشكر أنطونيس لياكوس على هذه الملومات.
- 10) وصفها لي لياكوس بأنها "باحثة مدققة، وضعت كتاباً لم ينشر بعد، بالإنغليرية، عن صناعة الإخضاع: خدم للنازل في اليونان، 1900-1950.
  - 11) أشكر بوثين هانتزارولا على هذه الملومات.
  - 12) انتزعت هذه الملومات من رسالة تلقيتها مؤخراً من لياكوس.
- 13) ليس لديّ سوى قائمة جزئية بهذه العناوين. واللافت أنّ الكتب اليّ وضعها أميركيون ليست لما السيطرة مطلقاً. فالمؤلفون الألمان هم الأكثر عدداً، يتلوهم الفرنسيون ثم الأميركيون، ثم حفنة من البريطانيين، وهنا وهناك إيطالي، سلوفين، بلجيكي، وهلمجرا.
  - 14) أشكر وانغ شاو هوا على هذا الوصف للمقدمة.

### ثبت المراجع

- Alers, Henn J. Om een rode of groene Merdeka. Tien jaren biennenlandse politick. Indonesie, 194353-, Eindhoven: Vulkaan. 1956.
- Ambler, John Steward. The French Army in Politics, 19451962-. Columbus: Ohio State University Press. 1966.
- Anderson, Benedict R. O'Gorman. Language and Power: Exploring Political Cultures in Indonesia. Ithaca: Cornell University Press. 1990.
- 'Studies of the Thai State: The State of Thai Studies.' In Eliezer B. Ayal, ed. The State of Thai Studies: Analyses of Knowledge, Approaches, and Prospects in Anthropology, Art History, Economics, History and Political Science. Athens, Ohio: Ohio University, Center for International Studies, Southeast Asia Program. 1979. pp. 193247-.
- Auerbach, Erich. Mimesis. The Representation of Reality in Western Literature. Trans. Willard Trask. Garden City, N.Y.: Doubleday Anchor. 1957.
- Baltazar [Balagtas], Francisco, Florante at Laura. Manila: Florentino. 1973. Based on the original Ramirez and Giraudier imprint of 1861.
- Barnett, Anthony. 'Inter-Communist Conflicts and Vietnam.' Bulletin of Concerned Asian Scholars, 11:4 (October-December 1979). pp. 29-. (Reprinted from Marxism Today, August 1979). Barthes, Roland. Michelet par lui-mime. Bourges: Editions du Seuil. 1954.
- Battye, Noel A. 'The Military, Government and Society in Siam, 18681910-. Politics and Military Reform in the Reign of King Chulalongkom.' PhD. thesis. Cornell

- University, 1974.
- Bauer, Otto. Die Nationalitatenfrage and die Sozialdemocratie (1907), in his Werkausgabe. Vienna: Euro paverlag, 1975. Vol. I, pp. 49602-.
- Benda, Harry J. The Crescent and the Rising Sun: Indonesian Islam under the Japanese Occupation. The Hague and Bandung: van Hoeve. 1958.
- Benda, Harry J., and John A. Larkin, eds. The World of Southeast Asia: Selected Historical Readings. New York: Harper and Row. 1967.
- Benjamin, Walter. Illuminations. London: Fontana. 1973.
- Bloch, Marc. Feudal Society. Trans. I.A. Manyon. Chicago: University of Chicago Press. 1961. 2 vols.
  - Les Rois Thaumaturges. Strasbourg: Librairie Istra. 1924.
- Boxer, Charles R. The Portuguese Seaborne Empire, 14151825-. New York: Knopf. 1969.
- Braude], Fernand. La Mediterranee et le Monde Mediten-aneen a l'Epoque de Philippe 11. Paris: Armand Colin. 1966.
- Browne, Thomas. Hydriotaphia, Urne-Buriall, or A Discourse of the Sepukhrall Urnes lately found in Norfolk. London: Noel Douglas Replicas. 1927.
- Cambodge. Ministere du Plan et Institut National de la Statistique et des Recherches Economiques. Resultats Finals du Recensement General de la Population, 1962. Phnom Penh. 1966.
- Chambers-Loir, Henri. 'Mas Marco Kartodikromo (c. 18901932-) ou L'Education Politique.' In Pierre-Bernard Lafont and Denys Lombard, eds. Litteratures contemporaines de l'asie du sud-est. Paris: L'Asia "theque. 1974. pp. 203214-.
- Cooper, James Fenimore. The Pathfinder. New York: Signet Classics. 1961.
- Craig, Albert M. Chasha in the Meiji Restoration. Cambridge, Mass.: Harvard University Press. 1967. Craig, Gordon A. The Politics of the Prussian Army, 16401945-. New York and Oxford: Oxford University Press. 1956.
- Debray, Regis. 'Marxism and the National Question.' New Left Review, 105 (September-October 1977). pp. 2541-.
- Defoe, Daniel. Selected Poetry and Prose of Daniel Defoe, ed. Michael F. Shugrue. New York: Holt, Rinehart and Winston. 1968.
- Djilas, Milovan. Tito, the Inside Story. Trans. Vasilije Kojae and Richard Hayes. London: Weidenfeld and Nicolson. 1980.
- Eisenstein, Elizabeth L. 'Some Conjectures about the Impact of Printing on Western Society and Thought: A Preliminary Report.' Journal of Modern History, 40:1 (March 1968). pp. 156-.
- Fall, Bernard B. Hell is a Very Small Place. The Siege of Dien Bien Phu. New York: Vintage. 1968.
- Febvre, Lucien, and Henri Jean Martin. The Coming of the Book. The Impact of Printing, 14501800-.
- London: New Left Books. 1976. [Translation of L'Apparition du Livre. Paris: Albin Michel. 1958].
- Fiedler, Leslie. Love and Death in the American Novel. New York: Stein and Day. 1966. Fields, Rona M. The Portuguese Revolution and the Armed Forces Movement. New York,

- Washington and London: Praeger. 1975.
- Franco, Jean. An Introduction to Spanish-American Literature. Cambridge: Cambridge University Press. 1969.
- Gellner, Ernest. Thought and Change. London: Weidenfeld and Nicolson. 1964.
- Gilmore, Robert L. Caudillism and Militarism in Venezuela, 18101919-. Athens, Ohio: Ohio University Press. 1964.
- Greene, Stephen. 'Thai Government and Administration in the Reign of Rama VI (1910-1925).' Ph.D. thesis. University of London. 1971.
- Groslier, Bernard Philippe. Indochina. Cleveland and New York: The World Publishing Company. 1966.
- Heder, Stephen P. 'The Kampuchean-Vietnamese Conflict.' In David W.P. Elliott, ed. The Third Indochina Conflict. Boulder: Westview Press. 1981. pp. 2167-. (Reprinted from Institute of Southeast Asian Studies, ed. Southeast Asian Affairs. [London: Heinemann Educational Books. 1979]).
- Higham, Charles. The Archaeology of Mainland Southeast Asia. New York and Cambridge: Cambridge University Press, 1989.
- Hirschman, Charles. 'The Making of Race in Colonial Malaya: Political Economy and Racial Ideology.' Sociological Forum, 1:2 (Spring 1986), pp. 33062-.
- \_\_\_\_'The Meaning and Measurement of Ethnicity in Malaysia: An Analysis of Census Classifica tions.' Journal of Asian Studies, 46: 3 (August 1987). pp. 55582-.
- Hobsbawm, Eric. 'Some Reflections on "The Break-up of Britain." 'New Left Review, 105 (September October 1977). pp. 324-.
- The Age of Revolution, 17891848-. New York: Mentor. 1964.
- Hodgson, Marshall G. The Venture of Islam. Chicago: Chicago University Press. 1974. 3 vols.
- Hoffman, John. 'A Foreign Investment: Indies Malay to 1901.' Indonesia, 27 (April 1979). pp. 6592-.
- Hughes, Christopher. Switzerland. New York: Praeger. 1975.
- Ieu Koeus. Pheasa Khmer. La Langue Cambodgienne (Un Essai d'e'lude raisonne). Phnom Penh: n.p. 1964.
- Ignotus, Paul. Hungary. New York and Washington, D.C.: Praeger. 1972.
- Ileto, Reynaldo Clemena. Pasyon and Revolution: Popular Movements in the Philippines, 18401910-. Manila: Ateneo Press. 1979.
- Jaszi, Oscar. The Dissolution of the Habsburg Monarchy. Chicago: University of Chicago Press. 1929. Joaquin, Nick. A Question of Heroes. Manila: Ayala Museum. 1977.
- Kahin, George McTurnan. Nationalism and Revolution in Indonesia. Ithaca: Cornell University Press. 1952.
- Katzenstein, Peter J. Disjoined Partners. Austria and Germany since 1815. Berkeley and Los Angeles: University of California Press. 1976.
- Kedourie, Elie, ed. and intro. Nationalism in Asia and Africa. New York: Meridian. 1970.
- Kelly, Gail Paradise. 'Franco-Vietnamese Schools, 1918 to 1938.' Ph.D. thesis. University of Wisconsin. 1975.
- Kemilainen, Aira. Nationalism: Problems Concerning the Word, the Concept and

Classification. Jyvaskyla: Kustantajat. 1964.

Kempers, A.J. Bernet. Ancient Indonesian Art. Amsterdam: van der Peet. 1959.

Kirk-Greene, Anthony H.M. Crisis and Conflict in Nigeria: A Documentary Source Book. London: Oxford University Press. 1971.

Kohn, Hans. The Age of Nationalism. New York: Harper. 1962.

Krona, N.J. Inleiding tot de Hindoe-Javaansche Kunst. Second revised edition. The Hague: Nijhoff. 1923

Kumar, Ann. 'Diponegoro (1778?-1855).' Indonesia, 13 (April 1972). pp. 69118-.

Landes, David S. Revolution in Time: Clocks and the Making of the Modern World. Cambridge, Mass.: Harvard University Press. 1983.

Leemans, C. Boro-Boudour. Leiden: Brill. 1874.

Luckham, Robin. The Nigerian Military: A Sociological Analysis of Authority and Revolt, 196067-. Cambridge: Cambridge University Press. 1971.

Lumbera, Bienvenido L. Tagalog Poetry 15701898-. Tradition and Influences in its Development. Quezon City: Ateneo de Manila Press. 1986.

Lyautey, Louis-Hubert-Gonzalve. Lettres du Tonkin et de Madagascar (18941899-). Paris: Librairie Armand Cohn. 1946.

Lynch, John. The Spanish-American Revolutions, 18081826-. New York: Norton. 1973.

Mabry, Bevars D. The Development of Labor Institutions in Thailand. Ithaca: Cornell University, Southeast Asia Program, Data Paper No. 112. 1979.

MacArthur, Douglas. A Soldier Speaks. Public Papers and Speeches of General of the Army Douglas MacArthur. New York: Praeger. 1965.

McLuhan, Marshall. The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man. Toronto: University of Toronto Press. 1962.

Maki, John M. Japanese Militarism, Its Cause and Cure. New York: Knopf, 1945.

Marr, David G. Vietnamese Tradition on Trial, 19201945-. Berkeley and Los Angeles: University of California Press. 1981.

Maruyama Masao. Thought and Behaviour in Modem Japanese Politics. London and Oxford: Oxford University Press. 1963.

Marx, Karl, and Friedrich Engels. The Communist Manifesto. In Selected Works. Moscow: Foreign Languages Publishing House. 1958. vol. I.

Masur, Gerhard. Simon Bolivar. Albuquerque: University of New Mexico Press. 1948. Melville, Herman. Moby Dick. London and Toronto: Cassell. 1930.

Michelet, Jules. 'Histoire du XIXe Siecle; In Oeuvres Completes, ed. Paul Viallaneix. Paris: Flammarion. 1982. Vol. XXI.

Montesquieu, Henri de. Persian Letters. Trans. C.J. Betts. Harmondsworth: Penguin. 1973.

Moore, Jr., Barrington. Social Origins of Dictatorship and Democracy. Lord and Peasant in the Making of the Modem World. Boston: Beacon Press. 1966.

Morgan, Edward S. 'The Heart of Jefferson.' New York Review of Books. August 17, 1978.

Morgenthau, Ruth Schachter. Political Parties in French-Speaking West Africa. Oxford: Clarendon Press. 1964.

Moumouni, Abdou. L'Education en Afrique. Paris: Maspero. 1964.

- Muir, Richard. Modern Political Geography. New York: Macmillan. 1975.
- Musil, Robert. The Man Without Qualities. Trans. Eithne Wilkins and Ernst Kaiser. New York: Howard-McCann, 1953, vol. I.
- Nairn, Tom. The Break-up of Britain. London: New Left Books. 1977.
- The Modern Janus.' New Left Review, 94 (November-December 1975). pp. 329-. Reprinted as Chapter 9 in The Break-up of Britain.
- 'Nijs, E. Breton de'. Tempo Doeloe. Amsterdam: Querido. 1973.
- Norman, E. Herbert. Soldier and Peasant in Japan. The Origins of Conscription. New York: Institute of Pacific Relations. 1943.
- Orwell, George. The Orwell Reader. New York: Harcourt-Brace-Jovanovich. 1956.
- Osborne, Robin. Indonesia's Secret War, The Guerrilla Struggle in Irian Jaya. Sydney: Allen and Unwin. 1985.
- Pal, Bipin Chandra. Memories of My Life and Times. Calcutta: Bipin Chandra Pal Institute. 1973. '3349' [pseudonym for Phetsarath Ratanavongsa]. Iron Man of Laos: Prince Phetsarath Ratanavongsa. Trans. John B. Murdoch. Ed. David K. Wyatt. Ithaca: Cornell University, Southeast Asia Program Data Paper No. 110. 1978.
- Polo, Marco. The Travels of Marco Polo. Trans. and ed. William Marsden. London and New York: Everyman's Library. 1946.
- Pramoedya Ananta Toer. Bumi Manusia. Jakarta: Hasta Mitra. 1980.
- Rumah Kaca. Jakarta: Hasta Mitra. 1988.
- Tjerita dari Blora. Jakarta: Balai Pustaka. 1952.
- Reid, Anthony J.S. The Indonesian National Revolution, 194550-. Hawthorn, Victoria: Longman. 1974. Renan, Ernest. 'Qu'est-ce qu'une nation?' In Oeuvres Completes. Paris: Calmann-Levy. 194761-, vol. I. pp. 887906-.
- Rizal, Jose. Noli Me Tangere. Manila: Institute Nacional de Historia. 1978
- \_\_\_The Lost Eden. Noti Me Tangere. Trans. Leon Ma. Guerrero. Bloomington: Indiana University Press. 1961.
- Roff, William R. The Origins of Malay Nationalism. New Haven and London: Yale University Press. 1967.
- Said, Edward. Orientalist. New York: Pantheon, 1978.
- Scherer, Savitri. 'Harmony and Dissonance. Early Nationalist Thought in Java.' M.A. thesis. Cornell University. 1975.
- Schwartz, Stuart B. 'The Formation of a Colonial Identity in Brazil.' In Nicholas Canny and Anthony Pagden, eds. Colonial Identity in the Atlantic World, 15001800-. Princeton: Princeton University Press, 1987. pp. 1550-.
- Scott, William Henry. Cracks in the Parchment Curtain. Manila: New Day. 1982.
- Seton-Watson, Hugh. Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism. Boulder, Colo.: Westview Press. 1977.
- Shiraishi, Takashi. An Age in Motion: Popular Radicalism in Java, 19121926-. Ithaca: Cornell University Press, 1990.
- Sitorus, Lintong Mulia. Sedjarah Pergerakan Kebangsaan Indonesia. Jakarta: Pustaka Rakjat. 1951. Skinner, G. William. Chinese Society in Thailand. Ithaca: Cornell University Press. 1957.
- Smith, Donald Eugene. India as a Secular State. Princeton: Princeton University Press.

- 1963.
- Spear, Percival. India, Pakistan and the West, London, New York and Toronto: Oxford University Press. 1949.
- Steinberg, S.H. Five Hundred Years of Printing. Rev. ed. Harmondsworth: Penguin, 1966.
- Storry, Richard. The Double Patriots, A Study of Japanese Nationalism. London: Chatto and Windus. 1957.
- Strong, Charles Frederick. Modern Political Constitutions. 8th Rev. ed. London: Sedgwick and Jackson. 1972.
- Summers, Laura. 'In Matters of War and Socialism, Anthony Barnett would Shame and Honour Kampuchea Too Much.' Bulletin of Concerned Asian Scholars, 11: 4 (October-December 1979). pp. 10-18.
- Taylor, Robert H. The State in Burma. London: C. Hurst & Co. 1987.
- Tickell, Paul. Three Early Indonesian Short Stories by Mas Marco Kartodikromo (c. 18901932-). Melbourne: Monash University, Centre of Southeast Asian Studies, Working Paper No. 23. 1981.
- Timpanaro, Sebastiano. On Materialism. London: New Left Books. 1975.
  - The Freudian Slip. London: New Left Books. 1976.
- Thongchai Winichakul. 'Siam Mapped: A History of the Geo-Body of Siam.' Ph.D. thesis. University of Sydney. 1988.
- Toye, Hugh. Laos: Buffer State or Battleground. London: Oxford University Press. 1968.
- Turner, Victor. Dramas, Fields and Metaphors. Symbolic Action in Human Society. Ithaca: Cornell University Press. 1974.
- The Forest of Symbols. Aspects of Ndembu Ritual. Ithaca: Cornell University Press. 1967. Vagts, Alfred. A History of Militarism, Civilian and Military. Rev. ed. New York: The Free Press. 1959.
- Vandenbosch, Amry. The Dutch East Indies: Its Government, Problems, and Politics. Berkeley and Los Angeles: University of California Press. 1944.
- Vella, Walter F. Chaiyo! King Vajiravudh and the Development of Thai Nationalism. Honolulu: University of Hawaii Press. 1978.
- Vcyra, Jaime de. El 'Ultimo Adios' de Rizal: estudio critico-expositivo. Manila: Bureau of Printing. 1946.
- White, Hayden. Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe. Baltimore: The Johns Hopkins University Press. 1973.
- Wickberg, Edgar. The Chinese in Philippine Life, 18501898-. New Haven: Yale University Press. 1965.
- Williams, Raymond. 'Timpanaro's Materialist Challenge.' New Left Review, 109 (May June 1978). pp. 3-17.
- Wills, Gary. Inventing America: Jefferson's Declaration of Independence. New York: Doubleday. 1978.
- Wolfe, Charles. The Poems of Charles Wolfe. London: Bullen. 1903.
- Wolters, O.W. The Fall of Srivijaya in Malay History. Ithaca: Cornell University Press. 1970.

- Woodside, Alexander B. Vietnam and the Chinese Model. A Comparative Study of Vietnamese and Chinese Government in the First Half of the Nineteenth Century. Cambridge, Mass.: Harvard University Press. 1971.
- Yabes, Leopoldo Y. 'The Modern Literature of the Philippines.' In Pierre-Bernard Lafont and Denys Lombard, eds. Littiratures contemporaines de l'asie du sud-est. Paris: UAsiatheque. 1974. pp. 287302-.
- Zasloff, Joseph J. The Pathet Lao: Leadership and Organization. Lexington, Mass.: Lexington Books. 1973

#### کشاف

160 ,161 ,161 ,161 ,165 ,165 ,165 (1) 176 , 177 , 171 , 172 , 174 , 175 , 176 , 176 ابن السماء، 59، 155 197,177 اتاتورك، 79 أصحاب العيون المائلة، 148 ائعاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، 19 أصل العنصرية الكولونيالية الأرستقراطي، أدامانتيوس كورايس، 96، 180 150 أرشيدوق النمسا، 62 إغنوطيوس، 97، 118 إرمينية، 60 إفريقية، 41، 79، 84، 112، 115، 127، 131، إرنست غلنر ، 20 ، 190 204 .176 .132 إريك هوبسباوم، 20، 50، 190 اكابولكو، 84 إسبانيا، 22، 37، 38، 44، 82، 83، 87، 89، أل رومانوف، 40، 76، 105، 106، 107 90, 99, 176, 191, 204 أل عثمان، 41 استانبول، 98، 195 آل هيسبورغ، 30، 41، 42 أستر اليا، 112، 115، 137، 190 ألكسندر الثالث، 40، 108 اسكتلندا، 41، 109، 190، 192 ألمانيا، 34، 41، 43، 49، 75، 113، 116، 120، 120، 140 آسيا، 22، 30، 36، 39، 84، 88، 127، 141،

#### الجماعات المُتخبيّلة . . .

134، 136، 131، 138، 150، 151، 168، الأتحاد السوفيت، 19، 24، 25، 50، 192، 206 206, 202, 191, 173, 172, 170, 169 الأرثوذكسية، 199، 202 207 الأرجنتين، 91، 176، 195 الأرتيك، 37، 94، 151 أنطوني حيث، 20، 24، 190 إنفلترا، 22، 40، 76، 99، 108، 109، 111، الإسبانية، 20، 36، 38، 67، 79، 81، 83، 84، 207 ,184 ,176 ,139 ,122 ,119 ,116 .162 .161 .151 .144 .93 .91 .90 .87 195 , 191 , 191 , 180 أوتاوا، 112 أورباخ، 64، 94 الأستانة، 41 أوروبا، 20، 21، 24، 29، 30، 33، 35، 38، الاسكندىنافية، 109 .62 .60 .59 .56 .50 .45 .44 .43 .42 الإسلام، 56، 57، 71، 164 الإصلاح المضاد، 61، 74، 75 ,94 ,93 ,89 ,87 ,86 ,85 ,83 ,78 ,77 الأكادعية الروسية، 97 .106 .105 .101 .100 .99 .96 .95 الأكاديمية الفرنسية، 97 107, 111, 113, 114, 115, 116, 111, 107 الإكليروس، 29، 59، 63 الإكوادور ، 85 122، 128، 129، 136، 138، 139، 128، 129 141, 154, 151, 150, 149, 151, 151, 159 الألمانية الرفيعة، 78 الألمانيةُ الشمالية الغربية، 78 178، 180، 181، 181، 191، 191، 195، الألمانية المتداولة، 78 206 , 201 , 199 , 197 , 196 الإمبر اطورية النمساوية -المنفارية، 41 أوروبا الشرقية، 50، 111، 199، 206 الأمم المتحدة، 25، 50، 202 أوروبا الفربية، 56، 60، 71، 75، 76، 88، 201,183 الأعية البروليتارية، 74 أوسكار ياسى، 20 الأمهرية، 204 أوكلاند، 51 إمبريالية اشتراكية، 49 إيطاليا، 129، 197، 198، 206 أمة الإسلام، 57 الإندير الشرقية، 116، 161، 169، 170، 171 أمسة دام، 175، 196 أمركا، 30، 36، 37، 38، 42، 79، 82، 84، 84، الأنغلة، 109، 111، 112 الإنفليزية، 20، 24، 25، 31، 35، 36، 41، 43، .192 .191 .182 .178 .91 .90 .89 .87 50، 61، 76، 77، 100، 109، 110، 111، 111، 195 117, 122, 129, 131, 131, 147, 153 أميركا الشمالية، 30، 37، 89، 178 178, 181, 181, 181, 189, 192, 189, أميركو فيسبوتشي، 94 انتفاضةِ وارسو، 187 202, 204, 202 إندونيسيا، 42، 43، 44، 129، 131، 133، الأوتوقر اطية، 40، 108

الأوروغواي، 85 بورما، 116، 129، 149، 162، 166، 171، الأوكرانية، 40، 97، 108 174,173 بولندا، 39 **(ب)** بوليفار، 37، 82، 84، 102 بوليفيا، 85 الباراغواي، 85 بوهيميا، 97، 180 البالية، 57، 156 بوينس آيريس، 84 ألبانيا، 66، 190 بيبين شاندرابال، 112 البرازيل، 36، 43، 58، 79، 81، 83، 89، 137، بيدرو الأول، 83 191 البلاي بوي، 194 البربر، 57 البلشفية، 184 البرتفال، 22، 83، 88، 89، 128، 204، 204 البلقان، 97، 194 البرتغالية، 43، 89، 125، 130، 137، 138، البنغال، 105، 110، 160 201 ،193 ،191 البوريون، 105، 176 البروتستانتية، 75، 89، 140 البيت الرجاجي، 173 البروفنسالية، 183 البيرو، 37، 82، 83، 91، 94، 979 باريس، 60، 61، 70، 77، 96، 135، 179، البيروفيون، 179 184، 203 بالاغتاس، 66، 67 (<del>"</del>) باندونغ، 130 براموديا أنانتا تُوير، 147 التاريخ المقارن، 94 برلين، 25، 31، 311، 125، 179، 203 التاميل، 160، 167 تابلاندا، 42، 166 بروسيا، 41، 105، 119، 120، تايوان، 114، 201، 204 بسمارك، 41 ترجمة مقرصنة، 194، 202 بكين، 117، 132، 155، 177، 187، 203، تركيا الفتاة، 41 206 ترنافا، 97 بلجيكا، 99، 128 تشارلز ستيوارت، 62 بلزاك، 65 تشارلز مير هان، 160 بلغاريا، 39، 196، 200 تشيكيا، 98 بلوخ، 60، 64، 76، 109 تعريف الأمة، 29، 31 بنجامين فرانكلين، 89، 109 بودابست، 97 تنرانيا، 43، 137 توسكانيا، 63 يوردو، 136

#### الجماعات المتخيّلة . . .

توكفي، 32 جورجي بسِنايي، 97 جوريف الثاني، 97، 106، 117، 120 توم نايرن، 25، 26، 50، 51، 108، 153، 190 جوزيف يونغمان، 97 توماس براون، 147، 193 جون برولی، 20 توماس جفرسن، 37، 82، 192 جون مور، 146 توماس مور، 94 الجندي الجهول، 55 تونكين، 132، 133، 150 الجهد البطليموسي، 51 تينو، 62 الجيش الجمهوري الفرنسي، 47 التايم، 194 التريك، 30، 41، 106 (7)التضامن بين البيض، 150 الحرب الأهلية، 38، 39، 112، 184، 185، 185 (ث) الحركات العنصرية، 45 الحرمان الكنسي، 59 الثورة الفرنسية، 25، 83، 93، 102، 154، الحزن، 182 179,178 (さ) (ج) الجامعة الأميركية في بيروت، 98 الخدم، 149 الجزائر، 123 الخمير، 132، 134، 135، 136، 155، 155، 157 الخمرية، 135، 136 الجمعية الطبية الأمركية، 145 الخوف من الآخر، 45، 143 الجمهورية المولندية، 75 الخيول، 149 ج أ أرمسترونغ، 20 خوسيه ريزال، 20، 65 جابر عصفور، 202 خوسیه غاسبار رودریفیز دو فرانسیا، 181 جاوة الفتاة، 129 خوسيه ماريا موريلوس إي بافون، 179 جبال البامير، 185 جزر الرياو، 42، 137 (2) جمهورية أفلاطون، 95 جمهورية الصين الشعبية، 50، 156، 197، داكار، 132، 135 203 دىلن، 112 دلتا الميكونغ، 135 جهورية كاتاغالوغان، 48، 151 جنوبي الأطلسي، 95 دوبريه، 56، 128 جنيف، 75، 151 دوق تر انسلفانيا العظيم، 62

دوق ترينت وبريزن، 62

جورج واشنطن، 185، 192

دوق توسكاني وكراكوف العظيم، 62 سايغون، 42، 134، 135، 136 سريلانكا، 57 الدول الاشم اكية، 19، 49، 157 الدين، 25، 26، 32، 33، 35، 43، 51، 57، سنفافورة، 130، 137 66، 67، 87، 30، 31، 140، 161 سون نغوك ثانه، 135 دیکارت، 61 سويسرا، 36، 43، 139، 141، 140، 192، 206 (ر) سيام، 22، 30، 42، 43، 69، 99، 116، 132، رابطة الشباب المسيحي، 129 191 ,177 ,174 ,166 ,165 ,160 ,141 السلاف، 97 راما السادس، 63 السنة، 35، 111، 179، 181، 194، 198، رانغون، 126، 129، 130 201 الرواية، 33، 64، 65، 66، 67، 68، 621، 165، 165 السنسكريتية، 95 167, 179, 185 سيرغى أوفاروف، 40، 108 روسو، 89، 202 السواحلية، 204 روسيا، 27، 40، 97، 99، 106، 108، 151، السويد، 196 206, 154 السويدية، 36، 98، 196، 197 رومانيا، 200 السيخ، 160 رينان، 29، 52، 155، 184، 184، 187 الروح الماكيافيللية، 79 السينما، 38، 193 الروس، 40، 108 الرَّوسَنَة، 40، 107، 108، 111، 125، 126، **(ش)** 149,127 شاترجي، 20، 203 الروسية، 36، 40، 97، 98، 108، 119، 121، شارنهورست، 63 200 شامىليون، 95 شاندور بَتوفي، 118 **(ز)** شبه الجزيرة الكورية، 57 زنجار، 177 شركة المند الشرقية، 110، 112، 162، 163 زيبابوي، 69 الشريعة، 164 الشيطان الأكبر، 60 (س) (**o** سان مارتن، 37، 83، 84، 102، 103، 146، الصين، 26، 41، 42، 49، 50، 75، 94، 114، 192 ,180 ,179 ,156 ساو باولو، 193، 195، 201

#### الجماعات المتخيَّلة . . .

غلنر، 24، 29، 52، 190، 191، 203 156 , 157 , 162 , 157 , 197 , 196 الفوطية المدارية، 150 غىنيا، 132، 168، 169 (**d**) الطلبان، 140 (ف) طوكيو، 113، 116، 192، 193، 195 فان دايك، 166 فتنبرغ، 34 (ع) فرانسوا الأول، 75، 76 المائلة الأنفلوساكسونية، 79 فرنسا، 22، 56، 62، 67، 99، 105، 116، العالم، 19، 20، 21، 22، 24، 26، 29، 31، 33 136, 154, 141, 135, 134 35، 36، 39، 42، 50، 51، 56، 57، 56، 35 فرنسس بيكون، 73 .77 .74 .73 .71 .70 .68 .65 .63 .62 فريدريك الأكبر، 63 ،151 ،138 ،115 ،112 ،94 ،93 ،90 ،85 فريدريك فلهلم الثالث، 63 .173 .168 .165 .164 .163 .154 .153 فنرويلا، 37، 82، 84، 91 177 178 179 179 180 190 194 202 فنوم بنه، 42، 134، 135، 136، 176 205، 203 فولتي، 61 العالم الحديد، 177، 178، 180 فيتنام، 26، 42، 49، 50، 136، 153، 155، العالم القديم، 178 192 ،190 ،157 العالم المسيحي، 57، 63 فيرنيك كارينسكي، 97 العبرية، 35، 95، 202، 206، 206 فيكتور أدلر، 120 العداء الهيراقليطي، 56 فيكتوريا فون ساكس-كوبرج-غوتا، 40 العراق، 69، 195 فيكو، 95 العرب، 24، 33، 35، 110، 177 فيليب الثاني، 161، 187 العربية الفصحي، 98 فيينا، 19، 41، 97، 110، 118، 119، 120، العصاب، 26، 51 203 المهد الفيكتوري، 116 الفاتيكان، 34، 75 عزمي بشارة، 23 الفرانكفورت زيتونغ، 193 علاء النين، 67 الفردوس، 19، 56، 144، 157 الفلبين، 44، 57 (3) الفنلندية، 98، 181، 201

(ق)

القاهرة، 164

الغانية، 43، 137

غاريبالدي، 107

غرترود شتاین، 51

القبيلة، 31 كولومبيا، 84، 85، 91 كيبتاون، 112 قبلاي خان، 59، 60 القديس بطرس، 60 الكونفوشية، 57، 133، 134 القرآن، 33، 58 (U) القومية الركية، 98 القومية الرحمية، 39، 41، 42، 45، 47، 105، اللاتفيين، 40، 108 107، 112، 113، 115، 116، 117، 112، 107 اللاتينية، 20، 29، 30، 33، 34، 35، 36، 38، 125 ,128 ,121 ,138 ,128 ,125 57، 58، 59، 60، 61، 63، 74، 75، 76، 76، 203,159 77، 78، 79، 28، 86، 95، 79، 78، 70، 100 101, 106, 110, 111, 111, 134, 180, 101 القومية الشعبية، 41، 42، 47، 107، 118، 126, 149, 157, 181 192, 190, 189 القومية اليونانية، 101 لاتىنىة فاسدة، 35 القيصرية، 40، 98، 107، 108، 114، 118، 206 ,180 ,156 ,121 ,119 لاوس، 42، 132، 134، 135 اللاوسية، 132 (일) لايوش كوشوت، 118 لشبونة، 89، 193، 201 الكاتالانية، 100، 183، 204، 206 للذا شُلَّ أعرَّ أصدقائي، 56 الكارما، 56 للذا وُلِدُتُ ضرير أَ؟، 56 كاراكاس، 90 لندن، 38، 62، 76، 77، 109، 110، 111، كارل دويتش، 192 167, 176, 178, 189, 192, 196, 203 كارلوس الثالث، 83 لويس الخامس عشر، 62 كالفن، 75 ليزلى فيدلر، 185 كالكوتا، 170 ليون، 20، 100، 175 الكريول، 37، 82، 83، 87، 88، 89، 90، 91، ليون ما غوريرو، 20 92, 111, 126, 151, 176, 178, 181 الكنيسة، 24، 33، 34، 58، 74، 75، 97، (4) 164 الماجيارية، 106، 117، 118، 119، 120، 181 كانبيرا، 112 المانيفستو، 197 كراهية، 45 ماجنداناو، 57 كمبوديا، 26، 154، 155، 157، 177 مارتن لوثر ، 34، 74 كوتونو، 135 مارغريف لوسيتز العليا والدنيا وفي إستيريا، كوريا، 41

#### الجماعات المتخبيلة . . .

الكسيك، 67، 68، 87، 90، 91، 94، 179، 62 204 ،195 ماركس، 25، 32، 40، 50، 51، 141، 196، اللايو، 99، 129، 130، 131، 137، 160، 202 164,161 ماركو بولو، 59، 60 الملكة السلالية الزاتبية، 53 ماس مارکو کارتودیکرومو، 68 الملكة الوسطى، 57، 58، 155، 162، 167، 177 ماكيافيلية، 107 الهت، 32، 71، 77، 85، 86، 144، 145، 202 مالي، 69، 70، 163 الوزمبيق، 43، 137 ماليزيا، 160، 206 الينغ، 177 مانشستر، 112 مانيلا، 66، 130، 163، 202 (ن) مدعلي، 36 نابليون، 40، 82، 83، 95، 102، 108، 179 مدريد، 37، 38، 82، 83، 84، 87، 90، 195 النيلاء، 86، 97، 99، 100، 101، 106، 118، مدينة هوشي منه، 190 مسقط، 177 162 مضائق ملقا، 130 نهاية عصر القومية، 25، 50 معركة القدماء والخَّدَثين، 94 نوح وبستر، 181 معركة كسب العقول، 75 نوفا ليسبوا، 175 نوفيل أورليانز، 175 معركة كورونا، 146 نيو أورليانز، 175 معركة كونيغراتز، 119 نيو زيلاند، 175 مقدونيا، 199، 206 نيوپورك، 146، 175 مكة، 57، 85، 164 النروج، 98، 196 مكسيكو سين، 89، 90 النمسا، 62، 99، 121، 122 ملك القدس، 62 النيويورك تايج ، 69، 70، 192 منظمة العفو الدولية، 145 النيويورك ريفيو أوف بوكس، 192 موسكو، 19، 156، 196، 201 مونتسكيو، 60 (**a**) ميروسلاف هروش، 20 الحيرة، 118، 119 المند، 19، 24، 40، 41، 42، 43، 49، 108، 110، 111، 112، 132، 133، 134، 135، الحيط المادي، 95 المرض، 56، 68 136، 137، 138، 160، 162، 163، 137، 136 السرح، 38، 80 192 المفول، 60 المند الصينية، 19، 24، 42، 49، 132، 133،

الولايات المتحدة، 22، 81، 91، 99، 102، 121، 136 ،135 ،134 المنود، 37، 41، 58، 68، 82، 83، 81، 111، 128، 178، 185، 191، 191، 192، 205، 182 ,179 ,146 ,122 206 ھانوى، 24، 132، 133، 135، 135، 136 ولايات النمسا العظمى المتحدة، 121، 122 وليم الفاتح، 31، 122، 184، 203 هنفاريا، 39، 62، 98، 100، 101، 106، 116، 116، 192 ,190 ,122 ,121 ,119 ,118 وليم بوني، 132 هولندا، 22، 30، 99، 127، 128، 131، 137، وليم جونز، 95، 170 196 وليم هنري سكوت، 161 هوليوود، 31 (ی) ھوي، 135 هيغل، 71، 82، 202 اليابان، 41، 57، 112، 113، 114، 115، 122، هيو سيتون-واطسن، 25، 50 136، 193، 206 الموساء 204 يانا غينوفا، 200

اليهود، 117، 190

يوغسلافيا، 50، 192، 194

اليونان، 96، 196، 199

(**و)** وايانغ أورانغ، 172

المير وغليفية، 95

First published by Verso 1983 First published by Verso 1983 This edition published by Verso 2006 © Benedict Anderson, 1983, 1991, 2006 new material © Benedict Anderson, 2006

All rights reserved

The moral rights of the author have been asserted

3 5 7 9 10 8 6 4

Verso
UK: 6 Meard Street, London W1F OEG
USA: 180 Varick Street, New York, NY 100144606www.versobooks.com

Verso is the imprint of New Left Books

ISBN-13: 9784-086-84467-1-ISBN-10: 14-086-84467-

British Library Cataloguing in Publication Data
A catalogue record for this book is available from the British Library

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data A catalog record for this book is available from the Library of Congress

# Imagined Communities Reflections on the Origin and Spread of Nationalism

**BENEDICT ANDERSON** Revised Edition





للمزيد من زاد المعرفة وكتب الفكر العالمي

اضغط ( انقر ) على الرابط التالي

www.alexandra.ahlamontada.com

## منتدى مكتبة الإسكندرية

في عصر انتشرت فيه تقليعة تحرر المثقفين التقدميين من القومية (خاصة في أوروبا القائمة على القوميات، وهي أكثر القارات قومية)، وذلك على مستوى الخطاب فقط، ويجرى فيه تأكيد طابع القومية شبه الرضي، وتُرجّعُ أصومًا إلى "الخوف من الآخر" و"كراهية الآخر"، "من المهيد أن نذكِّر أنفسنا بأنَّ الأمم تُلهم الحب، الذي غالبًا ما يكون عميقًا منطويًا على التضحية بالنفس". وكما أكدنا في البداية فإن مقولة المنظرين القوميين عن القومية ليست كلامًا إيديولوجيًا فارغًا، بل وصف لطبيعتها، فإذا كانت القومية علاقة انتماء لجماعة متخيلة فهي تتضمن الحب طبعًا. "أما مُنْتَجَّات القومية الثقافية من شعر ونثر قصصي وموسيقى وفنون تشكيلية فتُظهر هذا الحب بوضوح شديد في الاف الاشكال والاساليب. ومن جهة أخرى، كم من النادر حقا أن نحد منتجات قومية عاثلة تعبر عن الخوف والنفور. وحتى في حالة الشعوب المستعمرة، الت لديها مبرّر فعلى لأن تشعر بالكراهية تجاه حكامها الإمبرياليين، من المدهش أن نرى مدى الضالة الن يتسم بها عنصر الكراهية في هذه الضروب من التعبير عن الشعور القومي، وذلك في مقابل الكم المائل من أدب وفكر وفن الكراهية للأخر غير الاوروبي والمختلف (أو السلم في عصرنا) لدى فئات متنورة تدعى التحرر من القومية، في حين أنها تتنبى باسم نقد القومية أحد أسوأ أغاط القومية الرحمية الإمبر اطورية، الأمير كية مثلاً، وتعلن نفسها وصية على الأخرين من دون أن يتوافر لديها الحد الأدنى من المعرفة ناهيك عن التعاطف، وذلك عبر الصحافة ومؤسسات الدعم المشروط والمؤسسات غير الحكومية وغيرها. وبالمثل، فإنه إذا ما كان المؤرّخون، والدبلوماسيون، والسياسيون، وعلماء الاجتماع على الفة تامة بفكرة "المصلحة القومية"، فإنّ الميزة الأساس للأمة هي أنها بعيدة عن المصلحة. ولهذا السبب على وجه التحديد، عكن لها أن تطالب بالتضحيات. التضحية والشهادة تنبع من الحب لا من القوة والمصلحة. وكما قلنا أعلاه في فهم أهمية الحب والانتماء ليس فقط في حالة القومية. فإذا كانت اللبرالية الماركسية والاشتراكية منهجاً فإنها سرعان ما تكتشف أنه لا أحد يضحى ويناضل من أجل منهج علمي، وأن أهم ما فيها هو الإعان بها كقيم أو الانتماء الى جماعة، وهذا الإيمان هو الذي يدفع للنضال، وعندما يضيع الإيمان بها فإن المنهج يصلح لتأسيس مركز أبحاث أو حلقة نقاش أو للتحليل والتشخيص في خدمة هدف، ولكن المنهج من دون قيم وجماعة تؤمن بهذه القيم وينتمي اليها الناس لا يصلح لتأسيس حركة تسعى لتحسين الجتمع، ناهيك عن السعي لعالم أفضل.



على مولا



